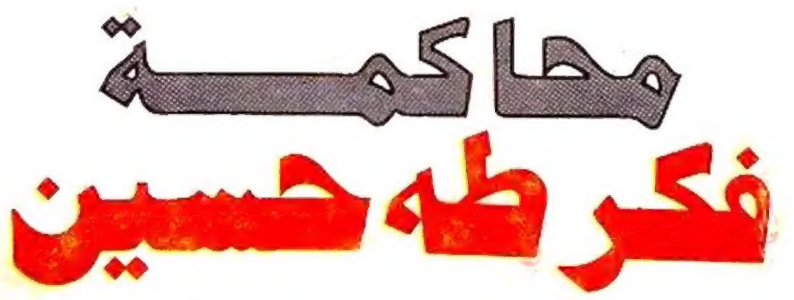


محاكمة فكر طه حسين

مراجعة كاملة لمؤلفات وكتابات طه حسين خلال
خمسين عاماً فى مواجهة ردود أكثر من أربعين عالما

أنور الجندى

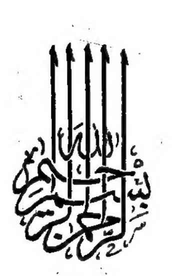
دار الاعتصام

أنور الجندى

محاكمة فكر طه حسين

مراجعة كاملة لمؤلفات وكتابات طه حسين خلال
خمسين عاماً فى مواجهة ردود أكثر من أربعين عالما

محاكمة
فكر طه حسين



بسم الله الرحمن الرحيم

ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين

وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا

(سورة لقمان آية ٦ ، ٧)



بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

مدخل إلى البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين ، ونستفتح بالذى هو خير :

أعتقد أنه ليس من الممكن أن نفهم الفكر الإسلامى المعاصر والتحديات التى تواجهه وما يمر بالمجتمع الإسلامى من أحداث وأخطار وتحديات دون أن نفهم هذه المرحلة الأساسية من الغزو الثقافى والتغريبى ، والدور الذى قام به هذا الجيل الذى احتضنته المعاهد الغربية التى أنشئت خاصة فى أوروبا لإعداد دعاة من العرب يتولون عنها احتواء الشباب المسلم والعربى المثقف وإخراجه من دينه وقيمه ومفاهيمه وإدخاله فى هذه البوتقة الغربية الخطيرة التى يسمونها الفكر العالمى ، الفكر الحر ، الحضارة العالمية ، وقد كان الدكتور طه حسين فى مقدمة هذا الفريق الذى التقطته هذه القوى فى هذه المرحلة المبكرة قبل الحرب العالمية الأولى وفى الوقت الذى كان النفوذ الثقافى الفرنسى الذى تشكل منذ الحملة الفرنسية وإبان حكم محمد على وأولاده ما زال قائماً والذى تولته الجامعة المصرية القديمة بأساتذتها المستشرقين الذين كانوا حريصين على إغراء أمثال هؤلاء الذين عجزوا عن إتمام تعليمهم فى الأزهر فكانوا — بالاتفاق مع صحافة حزب الأمة وجريدة (الجريدة) وعلى رأسها لطفى السيد — حرباً على الأزهر والأزهريين فى منطلق جامع بين التعليم وعلى رأسه سعد زغلول والصحافة وفى قيادتها لطفى السيد لفتح باب التغريب واسعاً ، وكان طه حسين من أعظم ثمار هذه المرحلة الخطيرة فكان أن عاد من أوروبا عام ١٩١٩ فأمضى حتى عام ١٩٧٢ أكثر من خمسين عاماً وهو يعمل فى الحقول الثلاثة (الصحافة — التعليم — الثقافة) فاتحاً تلك الأبواب الواسعة فى مجال الشعر والنثر والقصة والترجمة ومناهج المدارس وعلوم الجامعات ، والاتصال

بالأحزاب السياسية ، وكتابة السيرة ، وتاريخ الإسلام وتراجم الأعلام ، وطرح عشرات القضايا والشبهات والشكوك أمام دراسات الإسلام وتاريخه ، والقرآن وقضاياه واللغة العربية ومهمتها ، والأدب العربي وعلاقته بالآداب الأجنبية من منطلق خطير هو منطلق التبعية الواضحة للفكر اليوناني في القديم والفكر الغربي في الحديث والمعاصر .

ومن خلال مدارس العلوم الاجتماعية التي يقودها اليهود في فرنسا ، إلى مدارس الاشتراكية والديمقراطية والفن للفن والوجودية والتمثيل والرقص والحوار بين الإسلام والمسيحية .

هذه المرحلة التي سيطر فيها طه حسين على الأدب العربي والفكر والثقافة في مصر خلال أكثر من خمسين عاماً ، لا نستطيع أن ندرس واقعنا المعاصر اليوم ، في مجال الفكر والسياسة والاجتماع والتربية دون أن نتعرف إلى أبعاد الدور الذي قام به من خلال كتاباته وآثاره ومؤلفاته .

ونحن نتصور الدكتور طه حسين واقفاً أمام قفص الاتهام يواجه قوائم الاتهام تهمة بعد تهمة ، مستنداً على أسلوبه الموسيقي الخادع ، وعلى منهجه الساحر المليء بالشك والارتياب ، وعلى طريقته القائمة على (التمويه) و (المراوغة) وقد اعتمد في كل ما قدمه على سرقات مفضوحة من كتب المستشرقين وعلى دعوات كاذبة من كتب المبشرين ، وعلى آراء فجة من كتب الشعوبية في سبيل إغراء ذلك الشباب المسلم الذي وقع فريسته سواء في الجامعة أم في الصحافة فإذا بالسهام تنهال عليه تفضح خطته وتكشف زيفه وتدحض حجته .

ها هي عشرات الاتهامات وهؤلاء هم القائمون عليها ، قضية بعد قضية وموقفاً بعد موقف وكتاباً بعد كتاب وقد تبدى للناس من وراء القضبان وقد غابت عنه الفطنة لأن الفطنة مع الحق وغاب عنه الذكاء لأن الذكاء مع الصدق وغاب عنه الإيمان ، وقد بدا وقد التبس به شيطان مريد يضلل به الناس إلى حين .

وقد كان كثير من هؤلاء الذين يتهمونه اليوم تلاميذ له وسامعين ومذعنين في أول الأمر ، ولكن الباطل قصير الأمد ، ضيق الطريق ، مغلق الوجهة ، وكان لا بد أن يتكشف الأمر عن الحق الذي لا محيص عنه .

وما أردنا بهذا العمل إلا ما طلبه منا ربنا تبارك وتعالى ودعانا إليه ديننا الإسلامى ووجهنا إليه نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم فى خالفتهم حتى تقوم الساعة » وإن الأمر الجلل والأشد خطورة هو أمر هذه الأجيال التى ما زالت تقرأ كتب طه حسين وأمر الأمانة التى نحملها جميعاً أمام هذه الأجيال لأن نقول لها كلمة الحق ، ولطالما سأل الباحثون فى قضية من القضايا التى أثارها طه حسين : هل كتب فى الرد عليها كاتب ، وكان أغلب ذلك منثوراً فى بطون الصحف والمجلات إلا قليلا ممن جمعه أصحابه أمثال : فريد وجدى ولطفى جمعة والرافعى ومحمد عرفة والغمراوى ، ولكن جاء من بعد ذلك جيل جديد فيه رصانة وقوة وإيمان فحمل اللواء وناضل وكانت مجلة الفتح ميداناً واسعاً لهذه المعارك ، وكانت أقلام محب الدين الخطيب بعد رشيد رضا فى المنار — ومحمد محمد حسين وشاكر والغمراوى سيوفاً باترة من سيوف الحق تدحر الباطل وفى هذه المرحلة ظهرت أسماء عديدة .

* * *

ثم جاءت هذه المرحلة التى بدأت بظهور كتابنا (طه حسين : حياته وفكره فى ميدان الإسلام) سنة ١٩٧٥ وهذه فترة لن نؤرخها اليوم ولكنا نشير إشارات يسيرة إلى ما ظهر فيها :

١ — ظهر كتاب (طه حسين مفكراً) للدكتور :

٢ — ظهر كتاب (المتنبى) للأستاذ محمود محمد شاكر مجدداً وبه مقدمة وافية .

٣ — ظهر كتاب (مدخل إلى الأدب والتاريخ العربى) للدكتور محمد نجيب البهبيتى .

٤ — ظهر كتات طه حسين فى رأى المفكرين والأدباء للأستاذ محمد مهدى الأستانبولى .

كما كتبت عشرات المقالات والفصول التى كشفت جوانب حقة من هذه الشخصية المثيرة .

ولكنا نعرف أنه لا يزال علينا مسئولية كبرى فى تقديم طه حسين إلى محكمة

الرأى العام لتواجهه فى مختلف قضاياه ومؤلفاته قضية قضية وكتاباً كتاباًأو نكشف هذه السموم ونجمع هذه الردود المتعددة وندل على مصادرها حتى يكون فكر طه حسين والرد عليه متكاملا ، فى قدر واضح من العرض والإجابه ، وعلى من يطلب التفاصيل الواسعة فعليه بأن يعود إلى المصادر التى نشر فيها وبذلك يتحقق الهدف وهو تقديم القضايا الهامة التى حرد منها طه حسين على حقائق الإسلام والتاريخ والأدب العربى وحقيقة الأمر فيها ولله الحمد والمنة على فضله فى حصر هذا العمل وإنجازه :

* * *

(٢)

عمل طه حسين فى ثلاث مجالات واسعة

عمل طه حسين فى ثلاثة مجالات واسعة :

١ – الأدب العربى واللغة .
٢ – تاريخ الإسلام والسيرة .
٣ – الفكر الإسلامى .

وفى المجالات الثلاثة أثار سموم الاستشراق وأفسد مفاهيم الأصالة وأحيا روح الشك الفلسفى ، وهدم جميع القيم الأخلاقية والاجتماعية التى أقامها الفكر الإسلامى .

وقد أطلق لنفسه سبيل الاندفاع لتشويه وجه الفكر الإسلامى بإثارة الشبهات وإذاعة أدب المجان والفساق والجنس ، وتزييف اللغة الفصحى ، وإعلاء شأن الفكر اليونانى القديم والغربى الحديث فى جوانبه المادية والوثنية والإباحية وترجم القصص الفرنسى الداعر .

وهو فى كل هذا كان عميلا للتغريب خاضعاً للغرب تابعاً للنظريات الغربية ووليا من أولياء الاستشراق ، كان أول من نقل سموم مرجليوث فى الشعر الجاهلى وجولدسيهر فى العقيدة والشريعة وبلاشير فى تدمير المتنبى ،ودور كايم فى تقزيم ابن خلدون .

وقد كان منهجه فى عمله كله ، أن لا منهج : الفوضى والاستعلاء وإثارة الشكوك نحو الحقائق الأصلية والسخرية من كل القيم الأساسية

وما ظنك برجل يدعى : أن الإسلام قد بقى على هامش حياة المسلمين .

وما ظنك برجل يدعى : أن الدين خرج من الأرض كما خرجت الجماعة ولم ينزل من السماء ، .

وما ظنك برجل يدعو طلبته إلى أن ينقدوا « القرآن » فى جرأة بوصفه كتاباً أدبياً ، ويبينون ما يأخذونه عليه .

وما رأيك فى رجل أعاد الأساطير إلى السيرة النبوية بعد أن نقاها منها علماء المسلمين .

وما رأيك فى رجل أولع بتعقب الزناة والفساق والفجرة كما وصفه الأستاذ المازنى فى كتاب حديث الأربعاء .

وما رأيك فى رجل يقول : إن العصر الثانى للهجرة عصر شك وفسوق اعتماداً على وجود أمثال : (أبو نواس وبشار) فيه مع أن فيه عشرات من أعلام الفقه والعقيدة والعلم الإسلامى ، .

وما رأيك فى رجل يدعونا أن نأخذ الحضارة الغربية خيرها وشرها وحلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب .

وما رأيك فى رجل ينكر وجود (عبد الله بن سبأ) اليهودى فى الفتنة التى انتهت بقتل سيدنا عثمان إرضاء للصهيونية .

وما رأيك فى رجل ينكر وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من أن القرآن قد ذكرهما .

وما رأيك فى رجل يعتبر الفتح الإسلامى لمصر استعماراً كاستعمار الرومان والفرس والإنجليز .

* * *

(٣)

مجموعة حقائق تقدمها سيرة طه حسين تكشف وجهته

أولا : ازدواجية الشيء وضده فى أعماقه :

يقول : إن الإنسان يستطيع أن يكون مؤمناً وكافراً فى وقت واحد ، مؤمناً بضميره كافراً بعقله ، فإن الضمير يسكن إلى الشئ ويطمئن إليه فيؤمن به . أما العقل فينقد ويبدل ويفكر أو يعيد النظر من جديد فيهدم ويبنى » .

هذا المفهوم أورده الدكتور طه حسين نقلا عن كتاب اللاهوت الذين قالت لهم المسيحية : (آمن ثم ابحث) وليس من مفهوم الإسلام فى شيء .

وقد طبق هذا المفهوم حين سئل عن قصة إبراهيم وإسماعيل وورودهما فى القرآن الكريم فقالت : إنه كمسلم لا يرتاب فى وجودهما ولكنه كعالم لا يسلم بوجودهما .

وفى تصريح آخر قال أن هناك أربع مسائل يؤمن بها بصفته مسلماً ولا يقرها بصفته عالماً : وجود إبراهيم وإسماعيل وهجرتهما ، والقراءات السبع للقرآن ، إن للإسلام سابقة وجود فى البلاد العربية ، نسب النبى إلى أشراف قريش (فى إجاباته فى التحقيق مع النائب العام) .

ثانياً : القدرة على الجمع بين ظاهر معلن وباطن ومختف ، قال زكى مبارك : إن طه حسين اعترف أمامى فى جلسة خاصة بأنه يعتقد أن أحمد شوقى هو أعظم شعراء العربية بعد المتنبي ولكنه فى جميع كتاباته لا يقر هذا الرأى بل يعلن عكسه تماماً .

قال الدكتور محمد غلاب : ألا ترى أنه من الظلم حقاً أن تكون للنقاد عندنا فى مصر عقيدتان مختلفتان وإيمانان متباينان ، واحد للكتابة فى الصحف والثانى : للجلسات الخاصة ، وأن بواعث النقد عندنا ليست إلا أغراضاً شخصية ومآرب نفسية .

هذا التوزع يجعل من طه حسين إنساناً مزدوج الشخصية مريضاً بما يشبه الانفصام يتعايش فى شخصه عالمان منفصلان انفصال الزيت عن الماء .

ثالثاً : ظاهرة التمويه والمراوغة بين قول الشيء وضده :

وهى ظاهرة تجدها عند كل المشككين ودعاة الإلحاد أمثال : ابن عربى والمعرى وطه حسين ، وهى محاولة قول أشياء معينة واضحة قويمة لتكون ردءاً للدفاع عن النفس بإزاء الآراء المسمومة والأفكار المنحرفة، ومن هذه الكلمات المصنوعة بعناية تجد الكاتب من يدافع عنه أو به يخدع الذين يريدون أن يكشفوا زيفه فبالرغم من كل ما حمل لواءه ابن عربى من فساد فى نظرية وحدة الوجود والحلول والاتحاد أو المعرى فى شكوكه وشبهاته وترديه فى مفاهيم علم الأصنام اليونانى وطه حسين فى دعاواه الباطلة فإنك تجد عند كل منهم عبارات رائعة تحاول أن تساير مفهوم الإيمان والأصالة .

* * *

(٤)

لقد حاولنا فى هذا الكتاب تحقيق تلك الغاية التى تفوق كل الغايات وهى ما تنادينا به (تبعة الأجيال) ومسئولية أمتنا إزاء ذلك الركام الضخم الذى ما زال بين أيدى الناس مطبوعاً ومنشوراً ، كان علينا أن نواجه المسئولية إزاء ما يحمله فكر طه حسين إزاء الأجيال المتعاقبة بعد أن مضى صاحبه وفكره ما زال مطروحاً بين أيدى الشباب بكل ما فيه من تناقض وسموم وشكوك وشبهات ، لقد كان على الدكتور طه حسين أن يقف من هذا التراث موقفاً يسأل فيه من محكمة الرأى العام الإسلامى عن كل ما قدم وأن يعرف مسئولية الكلمة وأثر الكلمة فى الأجيـــال ، كان عليه أن يعلن آراءه التى أسر إلى بعض الناس أنه تجاوزها وهى ما تزال باقية فى طبعاتها تثير الشكوك والريب فى صدور الشباب المسلم فكان علينا أن نوضح ذلك ونكشفه .

* * *

قرارات الاتهام المقدمة أمام محكمة الرأى العام الإسلامى

أولا : القول ببشرية القرآن وإنكار القراءات .

ثانياً : التناقض بين نصوص الكتب الدينية وما وصل إليه العلم وقوله :

إن الدين لم ينزل من السماء وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها :

ثالثاً : إثارة الشبهات حول ما أسماه القرآن المكى والقرآن المدنى وهى نظرية أعلنها اليهودى : جولدزيهر .

رابعاً : تأييد القائلين بتحريق العرب الفاتحين لمكتبة الإسكندرية .

خامساً : انتقاص صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفهم بأنهم من الساسة المحترفين .

سادساً : هدم الفصحى من ناحية الإملاء ومن ناحية النحو ومن ناحية هدم البلاغة العربية .

سابعاً : الحملة على الإسلام من خلال الأزهر وإهانته والدعوة إلى إلغائه .

ثامناً : الترويج للفكر الوثنى اليونانى والادعاء كذباً بأن المسلمين قبلوه وشكلوا عليه فكرهم .

تاسعاً : إشاعة الأسطورة فى سيرة الرسول بعد أن نقاها المفكرون المسلمون منها والتزيد فى هذه الإسرائيليات فى كتابه (على هامش السيرة) .

عاشراً : تدمير بطولات العرب والإسلام وإعلاء بطولات اليونان والرومان

حادى عشر : اعتماد المصادر المشبوهة : كالأغانى ورسائل إخوان الصفا .

ثانى عشر : إقرار مفاهيم كنسية حول الإسلام ووصفه بأنه دين التراتيل الوجدانية .

ثالث عشر : إحياء التراث الزائف : تراث الباطنية والشك الفلسفى .

رابع عشر : معارضة مادة الإسلام دين الدولة فى الدستور المصرى .

خامس عشر : الدعوة إلى الأدب المكشوف والإباجى بإحياء شعراء الغلمة وترجمة القصص المكشوف .

سادس عشر : الدعوة إلى الفرعونية والتركيز على إقليمية مصر .

سابع عشر : الدعوة إلى حضارة البحر الأبيض المتوسط لحساب بعض القوى الأجنبية والادعاء بأن المصريين غربيو العقل والثقافة .

ثامن عشر : دعوى فصل الأدب عن الفكر الإسلامى واللغة عن الفكر الإسلامى والأدب العربى .

تاسع عشر : الدعوة إلى فصل الدين عن المجتمع والتربية .

عشرون : انتقاص الحكومة الإسلامية الأولى وخلافة الراشدين .

واحد وعشرون : اتهام القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون فى كتاب حديث الأربعاء .

ثانى وعشرون : كسر قاعدة ترابط الأدب العربى والفكر الإسلامى كمقدمة لدفع الأدب العربى إلى ساحة الإباحيات والشك وغيرها باسم تحريره من التأثير الدينى .

ثالث وعشرون : الدعوة إلى اقتباس الحضارة الغربية (حلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب) فى كتابه (مستقبل الثقافة) .

رابع وعشرون : الولاء للفكر الفرنسى ثم الفكر الأمريكى .

خامس وعشرون : محاولة إعطاء اليهود فى الأدب العربى مكانة وهمية وغير حقيقية .

سادس وعشرون : إنكار شخصية عبد الله بن سبأ اليهودى وتبرئته مما أورده الطبرى ومؤرخو الإسلام من دور ضخم فى فتنة مقتل عثمان (الفتنة الكبرى) .

سابع وعشرون : إذاعة مذهب الشك الفلسفى والادعاء على ديكارت .

ثامن وعشرون : إفساد مناهج التربية والتعليم فى وزارة التعليم والجامعات

تاسع وعشرون : الادعاء بأن الشاعر العربى المتنبى (لقيط) هادماً بطولته ومكانته .

ثلاثون : اتهامه الخطير لابن خلدون بالسذاجة والقصور وفساد المنهج وهو ما نقله عن أستاذه اليهودى (دوركايم) .

إحدى وثلاثون : إنكار وجود سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل وإنكار رحلتهما إلى الجزيرة العربية وإعادة بناء الكعبة على نفس مفاهيم الصهيونية .

هذه أبرز الشبهات التى أوردتها كتب الدكتور طه حسين وكتاباته وقد واجهتها أقلام الكتاب فى عصره مواجهة حاسمة وكشفت زيف هذه الادعاءات.

ولم يرجع الدكتور طه حسين عن رأى واحد منها ولا تزال هذه السموم باقية ومؤلفاته وكتبه متداولة ، ولقد هزم هذا الفكر الاستشراقى التبشيرى هزيمة منكره وطه حسين ما يزال على قيد الحياة ،لقد ووجه طه حسين بالرفض والمخاصمة والانتقاض فى فكره ، وحرقت كتبه فى بعض العواصم العربية وأرسل إليه كثير من المفكرين بما يكشف عن زيفه وجاءت مؤتمرات تكريم ابن خلدون وكتابات تكريم المتنبى لتكشف فساد رأيه فيهما وزيفه وضلاله .

* * *

الباب الأول

الأدب العربى واللغة العربية

الفصل الأول	:	منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين .
الفصل الثانى	:	الأدب العربى : تأريخه ونقده .
الفصل الثالث	:	أدب المجان والجنس والإباحة (حديث الأربعاء) .
الفصل الرابع	:	أخلاقية الأدب .
الفصل الخامس	:	الترجمة .
الفصل السادس	:	نقد الشعر .
الفصل السابع	:	القصة .
الفصل الثامن	:	اللغة العربية .
الفصل التاسع	:	النحو .
الفصل العاشر	:	الأثر الإغريقى اليونانى فى الأدب العربى .
الفصل الحادى عشر	:	كتابا (الشعر الجاهلى) و (الأدب الجاهلى) .

* * *



الفصل الأول

منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين

يمكن تشكيل منهج الدراسة الأدبية عند طه حسين فى جملة عناصر أساسية أهمها :

أولا : اعتماد المنهج التجريبى على الإنسانيات ودراسة الإنسان كما يدرس النبات وترتيب الشخصيات الإنسانية فيما بينها على نحو ما يصنع علماء النبات فى ترتيب الفصائل النباتية المختلفة. (على النحو الذى سلكه الناقد الفرنسى سانت بيف).

ثانياً : لا اعتبار للفرد أساساً : وإنما الفرد أثر من آثار الأمة التى نشأ فيها أو من آثار الجنس الذى نشأ فيه وأن أخلاقه وعاداته وملكاته هى نتيجة للمؤثرين الذين تخضع لها : المكان وما يتصل به من حالة الإقليم والجغرافيا ، الزمان وما يستتبع من الأحداث المختلفة سياسية أو اقتصادية ، فالكاتب أو الشاعر أثر من آثار الجنس أو البيئة والزمان وعن المؤثرات التى أحدثتها هذه العوامل بصدر الكاتب فيما كتب أو نظم (مفهوم الناقد الفرنسى تين) .

ثالثاً : إخضاع فنون الأدب لنظريات النشوء والارتقاء والتطور خضوع الكائن الحى ، (نظرية الناقد برونتير) .

يقول الدكتور سامى الدروبى : إن منهج الدكتور طه حسين فى النقد الأدبى هو المنهج الاجتماعى : منهج مدرسة الاجتماع الفرنسية وأعلامها من أمثال : دوركيم وليفى بريل وغيرهما ودوكيم وليفى بريل لا يعنون بالأدب إلا كمرآة تلمع .

وهذه الأسس التى اعتمدها طه حسين منهجاً له مدحوضة فاسدة لعدة أمور :

الأول : إخضاع الإنسان والعلوم الإنسانية للعلم الطبيعى .

الثانى : تجاهل العناصر التى يتكون منها الكيان الإنسانى وقصرها على الجوانب المادية وحدها وحجب عناصر العواطف والمعنويات والروحانيات

وأثرها البالغ على تصرفات الإنسان .

الثالث : إنكار إرادة الإنسان ومسئوليته الفردية وإخضاعه لجبرية جماعية لا تعفيه من المسئولية والالتزام الأخلاقى .

الرابع : إدخال الآداب والعلوم الإنسانية فى دائرة الفلسفة المادية الخاضعة لمفهوم الطبيعة التى لا تعترف بالخالق ولا تخضع له .

الخامس: فصل الأدب عن الفكر ومنحه حرية مرفوضة للاندفاع نحو تصوير الغايات الشاذة والجنسية والإباحية وإنكار أخلاقيات الأدب والحياة والارتباط بالمفهوم العام الأصيل الجامع .

السادس: فتح الطريق إلى الأهواء التى يخضع لها الكاتب والناقد والتى من شأنها أن تصدر أحكاماً جائرة وفاسدة .

ولقد رأى طه حسين أن مذهبه هذا الذى نقله من الأدب الفرنسى مع استمرار الزمن لم يعد صالحاً لعدة أسباب :

أولاهـا : تغير النظريات العلمية مع الزمن .

ثانياً : إن التطبيق جرى فى بيئة مختلفة تمام الاختلاف مع أدب له ذاتيته الخاصة التى شكلتها عقيدته وقيمه التى تختلف عن الأدب الفرنسى .

ولذلك فإنه كان دائماً يحاول الإضافة إليه والحذف منه فى سبيل المواءمة مع النظريات المختلفة التى يطرحها العلم والفلسفة والتى يتكشف تغايرها واضطرابها لأنها ليست حقائق علمية بقدر ما هى فرضيات قابلة للصحة والخطأ .

هذا فضلا عن الاختلاف العميق الواسع بين مفاهيم الأدب العربى الذى صنعه الإسلام الذى يتميز :

١ — بالربط بين القيم وبجعل الأدب جزءاً من الفكر الإسلامى .

٢ — يتميز بالتكافل الجامع بين قيم الروح والمادة والنفس والجسم والدنيا والآخرة .

وطه حسين فى كل ما كتب لم يستطع أن يتخلص من الهوى ولم يستطع أن يقدم نقداً علمياً خالصاً ، ومواقفه من المعرى والمتنبى فى القديم وأحمد أمين ومصطفى الرافعى فى الحديث تؤكد ذلك .

والأخطر من هذا كله أن طه حسين لم يكن تخصصه فى الأدب وإنما هو

قد درس التاريخ الروماني في باريس، ولكنه حين كلف بتدريس الأدب العربي في الجامعة تكشف أمره عن عجز كبير ، لم يستره إلا السطو على مؤلفات المستشرقين ولعل أقرب الناس إليه فهماً هو تلميذه زكي مبارك الذي صحبه سنوات طويلة حين يقول :

إني أراه قليل الصلاحية للأستاذية في الأدب العربي لأن اطلاعه على الأدب ضئيل جداً ويعرف أني أشهد له بالبراعة في تأليف الحكايات ، إن من العجيب في مصر بلد الأعاجيب أن يكون طه حسين أستاذ الأدب العربي في الجامعة المصرية وهو لم يقرأ غير فصول من كتاب الأغاني وفصول من سيرة ابن هشام . إن كلية الآداب ستؤدي حسابها أمام التاريخ يوم يقول الناس إن أستاذية الأدب العربي كانت هينة إلى هذا الحد ، وطه حسين نفسه يشهد بصدق ما أقول . إن الأستاذية في الأدب العربي عبء ثقيل لا ينهض به إلا الأقلون ، وهي تفرض الاطلاع الشامل على خير ما أبدع العرب في خمسة عشر قرناً وهي تفرض البصر الثاقب بأصول الأساليب وهي تفرض الفناء المطلق في التعرف إلى فحول الكتاب والخطباء ، وطه حسين ليس من كل أولئك في قليل أو كثير .

هذا رأي زكي مبارك في طه حسين وهو رأي قائم على معرفة واسعة عميقة مهما صحب إعلان هذا الرأي من تفجر الخلاف بينهما — يقول زكي مبارك في بحث آخر (١٧ مارس سنة ١٩٣٣ البلاغ — :

لقد صحبت هذا الباحث عشر سنين كانت خير ما مر بي من طيبات الحياة وعشنا معاً أياماً فيها الحلو والمر والشهد والصاب وجمعت بيننا ذكريات لا يجحدها إلا لئيم، لقد كتبت للبلاغ كلمة مسمومة عن الأغلاط الثلاثة التي وقعت في محاضرته عن شعر البحتري ، وأراني مع الأسف الموجع عائد إليه اليوم ، ولقد لاحظنا أن الدكتور لم يدرس ديوان البحتري حق الدرس ، هذا الكسل خطر جداً على مركز رجل كالدكتور طه حسين ، فإن ديوان البحتري يقع في نحو ثمانمائة صفحة ولم يخرج القصائد التي عرض لنقدها عن الصفحات الأولى من ذلك الديوان ، هذه الطريقة السطحية في وزن أقدار الشعراء لا تليق برجل كان رئيس قسم اللغة العربية في كلية الآداب ، ولو

تصفح الدكتور ديوان البحترى كله لكان له رأى فى شعره غير رأيه الذى انتهى إليه من الوقوف عند المعانى والألفاظ .

وعذر الدكتور أنه لم يقصد من تلك المحاضرات إلى الاستقصاء وإنما هى ساعة يتحدث فيها عن شاعر فيلهى سامعيه بجولات سريعة . ولقد ظلم الدكتور شعر البحترى ظلما شديداً ومصدر هذا الظلم أنه وقف فى نقده عند الطريقة العتيقة فى النقد فأخذ يمتحن شعره بيتاً بيتاً .

وكنا نحب أن يذهب فى نقد الشعر مذهب تلميذه صاحب نظرية الصور الشعرية فإن ذلك المذهب أصلح المذاهب لوزن قصائد الشعراء وهو مذهب يعتمد على نقد الغرض لا نقد المعنى ، وأهم الجوانب فى شعر البحترى هو الوصف ؛ وقد أغفل الدكتور هذا الجانب إغفالا تاماً ولم يشر إليه بكلمة واحدة ، ولا أدرى كيف يتحدث الباحث عن شعر البحترى ويغفل أهم ميزة من ميزات ذلك الشاعر : فليت الدكتور طه حسين يعود إلى البحترى فينصفه ولا ريب أن هذه الشهادة تكشف بوضوح عن أن هوى طه حسين هو المتحكم وليس المذهب النقدى .

وقد أوغل طه حسين فى هذا الهوى أكثر وأكثر ، ذلك أنه ما إن كتب زكي مبارك يقول : « الدكتور طه حسين يغلط خمس مرات فقط فى محاضرة واحدة ، حتى يعمد طه حسين إلى هذه الأغلاط ، فيشكلها فى كتابه الذى نشرت فيه المحاضرة ، ويقول زكي مبارك له : كأنك لا تعبأ بأى نقد يوجه إليك فما الذى كان يمنع من تدارك هذه الأغلاط .

ويروى حادثاً آخر يؤكد هذه الوجهة الخاطئة :

حدث فى صيف عام ١٩٢٩ أن أنكرت على أن اتخذ شواهد لتطور النثر الفنى من رسائل عبد الحميد بن يحيي وقلت لى : إن عبد الحميد بن يحيي شخصية خرافية كشخصية امرئ القيس، وكانت حجتك أن عبد الحميد ابن يحيي لم يرد اسمه فى مؤلفات الجاحظ فرجعت إليك بعد أيام وأخبرتك أن الجاحظ تكلم عن عبد الحميد بن يحيي مرات كثيرة فلم تجب بحرف واحد

ثم ألقيتَ — وأنا فى باريس — محاضرة قلت فيها : (إن عبد الحميد بن

يحيى أخذ أشياء من أدب اليونان وفاتك أن ينص على اسم الرجل الذى أقنعك بأنه لم يكن شخصية خرافية) .

وهذا مغمز آخر فى افتراق طه حسين عن المنهج .

ويمضى زكى مبارك فى كشف هذا الجانب الخطير فى شخصية طه حسين : قال :

الرجل يعيش فى أبحاثه عيش الحيران ينقض اليوم ما أبرم بالأمس ، لأنه لا يصدر فى أبحاثه إلا عن المصادفات ولم يتفق له أن يشغل نفسه شغلا جدياً بعمل مفيد ، وهو يختطف كل ما يراه فى طريقه من الآراء ، ولا سيما الآراء التى تصله من بلد بعيد ويستطيع أن يجزم بأنه لا يتشيع لأى فكرة إلا وهو فيها تبع لشخصية يتوهم أنها مستورة عن الناس ، ولكنه فى هذا سيئ الحظ ففى مصر رجل يعرفه كما يعرف نفسه ، وهذا الرجل صحب المستشرقين أكثر مما صحب وهو يعرف من أقوالهم أكثر مما يعرف فليس بغريب أن نرى الدكتور طه مطوقاً بتهمة السرقة الأدبية فى أغلب ما ينشر من آراء .

منذ سنين حاول أن يثبت أن العرب لم يكن لهم نثر فنى وأنهم لم يجيدوا الإنشاء إلا حين اتصلوا بالفرس وأن أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل ، نشر هذا الكلام فى مجلة المقتطف وسرقه من المسيو مرسيه فكشفت هذه السرقة فى ترفق فغضب الرجل وأسرها فى نفسه ، والحق أن الدكتور طه كان يأمن عواقب هذه السرقة الأدبية لأن كلام مسيو مرسيه كان قد نشر من زمان فى مجلة مجهولة يندر أن يهتم بها المصريون ، وهى المجلة الإفريقية التى تصدر بالفرنسية فى مدينة الجزائر ولكن الله هدانى إلى تلك المجلة فكشفت بها سرقة ذلك الأستاذ الأمين .

ماذا حدث بعد ذلك ؟ أخذ الدكتور يتراجع ويتقهقر فى انتظام بديع وقد تنبه الدكتور طه إلى أن الشعوبية كان لهم دخل فى تقديم الفرس على العرب ، ولو أنه شاء أن يفهم لعرف أن الشعوبية لا يزالون أحياء وأن لهم بقية تعيش فى القرن العشرين ، ومن بقايا الشعوبية فى القرن العشرين مسيو مرسيه الذى يقــول : بأن العرب لم يكونوا يعرفون النثر فى الجاهلية ولا فى صدر الإسلام وأن التفكير المنظم لم يجيئهم إلا عن طريق الفرس وأن

أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل ، وأنت يا دكتور طه شعوبى مقلد . .) .

نقول : وهكذا نجد أن الدكتور طه لا يثبت أساساً على رأى ، فهو فى موضع معين لإرضاء قوم معينين يثبت أن الفرس هم أصحاب الفضل على العرب ، وفى موضع ثان يدعى أن اليونان هم أصحاب الفضل ، المهم أن العرب عنده مدانون ، مقهورون ، ولو شاء أن يبتغى طريق الحق لعرف أولية العرب فى هذه الفنون وفضلهم الذى استمدوه أساساً من القرآن الكريم .

ويقول زكى مبارك : (إن ما ذهب إليه مرسيه وتبعه طه حسين من جهل العرب للنثر الفنى حتى ظهر عبد الحميد وابن المقفع ، هو خطا ، فليس صحيحاً أن العرب لم يكونوا يعرفون من النثر غير الخطب وأسجاع الكهان والأمثال . ولقد كان العرب كلفين بروعة التعبير ولتعرفهم فى لحن القول) ولهذا كانت معجزة النبى صلى الله عليه وسلم من جنس ما تميزوا به وهو بلاغة المنطق وروعة التعبير وساحر البيان ، نعم كان القرآن الكريم هو المعجزة العظمى ، هو البيان هو الذى شد العرب فتطامنوا لبلاغته ، فالقرآن هو ذروة البيان العربى وقد نزل بلسان عربى مبين كما يصفه الله تعالى) .

ولأن طه حسين لم يتشكل فى ضوء بلاغة القرآن الكريم ولم يعرف أبعادها وآثارها فى الأدب العربى والفكر الإسلامى أساساً ، وإنما عرف منهج الغرب فى نقد الأدب العربى والفكر الإسلامى ، وهو المنهج القائم على أساس الإثبات بكل الوسائل إنهما متأثران بالفكر اليونانى والفارسى ، فإنه لم يستطع أن يعرف كيف يواجه التراث الإسلامى مواجهة حقيقية أصيلة ، فقد خدع بنظرية المستشرقين التى يقول : إن الفكر الإسلامى تأثر بالأدب اليونانى القديم فلا بأس فى أن يتأثر الفكر الإسلامى فى الحديث بالفكر الغربى وهى مسألة خاطئة الأساس لأن المسلمين لم يقبلوا الفكر اليونانى والفارسى وكل ما يتصل بالباطنية والمجوسية والفلسفة الغنوصية والتصوف الفلسفى ، كل هذا رفضه الفكر الإسلامى وقاومه وحلله ودحضه وكشف زيفه .

ولقد جاءت الدراسات فى مواجهة التحدى الذى قام به طه حسين من غير تعرف على أبعاد الدعوى التى حملها بغير دليل ، لتكشف هذا الزيف

وفى مقدمتها دراسة الشيخ مصطفى عبد الرازق ومحمود الخضرى وعلى أوسع نطاق الدكتور على سامى النشار .

وللدكتور طه مقولة لم تلق قبولا وتلك هى قولة إن الشعر ظهر قبل النثر ، وكيف يقال هذا والنثر سجية والشعر صناعة ، وكذلك قوله : إن أول عهد العرب بالبيان هو زمن الجاحظ ، وهى مقولة من ينكر على العرب بلاغتهم وبيانهم .

لقد انطلق الدكتور طه حسين فى مصر قبل أن يذهب إلى الغرب من نظرية الجبرية التاريخية فى رسالة عن أبى العلاء ، وبما سمعه من نلينو ، فلماذا ذهب إلى الغرب درس نظريات سانت نيف وأبيوليت سكين وحول يمتر وهم قادة النقد فى المدرسة الفرنسية وإلى جوارهم مدرسة العلوم الاجتماعية وقائدها دور كايم وزملاؤه ، ولا شك أن عرض نلينو لتاريخ الآداب العربية فيه كثير من الغمط والظلم وفيه تعصب وحقد على الرسول صلى الله عليه وسلم والإسلام والقرآن فقد أغفل شعراء المدينة الذين مدحوا الرسول صلى الله عليه وسلم مثل كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وكذلك شعر المهاجرين والنساء الشواعر المسلمات وأهمل كثرة الشعراء فى مكة والطائف .

وكل هذا يوحى بأمر واحد هو أنهم حاولوا إخضاع الأدب العربى والقرآن لمناهج الأدب الغربى وروحه الأساسية القائمة على المادية أساساً وعلى المسيحية ثانياً وعلى استعلاء الغرب المستعمر على العرب والمسلمين ، ومن هنا لا بد أن يوضع أدبهم فى موضع الانتقاص .

وهذا منهج سار فيه طه حسين وزكى مبارك وغيرهم بلا استثناء مع اختلاف قليل فى هذه النظرية أو تلك ، ومن ذلك نظرية زكى مبارك بأن القرآن أثر جاهلى وأن العرب فى الجاهلية كانت لهم نهضة علمية وأدبية وسياسية كان الإسلام تاجاً لها وهو ما دحضه فريد وجدى وغيره (اقرأ المعارك الأدبية والمساجلات والمعارك الأدبية) .

ولقد حرص الدكتور طه حسين لضعف مراجعه وعدم صبره على البحث وعجزه عن فهم النصوص ، ولظروفه الخاصة أن يعتصم بمذهب قوامه الذوق بدعوى أن الذوق أصبح فى العصر الحديث علماً وقد لقى هذا المذهب انتقاداً

شديداً وكشف عن قصور بالغ فى مجال الدراسة ووصفه العقاد بأنه مذهب لا صلاحية له ، يقول :

(إن النقد الذى لا مقياس له غير ذوق صاحبه ولا غاية له إلا أن يخرج بك من الكتاب بأثر يدعيه ولا يقبل المحاسبة فيه إنما هو ثرثرة لا خير فيها وكثيراً ما ذكرتنى طريقة هذه الطائفة الناقدة بخطابة جحا حين قيل له : كم عدد نجوم السماء ؟ فقال لهم : عدد شعر رأسى ، فقالوا له : هذا غير صحيح وعليك البرهان ، قال : لا ، بل صحيح وعليكم أنتم البرهان ، عدوا النجوم وعدوا شعر رأسى وبينوا لى الفرق بين العددين إن كنتم صادقين (ساعات بين الكتب) .

ولقد حاول طه حسين بادعاء عريض أن يدعى أن ما قدمه هو المنهج العلمى وكلمة المنهج العلمى كلمة فضفاضة مضللة لأنها لا تقوم على أساس صحيح فعلى أساسها أنكر طه حسين وجود إبراهيم وإسماعيل بالرغم من ذكرهما فى القرآن والتوراة .

وفى مجال دعوى العلم أنكر نزول الأديان حين قال : إنها خرجت من الأرض كما خرجت الحياة نفسها ، والحقيقة أن هذا ليس هو العلم وإنما هذه هى الفلسفة المادية التى ادعى أصحابها أنهم أقاموها على أساس العلم ، بينما تغيرت المفاهيم بعد ذلك ولم تعد تطلق كلمة العلم إلا على العلم التجريبى وحده .

وقد ادعى طه حسين المنهج العلمى فى رسالة أبى العلاء التى أقامها على مفهوم مادى فلسفى يرى أن الإنسان أثر من آثار البيئة لا يكاد يفترق عن الحيوان والنبات فى انتفاء الحول وانعدام الإرادة .

فهل يقر الفكر الإسلامى بتلك الجبرية الضالة وكيف يمكن أن يكون الإنسان وهو صاحب الإرادة الحرة التى يتصرف بها ويمتلكها ويسأل عنها أن يوضع فى صف الحيوان والنبات ، الحقيقة أن هذا المذهب كان أثراً من آثار نظرية النشوء والارتقاء التى حاولت النزول بالإنسان عن مكانته الحقيقية وشبهته بالحيوان ، ثم جاءت الفلسفات المادية لتجعله غير مسئول عن شىء ، وإنما هو تابع للمجتمعات وواقع تحت رحمة القوى المحيطة به وأنه نتاج الوراثة والبيئة وهذا ما يرفضه الإسلام رفضاً تاماً ، وقد تحولت

المذاهب المادية عن ذلك من بعد وأعلنت أن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تدرس بأسلوب العلوم التجريبية ، ومعنى هذا أن نظرية طه حسين سقطت سقوطاً ذريعاً وأن كل ما كتب فى ضوئها من رسائل : فقد طبقه على :

ابن خلدون والمعرى : طه حسين .

الأخلاق عند الغزالى : زكى مبارك .

عصر المأمون : أحمد فريد رفاعى .

كانت قائمة على أساس باطل زائف .

والحقيقة الأخرى أن الأستاذ صادق الرافعى قد كشف فى كتابه عن الأدب العربى عن علم الرواية عند العرب وأوضح حدوده ، بحيث لا يخرج المنهج الحديث فى دراسة النص عنه .

وقد حمل عليهم الرافعى حملة شعواء ، ورماهم بالقصور والتقصير وقال أنهم تنكبوا طريق العرب فى الرواية والحفظ .

وأن ما قيل من أن ديكارت قد أعلنه عن منهج الشك فى طريق الإيمان — وليس الشك الفلسفى الزائف — قد تبين أنه مأخوذ من رسالة (المنقذ من الضلال) .

للإمام الغزالى ، وأن الأستاذ محمد فريد وجدى كشف عن زيف مذهب النشوء والارتقاء قبل أن تجيء الحفريات الأخيرة التى زيفت ما خاض فيه الماديون خلال مائة عام ، وقد تأثر بمذهب النشوء والارتقاء جرجى زيدان وشبلى شميل والزهاوى والعقاد وأحمد أمين وسلامة موسى وكثيرون .

ومن ثم فقد كان واضحاً أن ما قدمه طه حسين تحت اسم العلم والمنهج العلمى ليس إلا الفلسفة المادية الوضعية ، ومفاهيم مدرسة العلوم الاجتماعية التى قام عليها أصدقاؤه اليهود (دور كايم وليفى بريل) وأنها كانت محاولة لإخضاع الأدب العربى والفكر الإسلامى للتفسير المادى والوثنى للتاريخ .

ومن ناحية أخرى فإن الدكتور طه حسين حريص على أن يقعد كل أبحاثه فى مجال الأدب العربى أو الفكر الإسلامى على مجموعة من الأباطيل والأضاليل يرددها دائماً ويلوكها حتى تثبت فى أذهان تلاميذه ومستمعيه :

أولا : أن البيان العربى مكون من ثلاثة عناصر أحدها الفارسى (وهو

الذى يمثل البلاغة والظرف فى القول والهيئة) والعنصر اليونانى المؤهل بالمعانى الخاصة من حيث دقتها والعلاقة بينها وبين الألفاظ ، والعنصر العربى (أى أن البيان العربى ليس بياناً عربياً خالصاً مستمداً من القرآن) .

ثانياً : الادعاء بأثر هلينى واضح فى الأدب والكلام . وإن عبد القاهر الجرجانى هو تلميذ آرسطو .

ثالثاً : إن أرسطو هو المعلم الأول للمسلمين ليس فى الفلسفة وحدها ولكنه إلى جانب ذلك معلماً فى علم البيان .

وهذه الادعاءات الثلاث باطلة بطلاناً تاماً .

رابعاً : الإشادة بفضل المستشرقين على الأدب والفكر وعلى أمثاله حتى أنه ليرى أنه لم يفهم القرآن إلا من كازنوفا ، ولم يفهم الأدب إلا من نلينو .

* * *

الفصل الثانى

الأدب العربى . تأريخه ونقده

تولى الدكتور طه حسين تدريس الأدب العربى فى كلية الآداب بالجامعة المصرية فى أول إنشائها عام ١٩٢٥ وكان من قبل — فى الجامعة القديمة — بعد عودته من أوربا عام ١٩١٩ يدرس تاريخ اليونان والرومان وهى المادة التى درسها فى فرنسا — ولذلك فقد كان العمل فى ميدان الأدب جديداً عليه ولم تكن لديه الأدوات الحقيقية لهذه المادة . ومن هنا كانت كبواته وأخطاؤه ومناقصه ، وهذا القول وإن بدا متجهماً فإنها هى الحقيقة التى شهد بها كثير من تلاميذه وزملائه والدارسين فى مجال الأدب العربى فى الجامعة ودار العلوم والأزهر ، ومن أجل أن يفرض آراءه فإنه خاصم جماعة الأساتذة الذين كانوا قد سبقوه فى هذا المجال وتمكن من إخراجهم من كلية الآداب ومنهم من ذهب إلى دار العلوم أمثال أحمد ضيف ، والدكتور العنانى ، ومن ثم فقد خلا له الجو فمضى يقوم برسالته الحقيقية التى كان مكلفاً بالعمل بها ، وهى تزييف مفهوم النقد الأدبى وخلق روح السطو وإفساد منهج الكتابة الأدبية وخلق روح من التحلل والإباحة فى مدرجات كلية الآداب (وهذا هو ما شهد به تلميذان من أقرب تلاميذه إليه وهما محمود شاكر) اقرأ مقدمة كتابه (المتنبى) ونجيب البهبيتى فى عدد من كتاباته وخاصة مقدمة كتابه عن الشعر العربى فى العصر العباسى ومقدمة كتابه مدخل إلى التاريخ والأدب العربيين .

ونحن حين نستعرض آراءه هنا فى الأدب العربى نجد ظاهرتين واضحتين :

الأولى : هى التخبط والانتقال من رأى إلى رأى آخر حسبما تفرض الأهواء والظروف كالقول بأن الأدب العربى أخذ من الأدب الفارسى مرة ومن الأدب اليونانى مرة أخرى .

الثانية : روح التبعية والاعتماد على المناهج الغربية فى تأريخ الأدب ونقده ، دون النظر إلى مدى الفوارق الواضحة بين الأدبين العربى والفرنسى . فضلا عن اعتماد الأدب الفرنسى على نظرية الجبرية التاريخية ونظرية دارون التى تعتبر الإنسان حيواناً ، أو نظرية فرويد فى الجنس ، ونظرية ماركس فى التفسير المادى للتاريخ .

أولا : تبين أن الآراء التى قدمها طه حسين فى تأريخ الأدب ونقده لم تكن جديدة تماماً وإنما دعا إليها قبله بسنوات طويلة الدكتور أحمد ضيف وكل ما زاده الدكتور طه حسين عليها : ذلك الأسلوب من الاندفاع والعنف ، الذى يريد به إحداث الدوى .

ثانياً : الآراء المعروضة كلها مقتبسة من المستشرقين ، ومنقولة عن أدب آخر له ظروفه وأوضاعه ، وهو الأدب الفرنسى . وهى نظريات سانت ميف وأبيوليت تين وجول ليمتر ، وهى نظريات تحاكم الإنسان إلى مفهوم مادى ، ولا تؤمن باستقلالية العلوم الإنسانية فهى ترى أن الإنسان خاضع للجنس ولقمة العيش ، ولا ترى له تأثراً بأى قيم معنوية أو روحية كما أنه يصدر فى تصوره الإنسانى كله فى عالم الأدب عن الجبرية المادية التى خضع لها منذ أول رسالة له عن أبى العلاء فقد اعتمد المذهب المادى فى تفسير حياة الرجل .

ومرجع هذا إلى دروس جويدى ونلينو وملبوى وكازانوفا وماسينون ، سواء فيما تلقاه عن بعضهم فى الجامعة المصرية القديمة أم فى باريس .

ثالثاً : أعطى أهمية كبرى لما أسماه تأثير الوثنية واليهودية والنصرانية على الشعر العربى (وهو ما ركز عليه طويلا خدمة للصهيونية العالمية) وانتهى به إلى نتائج مضللة وهو أن للوثنية واليهودية والنصرانية تأثيراً على الشعر العربى) وحاول فى هذا أن يوجد فضلا (مصطنعاً) لليهود على شعراء العرب .

ثالثاً : عمد إلى إصدار الحكم على العصر العباسى من قراءة كتاب كالأغانى الذى لم يكن فى نظر الباحثين مرجعاً أصيلا لدراسة العصور الإسلامية ، وإنما هو كتاب ألفه شعوبى معروف جمع فيه أخبار المجان والشعراء العشاق وادعى فى هذا الحكم على أن هذا العصر عصر فسق وفجور . اعتماداً على وجود أمثال

أبي نواس وبشار والضحاك ناسيا ومتجاهلا عشرات من العلماء والحكماء وأهل الفضل .

خامساً : يرى فصل الأدب عن الإسلام (بوصفه حلا جامعا للقيم) باسم حرية الأدب ودعوته إلى إطلاق الأدب والشعر والفن من قيود الفضيلة وقيم الإسلام ، فلا يكون على الكاتب أو الشاعر أو الفنان من حرج فى أن يصور الرذيلة كيف يشاء ، وهو مذهب إباحى كان جزءاً من رسالته الإباحية والشعوبية عمد إلى إدخاله إلى الأدب العربى ، ومن خلاله أعلى شأن شعراء المجون والغلمة ، وقد عمل فى هذا المجال عملين :

١ — ابتعاث الشعر الإباحى .

٢ — ترجم القصص الجنسى الغربى .

سادساً : نزعته الشعوبية التى جعلته يعلى من شأن أمثال إخوان الصفا والملاحدة والشعوبيين ونشر أفكارهم .

سابعاً : دعوته إلى فصل اللغة العربية عن الإسلام بهدف تدمير رابطتها بالقرآن الكريم وإحياء العامية وتطوير النحو . . إلخ .

ثامناً : دعواه بأن البيان العربى نسجت خيوطه من البلاغة العربية فى المادة واللغة ومن البلاغة الفارسية فى الصورة والهيئة ومن البلاغة اليونانية فى وجوب الملاءمة فى أجزاء العبارة .

تاسعاً : دعواه إلى دراسة تاريخ الأدب كما يدرس صاحب العلم الطبيعى علم الحيوان والنبات .

ومن ثم فإن « المنهج الذى رسمه طه حسين لدراسة الأدب العربى » يقوم على :

أولا : على خليط من آراء انتقائية متباينة أراد بها إخراج الأدب العربى من أصالته فهو لم ينشئ فى دراسة الأدب العربى ونقده ولا فى دراسة تاريخه مذهباً عربياً أصيلا ، وإنما كان تابعاً للمذاهب الغربية فأخذ من دور كايم منهجه فى البحث التاريخى وطبقة على ابن خلدون ومن سانت بيف اتجاهه وأبرزه فى حديث الأربعاء وأخذ من بلاشير رأيه فى المتنبى .

ثانياً : أعلى من شأن الأدب اليونانى القديم والفرنسى الحديث وأذاع جوانب معينة منهما تتعلق بالأدب المكشوف والإباحية .

ثالثاً : استعمل أسلوب الشك والسخرية والتهكم والتشكيك القائم على الظن والذى لم يعتمد على سند علمى صحيح ، وجعل النظرة الذاتية غالبة على النظرة العلمية .

رابعاً : هاجم صلة الأدب بالأخلاق ، وهى صلة أساسية عميقة وجذرية فى الأدب العربى وفتح باب الحرية الحسية فى الأدب العربى الحديث على نحو لم يكن متقبلا منه فترجم القصص الفرنسى المكشوف وأشعار بودلير وأولى اهتمامه لشخصيات أبى نواس وبشار وغيرهما من شعراء المجون .

* * *

(٢)

الأدب العربي وموقعه من الآداب العالمية

تناول الأدب العربى فى موقعه من الآداب العالمية ، فى عديد من دراساته ومحاضراته ، فلم يثبت فيها على رأى واحد ، وإنما تحول فى اتجاه الريح.

كان الدكتور طه حسين يقول مرة : إن مناقب الأدب العربى ترجع إلى أصول فارسية ، ومرة يقول إنها ترجع إلى أصول يونانية ، ومرة يقول إن الأدب العربى كان قوة خطيرة بين الآداب القديمة وأنه استطاع بقوته أن يطارد أدب الفرس واليونان والرومان وقضى مرة بأن الأدب الذى يمثل المركز الأول بين الآداب القديمة هو الأدب اليونانى ثم يجىء الأدب العربى فيمثل المنزلة الثانية ، وأن الأدب العربى أقوى من الأدب الفارسى واللاتينى .

ومعنى هذا أن الدكتور طه لم يكن له رأى محدد ، وإنما كان يقول الشئ فى مناسبته التى يبتغى بها إرضاء جهة ما من الجهات ، وعلى كل حال فإن الدكتور طه يرمى إلى أمرين أساسيين من كل كتاباته :

أولا : يحاول أن يثبت تأثر الأدب العربى بالأدب اليونانى :

ثانياً : يحاول أن يعلى من شأن الأدب الفرنسى المعاصر على الأدب العربى الحديث ، ومن ذلك قوله فى الهلال (نوفمبر سنة ١٩٢٧) .

الأدب العربى سطحى يقنع بالظواهر ، والأدب الفرنسى عميق دائم التغلغل وفيه وضوح وتحديد لا وجود لها فى الأدب العربى ، والأديب الفرنسى إذا عالج موضوعاً ألم بالتفصيلات وهو مع ذلك لا ينسى الكل والمجموع ، أما الأديب العربى فيجتزى بأخذ وردة من البستان أو لون من الوردة ولا يفكر فى البستان .

والهدف معروف ، فهو يريد أن يرضى سادته الفرنسيين بهذا الثناء ، ويريد أن يرضى الغربيين بتقديم الأدب اليونانى على الأدب العربى ، ومحاولة القول بالتأثر اليونانى فى الأدب العربى ، وهى محاولة طويلة المدى حرص عليها حين وجه أمين الخولى إلى ما كتبه عن البلاغة العربية وفن القول الوافد ، وحين كتب أحمد الشايب فى كتابه الأسلوب ، وهى قضية ضخمة من قضايا طه حسين ومحاولته فرض العقل اليونانى عن العقل العربى بدعوى عريقة باطلة قوامها أن العرب تأثروا باليونان وأرسطو فى القديم ، مما يدعو إلى تأثرهم فى الحديث بالأدب الغربى وتبعيتهم له ويتمثل هذا فى أوسع صوره فى مقاله (فى العقل العربى الحديث)

يقول الدكتور زكى مبارك : لعل القراء يذكرون أن الدكتور طه أخذ يبدى ويعيد منذ سنين ليثبت أن العرب لم يكن عندهم (نثر فنى) وأنهم لم يجيدوا الإنشاء إلا حين اتصلوا بالفرس وأن أول كاتب فى اللغة العربية هو ابن المقفع الفارسى الأصل ، قال الدكتور طه حسين هذا الكلام ونشره فى مجلة المقتطف وكنت أعرف أنه سرقه من المسيو مرسيه فكشفت تلك السرقة فى ترفق فغضب الرجل وأسرها فى نفسه ، والحق أن الدكتور طه حسين كان يأمن عواقب تلك السرقة الأدبية لأن كلام المسيو مرسيه كان نشر من زمان فى مجلة مجهولة يندر أن يهتم بها المصريون ، وهى المجلة الأفريقية التى تصدر بالفرنسية فى مدينة الجزائر ، ولكن الله هدانى إلى تلك المجلة فكشفت سرقة ذلك الأستاذ الأمين .

أوتعرفون ما الذى وقع بعد ذلك ؟ أخذ الدكتور طه حسين يتراجع ويتقهقر فى انتظام بديع حتى ظهر كتاب ابن المعتز فيكتب كلاماً ينقض فيه ما بناه فى سبع سنين .

(البلاغ فى ٢٨ يونيه سنة ١٩٣٥)

وهذا الكلام يعنى تناقض طه حسين وعدم ثبوته على رأى واحد وإن كان الهدف الأساسى ما زال قائماً فى نفسه يتحين الفرصة .

---

(١) فصلنا الرد عليها فى الفصل الأخير من هذا البحث .

والهدف الأساسى هو : إخضاع الأدب العربى والبلاغة العربية للأدب اليونانى ، وهو هدف يحرص عليه الاستشراق ويحاول تأكيده بتصوير كل ما فى الأدب العربى والفكر الإسلامى من عناصر القوة وكأنها مستمدة من الفكر اليونانى ومن ذلك دعوته إلى بعث-البلاغة العربية بحثاً يقوم على تفهم مرامى القدماء وعلى الموازنة والمقارنة ببلاغة اليونان ، وذلك فى بحثه (البيان العربى من الجاحظ إلى عبد القاهر) الذى القاه فى مؤتمر المستشرقين فى لندن عام ١٩٣١ ونشر مترجماً فى مقدمة كتاب نقد النثر بقلم عبد الحميد العبادى .

يقول الدكتور زكى مبارك متابعاً هذه القضية :

قرر طه حسين أن البيان العربى فى أول نشأته وفى عهد الجاحظ يتبين منه ثلاثة عناصر مختلفة : وهى العنصر العربى والعنصر الفارسى والعنصر اليونانى ، وقد بلغ ذروته على يد الشيخ عبد القادر الجرجانى ، ولم يتقدم بعده بل أخذ على العكس من ذلك فى التأخر والانحطاط .

والجديد فى هذا البحث أن الدكتور طه حسين أول من نبه إلى الأثر الهلينى فى البلاغة وإلى أثر أرسطو فيها خاصة ، وبذلك قرر أن البيان العربى كان فى جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولا وبالبيان اليونانى أخيراً ولم يكن أرسطو المعلم الأول للمسلمين والعرب فى الفلسفة وحدها ولكن إلى ذلك معلمهم الأول فى علم البيان ، وبالرغم من بطلان هذه الدعوى وفسادها فإن الدكتور طه استطاع أن يوجه بعض طلبته إلى هذه الوجهة .

ألف إبراهيم سلامة بحثاً فى (بلاغة أرسطو بين العرب واليونان) أثبت فيه ما ذكره الدكتور طه حسين وتتبع البلاغة العربية منذ الجاحظ متلمساً أثر أرسطو موضحاً فهم العرب لكتابى الخطابة والشعر وخرج بنتائج تحقق هذه الغاية المرجوة .

* * *

ويرد زكى مبارك على رأى الدكتور طه حسين فى تقدمة الأدب اليونانى على العربى فيقول أنه لا يتميز عنه إلا من الناحية القصصية ، أما الأدب العربى فإنه يأخذ المكان الأول فى الناحية الدينية ، وليس فى هذا غرابة فإن البلاغة الدينية باب مهم فى أبواب البلاغات فى الأدب القديم والحديث ، والمطلع

على الأدب العربى يراه يذخر ويفيض بأنواع البلاغة الدينية وقد شغل ملايين المسلمين شغلا موصولا بأروع أثر من البلاغة الدينية ممثلا فى القرآن ، والسنة والأدب الصوفى ، أفيستطيع باحث أن يزعم أن اليونان كان عندهم هذا الصفاء فى الجوانب الروحية .

ويشير إلى أن الأدب اليونانى كان أشد تأثيراً فى الآداب الأوربية الحديثة على نحو لم يكن للأدب العربى مثله ويرجع ذلك إلى طابعه الرصين :

ويقول : سكت الأوربيون عن الأدب العربى عامدين لأنه يمثل الحضارة الإسلامية ، هى حضارة كانت أوربا تبغى هدمها منذ أزمان ولأنه من وجهة ثانية مصبوغ فى أكثر موضوعاته بصبغة الجد الرصين ، وأوربا فتنت بما جاء فى الأدب اليونانى من نزق وطيش وخلاعة ومجون ، ولا يخفى على الباحث المنزه من الغرض الدينى والقومى ، أن أول ما يلفت الناس إلى الأدب اليونانى هو ما فيه من الثورة أحياناً على التقاليد الدينية والأخلاقية والاجتماعية ، يضاف إلى هذا أن يقظة أوربا الحديثة اتفق وجودها فى أزمان كانت فيها الأمم العربية منحدرة إلى مهاوى الضعف والخمول فلم تستطع أن تقدم أدبها إلى العالم تقديماً حسناً يصور ما كان له من روعة وجمال ويأتى بعد ذلك سبب آخر له أهميته : ذلك أن العقل العربى يميل إلى الإيجاز فى أكثر ضروب البيان ، فالأدب العربى فى جوهره أدب صادق من حيث دلالته على المعانى الإنسانية ولكنه لا يصلح لجميع الناس لما فيه من الميل الغالب إلى إيجاز الإيجاز .

على أن هناك ميزاناً أدق فى تقديم الأدب ، فليس الأدب الأفضل هو ما يصلح لجميع الأمم فى جميع العصور ، ولكن الأدب الأفضل هو الذى يغنى أهله ، كما أن المنزل الأفضل هو الذى يسع ساكنيه ، ولو نظرنا إلى الأدب العربى هذه النظرة لوجدناه أغنى أهله كل الإغناء ، والجاحظ الذى رماه طه حسين بالإسراف مظلوم أشد الظلم ، فهو لم يكن مسرفاً لأنه فيما أعتقد لم يتعمد الغض من الآداب الأجنبية ولكنه جرى فى الطريق الذى جرى فيه أسلافه وكانوا يعتقدون أن أدبهم أصدق الآداب وأغناها وأجملها وأشرقها ، لأنه شغلهم بأنفسهم ، ومحاسنهم ومعايبهم ، وحدثهم عن كل ما يحبون أن يتحدثوا عنه ، فى جميع ضروب الحديث . فأغناهم فى الجد وألهاهم فى الهزل وأمتعهم فى التشريع .

وحسب الأدب العربي قوة أنه فتن أهله وفرض عليهم أن يظنوا مخطئين أن الشعر لا يوجد إلا فى لغتهم وأن الحكمة لا توجد إلا عندهم ، وأن القول الفصل لا يتيسر إلا لخطبائهم وحكمائهم وهذا النوع من الغرور هو دليل القوة عند جميع الناس فى جميع الأجيال » .

فالدكتور طه حسين ليس مردداً لأقوال المستشرقين ولكنه داعية أصيل للفكر الغربي (قديمه اليوناني وحديثه الفرنسي)، وليس الفكر العربي الإسلامي فى تقديره سواء فى ماضيه أو حاضره إلا تابعاً للفكر اليوناني ولا بد أن يكون تابعاً للفكر الغربي . هذه هي الرسالة التي يحمل لواءها ويعتنقها ، وهو من أجل هذا يدعو إلى منهج فى النقد الأدبي غريب ، هو أن ينسى الباحث قوميته وكل مشخصاته وينسى دينه . وكل ما يتصل به حين يعرض للبحث فى الأدب وتاريخه .

وهو يدعى أن هذا المذهب هو مذهب العلم ومذهب الغرب ولكن الدلائل كلها تدل على أنه مبطل فيما يقول ، ولكن المرمى من هذا واضح ، هو أنه حين ينسى الأديب أو الباحث قوميته ودينه فإنه لن يكون له أى قدر من كيان الالتزام أو الانتماء لا للوطن ولا للعقيدة ، وإذن فهو يمكن أن يكون علمانياً وعالمياً وداعية إلى كل ما يعارض دينه وقوميته ، وهو حينئذ لا يجد مجداً ينتسب إليه أو ديناً يلتزم به وهذا ما عبر عنه طه حسين بعد ذلك حين قال سأجتهد فى درس الأدب غير حافل بتمجيد العرب ولا مكترث بنصر الإسلام غير حافل بالغض من العرب ولا مكترث بالنعى عن الإسلام .

وهكذا يكون طه حسين قد جرد الأديب العربي المسلم من كل قيمه والتزامه ، وبذلك يمكن أن يذوب سريعاً فى العالمية الغربية أو الأممية الماركسية ولنسأل هل أمكن أن يكون هناك أديب غربي (فرنسياً أو انجليزياً) تجرد من لغته وأمته وقوميته ودينه على هذا النحو !

إن الهدف هو التجرد من الإسلام ، ومن اللغة العربية ، وهذا ما يسميه طه حسين بالقديم لأنه لم يستطع أن يواجهه صراحة ، فتخفى وراء هذا المصطلح .

وفيما يتصل بالتبعية للأدب الفرنسي فتلك كانت مدرسة تحاول أن تعلى

من شأن الفرنسيين ، فى مواجهة مدرسة أخرى كانت تعلى من شأن الأدب الإنجليزى ، ومن ذلك ما كتبه إبراهيم عبد القادر المازنى فى المصور يقول :

ورأيي فى الأدب الفرنسى أنه فصيح بليغ ، ولكنه ليس عميقاً كالآداب الأخرى ، وقد استفز هذا (توفيق الحكيم) ليكتب مدافعاً عن الأدب الفرنسى وقد ظاهرت توفيق الحكيم مدرسة ببروت فكتب (المكشوف) ، (آزار سنة ١٩٤٤) يقول إن الأدب الفرنسى هو دائماً الأساس الذى قامت عليه الآداب الأوربية كلها . وأن كل قسمات النهضات الفكرية فى كل أدب من آداب أوربا قد هبت من فرنسا ، إلخ .

ومما يذكر أن مصر شهدت صراعاً واسعاً بين الأدبين الفرنسى والإنجليزى وبين الثقافتين وبين التعليمين نتيجة لسيطرة البريطانيين على مصر .

والواقع أن طه حسين حين هاجم قيم الأدب العربى وشكك فيها إنما كان يريد أن يفسح المجال للوثنيات والأساطير اليونانية التى لم يقل هو مرة أنه يعرضها على مذهب الشك، بل راح يزخرفها بأسلوبه ويدخلها فى كتاباته حتى فى كتابه (على هامش السيرة) حشاه بها ولم يدع كاتباً إباحياً * فى القديم أو الغرب أو اليونان إلا حدثنا عنه وترجم له ونقل لنا مفاهيم وسفاسفه (بودلير ، اسخليوس ، أبو نواس) إلخ .

* عقدنا فصلا خاصاً عن الأدب اليونانى وعلاقته بالأدب العربى .

* * *

(٣)

إخضاع الأدب العربى لمناهج النقد الغربية

حاول طه حسين إخضاع منهجى تأريخ الأدب ونقده إلى أساليب الغرب وأعلى من شأن نظريات (تين وبرونتير وسانت نيف) التى سادت فى فرنسا فى القرن التاسع عشر وهى مذاهب كانت خاضعة للنظرية المادية التى انطلقت من نظرية دارون ، وهى فى مجموعها ترى أن الإنسان ما هو إلا أثر من آثار البيئة بمعناها الاجتماعى الواسع ولا يكاد فيها أن يفترق عن الحيوان والنبات فى انتفاء الحلول وانعدام الإرادة .

ويرى تين : أن الفضيلة والرذيلة ليستا إلى حد كبير إلا نتاجاً لعملية تلقائية مثل الأحماض والقلويات .

وهكذا نجد أن مذهب النقد الذى أذاعه طه حسين مناقض تماماً لمفهوم الإنسان فى الفكر الإسلامى والأدب العربى من حيث إلغاء الإرادة الفردية والالتزام الأخلاقى والتعرف من الإنسان من خلال جوانبه المادية وحدها وإنكار جوانبه الروحية المعنوية وعقائده وإيمانه وقدرته على التضحية فى سبيلها.

ولقد أنزلت هذه المفاهيم الإنسان من مكانته التى قدرها له الإسلام والدين الحق ، وألغت مكانته الفردية وبطولاته ودفعته إلى حضيض يكون فيه أشبه بالحيوان الذى لا حول له ولا إرادة ومن ثم نظروا إليه على أنه شىء تافه جداً ، وأنه عبد شهواته وأهوائه ، وأنه تحت رحمة القوى المحيطة به .

وهذا المذهب الذى يقوم على الجبرية الذى اعتنقه طه حسين وأقام عليه أبحاثه كلها منذ كتابه عن أبى العلاء . . .

وهو المذهب الذى ينكر على الإنسان قدرته على تغيير الواقع وتحريك التاريخ وهو الذى يحاول أن يجعله ضحية البيئة والمجتمع وبذلك ينفى عنه المسئولية الفردية التى هى عماد الدين ، وكان ذلك كله متابعة لمدرسة العلوم الاجتماعية التى أقامها دور كايم وسيطرت على الآداب الأوربية فى هذه الفترة

والتى تفرع منها مذهب التحليل النفسى لفرويد ومذهب التفسير المادى (الاقتصادى) لماركس . . وكلها تلتقى عند هدف واحد هو إلغاء شخصية الإنسان وإرادته والتزامه الأخلاقى ، وقد ردد طه حسين هذه المعانى كثيراً حين قال إن الإنسان ابن بيئته وأنه خاضع للبحث والتحليل خضوع المادة لعمل الكمياء وهى نظرية جامعة بين الحتمية التاريخية والجبر التاريخى الذى تلقاه من أساتذته اليهود فى السربون ، وقد خضعت كتاباته لهذا المذهب : وخاصة كتابه فى الأدب الجاهلى .

وقد تغيرت أفكار الغرب من بعد ، وظهر المذهب الذى يفصل بين العلوم الإنسانية والعلوم التجريبية ويقرر أن الإنسان بأهوائه ومطامحه لا يمكن أن يخضع لمذهب التجريب المادى وأن العلوم الإنسانية لا يمكن أن تخضع للحتمية التاريخية أو الجبر التاريخى .

ومع ذلك فقد نشأت أجيال فى كلية الآداب على مفاهيم طه حسين هذه التى بثها فى كتبه وما يزال كتابيه فى الأدب الجاهلى وعن أبى العلاء و هما محملين بهذه السموم منشورة مذاعة .

وقد أشار إلى هذا المعنى الدكتور محمد أحمد الغمراوى حين قال :

يؤسفنى أن صاحب كتاب الأدب الجاهلى ومن لف لفه يسوقون الأدب العربى على غير طريقه ويلبسونه ثوباً من غير نسجه وينسجون عليه نسجاً فرنسياً ويسوقونه فى نفس الطريق الذى ضل فيه الأدب الألمانى قرناً وبعض قرن . وما هى تلك الطريق التى يسوقون فيها الأدب العربى إلى طريق الافتتان بالأدب الفرنسى خاصة والغربى عامة ، لقد كان الدكتور طه حسين ومن معه يريدون أن يكونوا للعربية ما كان هؤلاء الألمان فيفنوها فى غيرها ويضلوها عن نفسها ، فإذا أنت قرأت لهم رأيت تقليداً بحتاً يعرض عليك باسم التجديد »

والواقع أن الأدب العربى بأصالته وتاريخه المتصل بفجر الإسلام والمرتبط بمفاهيم القرآن ومنهجه الواسع الجامع المتكامل ، ليسوا فى حاجة إلى أن يخضع أدبهم لمنهج غربى مادى انشطارى ، عرف الغرب فيما بعد أنه فاسد ومنهار .

إن مقولة طه حسين أنه يريد أن يدرس تاريخ الأدب كما يدرس صاحب العلم الطبيعى ، علم الحيوان والنبات هى مقولة باطلة فاسدة ، لأنه لم يثبت

أبداً فى أى عصر أن الأدب يخضع لمنهج العلم الطبيعى وأن الغربيين أنفسهم هم الذين قالوا إن العلوم الإنسانية لا تخضع لمنهج العلوم الطبيعية فضلا عن أن مفهومنا الإسلامى لا يقبل هذه المقولة المبطلة .

ويقول أحد الباحثين : إن طه حسين يقصد بالمنهج العلمى : المنهج الاجتماعى (الذى روج له اليهودى دور كايم خدمة للصهيونية) والذى ينظر إلى الإنسان على أنه حيوان اجتماعى ، ومن هنا يعول طه حسين على دراسة البيئة والعصر ، ولا يدرس البواعث النفسية للأديب التى تحفزه إلى نوع من السلوك دون نوع آخر ، وقد تبين خطأ استخدام المنهج العلمى التجريبى فى مجال الدراسات الإنسانية ، فضلا عما تبين من فساد منهج دور كايم الاجتماعى ، فالإنسان ليس حيواناً اجتماعياً كما يقول أرسطو فى السياسة ولا حيواناً مفكراً كما يقول أرسطو فى المنطق .

* * *

ولقد كان السؤال المثار دائماً : هل طه حسين مدرس جامعى حقيقى وهل يملك الاداة الصحيحة للتربية والتعليم وقد أجاب عن هذا السؤال الأستاذ حسن البنا رحمه الله فى مقال مطول نشرته (الفتح م ٥ سنة ١٣٤٩ ﻫ) حين قال :

إن المدرس ينظر إليه من جهات ثلاثة : من مواهبه الخاصة فى المادة التى يدرسها ومن مادته التى يقدمها لتلاميذه وفى طريقته فى التفكير وما يثبته فى نفوس طلبته من أخلاقه وطبائعه . والدكتور طه حسين متهم فى ذلك جميعاً فهو لا يحسن الشعر ، وإن حاول ذلك أتى بالغث المتكلف الذى يمجه الطبع ويستثقله السمع على نمط لاميته التى يقول فيها :

مالى وما للبدر أطلب رده   بل ما لأفلاك السماء ومالى

إلى آخر ما قال من هذا النظم المهلهل والنسيج المتنافر واللفظ الضئيل الغاية . وهو لا يجيد أسلوب الكتابة إذا حاكمته إلى الذوق العربى والبلاغة اللغوية وقسته بما وضعه الأئمة من أوزان البيان ومقاييسه ، أما فى حشو القول والاتساع به وإطالته بالتشدق والنهيق فالرجل فى ذلك لا يشق له غبار واعتبر فى ذلك بما كان فى قضية المعلمين وقصتهم التى كتب عنها فى السياسة

فأعيدت القصة وذكرت القصة بضع مرات فيما لا يزيد على عشرة أسطر من أسطر الجريدة ، وما هو بالناقد الذى يحسن النقد الصحيح ، فى الشعر والنثر ، وإن أحسن التهجين والتجريح والزراية على غيره من الأدباء والكتاب وأن الذى يقرأ بيت شوقى فى ميميته التى يقرظ فيها كتاب الأخلاق :

يا لطف أنت هوى الصدى من ذلك الصـــوت الرخيم

فنفهم أن الشاعر يقول أن أرسطو كان ذا صوت رخيم ويورد على ذلك أنه لا هو ولا شوقى سمع هذا الصوت ، ثم لا يدرك فى هذه الإشارة البليغة من عذوبة وجمال وتناسب لحرى به أن يدع الثقة لأهله وأن يعلم أن دعواه فيه كدعوى الحرب فى زياد ، وبعد فليس الدكتور طه حسين متخصصاً بدراسة تاريخ العرب لم يتلقه عن أستاذ ولم يلم به فى مدرسة ، وإنما علم من ذلك ما يعلق بذهنه من مطالعة كتب الأدب لا لتدرس ولكن ليراها وما نيل الدكتور طه حسين إجازته فى تاريخ اليونان أو تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده أقوى الدعائم التى يستند إليها الكاتب إذا أراد أن يكتب فى الأدب العربى فمن فاتته روايته ودرايته فقد فاته أس البحث ونبراسه وسار على غير هدى .

ذلك من ناحية مواهب أستاذ الجامعة فى الأدب العربى وتاريخه ، أما من ناحية ما يقدمه لتلاميذه فمن أفكاره ، فقد كانت باكورة ذلك كتابه (فى الشعر الجاهلى) وقد حكم عليه عقلاء الأمة وأدباؤها بالخطأ والخطل والغثاثة وكشف المحققون من الأدباء الغطاء عن مغامز ومعايب فيه برأ منها العلم وأيد ذلك حكم القضاء .

أما طريقته فى التفكير وما يبثه فى نفوس طلبته من طبائعه وأخلاقه فما علم الناس من ذلك إلا الشك والحيرة والانسلاخ عن العقيدة والدين وتسمية ذلك منهجاً علمياً . وقد برهن العالم الضليع مؤلف (النقد التحليلى) أن هذا الأسلوب ليس من المنهج العلمى فى شىء .

فأى شىء بعد ذلك كله يسوغ بقاء أمثال هذا المدرس فى منصب كبير كمنصبه الحالى .

وإن تعجب فعجب دفاع الأستاذ عباس العقاد عنه وزعمه أن الدكتور نابغة الدهر ونادرة العصر ، وأنه لا يمكن أحد أن يسد فراغه أو يملأ مكانه

أو يدرس الأدب كما يدرسه ، وأنه قرأ كتابه فلم يجد فيه ما يمس الدين والأخلاق .

حنانيك يا أستاذ عباس فإن الأمر هام لا يفتى فيه بالرأى ولا يؤخذ بالظن ، المسألة مسألة دليل وبرهان وحق يتبعه الجميع . إنك بقولك هذا تتحدى الأمة جمعاء وتسىء إلى رجال وزارة المعارف الذين تخصصوا بدراسة هذه المادة وفيهم أساتذة الدكتور وأولياء نعمته وتطعن فى تقارير تلك اللجان فحكمت عليه بالخطأ والتجهيل وأظهرت معايبه فى عشرات المواضع وتحكم على الأمة بالجدب الأدبى حين نزعم أنه لا يستطيع أن يدرس الأدب فيها إلا واحد ، ولعل حكمك هذا على رجال الأدب فى مصر من نوع حكمك السابق على شوقى وحافظ وهما مفخرة أدب العرب وحاملا لواء الشعر العصرى ولو كان لك وجه من الحق فما تقوله عن رجل الأدب من كفاءة لهان الأمر ولكن الذى تدعيه غير مسلم وليس من الحقيقة فى شىء ، فإن كنت لا تعتد إلا بنفسك وبالدكتور وتدعان الحق والدليل فلكما شأنكما وإن كنت تطلب الحقيقة فهى ما أسلفناه بالدليل من أن الرجل متهم فى مواهبه ومادته وطريقة تفكيره وغايته جميعاً **« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً »** .

أما قولك أن الكتاب ليس فيه ما يمس الدين والأخلاق فاسمح لى أن أصارحك بأنك لست من أهل الدين المتخصصين به ، ولقد أقر هؤلاء خلاف رأيك فإذا لم يعجبك هذا وأبيت إلا الدليل فاذكر قصة إبراهيم وإسماعيل وتكذيب المؤلف للقرآن والتوراة والإنجيل وتهوين شأن النبى صلى الله عليه وسلم ونسبته إلى التحايل بالأساطير والتهكم بالأجلاء من الصحابة ورميهم بالمخاتلة وعدم التأثر بتعاليم الدين إلا ظاهراً (كذا يزعم صاحبك) وتكذيب صريح الأحاديث الصحيحة وتعطيل أحكامها والخلط فى الأغراض والأنساب والنتائج والأسباب ، أذكر كل ذلك وغيره مما يمس الدين والأخلاق ثم قل لنا هل اقتنعت بما تذهب إليه أم لا تزال تقدم الدكتور على الحق الصريح .

إن الأمر واضح لا يحتاج إلى بحث أو نقاش ، فالكتاب مبتذل ، ممقوت ، والمؤلف متهم فى عقيدته ومادته والأدباء غيره كثير ، فاعدموا الكتاب وأقصوا المؤلف عن بث بغضه على الإسلام فى أبنائنا وشبابنا وأيدوا الحق وأريحوا الطلبة والأمة من هذا العبء الثقيل . (م ٥ — ١٣٤٩ هـ)

الأدب : هل يدرس لذاته أم لغيره :

حاول الدكتور طه حسين أن يثير نظرية خبيثة بادعائه أن الأدب العربي يجب أن يدرس لذاته لا أن يدرس لغيره من فقه أو شرع وأن اتصال اللغة بالقرآن والدين يجعلها مقدسة مبتذلة في آن واحد . مقدسة لأنها لغة القرآن والدين ، ومبتذلة لأنها لا تدرس في نفسها ولأن درسها إضافي .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوي : أنه في هذا مخطئ محيل ، وأن الفريق الذى يصفه أنه يقدسها هو نفس الفريق الذى يدرسها كوسيلة للدين والتفقه فيه : وتقديسه إياها ، يصونها من الابتذال عنده ويعلم أن الذين يدرسونها ممن لا يشتغلون بالدين هى عندهم غاية لا وسيلة كجمهور الأدباء ، فليس هناك من هؤلاء أيضاً من يبتذلها إذن .

وكيف يتصور أن التوسل بشيء إلى غرض ما هو من دواعي ابتذال ذلك الشيء ، فريق يدرسها لذاتها وهو فريق المشتغلين بالأدب (وواضح أن هؤلاء لا يبتذلونها) وفريق يدرسها وسيلة إلى شيء آخر يرضاه ويكبره واتصالها بذلك الشيء الآخر يفيض عليها من الإكبار الذى يحيط به ويحول بينه وبين الابتذال كما هو مقتضى القانون النفسي : قانون الاهتمام in terest الذى غفل عنه صاحب الكتاب ، فليس هناك إذن خطر يتهدد الأدب من هذه الناحية : ناحية الابتذال . أما ناحية الإكبار والتقديس كما يسميه فقد زعم أنها تحول بين اللغة وبين البحث العلمي الصحيح وتقديسها بهذا المعنى لم يقل به أحد غيره ، لأن الذين يفيضون عليها من التقديس لاتصالها بالقرآن والحديث لم يخطر لهم على بال أن يحظروا على أحد التفقه فيها عن أى طريق من طرق البحث الصحيح ، بل هم يرون مثل هذا التفقه ضرورياً لهم وفرض على فريق منهم ، والإسلام نفسه يفسح للبحث الصحيح كل طريق فليس على صاحب الكتاب من حرج في أن يسلك في تحليل اللغة مناهج البحث العلمي أو الأدبي الصحيح ، ولكن عليه أن يحسنها قبل أن يسلكها ، أما أن يدعى أنه محسن إياها وهو غير محسن أو أن يأتي إلى أقدس ما يقدس الناس من دين أو قرآن أو توراه فيعرض لذلك كله بالوهم والغرض ، فسيجد دائماً من يؤاخذه على ذلك في العلم وفي الدين .

والقيود التي في القانون لم يرد بها تضييق حرية البحث ، وإنما أريد بها صيانة الدين أن يجترئ عليه مجترئ أو يفسده على الناس مفسد ، وليس هناك غير صاحب الكتاب وشيعته من يظن أن كرامة الدين تنافي حرية الأدب أو حرية العلم ، وما نظن صاحب الكتاب يتألم للأدب والعلم ولكن لنفسه ، وإلا فقد اعترف نفسه أن العلم ذاته قد يكون من أبغض الأشياء إذا أكره عليه وذلك قوله :

(من ذا الذي يستطيع أن يكلفني أن أدرس الأدب لأكون مبشراً بالإسلام أو هادماً للإلحاد) .

هل إذا كانت دراسة الأدب لهدم الإلحاد تقييد للأدب فهل دراسته لهدم الإسلام تحرير للأدب . ليدع صاحب الكتاب نصرة الإسلام إذا شاء ولكن ليدع معها أيضاً نصرة الإلحاد يسلم له الأدب .

أما استناده في تحريز الأدب العربي من سلطان الدين إلى ملاءمة حاجات العصر العلمية والفنية ، فهو نوع من الكلام المبهم ، وفي رأيي أن حاجة العصر هي أشد ما تكون إلى أدب شرقي نقي من أقذار وسموم الإباحة إلى أدب يكون عوناً للشرق عامة ولمصر خاصة على نهضة خلقية قوية تأخذ بنا من هذه النهضة هذه اللغة التي أنهضها الدين وعاشت بالقرآن ثلاثة عشر قرناً لا تستطيع الآن أن تقطع ما بينها وبين الدين والقرآن من غير أن تقتل نفسها أو يقتلها أهلها وتصبح مكتوباً عليها الرق والذل لكل ما لا يمت إليها بمودة أو رحم وما حاجة الشرق بل ما حاجة أي شعب إلى لغة يصبح أدبها باباً يدخل على الشعب منه العدو ، وكأساً يتجرع الناس بها السموم .

يقول الدكتور طه حسين :

فلتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علماً من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط ، وإنما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء إلى تذوق الجمال الفني فيما يؤثر من الكلام .

ونقول : لو كان يريد بهذا الكلام ظاهره لما كان بينه وبين أحد من رجال العربية خلاف ولكن علمنا بالنزعة التي ينزع إليها صاحب الكتاب فيما كتب وفيما يكتب ، تجعلنا نخشى أن يكون أراد بهذا الكلام غير ظاهره ،

وأنه قد رمى إلى غرض آخر هو تحرير الأدب من قيود الأخلاق فلا يكون هناك تحرج خلقي من معنى خسيس ما دام هذا المعنى يورده صاحبه في شكل فني يتذوقه ويلذه ، نتيجة لضعف أثر الأخلاق الفاضلة في نفسه **ولكنه الأدب ينبغي ألا يستقل قطعن الأخلاق استقلالا** يجعله لايبالي أو افق رذائلها أوخالف فضائلها فإن الله قد خلق الإنسان وحدة متماسكة لا أوصالا مفصولة ، وإذا كان الخلق الكريم والعاطفة النبيلة والدين الصحيح ضرورياً للإنسان فلن يكون لمن يهمه رقى الإنسان بد من محاربة كل ما يضعف ذلك فيه ، فناً كان أو غير فن ، أدباً كان أو تمثيلا أو تصويراً أو ما تشاء أن تسمى من الفنون .

وليس يخالطنا شك بعد ما قرأنا لصاحب الكتاب في حديث الأربعاء وغيره أنه ليس بالرجل الذى يهدى هذه الأمة إلى أدب خاص بها يحتفظ بجميع عناصر القوة فيها ويتخلص من جميع عناصر الضعف فإن هذا التخلف بعد ذلك الاحتفاظ هو ميدان يقدم ذلك الأدب الخاص الذى نريده لهذه الأمة وهو معراج ترقيه » ، وهكذا نجد أن في كل كتاب من كتبه غاية مبيتة لهدم قيم هذه الأمة .

• • •

الفصل الثالث

أدب المجان والجنس والإباحة

كان من أكبر أهداف الدكتور طه حسين إشاعة أدب المجان والجنس والإباحة وقد قصد إلى ذلك من ناحيتين .

الأولى : إحياء ما وجده فى الأدب القديم من فنون الجنس عند بعض الشعراء المنبوذين من أهليهم وأمتهم ومما جمعه الشعوبى الخاطئ الأصفهانى فى كتابه الأغانى .

الثانية : مما عمد إلى ترجمته من القصص الجنسى الفرنسى الداعر .

ومن الطبيعى أنه حين دعا إلى تحرير الأدب العربى من الارتباط بالفكر الإسلامى كان يهدف إلى دفعه فى أوحال الشهوات والجنس والإباحية، وهو هدف خطير قام عليه كتابه (الشعر الجاهلى) ونظريته كلها وليس أدل على خطورته مما أشار إليه المستشرق كاممفاير حين قال : « **إن المحاولة الجريئة التى قام بها طه حسين ومن يشايعه فى الرأى لتخليص دراسة العربية من شباك العلوم الدينية هى حركة لا يمكن تحديد آثارها على مستقبل الإسلام مهما أسرفنا فى التقدير فى فكرة لا تجد كلمة عنها** » .

هذا هو الهدف الذى يسعى إليه التغريب : وهو فصل الأدب العربى عن مفهوم الإسلام الجامع الذى هو جزء منه لا ينفصل، وهى الدعوى التى ظل طه حسين يرددها دون أن يتبين البعض مدى خطرها، وهذا هو الهدف من عبارة « الحرية » التى كان يرددها دائماً، الحرية عنده بمفهوم الماسونية وهو من أهلها وهى الانطلاق وراء الأهواء والشهوات ، وقد عمد إلى شعر المجون فأذاع به ، كما اهتم بشعر الغلمة وحاول أن يضع لأبى نواس وبشار صورة بطولة ليست لهما فى الحقيقة ، فقد كان مع المجموعة من شعراء المجان الذى عنى بهم طه حسين فى كتابه (حديث الأربعاء) مجموعة من الشعوبيين الإباحيين الذين هم

موضع إحتقار المجتمع وامتهان المثقفين والعلماء ، ولكن طه حسين فى جرأته على الله والحق والتاريخ لا يلبث أن يقول كلمته المسمومة : إن القرن الثانى للهجرة كان عصر شك ومجون وزندقة وفجور ، وأنه يتخذ كنموذج لهذا العصر : أبا نواس ووالبه ومسلم بن الوليد وأمثالهم من شعراء اللهو ، ويعتمد على كتاب (الأغانى) فى كثير من الأحكام التى أصدرها من غير تحرج ولا احتياط على هذا العصر .

بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا حيث دعا شباب كلية الآداب إلى اعتبار كتاب الأغانى مرجعاً فى دراسة العصر ومصدراً لرسم صورة المجتمع الإسلامى وهذا زيف بالغ الخطر ، وجرأة على الحق .

ولقد ووجهت أفكار طه حسين المسمومة هذه بالنقض ، ووقف له العلماء بالمرصاد ينتقضون آراءه الفجة ، ومن ذلك ما قاله الأستاذ محمد عرفه : فى الرد على فرية اتهام القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك واستهتار : « ليس معنى الحكم على عصر بأنه عصر شك واستهتار أنه قد وجد فيه الشك والاستهتار إذ لا يخلو من ذلك عصر من العصور ، وإنما المعنى أن الروح العامة فيه هى الشك والاستهتار . ولقد توصلت إلى حكمك العام على العصر الثانى باستقراء طائفة من الأدباء والشعراء والمترفين فرأيت فيهم الشاك والماجن فأخذت العصر بجريرة هؤلاء وحكمت على العصر بأنه عصر شك ومجون ، وأن تصفح طائفة — ووجدانها على صفة — لا تعطى منطقياً الحكم على عصرهم جميعاً بأن فيه هذه الصفة . فى العصر الحسن البصرى ، ومحمد بن سيرين والشعبى وعمرو ابن عبيد ومالك ابن أنس ومحمد ابن إدريس الشافعى وأبو حنيفة النعمان وأحمد ابن حنبل ، ومالك بن دينار ، وعبد الله بن المبارك وربيعة الرأى وعمر بن عبد العزيز وطائفة الفقهاء والزهاد المحدثين هم الذين يمثلون عصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه ، أم طائفة الشعراء والمغنين مع تقدير أثر الدين فى النفوس ودور هؤلاء العلماء فى تخريج الأحكام . لقد كان هؤلاء الشعراء يرون أنفسهم غرباء بخلقهم فى ذلك العصر وأنهم شذاذ منه وكانوا يسعون بما لديهم من قوة فى دفع القالة عنهم .

العصر الثانى : عصر يقين واحتشام ، لا عصر شك واستهتار . وأن السبب

فى الحكم بغير هذا وعلى ما أظن أن القارئ (للأغانى) يخيل إليه من كثرة ما يذكر من مجون هؤلاء أنهم فى جو يسيل فسقاً ، ومجوناً ، وإلحاداً ، ولكن إذا تذكرنا أن صاحبه إنما عنى بتاريخ طائفة فقط من الشعراء والمغنيين ، وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر ، حمينا أنفسنا من التورط فى هذا الحكم » .

ويقول الدكتور غلاب : لقد ذهب طه حسين فى هذا الكتاب بجرأة غريبة إلى أن العصر العباسى كله عصر شك ومجون وزندقة وفجور واتخذ نموذجاً لهذا العصر أبا نواس ووالبة ومسلم بن الوليد وأمثالهم من شعراء اللهو والعبث . واعتمد فى كتاب الأغانى على كثير من الأحكام التى أصدرها من غير تحرج ولا احتياط ، على هذا العصر » .

ويقول الدكتور زكى مبارك فى كتابه النثر الفنى : والدكتور طه حسين وجرجى زيدان قد أساءا فهم العصر العباسى ، وأنهما قد تورطا فى الخطأ حين وصفاه بأنه عصر إلحاد ومجون وقد رماهما من طرف واحد خفى بأن حكمهما هذا إنما قلدا الأصبهانى الذى لم يرسم العصر العباسى إلا على لوحة خلق معدنها من الكذب والتمويه وصيغت مادتها من الضلال والبهتان .

وقال الأستاذ إسماعيل حسين (الكوكب ١ يونيه سنة ١٩٢٦) أن كل ما ذكرته فى حديث الأربعاء يرغب فى معاداة القضية ويغرى بارتكاب الرذيلة والاثم وينشر الإباحية ، فإنك لم تذكر للعرب سوى الزندقة والمروق والإلحاد والنساء والغزل المذكر ، ولقد كنت هداماً شنيعاً للعرب الذين لم يخلق الله نفسية أعز من نفوسهم وعزمة أشد من عزماتهم الصادقة » .

وأشار الدكتور عبد الحميد سعيد إلى خطورة حديث الأربعاء فى حديثه فى مجلس النواب المصرى عام ١٩٣٣ .

* * *

(٢)

حقيقة أساسية

ليس معنى الحديث عن الزندقة والمجون فى المجتمع العباسى أن المجتمع العباسى كان مجتمعاً منحلا أسلم نفسه للإلحاد والشهوات ، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا فى طبقة محدودة من الناس ، كان جمهورها من الفرس وكانت موجة المجون أكثر حدة ، ولكنها لم تكن عامة فى المجتمع ، بل كانت خاصة بالمترفين وممن حولهم من الشعراء والمغنين ، أما عموم الشعب فإنه لم يكن يعرف زندقة ولا مجوناً بل كان مسلماً حسن الإسلام يهتدى بأضوائه ويجرى على سنته . .

٢– ويقول أنطون كرم فى كتاب (الأدب العربى) فى آثار الباحثين : عن كتاب (حديث الأربعاء) : إن أبرز ما عنى به طه حسين هو ميله إلى جعل أبى نواس فى شعر لهوه وعبثه وخمره ، ابن عصره وجعله فى شعره الجدى ابن الأعصر الخوالى .

ويقول : إن المؤلف اختط لنفسه أن يجمع بين الأنماط الثلاثة . التاريخى والذاتى والفنى . وأن يحاول أن يجمع بين أسلوب سانت بوف وجول لميتر ، وتين ، فيجرى فيها جميعاً على غير ما استيفاء للملامح ولا يتسلل إلى الدقائق فإذا به يخطئ طريق المؤرخ الحق فى جلاء الشك وتحرى الحق الأخير ويخطئ طريقة الذاتيين فى تفكيك الذات المبدعة حتى تقتصر فيها على بعض جوانب ويستند إلى الرواية بدل أن يكتشفها فى الشعر ويحيى الرواية فى الشعر ولا يجعل الشعر شاهداً على الرواية فتراه متحاملا على بشار يتنكر للالتواء فى نفسيته ويرد المتناقضات التى تقوم عليها الذات البشرية متجهة فى منحى واحد هو منحى الشر والإثم ، ثم إنه أخطأ المنحى الفنى إذ ألمع على مواطن الجمال لمعاً عاجله يتسع مداها حتى ينطبق على غير شاعر من الشعراء يقول هذا جميل ، يسير المتناول ، شديد التعقيد ، ولا يدبر القول على سبيل التخصيص فيقع

الحكم هاشياً عاماً خلواً من الدلالة . ويصدف عن التحليل الفنى الخاص ويشير من بعيد إلى الألفاظ الحلوة الجرس التى تملأ السمع على استساغة ولا يجاوز تلمس الخصائص ولا يتقصى التحليل .

ونحن نرى أن طه حسين ليس ناقداً له باع فى فهم النصوص ، وكل ما وجهه إليه الكتاب على مدار أبحاثه يدل على قصور واضح ، فهو ليس بصاحب صناعة فى النقد ولا فى الأدب على وجه التحقيق ولكنه مراسل من مراسلى المعاهد التبشيرية العالمية لإثارة الشبهات ووضع السموم فى قلب النصوص وهو فى هذه البابة داعية الأدب المكشوف الذى يحاول أن يصم القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون اعتماداً على صورة مسمومة رسمها الأصفهانى لبعض الشعراء الماجنين المنبوذين من المجتمع الإسلامى العريق الحافل فى هذه الفترة بطائفة من ألمع رجاله .

وهو فى هذا ليس باحثاً متمكناً يستطيع أن يحكم عواطفه . أو يدير أسلوب التغريب باقتدار ولكنه يكشف نفسه منذ اللحظة الأولى بأنه صاحب هوى وهو يدفع شبهاته بغير تحفظ ولا تحرج ولا احتياط فإذا ردت إليه واحدة بعد أخرى على أنها باطلة لم يسود وجهه ، ولكنه ذهب للبحث عن سموم أخرى ، هكذا عاش حياته كلها ، فهو قد ذهب فى الشعر الجاهلى مذهبه فى تزييف الحقائق ، ثم حين ينتقل منها إلى حديث الأربعاء ، يعلن فى صراحة أن شعراء المجون يمثلون عصرهم أكثر من الشافعى وابن حنبل وأبى حنيفة ومن يصدقه فى ذلك ، ويعتمد على الأغانى (وصاحبه متهم فى عقيدته وخلقه ، فهو من الشعوبية المارقين) ، وقد أجمعت المصادر التى أرخت له ولكتابه أنه مثل طه حسين صاحب هوى لا يوثق بروايته وأنه يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق ويهوى شرب الخمر ، وربما حكى ذلك عن نفسه ومن تأمل كتاب الأغانى رأى كل قبيح ومنكر . وكان فى خلقه الشخصى مسرفاً أشنع الإسراف فى اللذات والشهوات ، وما رواه ابن شاكر فى كتابه (عيون الأخبار) إن الشيخ شمس الدين الذهبى قال : رأيت شيخنا تقى الدين بن تيمية يضعفه ويتهمه فى نقله ويستهول ما يأتى به ، وما ذكره تحت شىء من أوصافه : كان أبو الفرج الأصفهانى وسخاً قذراً (راجع أيضاً خبر اتصاله بالوزير المهلبى

ص ٢٠ وما بعدها فى مقدمة الأغانى) وما قاله أبو الفرج فى مقدمة كتابه عند قوله : إذ ليس لكل الأغانى خبر يعرفه ، ولا فى كل ما قاله خبر فائدة ، ولا لكل ما فيه بعض الفائدة وإنما هو رونق يروق النظر ويلهى السامع » .

وقد أنكر الباحثون على مدى التاريخ استنادهم على الأغانى إذ ليس لروايات الأغانى قيمة تاريخية ، ذلك لأنه لم ينتق أوثق الأخبار من مظانها ، ولم ينقلها عن أهل الخبرة مهما ذكر ذلك فى مقدمته ، وقد زيف صورة الحياة العربية والمجتمع الإسلامى فكانت مصدراً مسموماً للمستشرقين ودعاة التغريب يدلون عليها تلاميذهم وتابعيهم ولم يهتم باحث عربى بالأغانى على النحو الذى اهتم به طه حسين ووجه إليه تلاميذه ومريديه ومن قبل اعتمد عليه جرجى زيدان فى رواياته وحين كتب عن الحياة الاجتماعية فى عصر الدولة العباسية كما اعتمد عليه الأب لامانس فى كتابه تاريخ بنى أمية والمستشرق فلهوزن فى كتابه المسمى (الدولة العربية وسقوطها) وقد جاء الاحتراس عند الباحثين فى رفض كل ما يذكره عندما لمسوا فى شخصيته ذلك الضعف من ناحية خلقه .

ولا ريب أن الدكتور زكى مبارك هو من أوائل من نبه فى العصر الحديث إلى هذه الحقيقة حول الأصفهانى وكتابه الأغانى (المقتطف م ٧٧ — يوليو سنة ١٩٣٠) وقد ضم هذا البحث لكتابه (النثر الفنى) وكان ذلك من أسباب حملة طه حسين عليه لأنه حين كان يكشف زيف الأصفهانى أمام الباحثين إنما كان يوجه خنجراً إلى قلب طه حسين الذى كان أول من أعلن فى كلية الآداب اعتبار كتاب الأغانى مرجعاً فى دراسات الأدب بالرغم من كل ما عرف عن شعوبيته وزندقته وفساد وجهته ، قال زكى مبارك إن « أبو الفرج » قد طعن فى بعض الروايات التى أوردها ، بل أريد أن أذهب إلى أبعد من ذلك فأزعم للدكتور طه حسين أن فى الأغانى كثيراً من الأخبار الملفقة التى ربما تكون قد جازت على أبى الفرج فأوردها ، ويتساءل زكى مبارك هل يصلح الأغانى مصدراً للتاريخ ، ويجيب أنه لا يصلح أن يكون المصدر الوحيد ولا أفضل المصادر ولا الجامع المانع .

ويدافع التغربيون أمثال جبور عبد النور (جامعة بيروت الأمريكية)

عن الأغانى ويتساءل : أمن الضرورى إن كان المؤرخ فاسقاً أو مسرفاً شنيع الإسراف فى اللذات والشهوات أن لا يكون مؤرخاً وألا يكون صادقاً فيما روى أو يقول أو يكتب !

ونقول له نعم ، فهو قد شهد بفسق صاحبه وفى منهج الفكر الإسلامى أنه زنديق ولا يؤخذ منه وأن هذه النفس المتردية إلى كل هذا الفساد هل بقى فيها شىء يمكن أن يصل منه الصدق أو الحق أو الخير . لقد كانت هناك محاولة مستميتة للدفاع عن الكتاب من دوائر الاستشراق والتغريب ، تحاول أن تعطى الأغانى القوة للصمود فى دائرة المراجع ، ولكن كل ذلك قد سقط ، وليس هناك اليوم من يقول إنه يصلح مصدراً لفهم الحياة الاجتماعية فى عصره ، ولا أنه كتاب أدب أو كتاب تاريخ .

* * *

ولكن هل توقف طه حسين فى دعوته إلى الزندقة والإباحية والجنس !

لقد ذهب إلى أبعد من ذلك فكتب حياة أبى نواس فى أواخر حياته ليصلها بما كتبه عنه فى أوائل الشباب (سنة ١٩٢٦) وبينهما أربعة عقود ، وكان ذلك فى إطار حملة تغريبية واسعة لتأكيد أبى نواس ونشره بين شباب الإسلام (حيث كتب عنه العقاد وعبد الرحمن صدقى والدكتور النويهى وطه حسين) ونشر ديوانه محققاً ، وإحياء أبى نواس إحياء لدعوة إلى الخمر وإلى الجنس وإلى الإباحة تذكر بعصبة المجان : بشار ومطيع وحماد عجرد والخليع ، كل هؤلاء وصفوا الخمر وغلوا فى وصفها وقالوا عنها ما لم يسبقوا إليه ، وكان أبو نواس إلى إسرافه فى المجون والعبث شعوبياً حاقداً على الإسلام ويبطن حقده عليه بحقد ظاهر على العرب فهو مقرن فى التفكير لهم والسخط عليهم ، وقد اتخذ أبا نواس رمزاً للاستهتار والازدراء بكل شىء وإهدار كل قيمة .

كل هذا أذاعه طه حسين وتوسع فيه ، وقال إنه لا يخاف من أثره على الشباب وإن أذاعة هذا كله لا تفسد أخلاقهم ولا ميولهم .

ونحن نتساءل : إذن فلم اهتمام طه حسين وإصراره على دراسة هذه الأشعار الخبيثة والنفس المريضة التى قالتها ، إلا أن يكون ذلك هدفاً مبيتاً

يراد به إذاعتها من جديد ووضعها فى يد الشباب المسلم لتحطم معنوياته ولتصرفه عن الطريق إلى الأصالة وإلى فهم التحديات التى تحيط بأمته ، لقد كان ذلك خطوة فى طريق هدفه المبيت إلى الأدب المنحل التى سار فيها إلى النهاية وتبعها بعد ذلك بخطوتين :

الأولى : ترجم شعر بودلير الماجن .

الثانى : ترجم القصص الفرنسى الداعر .

(٣)

كتب الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى فى كتابه قبض الريح ص ٦٣) وما بعدها ما يلى :

ولقد لفتنى من الدكتور طه حسين فى كتابه (حديث الأربعاء) وهو مما وضع وقصص تمثيلية — وهى ملخصه ، أن له ولعاً بتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة ، وقد يفكر القارئ أنه أدخل القصص التمثيلية فى هذا الحساب ويقول إنها ليست له وأن كل ما له فيها أنه ساق خلاصة وجيزة لها ، وهو اعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشئ بهواه كالإنكار سواء بسواء ، وأن يختار المرء ما يوافقه ويرضاه ويحمله عليه اتجاه فكره حتى لا يسعه أن يتخطاه ، ولست بمازح حين أنبه إلى ذلك وها هو حديث الأربعاء : ماذا فيه ، فيه كلام طويل عن العصر العباسى ، وللعصر العباسى وجوه شتى وفى وسعك أن تكتب عنه من عدة وجهات ولكن الدكتور طه حسين يدع كل جانب سوى الهزل والمجون ويروح يزعم لك أنه عصر مجون ودعارة وإباحية متغلغلة إلى كل فرع من فروع الحياة فلماذا ؟ لأية علة يقضى على الجوانب الأخرى لذلك العهد ، بل قل لماذا لا يرى فى غير الماجنين والخليعين صورة منه ، ولست أفترى عليه فإن القائل فى الصفحة السابعة والعشرين(١) من كتابه : ادرس هذا العصر درساً جيداً ، واقرأ بنوع

---

(١) غير طه حسين بعد الحملات القاتلة عليه ترتيب كتابه فجعل هذه الفصول فى الجزء الثانى وقدم فى الجزء الأول مقالات كتبها بعد ذلك بعشر سنوات .

خاص شعر الشعراء وما كان يجرى فى مجامعهم من حيث تدهشك ظاهرة غريبة ، هى ظاهرة الإباحة والإسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء كان هذا القديم ديناً أم خلقاً أم سياسة أم أدباً ، فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشاً اضطر الخلفاء من بنى العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكتاب لأنهم اتهموا بهذه الزندقة وظهر ازدراء الأدب العربى القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة بل ظهر إزدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها وكانت مجالس الشعراء والكتاب والوزراء مظهراً لهذا كله ، وليس يعنينا أن تكون النهضة السياسية الفارسية وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير ، وإنما الذى يعنينا أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر فى الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلا) .

ولم يكتف الدكتور طه حسين أن يعمد إلى طائفة معينة من شعراء العباسيين وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها ، صورة العصر بل هو ينكر أن غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العصر العباسى واقرأ قوله فى (صفحة ٥٠) من هذا الكتاب .

(فقد بينا فى ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقاً وكانوا أشد تمثيلا وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية وعلى أن كثيراً منهم كان ورعاً مخلصاً طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما شك الشعراء ، ولها كما لها الشعراء واستمتع بلذات الحياة فى عصره ، كما استمتع بها الشعراء فى جهرهم) .

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر ، كلا يا سيدى ، بل يجرى إلى آخر الشوط ، ويقول فى الصفحة التاسعة والثلاثين من كتابه :

(خسرت الأخلاق من هذا التطور وربح الأدب) فلم يعرف العصر عصراً كثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف فى فنونه وألوانه كهذا العصر ، ثم كان من كثرة المجون أو بعبارة أصح ، كان من فساد الخلق فى ذلك العصر والعصور التى وليته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفاً

فى الجاهلية ولا فى صدر الإسلام ولا فى أيام بنى أمية ، وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عندما خالطت العرب أو عندما انتقل العرب إليها فاستقر سلطانهم فى بغداد ، وهذا الفن الجديد هو الغزل بالغلمان الذى سنحدثك عن خصائصه فى غير هذا الفصل) .

إذا سمعت رجلا يقول إن الأخلاق فسدت وخسرت وأن الأدب ربح من وراء ذلك أفلا ينهض لك العذر إذا قلت أنه ينغم عن هذا الفساد ويسوغ هذه الخسارة ، نعم بلا ريب ، وأنت تحس من كلامه الرضى والابتهاج . ومن الذى لا يشعر بذلك حين يقرأ قوله فى عقب ما سقناه لك :

وإنما الذى يعنينا الآن أن نلاحظه أن هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك فى كل شىء وعبث بكل شىء وإسراف فى المجون واللهو كانوا يجتمعون ويجتمعون كثيراً ، أكثر مما كان يجتمع أسلافهم ، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف . كانوا لا يجتمعون إلا على لذة ، إلا على كأس تدار أو إثم يقترف ، وكانت اللذة والإثم حديثهم إذا اجتمعوا ، يتحدثون فيها شعراً ونثراً ، وكأن الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً ولم تكن اجتماعاتهم تخلوا دائماً من النساء ، فقد كان الإماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم ، وكانوا يجتمعون فى الحانات والأديرة وفى بيوت الأمراء والوزراء وفى بيوتهم الخاصة فيلذون ويتحدثون . .) .

ثم مضى يورد سير أبى نواس ومن إليه مثل الوليد بن يزيد ومطيع بن إياس وحماد عجردا والحسين بن الضحاك ووالبة بن الحباب وإبان ومروان بن أبى حفصة ويقول فى بيان الحكمة فى ذلك أنه لا يريد أن يكتفى بالقول (بأن القرن الثانى للهجرة على كثرة ما عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك والمشغوفين بالجد إنما كان عصر شك ومجون وعصر إفتتان وإلحاد عن الأخلاق والعادات الموروثة والدين أيضاً وإنما أريد أن أشخص حياه هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون تشخيصاً لا يجعل إلى الشك فيها سبيلا ، ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون ، إن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد فقد كان الناس جميعاً على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم ويميلون إليهم . وإذا كان الناس بهم معجبين وعنهم راضين ،

أقول : إذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك فى أن العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم لم يكن عصر إيمان ويقين فى جملته ، وإنما كان عصر شك واستخفاف ، وعصر مجون واستهتار باللذات (ا. هـ) ص ١٨٤ ، وحسبنا هذه المقتطفات التى تعمدنا الاستكثار منها لينتفى كل شىء فى أن الدكتور يلح فى إثبات ما يذهب إليه وأن هذا الرأى الذى عن له وعالج إثباته مستغرق لذهنه وأنه يصرفه عن أصالة الفكر فى كل جانب آخر من جوانب الحياة فى ذلك العصر .

ولا يسمح لنا ما نقصد إلى تبيينه حتى لا يختلط الأمر ، ونكتفى بملاحظة واحدة هى أنه ما من عصر يمكن أن يكون له جانب واحد كما يريد أن يصور لنا العصر العباسى ، وأنه لم يخل زمن قديم أو حديث من مثل ما يصفه الدكتور طه حسين .

* * *

وننتقل إلى قصص الدكتور ولنبدأ بقوله : فأنا أعترف بأنى لا أتخير هذه القصص عفواً ، وإنما أتخير منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفة ويلذ العقل أو يدعو إلى العناية والتفكير ، فليس فى الأمر مجال للتأول والتمحل والاحالة على الاتفاق والمصادفات فإن العمد هنا معترف به ومن العسير أن نلخص هذه القصص الكثيرة فى أسطر قليلة ، هذا مطلب لا سبيل إليه ، وعلى أنها قصص متداولة ، فحسبنا أن نقول دون أن نخشى اعتراضاً أنه ما من قصة منها إلا وهى تنطوى على نوع أو أنواع (الحيانات) أو مما يسميه الدكتور طه حسين (الشر والنكر) ويقول الدكتور طه حسين أنه إنما كتبها وجمعها ونشرها لأنه يريد أن يطلع قراء اللغة العربية على نحو من أنحاء الأدب الغربى ولأنه يرغب (أن يكون لهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر فى نفوس الأدباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربى خاصاً يحملهم على أن يعنوا بهذا الفن الناشئ فى أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصباً مفيداً .

وللقارئ أن يسأل : لماذا يؤثر الدكتور طه حسين (نحواً) آخر من (أنحاء) الأدب الغربى وليس هذا كل ما فيه ولا هو خيره ، لماذا عنى على وجه الخصوص بقصص الزناة والزوانى وبحكايات الجهاد — كما يقول

هو بين العواطف والشعور من جهة وبين العقل من جهة أخرى ، بين العواطف والشعور الفردية من ناحية وبين القانون والأوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى ، بين العواطف وبين الواجب وبين العقل وبين الدين ثم بين القانون وبين الدين أيضاً .

ألا يرى أن صنيعه هذا فى اختبار هذه القصص كصنيعه فى اختيار من كتب عنهم من العباسيين ، فكما أنه ترك أبا تمام والبحترى والشريف ومهيار والمتنبى والمعرى من فحول شعراء العرب وفضلائهم ووقع على أهل المجون والخلاعة والاستهتار ، كذلك لم ينتق من كنوز الأدب الغربى إلا هذه القصص الحافلة بضروب (الآثام والمنكرات) حتى حين يلخص قصة دانمركية لا تكون هذه القصة إلا من هذا النوع) .

(٤)

كذلك فقد تناول الدكتور حلمى على مرزوق فى كتابه تطور النقد والتفكير الأدبى الحديث فى قضية حرية الأديب ومشكلة الفن والأخلاق فى كتابات طه حسين فأخذ على طه حسين تبعيته لمذهب الحتمية التاريخية أو الجبر التاريخى الذى أدار عليه بحثه عن (أبى العلاء) مستمداً مفاهيمه من كتاب الغرب الذين يرون أن الكاتب وما يكتب نسيج من العلل الاجتماعية وأن الرذيلة والفضيلة متنوجات من مثل الزاج والسكر ، وقد أثبت المذهب الطبيعى الذى اعتنقه (تين) والدكتور طه حسين أن الفضيلة والرذيلة ليستا إلى حد كبير إلا نتاجاً لعملية تلقائية من الأحماض والقلويات ، وأن التاريخ مثل علم الحيوان قد اهتدى إلى قواعده التشريعية ، وقال أن الدكتور طه حسين غير منهجه بين كتاب أبى العلاء وبين كتاب (الشعر الجاهلى) وأشار إلى دعوة الدكتور طه حسين إلى حرية الأديب والصدق فى الأدب ويستشهد فيها بأبى نواس وأحزابه الذين اقتحموا قيم الخلق والدين واندفعوا يصورون الغزل وغزل الغلمة والخمر ومجالس اللهو وهم جماعة المجان وأن هذا فى نظر الدكتور طه حسين مجاراة الأديب للعصر ، وهو ما أملى عليه كلمة المشهورة (خسرت الأخلاق من هذا التطور وربح الأدب) .

وقال إن قولته هذه المشهورة أثارت عليه الناس فأخذ عليه رفيق العظم شططه فى الحكم والتقدير ورماه المازنى بالانحراف الخلقى الذى يسوغ الرضى بالانحلال والمنافحة دون الفساد .

ولا شك كان الدكتور طه حسين يريد أن يضع مذهبه هذا المنحرف فى أسلوب علمى خادع حين دعا إلى مجاراة العصر والذوق ، وعبر عن ذلك بقوله إن الصدق الفنى هو أن تكشف عن مشاعرك بلا مواربة ولا انتقاص ولا شك أن الدكتور طه حسين كان مبالغاً ومشتطاً حتى وصف أبى نواس بأنه يدعو إلى الصدق ، هذه الدعوة التى لا تمثل إلا الاستخفاف بالدين والاستهتار بالفضيلة .

ويرى الدكتور حلمى مرزوق : أن حرية الأديب لا جدال فى إطلاقها ولكن الخطر هو فى قصرها على عاطفة دون عاطفة ، أو وجدان دون وجدان فضلا عن عاطفة الهوى ووجدان الشك والمجون .

« وأخطأ الخطأ أن يوحى إلينا الدكتور طه حسين أن الأخلاق من مواضعات الحياة الجامدة كأنها وليدة الإرادة العمياء فهى فرض مكروه وإلزام أعمى يقتضى الحرب والإنكار ، والقاعدة الأخلاقية ليست على هذا الجمود المزعوم وإنما تكمن وراءها آفاق من الشعور لا حصر لها ، فهى خلاصة موقف إنسانى متشابك الأطراف أو هى أبعاد تجربة لا يمتنع أن تكون تجربة فنية خالصة .

وسيظل الناس كذلك يعتزون بالفن الأصيل ويتمثلون بشعر الشعراء فى مختلف الشئون ومواقف التصرف والسلوك وذلك أفعل فى خلق العرف وتصحيح الأخلاق .

« فالقاعدة الأخلاقية إذن ليست من قبيل المواصفات العمياء، ولا الضوابط الجامدة وإنما شأوها شأو الفن وليدة التجربة العميقة التى يقع بها صاحبها على الصلات الحقيقية بين الأشياء وشواهد الصلة بين الفن والأخلاق شائعة معلومة ، فى تواريخ الآداب والفنون ، ونراها ماثلة للعيان فيما يجرى بيننا من شعراء المتنبى وأمثال شكسبير ، (على أن طه حسين حينما يصرف الأدباء عن الأخلاق إنما يقع فى العيب الذى يأخذه بهم ، فهو يشتط فى نفس الحجر

على المشاعر ويقع هو فيه ، وأى حجر أشد من الوقوف بالفضائل والأخلاق بعيداً عن الفن ، فلا ينبغى للأديب أن يقربها وإلا كان أدبه (قديماً من قوارير) تصطلح عليه علل الكذب وأدواء التصنع ، وينتفى عنه سمات العصرية أو الأدب الحديث والوجدان الدينى بعد شأنه فى الأدب شأن غيره من الأحاديث ومشاعره النفسية لا ينقده ناقد ويكون له فى قضية الحرية نصيب ، على أنه سيظل ماثلا فى الأذهان أن الحرية قد تفضى لا محالة إلى ما دعا إليه طه حسين من الخروج من الاعتراف والمواصفات وينتهى إلى التعبير الحر عن الأهواء والنذوات وتلك جهة ستثير عندنا مشكلة الفن والأخلاق .

٢ - مشكلة الفن والأخلاق :

يقول الدكتور حلمى مرزوق : إن دعوى الاختلاف بين الفن والدين أو الأخلاق نشأت بين اتباع نظرية الفن للفن ومرد الاختلاف إلى اعتبار الفن نوعاً من التعبير لا أزيد ولا أقل فلا عبرة بالموضوع فى ذاته وإنما العبرة بمقتضيات التعبير ، فالفنان لا حجر عليه فى تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس ، اتفقت مواصفات الجماعة وإعراف الناس أم خرجت عليها ، فالفن لا يخضع لغير قانون التعبير ومن ثم جاء تعريفهم للفن بأنه تعبير .

ومن هنا أيضاً نشأ التضارب وما سار عليه طه حسين فيما أسلفنا من قوله (خسرت الأخلاق وربح الأدب) وهو موقف يوحى به ظاهر المذهب وعنه شاع هذا الخطأ حتى أصبح تبريراً لكل تبذل مقصود ، وحجة يسوقها (أنصاف) الفنانين بين يدى الانحلال ، يريدون أن يضفوا عليه ثوباً من المشروعية الزائفة ، ينفقونه بها فى سوق الغباء الفنى ، فغاية المذاهب الحقة تخليص الأدب من القيم الدخيلة عليه ولم يكن قصاراه أن يقف من الأخلاق أو الأديان موقف التناقض ، والتدابر الذى وقفه طه حسين ، ولقد أدرك الدكتور مندور هذا الخطأ الشائع بين أتباع هذا المذهب فثار به وصادره .

يقول : وشاع اسم هذا المذهب فى فرنسا وغير فرنسا وجرد من ملابسه التاريخية حتى انصرف إلى معان لم يقصد إليها من قالوا به فى أول الأمر ، فمن الناس من يظن أن الفن للفن (هو الخروج على قواعد الأخلاق ، والضرب على غير هدى فيما يسمونه الأدب المكشوف وهذا فهم خاطئ ، ومن الواجب

أن نفهم من مدلول هذا المذهب فهماً تاريخياً حتى يتبين حدوده ، والحكمة التى دعت إليه) .

وتحرير هذا المذهب أن التجربة الشعرية غاية فى ذاتها وقيمها مستمدة من وجودها بعيداً عما تشتمل عليه من أفكار أو معان ، ولا أظن هذا الموقف يوحى البتة بالخروج على الأخلاق وإنما هو موقف فنى سلبى خالص يريد أن يقيم للأدب دولة داخل دولة الحياة ، وليس أدل على انعدام قصد الخروج من اشتقاق مصطلح بخصوصه أرادوا به جلاء اللبس وإزاحة الشبهة ، وذلك المصطلح هو (اللاأخلاقى) ويريدون به البعد عن الأخلاق أو الذى لا شأن له بها ، وعندى أنه لا تضارب على الإطلاق بين الفن والأخلاق ، طالما أن أن الفن بالغ غايته وخلصت له فنيته من عوارض الضعف والزغل التى تعرض لأنصاف الفنانين وأجدر هذه العوارض هو عجز الفنان من هؤلاء عن أن يقع على الروابط الصحيحة والعلاقات الحقيقية بين الأشياء) .

وهكذا انكشفت أهداف الدكتور طه حسين من وراء عباراته الماكرة المموهة ، إنها ترمى إلى هدم القيم الأخلاقية وإعطاء الأديب والفن حق الاندفاع وراء مفاهيم الشهوات بغير حد محدود .

ومن هنا نعرف دعوته إلى تحرير الأدب من الارتباط بالإسلام ودعوته إلى تحرير اللغة من الارتباط بالإسلام .

أما هو فيقول (الدين) ونحن نقول (الإسلام) لأننا نفهم الإسلام فهماً جامعاً (منهج حياة ونظام مجتمع) أما هو فيحاول أن يحيلنا على مفهوم اللاهوت المسيحى الذى انفصل عنه الأدباء ليدخلوا فى الغرب تجربة الإباحة والجنس ونحن فى مفهوم الإسلام نفهم الأدب وهو متصل شديد الاتصال بأصله ومصدره الفكر الإسلامى ، فلا نستطيع أن ننفصل عنه ليجرى بعيداً عن ضوابط القيم والأخلاق .

* * *

(حديث الأربعـــاء)

يمثل كتاب حديث الأربعاء مجموعة مقالات نشرها(١) الدكتور طه حسين في جريدة (السياسة) عام ١٩٢٤ تناول فيها عدداً من الشعراء الإباحيين الغزليين أمثال « أبو نواس » و « بشار ووالبه والخليع ومن إليهم » .

وقد حاول الدكتور طه حسين في جماع هذه المقالات أن يفرض فرضاً باطلا زائفاً قوامه أن القرن الثاني للهجرة كان عصر شك واستهتار ومجون اعتماداً على وجود هؤلاء الشعراء فيه ، وأن هؤلاء الشعراء يمثلون عصرهم بأقوى وأعمق مما يمثله الفقهاء والعلماء والزهاد وقد اعتمد في ذلك على كتاب الأغاني الذي ليس مرجعاً صحيحاً يمثل العصر لأن صاحبه حدد هدفه وهو الحديث عن الأغاني ولايجوز أن يحكم على المجتمع الإسلامي في العصر العباسي من قراءة كتاب الأغاني الذي ألفه صاحبه لأخبار المجان والشعراء .

وقد عمد طه حسين في هذا الكتاب إلى إشاعة الفاحشة إذ تتمثل فيه الرزيلة بأبشع مظاهرها – على حد تعبير الدكتور عبد الحميد سعيد . وتظهر فيه نفسية الرجل بما يشرحه بعناية خاصة وإطناب من قصص المجون والفجور بأسلوب جذاب وبطريقة خلابة تؤثر في الناشئ المسكين وتزين له سبيل الفساد وتحبب له الانغماس في الشهوات بعد أن شوه له الدين وتعاليمه ومثله أمامه تمثيلا لا يرغبه فيه وأعطاه صورة مشوهة منفردة عمن قاموا بالدعوة

(١) أعاد الدكتور طه ترتيب هذه المقالات فقدم في الجزء الأول في الطبعة الأخيرة مقالات أخرى نشرها عن الأدب الجاهلي في جريدة الجهاد (يناير عام ١٩٣٥) وما بعدها ، وأخر مقالاته الخاصة بشعراء الغزل إلى الجزء الثاني وأبقى على المقدمة التي كتبها عام ١٩٢٤ للفصول التي أخرها إلى الجزء الثاني . وقد استهدف من ذلك إزالة بعض آثار الطبعة الأولى من النفوس ،وقد كانت هذه الفصول هي الأساس فيما وجه إليه من نقود ومعارضة لآرائه الإباحية .

إليه ولم يترك مسبة إلا نسبها إليهم فقد طعن فى الخلفاء والعلماء من عظماء الأمة الإسلامية ، وشوه تاريخ الإسلام بحيث لم ينج من مطاعنه إنسان ولم يحظى باهتمامه فى عصر الدولة العباسية الزاهر إلا هؤلاء الشذاذ من أهل المجون والفحش حيث جعلهم مرآة ذلك العصر ، أما أولئك المصلحون من أهل الفضل والرأى الذين أقاموا صروح المدنية فى العالم ورفعوا أعلام الفضيلة وأقاموا معالمها فى سائر الأنحاء فلم يذكرهم بخير بل خلع عليهم من المساوئ والشتائم والسباب ما أثبت التاريخ أنهم بريئون منه ، وما لا يصدقه فيهم إنسان حتى لو كان من أعداء الدين الألداء .

إن عظمة التاريخ الإسلامى فى عصوره الزاهرة لا ينكرها إلا جاحد فى قلبه غل على الإسلام ، فطه حسين آلى على أن يشكك فيما يكاد يبصره من عظماء التاريخ الإسلامى المكذوب ، وما الموضوع من أخباره الشاذة المطعون فيه فإنه يبحث عنه فى كل بؤرة ويلتقطه .

هذا هو رأيه فى العصور الزاهرة للإسلام التى تفخر بها كل الفخار إن هذا الكتاب — حديث الأربعاء — يموج بالأمثلة ، أمثلة الفسق والفجور والتهتك والاستهتار ويدعو إليها ويحض عليها ، وأن ما ذكره من قصص أبى نواس وجماعته لينفر من ذلك الأدب الذى يدعى أنه يحترمه ويحميه ، فقد جاء فى ذلك الكتاب من مخالفة الآداب والحض على الفجور والفسق ما يهدم الجبال الراسيات ويقوض أركان الفضيلة ويهدم صرح الأدب .
ومن أمثلة ذلك قوله :

(كان أبو نواس وأصحابه على فسقهم ومجونهم يتدينون ويقيمون الصلاة ، ولكنهم كانوا يعبثون فى هذا كما يعبثون فى غيره ، وربما قضوا الوقت الطويل عاكفين على الفجر (بضم الفاء) ثم يذكرون الصلاة فيقيمونها ولعلهم أقاموا الصلاة فى مثل هذا الحال يوماً وأمهم أحد الندماء فغلط وهو يقرأ (قل هو الله أحد) فاستحالت الصلاة من خشوع الله إلى استهزاء بهذا الإمام الجاهل . .
إلى أن قال : وإذا أردنا مثالا يختصر هذا العصر ويشخصه فهذا المثال هو أبو نواس الذى نتخذ من درسه سبيلا إلى درس العصر كله) .

وقد عد مجاهرة أبى نواس بالمعصية ضرباً من الصدق وعدم الجهر بالمعاصى نوعاً من الكذب لأنه إخفاء للواقع .

مفهوم التجديد عنه طه حسين :

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى : إن طه حسين لم يجد فى الأدب القديم ما يستحق أن يبعث وينشر إلا أخبار المجونيين الذين ابتلى بهم الأدب العربى كما ابتلى الأدب الفرنسى بأمثال أوسكار وايلد ، نعنى أبا نواس ووالبة والخليع ومن إليهم ، ممن نشر طه حسين أخبارهم فى (حديث الأربعاء) ومن الغريب أن تلك الأخبار الآجنة والأشعار الماجنة قد عرضها صاحب الكتاب فى ثوب البحث الأدبى باسم التجديد كأن البحث والتحديد فى الأدب ستاران تحارب الفضيلة من ورائه ، ووسيلة للدخول إلى النفوس بما لم يكن أولا تلك الوسيلة تداخلها عليها .

وصاحب الكتاب قد دل بكتاباته على أنه ممن يرى إخلاء الفن من قيود الفضيلة فلا يكون هناك على الفنان حرج فى أن يصور الرذيلة كيف يشاء بريشته أو قلمه ما دام يصور ها كما هى . وهو مذهب تنزه عنه من أهل كل فن عظماؤهم ، وحاربه من أهل كل زعماء الإصلاح فيه : أمثال كارليل ورسكن وماثيو أرنولد .

وأن العربية وآدابها إنما قاما حول جماع المكارم ومنبع الحياة والنور : القرآن والحديث وكنا نحس دائماً أن ما فى كتب (المحاضرات) كالأغانى والعقد التى استغل صاحبها الكتاب والأدباء جانبها المجونى (كنا دائماً نحس أن ما فيها من التطرف بهجر القول غريب عن روح هذه اللغة بعد الإسلام حقق ألا يلحق بأدبها ، ولعلنا لو تتبعنا تاريخها من هذه الوجهة نجد روح الطهارة يغلب عليها فى كل عصر يكون أهله أقرب منه إلى القرآن وروح التمجيد والتهاتر تغلب من كل عصر على أكثرهم مجانية للدين وأبعدهم عن القرآن وهذا شىء لا غرابة فيه فى لغة مدينة للقرآن بما لها من وجود وبما كان لها من قوة وبيان وإعجاز .

كتاب الأغانى :

وقال الدكتور زكى مبارك إن الدكتور طه حسين وجرجى زيدان قد أساءا فهم العصر العباسى ، وأنهما زلا وتورطا فى الخطأ حين وصفاه بأنه عصر إلحاد ومجون ، وأنهما فى حكمهما قد قلدا الأصفهانى الذى لم يرسم

للعصر العباسى إلا لوجه خلق معدنها من الكذب والتمويه ، وصبغت مبادئها من الضلال والبهتان .

وقال : إن شهوة الاطلاع كانت فى نفسه لاكتشاف الجوانب السيئة فى حياة الشعراء والكتاب خلقت فى كتابه جواً من المجون وقال إن الدكتور طه حسين يستقى آراءه فى العصر العباسى من شيئين :

الأول : كتاب الأغانى .

الثانى : شعراء الماجنين من الشعراء .

أما شعر الأغانى فصاحبه يحدثنا فى المقدمة بأنه قصد فى كتابه اللهو والتسلية قبل أن يقصد العلم والتاريخ . أما شعر الماجنين وحياتهم فلا ينهضان دليلا على فساد عقيدة العصر العباسى وأخلاقه .

والدكتور طه حسين يناقض نفسه حين يقول : وكان هؤلاء الزنادقة يعلمون سخط الكثرة المطلقة من الناس على زندقتهم وإن كانت الكثرة تجهل حقيقة هذه الزندقة) .

عصر الفقهاء لا عصر المجان :

وقال الشيخ محمد عرفة : لقد توصلت إلى حكمك العام على العصر الثانى باستقراء حال طائفة من الأدباء والشعراء والمترفين فرأيت فيهم الشاك والماجن فأخذت العصر بجريرة هؤلاء وحكمت بأن العصر : عصر شك ومجون وأن تصبح طائفة ووجدانها على صفة لا يعطى منطقياً الحكم على عصرهم جميعاً بأن فيه تلك الصفة ، ولو كان ذلك الاستقراء القليل منتجاً لذلك الحكم العام لخرجنا بحكمين متناقضين على ذلك العصر وعلى غيره من العصور . فإننا إذا تتبعنا سيرة الفقهاء والمحدثين والزهاد فى هذا العصر وجدناهم على مرتبة عظيمة من اليقين والورع والاحتشام ففيهم الحسن البصرى وعمرو بن عبد ومحمد بن إدريس الشافعى ومالك بن أنس وأبو حنيفة النعمان ومالك بن دينار وعبد الله ابن المبارك وربيعة الرأى ورابعة العدوية وابن سيرين والشعبى .

وما فيهم إلا من ملك نفسه ، وكان أنفع الناس للناس ، وسيرتهم فى العلم والزهد والتقوى يعرفها من عنى بدرس حياتهم ، فطائفة الفقهاء والمحدثين

مؤمنون متحشمون وطائفة الشعراء والأدباء فيهم شك واستهتار فإذا أردنا أن نحكم على العصر فسبيلنا أن نتعرف أطائفة الفقهاء والزهاد والمحدثين وهم يمثلون عصرهم ويعطون صورة صحيحة عنه ، أم طائفة الشعراء ، إن القارئ للأغانى يخيل إليه من كثرة مايذكره من مجون هؤلاء أنهم فى جو يسيل فسقاً ومجوناً وإلحاداً ، ولكن لو نذكر أن صاحبه إنما عنى بتاريخ طائفة فقط : هم الشعراء والمغنون وليس ذلك تاريخاً لسائر العصر لحمى نفسه من التورط فى الحكم وأن هناك عوامل خاصة جعلت كثيراً من الشعراء المهتدين ماجنين ، ونقرأ فيما تقرأ أن هؤلاء الشعراء كانوا يرون أنفسهم غرباء بتخلفهم عن ذلك العصر وأنهم شذاذ فيه وكانوا يسعون بما لديهم من قوة لمحو القالة عنهم .

مذهب فاسد :

وقد واجه العلامة المؤرخ رفيق العظم هذا الاتجاه الذى ابتدعه طه حسين وكشف عن زيفه وأبان أن مثل كتاب الأغانى لا يصلح كمرجع من مراجع التاريخ وأن ما ينسب إلى الرشيد والمأمون من الاستمتاع واللذائذ أو المتاع يجب أن يحتاط فى تقديره ، وعنده (أن الحقائق التاريخية لاسيما فى تاريخ الإسلام تشبه الدر بين أشواك تحتاج لمن يريد استخراجه من تلك الأشواك ، إلى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الشوك . ويرى أن كتب القصاصين (التى اعتمد عليها طه حسين فى كتابه حديث الأربعاء) قد حفلت بأخبار كاذبة نسبتها شيع العباسيين إلى خلفاء بنى أمية وأخبار نسبتها شيعة آل على إلى خلفاء بنى العباس ، وهى من أحط ما ينسب إلى خلفاء أو ملوك كانوا فى مثل مرتبتهم من العزة والمنعة وبسطة الحياة والملك وكان من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة إلى المنزلة التى أنزلهم إليها الوضاعون ويدوم لهم طويلا ذلك الملك العريض والشهرة الذائعة فى التاريخ .

وعنده (أننا لو سلمنا بكل ما جاء فى تلك الكتب والأقاصيص واعتبرناها أخباراً صحيحة ليس فيها شائبة من شوائب الكذب والاختلاق والتلفيق لكان لنا أقبح مثال من أمثلة العصور الإسلامية الأولى التى نعتبرها من مفاخر تاريخنا الغابر المجيد .

وأشار رفيق العظم إلى ظاهرة القصاص والقصص الذى استشرى فى المجتمعات الإسلامية والتى كانت تشغل الناس فى العصور المختلفة وكيف أن واضعيها وضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية ، أما الأغراض التجارية فهى الكسب والانتفاع ، إذ من المعلوم أنه لم يكن فى القرون الأولى للإسلام من وسائل التسلية وأماكن اللهو العامة ما يقضى فيه العامة أوقات الفراغ . ومن هنا أخذ الأذكياء فى وضع قصص تحكى فى المجتمعات فيلهوا بها العامة فكان فيها المختصر المبعثر فى ثنايا الكتب ومنها المطول المجموع فى كتب على حدة ، ولما استطاب الناس أمثال هذه القصص والأخبار وأصبحت ضرورة من ضرورات الحياة تنافس الرواة والقصاصون فى تدوين الأخبار ووضعها تارة مجموعة وتارة متفرقة فى كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرماء وغير ذلك ، فكان منها الغث والسمين ، ومنها المتفق والقريب من العمة ، وقد غالى بعض الإخباريين فى إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس فى الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من معنى الأدب الذى أخذ به الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم بسبب كبير ينافى ما ينسب إليهم من إطراح رداء الحشمة والمروءة) .

هذا هو الحصاد الضخم الزائف الذى اعتمد عليه أمثال طه حسين وغيره فى محاولة رسم صورة للعصر الأموى ووصفه بأنه عصر الشك والمجون وهو فى تقدير رفيق العظم إنما هو تلفيق قصص يراد بها به أحد أمرين : إما تشويه سمعة بعض الخلفاء العباسيين كالرشيد والمأمون ، وإما سد نهمات العامة إلى أمثال هذه القصص المخزية والروايات الملفقة .

وهكذا نجد أن طه حسين تميز بدعوته إلى أمرين :

الشك والإباحية :

وأنه يعتمد فى ذلك على مصادر تافهة لا قيمة علمية لها أساساً فى إذاعة مذهبه وترويجه لدعوته التغريبية الضالة .

* * *

الفصل الرابع

أخلاقيــــة الأدب

هذه قضية من أكبر القضايا : قضية مفهوم طه حسين للأدب فى ضوء مفهوم الإسلام ، فإلى أى حد يمكن للأديب أن يكون حراً وإلى أى حد يصل (الصدق الفنى)، وهل نحن كعرب ومسلمين يمكن أن نقبل بالنظرية الإباحية الغربية التى روج لها طه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهما ، وهى نظرية إطلاق الكلمة دون أن تكون لها ضوابط من الأخلاق الإسلامية ، وفى هذا المجال نعود فنتحدث عن مفهومه فى الفكر الإسلامى فى الرابطة بين وبين روافده وفى مقدمتها الأدب حيث لا يمكن أن ينفصل الأدب بنفسه ويستعلى على الضوابط والقيم التى رسمها الإسلام وفى مقدمتها أخلاقية الأدب والتزامه بالأداء فى حدود الوجهة الصحيحة ، مدافعاً عن الخير والحق والجمال والفضيلة ، ومعلياً الأخلاقى عن الجمالى ، ومن أجل أن نذيع طه حسين نظريته فى إباحية الأدب اختار لها ما يسمى (الصدق الفنى) وهو تعبير زائف يراد به أن يكتب الشاعر والأديب والفنان الصورة الواقعية بما فيها من إباحيات وسموم وزيف وما هكذا رسالة الأدب فى مفهوم الإسلام .

ومن أجل دعوة طه حسين إلى (إباحية الأدب) فى مواجهة (أخلاق الأدب) فهو يدعو إلى عدة معانى مضللة وزائفة كالواقعية وكحرية الرأى .

(وأنه يرى هذه الحرية كحرية « أبو نواس » فيقول إن أبا نواس وأضرابه لم يبلغوا ما بلغوه فى النفوس إلا باقتحام هذه العقبة وفكرة تلك العقود ، وهو يرى أن حياة الدين كانت تجذب العرب إلى الوراء بينما تدفعهم الحضارة المادية إلى الأمام .

ويرى أن هؤلاء الشعراء هم أول من استجاب لدواعى التطور والنزول على حكم هذه الحضارة والاستمتاع بملاذها ما يرضى الدين وما لا يرضى الدين وصدقوا الناس فيها القول فراغوا بشعرهم وكثر طلابه والمعجبون به

وهذا ما أملى عليه قولته المشهورة :

« خسرت الأخلاق فى هذا التطور وربح الأدب » .

ولا ريب أن مفهوم طه حسين هذا مفهوم ضال ومبطل وزائف ، ودخيل على الفكر الإسلامى والأدب العربى ، وقد أخذ عليه كثيرون شططه فى الحكم والتقدير ، فعلى حد قول السيد رفيق العظم ورماه الأستاذ المازنى بالانحراف الخلقى الذى يسوغ له الرضى بالانحلال والمنافحة .

وقال الدكتور حلمى على رزق : أى شطط ومغايظة أنكى من قوله : « فلم يكن أبو نواس يدعو إلى (الصدق) لأن الدعوة إليه ترضى الدين أو ترضى الفضيلة ، وإنما كان يدعو إليه لأن الدعوة إليه ترضى الذوق وترضى الجمال الفنى ، والاستطراد هنا إلى الدين والفضيلة من اللغو والإطناب ، ولا ينبئ إلا عن الاستخفاف بالدين والاستهتار بأمر الفضيلة ، وهكذا أصبح الدين والعرف والأخلاق على يديه قيوداً يقاسى الأدب باختراقها والجرأة عليها) .

ويقول الدكتور حلمى على رزق : إن حرية الأدب لا جدال فى إطلاقها ولكن الخطأ فى قصرها على عاطفة دون عاطفة أو وجدان دون وجدان ، فضلا عن عاطفة الهوى ووجدان الشك والمجون ، وأخطأ الخطأ أن يوحى إلينا طه حسين أن الأخلاق من مواضعات الحياة الجامدة كأنها وليده الإرادة العمياء التى نادى بها شوبنهور فهى فرض مكروه أوإلزام أعمى يقتضى الحرب والإنكار . ولا ريب أن القاعدة الأخلاقية ليست من قبيل المواصفات العمياء ولا الضوابط الجامدة ، وإنما شأوها شأو الفن ، وليدة التجربة العميقة التى يقع بها صاحبها على الصلات الحقيقية بين الأشياء ، وشواهد الصلة بين الفن والأخلاق شائعة معلومة فى تواريخ الأدب والفنون ونراها ماثلة للعيان فيما يجرى بيننا من شعر المتنبى وأمثال شكسبير ، على أن طه حسين عندما يصرف الأدباء عن الأخلاق ، إنما يقع فى العيب الذى يأخذهم به فهو يسقط فى نفى الحجر عن الشاعر ويقع هو فيه وأى حجر أشد من الوقوف بالفضائل والأخلاق موقفاًبعيداً عن الفن فلا ينبغى للأديب أن يقربها وإلا كان أدبه (قديماً من قوارير) تصطلح عليه علل الكذب وأدواء التصنع ، وينتفى عنه

سمات العصرية والأدب الحديث ولاريب أن الوجدان الديني يعد شأنه فى الأدب شأن غيره من الأحاسيس ومشاعر النفس، لا ينبذه ناقد ولا يكون له فى قضية الحرية نصيب ، على أنه سيظل ماثلا فى الأذهان أن الحرية قد تفضى لا محالة إلى ما دعا إليه طه حسين من الخروج عن الأعراف والمواضعات وينتهى إلى التعبير عن الأهواء والنذوات .

ولا ريب أن مشكلة الفن والأخلاق من أعوص المشاكل الأدبية فهى تقتضى النظر فى ماهية الفن والأخلاق فضلا عن النظر فى طبيعة النشاط الفنى والجمالى ، وصلته بطبيعة النشاط الأخلاقى ومكان النشاطين من ملكات النفس ، ولا ينكر ما تتقاضاه كل مشكلة من الجهد منفردة فضلا عنها مجتمع بعضها إلى بعض عن اختلاف الرأى فيها ، وخلاصة القول أن دعوى الاختلاف بين الفن والدين والأخلاق نشأت من اتباع نظرية (الفن للفن) ومرد الاختلاف إلى اعتبار الفن نوعاً من التعبير لا أزيد ولا أقل ، فلا عبرة بالموضوع ذاته وإنما العبرة بمقتضيات التعبير فالفنان لا حجر عليه فى تصوير ما يشاء من المشاعر والأحاسيس اتفقت مواضعات الجماعة وأعراف الناس أم خرجت عليها ، فالفن لا يخضع لغير قانون التعبير ، ومن هنا نشأ التضارب وسار عليه الدكتور طه حسين فيما أسلفنا من القول (خسرت الأخلاق وربح الأدب) .

وهو موقف يوحى به ظاهر المذهب وقد شاع هذا الخطأ حتى أصبح تبريراً لكل تبذل مقصود وحجة يسوقها أنصاف الفنانين بين يدى الانحلال ، يريدون أن يضفوا عليه ثوباً من المشروعية الزائفة ينفقونه بها فى سوء الغباء الفنى ، فغاية المذهب الحقة تخليص الأدب من القيم الدخيلة عليه ولم تكن قصاراه أن يقف من الأخلاق والأديان موقف التناقض ، والتدابر ، الذى وقفه طه حسين .

(٢)

ويعرض الدكتور محمد أحمد الغمراوى لقصة إطلاق الأدب عرضاً تاريخياً يكشف خلفية الدعوة التى حملها دعاة التغريب وفى مقدمتهم طه حسين فيقول :

إنهم نفر تثقفوا ثقافة غربية من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الإسلامية نصيب مذكور ، والعلم الذى ظهر فى الغرب هو فى الإسلام جزء من الدين ، والذين جاءوا بعد محمد عبده ضلوا سبيل الدعوة وصدقوا الغرب فى ظنه الذى ظن بالإسلام من أنه كان سبب تأخر الشرق ولم يطيقوا أن يهاجموا الإسلام مواجهة بدعوة الناس صراحة إلى نبذه . وعمدوا إلى مهاجمته مداورة بدعوة الناس إلى قبول كل ما عليه الغرب ، إن كانوا يريدون أن يكون لهم ما للغربيين من قوة وحياة ، وزعموا للناس أن المدنية الغربية كل لا يتجزأ ، فإما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها ، وإما أن تؤخذ باجتماعياتها وأدبياتها وعلمياتها وإما لا يؤخذ منها شيء ، ونجحت حركة الالتفاف الذى يقوم بها دعاة الغرب ضد الإسلام فى نفوس من أصغى إليهم من الناس حين ألجأوهم إلى أن يميزوا أنفسهم ذلك التمييز بين القوة والحياة .

والمسالمة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختبار بين أدب وأدب ، وطريقة وطريقة ، ولكنها مسألة اختيار بين دين ودين ، فالذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الإسلام فى أكثره ، والذين يسميهم هؤلاء : نصار القديم يؤمنون بالإسلام كله ، وبالقرآن كله ، ويأبون أن يؤمنوا ببعض ويكفرون ببعض ، وأن يدينوا للغرب مؤمنين به من دون الله .

ثم إن أنصار الجديد يضيقون ذرعاً بالقيود الأخلاقية التى قيد الدين بها الناس فيما يعملون أو يقولون ، ويريدون أن يتحللوا منها فزعموا للناس أن هذه الأخلاق وقيودها إن هى إلا عرف وتقاليد ، وأن التقيد بالعرف والتقاليد فى الفن والأدب يعوق الفن ويحول دون ترقى الأدب ، فيجب إذن إطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود ، وأنصار الجديد يدعون إلى الفن العارى والأدب المكشوف ويدعون للفنان والأديب حرية فى القول والفعل لم يأذن بها الله لإنسان وأنصار قديم الإسلام يدفعونهم عن هذا ويحدون حرية الفنان والأديب بما حد الله به حرمة كل إنسان من قيود الدين والأخلاق .

ويمضى أنصار الجديد فى سبيل توهين السد الإسلامى الذى يجدونه قائماً فى وجوههم أينما تلفتوا فيزعمون للناس من طرف خفى أن القرآن من صنع

عبقرى لا من صنع الله وأنه آية فنية إنسانية لا معجزة إلهية وإذن فينبغى أن يخضع لما يخضع له كل عمل إنسانى من النقد والفحص والبحث العلمى فيما يزعمون ويهب لدرء هذا الإفك العظيم كل كريم من رجال الأدب ويقاتلونهم على إعجاز القرآن وحرمته وتقديسه ويدعونهم إلى خطة إنصاف ليس من إنصاف بعده . إما أن يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشىء إن كانوا لا يؤمنون به ، وإما أن يذكروه ويدرسوه إذا قدروا على دراسته ، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والإجلال الذى يدرس به العلماء الشمس والنجم والبحر وما عليها من الظواهر الكونية الثابتة .

ويتحدث الدكتور محمد أحمد الغمراوى عن الفن فيقول إن للإسلام مقياس يعرف به الخير من الشر فى الفنون وهو كمعيار معرفة الحق والباطل فى العلوم ثم يمضى فيقول : إن أصحابنا المجددين يعرفون من كلمة الدين كأنما تلسعهم من اسمه النار ، إن المسألة فى الدين ليست مثلها فى الأدب الذى يكتبون كلاماً لا يرجع فيه إلى أصل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن ، ونحن مأمورون أن نرد كل ما نختلف فيه إلى الله والرسول . إن المسلم الذى يفقه دينه ويفقه الحياة إينما نظر لا يجد مفراً من أن يصل هذه الحياة ، أدبها وفنها وعلمها بالدين كما أنزله الله ، أى كما يتبين من القرآن ومن عمل الرسول ، إن الإسلام دين يشمل الحياة بحزافيرها ويحيط بها من جميع أطرافها ، ومن أخص خصائصه أن يكون الإنسان فى خلجات نفسه مع الله ، والمظهر العام للإسلام هو طبعاً اتباع ما شرع الله للإنسان فى الحياة من نظم وأحكام . كيف يجوز فى غزيرة أو عقل أو علم أن يجمع الإنسان بين الحياة الإسلامية والحياة الفنية والأدبية والعلمية إن لم يكن بين الفن والأدب والعلم وبين الإسلام تمام التطابق والاتفاق ، والتطابق التام بين العلم والإسلام ثابت لا شك فيه ، فليس من الثابت فى العلم شىء ينقض شيئاً من الإسلام ، وليس فى الإسلام أصل ينقض حقيقة ثابتة فى العلم ، إن الفطرة كلها منشئها واحد هو الله سبحانه وتعالى ، والعلم والدين كلاهما قد اجتمعا على استحالة التناقض فى الفطرة ، فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة كما يزعم أهلها وجب ألا تخالف أو تناقض دين الفطرة : دين الإسلام فى شىء ، فإذا خالفه

فى أصوله ودعت صراحة أو ضمناً إلى رزيلة من أمهات الرزائل التى جاء بها الدين لإيجابها على الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقى فى النفس والروح ، إذا خالفت الفنون الدين فى شىء من هذا أو فى شىء غير هذا ، فهى بالصورة التى تخالف بها الدين فنون باطلة ، فنون جانبت الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة التى فطر الله عليها الناس والخلق ، والتى تريد الفنون أن تكون منها فى الصميم ، فإذا كان من شأن بعض ما يعمل أو يكتب باسم الفن أو الأدب أن يتجاوز فى تأثيره ما سبق على القيم الأخلاقية فيحول بين الإنسان وبين ربه ويدخل عليه الشك فى دينه بأى صورة من الصور ، ولأى حد من الحدود ، كان ذلك البعض المعمول أو المكتوب باسم الفن أو باسم الأدب زوراً أو إفكاً فى الفن والأدب والفطرة والدين على السواء . فنحن حين ندعو إلى وجوب نزول الأدب والفن على حكم الدين وروحه وتحريهما التطابق العام بينهما وبينه لسنا نتعنت ولا نتجنى ولا نتحكم فى الأدب والفن بما لا ينبغى التحكم به فيهما . إننا نوجد معياراً للحق والصواب والخير فى الفن والأدب ونيسر للفن والأدب طريق التثبت فى انطباقهما على الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ونحقق لها بذلك اتحادهما مع الفطرة فى الصميم ، ونحن بذلك الذى ندعو إليه . ونقوم بوجوبه نحقق بين الفن والأدب وبين الدين تلك الوحدة المتحققة فى الدين والعلم .

فالمسألة فى الأدب ليست مسألة لفظ ومعنى ، ولكنها فى صميمها مسألة روح ، فريق يريد أن يجعل روح الأدب روحاً شهوانياً بحتاً يتمتع صاحبه بما حرم الله وبما أحل ، لا يفرق بين معروف ومنكر ، ثم يصف ما لقى فى ذلك من لذة وألم أو غيرهما من ألوان الشعور ، ويخرج ذلك للناس على أنه هو الأدب ، وفريق يريد أن يحيا الحياة الفاضلة فى حدودها الواسعة التى حدها الله وبمظاهرها المختلفة فى الفطرة كما طهرها الله لا كما دنسها ويريد أن يدنسها الإنسان .

ويتحدث الدكتور محمد أحمد الغمراوى عن الأدب الأخلاقى والأدب غير الأخلاقى فيقول : المقياس الذى انتهينا إليه فى الفن والأدب ليس من البعيد عن الفن والأدب بل هو من روح الفن والأدب فى المنهج ، أليس

روح الفن والأدب : الجمال ، أليس الجمال الفنى روح الجمال الإنسانى أليس روح الجمال النفسى أخباته وأخلاده وإسلامه لله ،من هذا الأخبات والأخلاد والانقياد لله تأتى الفضيلة والسلامة والسعادة فى الحياة ومن محبة الله سبحانه يشيع فى النفس الهدى ويشع منها النور كيف يمكن إذن أن يكون للأدب المكشوف نصيب من روح الجمال الإنسانى يستهوى النفس التى فيها بقية من الفضيلة والخير ، هذا الأدب المكشوف يصدم أول ما يصدم مقر الفضيلة فى النفس ، ويؤذى أول ما يؤذى حاسة الجمال النفسى فى الإنسان وهو فى صميمه أدب غير جميل ، يلذه ويسمع به من مسخه نفسه فصارت تعاف الطيب وتستمرئ الخبيث .

• • •

الفصل الخامس

الترجمـــــــــة

يحاول طه حسين أن يثبت أن الأدب العربى فى حاجة إلى مترجمات من الآداب العالمية وفى مقدمتها اللغة الفرنسية والأدب الفرنسى ، وهو يذهب إلى أن يقتحم هذه الغاية فتقدم أسوأ ما فى الأدب الفرنسى من نتاج حيث اختار فى جميع مترجماته الأدب الفرنسى المكشوف .

وهو كى يدارى وجهته يدعو إلى النقل من الآداب العالمية كلها ، لا الأدب الفرنسى وحده ويبدأ هذه المحاولة بأن ينشئ مقارنة بين الأدبين العربى والفرنسى فيعلن أن الأدب العربى قد أخذ من الأدب اليونانى القديم فلا بأس عليه من أن يأخذ من الأدب الغربى الحديث . ثم يذهب خطوة أخرى فيجرى مقارنة بين الأدب العربى والأدب الفرنسى فيشيد بالأدب الفرنسى والتبعية واضحة فى الغاية وفى الوسيلة أيضاً .

« تسألنى عن الفرق بين الأدب الفرنسى والأدب العربى ، فإنى فى ذلك لا أختلف من المستشرقين الذين بحثوا هذا الموضوع وهو فى الواقع فرق بين ما بين العقل السامى والعقل الآرى ، فالأدب العربى سطحى يقنع بالظواهر والأدب الفرنسى عميق دائم التغلغل . . وفى الأدب الفرنسى وضوح وتحديد لا وجود لهما فى الأدب العربى . . إلخ .

وهو فى هذا يردد ما قاله أكبر أعداء الإسلام والعرب (رينان) وهو ينطلق من هذه المحاولة المبطلة إلى الدعوة إلى نقل الأدب الفرنسى ، ولما كان لكل أدب أمة مميزاته وخصائصه المندمئة من حياة هذه الأمة وعقيدتها وأخلاقها فإن هذه المقارنة باطلة أساساً ، كذلك فإن طه حسين حين ينقل فإنما ينقل أسوأ ما فى هذه الآداب ، ينقل ذلك اللون المكشوف الداعر الذى لا حاجة للأدب العربى به ، والذى لا يستطيع أن يعطى إلا الفساد والتحلل ، وهو

فى كل ما نقل من الأدب اليونانى والأدب الفرنسى جرى هذا المجرى . وذهب إلى أبعد من ذلك حين حاول أن يهدم قاعدة أساسية وهى أن الأدب لا ينقل دائماً كما تنقل العلوم ، وأن لكل أمة آدابها المستمدة من قيمها وعقيدتها وتقاليدها .

ولكن يذهب إلى الدعوة لغير ذلك فيتحدث عن أن الأدب الفرنسى لم يقف هذا الموقف ، ونحن نعرف أنه أخذ من الآداب الأوروبية المشتركة معه فى الدين والأخلاق والقيم ، ولكنه لم ينقل من آداب غير مشتركة معه فى هذه الأصول ، ونحن بالنسبة للأدب الفرنسى نختلف ديناً وأخلاقاً وقيما فلا يحق لنا أن ننقل أو نفتح باب الاقتباس فى هذا المجال : مجال الأدب ونستطيع أن نفعل ذلك فى مجال العلوم فهو وحده الميدان الذى تتواصل فيه الأمم .

ويهدف طه حسين من دعوته تلك إلى هدف حثيث ، وهو أن يدخل مناهج الأدب الأجنبى فى اللغة العربية لتغلب ثقافتنا العربية الإسلامية وتنازعها نفوس المسلمين والعرب وتؤدى خدماتها للنفوذ الأجنبى فى حمل الفكر والثقافة .

وفى هذا يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى :

يؤسفنا أنه ومن لف لفه يسوقون الأدب العربى فى غير طريقه ، ويلبسونه ثوباً من غير نسجه ، كان الدكتور طه ومن معه يريدون أن يسوقوا الأدب إلى الافتتان بالأدب الفرنسى خاصة ، والغربى عامة حتى يضل طريقه . أى صلة بين المنقول من الأدب الفرنسى : وبين روح هذه الأمة ، ويذهب طه حسين إلى الترجمة فلا يقدم إلا الشهوات والسموم ، هذا فى مجال القصة ، ولا يكتفى بهذا ، بل يذهب إلى مجال ترجمة الشعر الفرنسى ، ويختار شعر أشد شعراء فرنسا إباحة ونذالة : شعر بودلير ، ويقدم هذا الشعر بأسلوب عجيب حيث يقول :

أنا أقف بك الآن عند هذه المقطوعة القصيرة من شعر بودلير التى سماها (خلوة إلى النفس) والتى تحدث فيها إلى أمه .

وكما قدم أبا نواس فى حياته المضطربة المليئة بالإثم والفاحشة ، فهو يقدم

تلك بودلير تحت اسم الحرية والفن ، ويتحدث عن ديوانه (أزهار الفن) الذى وقف من أجله الشاعر أمام القضاء .

ويقول لقد أثارت حياة بودلير مسألة من أدق المسائل التى سيظل الخلاف قائماً فيها أبداً بين الفرد والجماعة ، هذه المسألة هى مسألة الحرية والفن .

ويتساءل : هل للفن أن يستمتع بحريته الكاملة بالقياس إلى الأخلاق والسياسة والدين وما إليها من النظم الاجتماعية .

ويتساءل مرة أخرى : هل يستطيع الفن أن يتخذ الشر موضوعاً ونستخلص منه صوراً فنية جميلة . .

هذه هى السموم التى أدخلها الدكتور طه حسين إلى الأدب العربى عن طريق الترجمة ، تلك هى عمله على أن يعرض تلك الصور التى سماها (الصور البشعة التى يحسها الشم واللمس أو البصر فى الأجسام الهالكة المستهلكة) ، هذا هو ما يرغب طه حسين إدخاله إلى الأدب العربى عن طريق الترجمة .

أما ما أثاره فى هذا من القضايا فقد واجهناه بالرد الحاسم فى الأبواب الأخرى.

(٢)

وقد حرص طه حسين من خلال برنامجه التغريبى الواسع أن يقدم فى جريدة السياسة يوم الأربعاء شعراء المجون، وأن يقدم يوم الإثنين القصص الفرنسى المكشوف .

وقد كان هدف ذلك تقديم شحنة ضخمة من الإباحيات من التراث القديم ومن الأدب الحديث ، وقال مستر (جب) : إن القصص الذى ترجم لم يترجم ترجمة سليمة ولم يراع فى اختياره حالة مصر الاجتماعية ولا حالة الثقافة العامة ولا الذوق الأدبى للبلاد كما ندد بالمترجمات التى نقلت من اللغة الفرنسية ووصفها بأنها استهدفت الإثارة دون المنفعة ، وأنها عملت على نقل الصور المكشوفة .

وقد لقيت هذه القصص نقداً عنيفاً من عدد من النقاد فى مقدمتهم الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى . الذى يقول :

خذ إليك مثلا تلك القصص الفرنسية التى لخصها طه حسين من آن لآن يلهى بها كثيراً من النشء ويضل بها كثيراً . هل ترى بينها وبين روح هذه الأمة صلة أو بينها وبين روح هذه اللغة صلة ، وإذا لم يكن فهل فيها

شيء يحدو من عناصر الفضيلة والطهارة الروحية في هذه الأمة ويعينها على سبيل العزة الذى تريد ، ما نظن أحداً دخل تلك القصص وخرج منها وهو أقرب إلى الفضيلة والعفاف منه قبل بدئها وهذا أهون ما يمكن أن يقال عنها ولو كنا ضاربين مثلا لضربنا مثلا : (الزنبقة الحمراء) التي ألفها — أناتول فرانس كان فيها من المعانى ما كنا نظن أن أستاذاً يستحى أن ينقله للناس أو أن مجلة مثل (الهلال) تنشره عليهم ولكنا نأبى أن تشير بأكثر من هذا . وصاحب الكتاب — أى طه حسين — قد دل على أنه ممن يرى إطلاق الفن من قيود الفضيلة فلا يكون هناك على الفنان جرح فى أن يصور الرزيلة كيف يشاء بريشته أو بمنقاشه أو بقلمه ما دام يصورها كما هى ، وهو مذهب شاع حديثاً فى أوربا وأعان على انتشاره أن يجد عوناً من الجانب الحيوانى فى الإنسان وأنه وسيلة قوية لنيل الشهرة وجمع المال ، وفيما يتصل بأثر طه حسين فى الترجمة ما قام بترجمته من بودلير الشاعر الفرنسى والمعروف أن بودلير شاعر منحرف الذات والذوق وأن هناك عشرات من الشعراء ذوى الفن العالى والذوق الرفيع يمكن الترجمة لهم ، وفى إحدى هذه القطع يقول طه حسين ناقلا عن بودلير : (كذلك نفسك التى يحرقها برق اللذة الملتهب تبدو سريعة جريئة نحو السماوات الواسعة المشرقة) .

ويقول الأستاذ المازنى : (اقرأ قصصه التى ترجمها : هل كان همه نقل الفصاحة الإفرنجية إلى قراء اللغة العربية أو نقل الصور الفاضلة فى ثيابها المصونة ، إنما كان همه مدح الخيانة والاعتذار للخونة وتصوير الخلاعة والمجون فى صور جذابة ليقضى بهذه الترجمة حق الإباحية لا حق اللغة ولا حق الفضيلة ، وكان طه حسين يقول : إنه ممن خلق الله لهم عقولا تجد فى الشك لذة وفى القلق والاضطراب رضاً) .

ولقد أعلن طه حسين أكثر من مرة رغبته فى ترجمة الفلسفات الأوربية كما كان حريصاً على ترجمة شكسبير ، وقد أصدرت اللجنة الثقافية فى الجامعة العربية مجموعة من الكتب عن إدسون ، وول ديورانت وغيرهما تبين منها أبعاد الخطة لإذاعة مفاهيم صهيونية ترمى إلى تدمير القيم الإسلامية والعربية وكانت الجامعة العربية فى هذا وكأنما تنسق مع اليونسكو وفرانكلين وغيرها مما يلوذ بولاء الدكتور طه حسين ويجرى فى مصر تحت مظلته ونفوذه .

الفصل السادس

نقد الشعر

هناك إجماع بنصوص صريحة من العقاد وزكى مبارك ومحمود محمد شاكر الذى كتب فصلا مطولا فى هذا فى مقدمة كتابه (المتنبى) أن طه حسين قليل الخبرة فى فهم الشعر ونقده ، وتجمع نصوص أخرى على أنه فى كل معاركه التى دخلها عن الشعر كان موقفه ذاتياً وكان يصدر عن هواه الشخصى ولم يكن يملك من الأدوات ما يمكنه من حسن النظر ولا يملك من التماسك الشخصى ما يمكنه من سداد الرأى .

وموقفه من ناجى وعلى محمود طه واضح تماماً فى هذا الصدد ، فحين أحس بأن خصومه السياسيين أثنوا عليهم حمل هو عليهما حملة عنيفة وكذلك كان موقفه من محمود أبو الوفا . وكان العقاد والمازنى قد أثنيا على ناجى وعلى محمود طه وكان الرافعى قد أثنى على (محمود أبو الوفا) وكان لابد للدكتور طه أن يعارضهما لحزازات قديمة أو خلافات سياسية .

وقد علق على هذا الأستاذ سيد قطب بمقالات نشرت فى مجلة الأسبوع (يوليو عام ١٩٣٤) وقال طه حسين فى الرد عليه : (إنه لم يوفق إلى الصواب حين ظن بى أنى أتأثر فيما أكتب بمنافسة أو ضغينة أو حقد ، فالله يشهد أننى أبعد الناس عن هذه المؤثرات وأنآهم عن هذه الخصال) .

وكان سيد قطب قال فى مقالة : إن طه خبيث على ما به من طيبة . وقد أجاب طه حسين : والكاتب الأديب يخطىء كل الخطأ ويتبرع بالإساءة إلى حين يظن أنى خبيث رغم ما أظهر من الطيبة فلست أدرى أطيب أنا أم خبيث ولكن الذى أعرفه ولا أحب للكاتب أن ينكره على هو أنى لا أحب الخبث ولا أتخذه سبيلا فيما أكتب ، وقال سيد قطب : إنه لم يقل : (إنك خبيث على رغم ما تظهر من الطيبة ولكنى قلت : إن طه خبيث على ما به من طيبة) . وما أردت أن أقول : (إنك خبيث) ولكنك تتظاهر بالطيبة

فآدابي الشخصية وحدها تمنعني كما قلت من أن أقول هذا وإنما أردت أن أقول : إن بك خبثاً كما أن بك طيبة وما أظنني أرضى لك يا دكتور أن تكون رجلا طيباً فقط ليس بك شيء من الخبث يحمي هذه الطيبة فأنت تعلم من هو الرجل الطيب فقط وما أظنك ترضاه لنفسك ولو كنته ما أفلحت في حياتك وما رقيت منبر كلية الآداب ، ولا رقيت منبر النقد ، وما كنت الدكتور طه حسين ولكان مكانك اليوم في واد آخر غير ما أنت فيه ، أنك خبيث يا دكتور رغم ما بك من طيبة .

أما أن الدكتور طيب أو خبيث ، فهنا موضع لفكاهة جميلة ، فأنا أزعم أن الدكتور خبيث وأن به مع ذلك طيبة وأن هذين العنصرين يتلاقيان في نفسه ، فاما الطيبة فلا أرن أن أسوق الأدلة عليها لأن الدكتور لا ينكرها ، وإنما هو يريد أن ينكر الخبث أو أن يتجاهل هذا الخبث ، إذن فدونك البرهان يا دكتور على أنك خبيث ، ولن أبعد بك ولا بالقراء في شيء مضى ولن أتناول إلا مقالك الأخير الذى ورد به هذا الكلام ففيه جوانب يملأها الخبث وإن كان ظهور هذا الخبث في مواضعه تلك حيث لا ينبغي ظهوره هو الطيبة التي أرميك بها ، فأنت تحدثت عن الرسالة وعن الزيات وعن موقفهما معك وعن توفيق الحكيم وأنت قد غمزت الرسالة وصاحب الرسالة غمزات بعضها ظاهر وبعضها خفي ، فقد جاء في كلامك : فكتبت في (جريدة) الوادى كلمة عتاب يظهر أنها أغضبت صديقي الزيات فهو يرد على في العدد الأخير من الرسالة بكلمة قصيرة جداً ولكنها ثقيلة جداً ، أظن أنه لا يستطيع حملها ، وإن كان قوياً شديد البأس وأظن أنه لو فكر فيها وتدبر معانيها لأشفق من كتابتها ولكنه أديب فتنة السجع وخلبة الإيجاز ، ثم يعود لحكاية السجع والإيجاز مرة أخرى فيقول : (إن مودة الأصدقاء يجب أن تكون أغلى من سجعة وأنفس من إيجاز) ، ثم يردد حكاية السجع وحكاية الإيجاز مرة أخرى :

ألا تلمح خبثاً يا دكتور في هذه الحكاية وفي ترديدها ؟

ألا تحس خبثاً في تصوير الزيات بأن سجعة واحدة وإيجازاً واحداً يجعلانه يضحي بالأصدقاء وبمودة الأصدقاء وكيف يكون الخبث إذن يا دكتورنا

الطيب ؟ ثم حكاية الدكتور أبى شادى وإهدائه بعض دواوينه إليك بمجرد أن تناهى إليه أنك ستتناوله بالنقد وكتاب شكره (سلفاً) على ما ستكتبه (مستقبلا) : ألا ترى فى ذلك كله خبثاً أو لباقة إن شئت أن تسميها أصدقت يا دكتور . ألست قد أحسست بالتوريط فى صنع أبى شادى وتقربه إليك وشكره لك . . .

على أى يا دكتور : أنت خبيث ورزقى على الله ، وليس هذا الخبث عيباً فيك تبرأ منه ، بل ربما كان أحد العناصر الممتازة التى رفعتك إلى مركزك الذى تتبوأه الآن بين المصريين .

أضف إلى هذا أن الزيات كانت له من قبل كتب مترجمة وكتب مؤلفة وأبحاث فى الرسالة وغير الرسالة ونحن جميعاً وأنت معنا تعلم أن الزيات لم يصطنع السجع والإيجاز فى أسلوبه منذ اليوم فقط ولكنه اصطنع لنفسه أسلوباً مضى عليه قدماً ، فما بال نقدك للسجع والإيجاز لم يجل بخاطرك من قبل كما جال الآن ، وما بال حكاية السجع وحكاية الإيجاز لم ينطق بها لسانك كما نطق اليوم ،وهل نقدك اليوم بعد هذا الأمد كله ببعثه الإخلاص للنقد الخالص أم هى أشياء قوامها بين الأدباء الشيوخ أو الذين يسمونهم الشيوخ) ا . هـ

وتأسيساً على هذا نقول : إن الدكتور طه بعد وفاة شوقى أعلن بأن إمارة الشعر انتقلت إلى العراق (حيث الرصافى والزهاوى) ولم يلبث إلا قليلا حين انتقل من حزب الأحرار الدستوريين إلى حزب الوفد ، حيث يوجد العقاد كاتبهم الأول فإذا به ينتهز أول مناسبة ليعلن أن إمارة الشعر هى من حق العقاد ولم يلبث بعد قليل أن أهداها مطران .

يقول الدكتور زكى مبارك :

أشعت أن إمارة الشعر بعد شوقى قد إنتقلت إلى العراق،أخطأت يا سيدى الدكتور ، أن الشعر لمصر حتى آخر الزمان ، أنت نفسك حاولت أن تكفر عن ذنبك فخلعت إمارة الشعر على الأستاذ العقاد وهو أديب فاضل بدليل أنك أهديت أحد كتبك إليه ، ولكنه شاعر صغير بالقياس إلى العبقرية المصرية .

ويحسن أن ننقل هنا نص مبايعة طه حسين بإمارة الشعر للعقاد من خطابه في تكريم العقاد (الجهاد ٢٩ إبريل عام ١٩٣٤) :

(ضعوا لواء الشعر في يد العقاد وقولوا للأدباء والشعراء : أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء فقد رفعه لكم صاحبه) .

وكتب الأستاذ مصطفى صادق الرافعي يقول :

إنني حين قرأت كلام الدكتور طه لم أبحث بين ألفاظه عن يقين المتكلم واقتناعه وحججه وأدلته، بل بحثت فيه عن سخرية طه بالعقاد وبالشعراء جميعاً في أسلوب كأسلوب تلك المرأة العربية في قصتها المعروفة حين قالت لرجال قومها في أبيات مشهورة :

وإن أنتموا لم تغضبوا بعد هذه　　فكونوا نساء لا تغيب عن الكحل

غير أن طه في سخريته كالذي يقول : فإن لم تثبتوا أن فيكم من استطاع أن يخلف شوقي فاصغروا واصغروا حتى يكون العقاد هو أميركم .

ثم قال : بقي أن نتساءل لماذا لم تأت الشهادة يوم كان الدكتور عميداً لكلية الآداب وكان يومئذ حراً لا يستنزله الإكراه ، ولماذا جاءت الشهادة وهو يحترف الصحافة ؟ ترى لو كان العقاد من الحزب الوطني أو من الأحرار الدستوريين ، أو اتحادياً أو شعبياً أفتكون قولة طه حسين يومئذ وهي في انسلاخه الثاني وانقلابه وفدياً — أفتكون إلا رداً سياسياً على العقاد وشعره ونفرة سياسية من هذا الشعر وعقاده . (الأسبوع مجلد عام ١٩٣٤) .

غير أن العجيب في الأمر مما يذكر بقصة سيد قطب (الخبث والطيبة) ما كتبه طه حسين في جريدة الجمهورية من بعد :

(أحب أن أؤكد أني لم أبايع العقاد بإمارة الشعر وما كان لي أن أبايعه لأني لم أكن شاعراً وإنما قلت : مخلصاً غير محاب ولا متأثراً بالسياسة ولا مستعد للرجوع فيما قلت : إن الشعراء يستطيعون أن يرفعوا لواء الشعر إلى العقاد بعد أن مات حافظ وشوقي فهو يستطيع أن يحمل هذا اللواء مرفوعاً منشوراً وأن تحتفظ لمصر بمكانتها من الشعر الحديث) .

أما موقف طه حسين من العقاد بعد موته فأعجب ، فقد أعلن أنه لا يفهم العبقريات !

(٣)

وقد حمل طه حسين على شعراء النظم وقسى فى محاسبتهم ، ولكنه لم يلبث أن شجع كتاب الشعر الحر ودافع عنهم وقال : إن عمود الشعر ليس وحياً قد نزل من السماء .

وهو فى هذا يجرى مع غايته وهواه ودعوته فى إدخال كل العناصر الأجنبية التى من شأنها أن تقضى على الأصالة ، وموقفه من الشعر الحر أشبه بموقفه من اللغة ومن النحو .

فهو يدعو إلى فتح الأبواب أمام كل جديد دون احتياط ويحمل هذه الفكرة من خلال دعوته إلى (الثقافة البيضاء المتوسطة) على النحو الذى أشار إلية عام ١٩٥٧ فى مجلة الآداب فى حديثه عن الشعر الحر رابطاً ذلك بالأدب اليونانى والثقافة الرومانية ومن خلال مفهومه المنحرف من ترجمة كل شىء دون تحفظ ومن ذلك وصفه حركة الترجمة التى تقوم فى لبنان بأنها خصبة وهكذا وضعنا طه حسين فى لعبة الثقافات الأجنبية على اختلافها لإفساد قيمنا ومقوماتنا .

* * *

الفصل السابع

القصـــــــــة

كان طه حسين من دعاة كتابة القصة فى الأدب العربى الحديث حتى أنه قال : بأن الأدب العربى الحديث رهن بظهور القصة ، فإن لم تظهر فلا أدب ولا أدباء ، وكان طه حسين قد كتب فى عام ١٩٣٢ أنه قابل مستر هاملتون جب المستشرق البريطانى وقد تناول حديثهما الأدب العربى ، وأن جب قال له : إنه ما زال ينتظر القصة المصرية الجديدة ليكتب عنها ويسجل بها نمو الأدب القصصى وتقدمه . وقد رد عليه الدكتور زكى مبارك فقال : إن هذا الحرص له نتائج مشئومة أيسرها أن يغلب على أدبنا صيغة الانفعال ، الانفعال عدو الفطرة وهو شر مستطير على الآداب والفنون والقصة فى جميع الآداب موقوفة على المرأة ، وهى لا توجد فى أدبنا لأننا لا نعرف المرأة فى حياتنا .

من الذى ينتظر ظهور القصة ؟ الجواب : حاضر ، ينتظر القصة أحد رجلين : مستشرق يريد أن يزن الآداب العربية بميزان الآداب الغربية ، وشرقى مفتون بالتقليد يريد أن يساير الأجانب فى كل شىء ، ومن عجيب الأمران نجد القصصين عندنا فى الطبقة الدنيا من أدباء اللغة العربية وللقارئ أن يعدهم واحداً واحداً ، هم جميعاً عالة على الآداب الأجنبية ، يستوحونها بلا فهم ولا تبصر وينقلون منها نقلا سخيفاً مشوهاً يجرح الأذواق والنفوس ، وهو فى كتابه القصة يصل إلى نفس الهدف الذى قصد إليه من إحياء الشعر القديم أو ترجمة القصص الفرنسية المكشوفة ، ففى قصته أحلام وشهر زاد أشبع المؤلف — كما يقول زكى مبارك — حاجته العنيفة إلى لذة الشك طليقاً من كل قيد ، فليس فى القصة صورة واحدة تثبت على حال ، أو تعبر عن معنى مستقر يسوق إلى غيره ، فتراه يفترض وجود عالم وهمى تنحل فيه المشاكل بالسحر ، ويتدخل السحر فى الحرب والسلم ، وقد بلغ

حظه من هذا الفهم أنه وسع دائرة التنفيس عن كوامن نفسه فجعل لمحاوراته عن شهريار وشهر زاد بطانة من قصته عفريتية أخرى تتمشى معها كما يتمشى الظل ، وابتكر لذلك حكايته الملفقة عن الملك طهمان ملك الجن وابنته فتنة ، ترى هل لم يجد الدكتور فى وسعه لتثقيف المصريين وإنهاضهم وحل مشاكلهم خيراً من أن يبيعهم هذه الأحلام وهذا السحر الرخيص فى مملكة العفاريت (طهمان) .

وفى قصة (الحب الضائع) التى حاول فيها أن يصور المجتمع الفرنسى ، يقول زكى مبارك : يقول الفرنسيون حين يترجم هذا الكتاب إلى لغتهم : هذه بضاعتنا ردت إلينا لأن طه حسين يقتبس ولا يعوزه أن يضفى ثوب الابتكار على الاقتباس .

ويجرى الحديث بعبارات على لسان فتاة تؤرخ حياتها من مساء إلى مساء (الآنسة مادلين) وهو كتاب كتب بطريقة يغلب عليها الرمز والإيماء وإن كان غاية فى الصراحة والوضوح عند من يساير المؤلف فى أشواطه الطوال .

ويرى زكى مبارك — وهو العليم بصاحبه — أن قصة (الحب الضائع) ترمى إلى تجسيم العقد النفسية ، ويشير زكى مبارك إلى إيماءات فى القصة تدل على أشياء لايريد طه حسين أن يكشف عنها وذيول للقصة ومقاصد يستطيع أن يدركها القارئ فى أناة وهدوء .

ويشير إلى أن مادلين فى مذكراتها لم تستكشف الحقائق ، ويعود الخطأ إلى طه حسين ، لأنه المنشئ الأول لهذه المذكرات ، ويقول : إنه أضاع فرصة النص على أن مادلين ضلت سواء السبيل وهى تشرح ما تعرضت له من علل وأسباب ، والرأى أن يترك طه حسين أهواء النساء لأحد بنات حواء ، ومن خطأه أيضاً أنه أجرى قصة دعاء الكروان على لسان امرأة ، كما أجرى قصة (الحب الضائع) ، ويقول كاتب آخر إن قصة الحب الضائع . تعالج فكرة الصراع بين الحب والواجب وهى فكرة فرنسية عولجت معالجة فرنسية بلغة عربية هى لغة طه حسين ، فالحديث فيها غير بين ، والقصص كلها بلا أحداث .

وهكذا نرى أن هناك ظاهرتين واضحتين : فى أدب طه حسين هما الشك والجنس ، ونقل صور الحياة الغربية ومشاكلها إلى الأدب العربى لغير ما سبب واضح غير أنه يريد أن يشوه الأدب العربى بالصورة والمضامين الغربية عنه .

(٢)

ولعل خير ما كتب عن طه حسين والقصة هو ما كتبه الأستاذ فتحى غانم (آخر ساعة — يوليو سنة ١٩٥٤) حين قال إن الدكتور طه حسين لا يعرف كيف يكتب القصة القصيرة ، وأن هذه حقيقة يجب إعلانها وتوضيحها لأن لطه حسين تاريخاً قوياً عميقاً فى كل من عالج الأدب فى مختلف صوره وألوانه ، ولو ظل كتاب القصة القصيرة متأثرين بأسلوب الدكتور طه حسين وبطريقته فى كتابة القصة — كما كتبها — (فى المعذبين فى الأرض) مثلا لتأخر ذوقنا الأدبى ووعينا الفنى .

إنه يقول :(« لا أضع قصة فأخضعها لما ينبغى أن تخضع له القصة من أصول الفن كما رسمها كبار النقاد، ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول ، لأنى لا أومن بها ولا أذعن لها ولا أعرف ما بدا للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين مهما تكن ، ولا أتقبل من القارئ مهما ترتفع منزلته أن يدخل بينى وبين ما أحب أن أسوقه من حديث ، وإنما هو يخطر لى فأمليه ثم أذيعه فمن شاء أن يقرأ فليقرأ، ومن ضاق بقراءته فلينصرف عنه) .

فى هذا الكلام غرور صريح وغرور قبيح وهو فوق ذلك فوضى وضياع فطه حسين حر فى أن يقول فى مقدمته ما يشاء ، وحر فى أن يكتب قصصاً لا صلة لها بمقدمته إذا أراد ، ولكنه ليس حراً فى أن يتعدى حدود الأدب أعنى الفن — وليس حراً فى أن يتجاهل النقاد وليس حراً فى ألا يحترم عقول القراء ، إلا إذا أراد أن يقول : أنا ، أنا طه حسين أى كلام أقوله أو أنشره سيقرؤه الناس فى إعجاب وذهول وتصديق ، أى كتاب أو مقال عليه اسمى سيقبل عليه القراء فى إيمان أعمى وتسليم شائن ، وطه حسين حين يقطع روايته للقصة ليقول مثل هذا الكلام .

إن طه حسين مسئول بمثل هذه القصص عن نكبة مصر فى كتابة القصة

وهو مسئول بلغته عن بعد قصصنا عن الواقع الحي . والأسلوب الذى يتخذه طه حسين فى كتابة القصة نقص أدبى لأن الكمال الأدبى يستلزم أن تكون اللغة ملائمة للحياة وهو نقص خلقى لأنه كذب ، كذلك للكاتب على نفسه وعلى معاصريه حقوق ، وهو بحكم ظروفه لا يستطيع أن يكون قصاصاً ، فهو ناقد ممتاز فى زمانه وصاحب نظريات فى التعليم ولكن ليس قصصياً ، وكان من من المحتمل أن يكون طه حسين شاعراً ولكنه لم يفلح أيضاً فى إبداع الشعر .

فى أثناء هذه العشرين عاماً مضى طه حسين يحطم كناقد كل محاولة لكتابة القصة فى مصر ، وقد استقر فى قرارة نفسه أنه عاجز عن كتابتها وانقلب طه حسين إلى مدرس سخيف للغة العربية يصحح أخطاء الكتاب ويتباهى بقدرته على لغة قحطان وسيبويه . إن طه حسين الذى عجز عن فن الشعر وفن القصة بدأ يظهر على حقيقته ويعود إلى أزهريته وقد أحس بفشله فى معالجة الفنون التى تصور البيئة المصرية والحياة . إن طه حسين قد انزوى فى حظيرة اللغة العربية وبدأ يتهم الذين لا يجيدونها بالكسل، ونسى معركته مع الرافعى ، وأصبح طه حسين غولا متربعاً على عمادة الأدب وفرضت كتبه على دور النشر تطبعها وعلى وزارة المعارف تشتريها وعلى التلاميذ المساكين يقرؤونها) .

ويمضى فتحى غانم فيتحدث عن طه حسين : فيقول .

هل طه حسين ملحد أم مؤمن ، هل هو يؤدى فرائض الدين فيصلى ويصوم ، هل صاحب (على هامش السيرة) لا يقرب الخمر ولا يأتى من الأفعال ما حرم الله على عبادة الأتقياء الصالحين ، هل طه حسين ديمقراطى أم محافظ أرستقراطى ، هل هو شيوعى يميل إلى اليسار أم من أتباع الرأسماليين يميل معهم إلى اليمين ، أسئلة وأسئلة حاول الكثيرون الإجابة عنها فاختلفوا وتضاربوا ولم يصلوا أو لن يصلوا إلى رأى واحد ينتهون إليه ، وقام رجال الأزهر ونواب الأمة ووشيوخها وقعدوا وعلى رأسهم سعد زغلول ينادون بإلحاد طه حسين وكفره ومروقه على تعاليم الدين الحنيف لأنه درس فى الجامعة كتابه (فى الشعر الجاهلى) متشككاً فى بعض آيات القرآن الكريم وقام رجال الأزهر وشيوخها مهللين مكبرين لكتب طه حسين التى تعتقد بالإيمان والتدين ،

وكان طه حسين ربيباً لعبد الخالق ثروت وعدلي يكن رئيس حزب الأحرار صديقاً لهم يكتب فى جريدتهم (السياسة) ويعيش فى كنف أصحاب البيوتات والأيدى القوية الاستقراطية ويهاجم الحزب الوفدى على شعبيته فى ذلك الوقت ويصرح بأنه يمقته مقتاً شديداً ويزدريه ازدراءاً لا حد له ، وأنه سخف سياسى منكر . ثم أصبح طه حسين أحد أعوان الوفد الذى يمقته ويزدريه وخطب فى آلاف المتعلمين الإلزاميين يصف لهم محاسن الوفد وحكمه ورئيسه وأعوانه ومنذ أعوام استمع آلاف الطلبة فى الجامعة إلى طه حسين وهو يقول : نضر الله وجه فؤاد العظيم ، واليوم يقرؤون له مقالات يمتدح الثورة التى قضت على الأحرار الدستوريين والوفديين وطردت ابن فؤاد العظيم ، ومنذ سنوات صودرت كتب طه حسين وقيل إنه صديق للشيوعيين وبعدسنوات طالب طه حسين بنشر الأدب الأمريكى فى الشرق العربى ، عشرات وعشرات من الأمثلة تدلنا على الذبذبة والحيرة التى عاناها طه حسين وعانيناها نحن أيضاً وهو لا يستقر على حال واحد فى الدين والسياسة ، شيء واحد قد سكن إليه طه حسين وشعار واحد اتخذه لنفسه ولم يحد عنه أبداً ، هذا الشعار هو الأدب ، فهو يسمح لنفسه أن يتلون فى أشياء كثيرة ، وأن يفرط فى أشياء كثيرة وأن يساوم فى أشياء كثيرة ، ولا يسمح لنفسه أن يتلون أو يساوم أو يفرط فى الأدب .

وما نكاد نحمد الله على أننا وجدنا شيئاً واحداً ثابتاً قد سكن إليه طه حسين وأبى أن يتلون أو يفرط أو يساوم فيه حتى نفاجأ مفاجأة مذهلة حين نسمعه يقول : إن الأدب فوضى ، نعم إنه يراه فوضى ولا شعور وشيطاناً غير عاقل يلهم بما يشاء من يشاء .

أنا حريص كل الحرص على أن أكون من أصحاب الفوضى فى الأدب لأنى لا أستطيع أن أتصور الأدب على غير هذا النحو .

(لا يستطيع الأديب أن يخضع لنظام أو يذعن لسلطان إلا سلطان هذا الشيطان الذى يلهمه ويوحى إليه ويدفعه إلى الإنتاج) .

هذا هو أدب طه حسين : فوضى لا شعور ، شيطان شغف بالفن لا بالحياة ، وليس لهذه الكلمات إلا معنى واحداً لا نحيد عنه . هذا المعنى تعبر لنا عنه

كلمات مثل الأنانية والغرور وحب النفس والخوف من الثورة والتحديد إلا بالمقدار الذى يتيح لطه حسين حريته الشخصية فى أن يكون فوضوياً أنانياً مغروراً .

إن طه حسين كان يحارب من أجل نفسه ونفسه فقط فإذا هبط عليه الرضاء السامى رضى وإذا رفع عنه الرضاء السامى غضب ، إنه شخص مخلص لنفسه أشد الإخلاص ، يحب صوته ويترنم به ، يحب أسلوبه ويشيد به ، يحب ذوقه المصفى الخالص ، يحب اللغة الفرنسية وآدابها ويتغنى بجمل اللاتينية واليونانية ويحب أن يتيح للناس جميعاً فوضى شاملة مثل الفوضى التى ينعم بها ويريدهم جميعاً أن يتمتعوا باللغة الفرنسية كما يتمتع بها وأن يقدروا عظمة اللاتينية واليونانية كما يقدر عظمتها ، لقد كان رقيقاً حسن الطباع غليظ الحس فأصبح لطيفاً مهذباً له بيت فرنسى رقيق نصف مهذب ، لا سياسة تهمه ولا مشاكل اجتماعية تؤرقه . حتى الدين فقد حول قداسته إلى شاعرية جميلة ، فالدين عند رجل الأزهر والرافعى أيضاً كان تشنجاً وهوساً يركب الرءوس ويهز الأبدان ، أما الدين عند طه حسين فهو دين خاص : شعر ونغم ، وإيقاع داخلى راقص وطرب اهتزت له عمائم الأزهر ولحى الشيوخ والفقهاء .

وعلى هذا المنوال تستطيع تفسير حياة طه حسين : يرضى الأحرار الدستوريين عن ذوقه وأدبه فيرضى هو عنهم ويسخطون فيسخط أيضاً .

يرضى الوفديون فيرضى ويسخطون فيسخط ، وترضى السراى فيرضى وتسخط فيسخط ، يتهمه رجال الدين فى ذوقه وأدبه فيسخط ثم يرضون عن كتبه الدنيئة فيرضى .

إن طه حسين يحتمى وراء لغته ، وهى لغة بين بين ، وهى ليست لغة قديمة كل القدم وليست جديدة كل الجدة ويلاحظ عليها أنها لا تقطع فى شىء أبداً ، بل هى مرنة تصلح للف والمداورة ، ولا تصف شيئاً بأنه أبيض ولا أسود ، بل تصفه بأنه أقرب ما يكون إلى السواد أو أقرب ما يكون إلى البياض ، وهذه الطريقة فى التعبير هى مرآة صادقة لحياة طه حسين التى هى دائماً بين بين) .

وكذلك الأمر فى قصة (المعذبون فى الأرض) فهو يقول فى مقدمتها :
أنا لا أضع قصة فأخضعها لأصول الفن ولو كنت أضع قصة لما التزمت إخضاعها لهذه الأصول لأننى لا أؤمن بها ولا أذعن لها ولا أعرف بأن للنقاد مهما يكونوا أن يرسموا لى القواعد والقوانين . . . إلخ) .

ويقول محمد عبد المنعم مراد (المصرى ٣٠/ ١/ ١٩٥٣ :

إنه يضع نفسه فوق النقد ، لا يحب أن يسمعه ولا يعترف به ولا يريد أن يقيم له وزناً ، ولماذا ؟ لأنه يريد أن يكون حراً فيما يكتب ويذيع على الناس ، وكيف إذن بنى طه حسين مجده الأدبى ؟ ألم يكن ذلك على حساب غيره من الأدباء القدماء والمحدثين على السواء ، يخيل إلى أن الذى ألجأ طه حسين إلى هذه الثورة المفاجئة على النقاد والقراء هو إحساسه فى ذلك الموضع من كتابه . إنه تعرض للنقد فأراد أن يقطع الطريق على هؤلاء النقاد الفضوليين ، ولا أعرف فى التاريخ كاتباً مهما تبلغ عبقريته يستطيع أن يقول للناقد : قف من أنت ، ولن يستطيع طه حسين بهذا الكلام الذى ساقه أن يمنع قارئاً أو ناقداً من أن يبدى إعجابه بما كتب أو سخطه عليه .

* * *



الفصل الثامن

اللغة العربية

ظل الدكتور طه حسين طوال حياته يدعى أنه نصير الفصحى ، وأنه عدو العاميات وطالما ردد هذا فى مقالاته وفى نقده لكتب الكتاب وقصص القصاصين ، ولكن عدداً من الأحداث الواضحة ، والمؤتمرات الكبرى ، والمواقف المشهورة كشفت عن خبيئته ، وأعلنت سريرته ، فإذا به داعية من دعاة الشعوبية وعدو من أعداء الفصحى ، وكما دعا إلى قطع الصلة بين الأدب العربى والفكر الإسلامى حتى يتحرر الأدب العربى من ضوابط الأخلاق والقيم وينطلق وراء أهواء الجنس والإباحة ، فقد كان طه حسين حريصاً على أن يقطع الصلة بين اللغة العربية والإسلام حتى يمكن أن تتطور وتتحرر من رباطها بالقرآن ، فتجرى فى مجارى العاميات وتنحرف فى طريقه الكتابة ، ولذلك فهو يصمت صمتاً بليغاً إزاء المؤامرة التى حاكها عبد العزيز فهمى حين دعا إلى كتابة العربية بحروف لاتينية ، وذهب إلى آخر الشوط فى الدعوة إلى التحرر من قيود النحو ، وسلط تابعه (إبراهيم مصطفى) ليحمل لواء هذه الدعوة المسمومة .

وهو فى أكثر من موضع يؤكد هذه الوجهة ، يقول فى كتاب (مستقبل الثقافة) :

(اللغة ملك لنا ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها) .

(اللغة العربية وما يضفى عليها رجال الدين من قداسة باعتبارها لغة دين ، لغة وطنية ملك لنا تتصرف منها ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها) .

وفى كتاب (الأدب الجاهلى) ص ٥٧ يقول :

(اللغة العربية مقدسة ومبتذله ، مقدسة لأنها لغة القرآن والدين وبالتالى لا يمكن إخضاعها للبحث العلمى الصحيح الذى يستدعى الإنكار والتكذيب والنقد والشك ومبتذلة لأنها تدرس لنفسها وبالتالى لا تستطيع إخضاعها للبحث العلمى الصحيح).

وفى مؤتمر دمشق للمجامع العربية كانت هذه الدعوة واضحة عام ١٩٥٦

وفى الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٧ حرص طه حسين أن يلقى كلمة معلناً فيها عن ضرورة إصلاح النحو وتجديده وتيسيره على شباب المسلمين .

وفى محيط العمل فى وزارة المعارف مستشاراً فنياً ، ومديراً للثقافة ، ثم وزيراً كان الهدف واضحاً أمامه فى انتزاع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن والقضاء على تميز دار العلوم فى مجال اللغة العربية ومكانة الأزهر فى هذا الميدان .

* * *

أولا : فصل الدين عن الأدب :

الدعوة إلى فصل اللغة عن الدين تكمل الهدف التغريبى الذى حمل لواءه طه حسين من فصل الدين عن الأدب باسم حرية الأدب ، فكان معناه هو فتح الطريق أمام الأدب الإباحى (حديث الأربعاء والشعر الجاهلى) .

يقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى :

(ذلك أن ما ذكره طه حسين من أن الأدب العربى لا يدرس لذاته وإنما يدرس لغيره من فقه أو شرع مغالطة ، فإنه إذا كان الأمر كذلك فى أول نهضة اللغة فما هو كذلك الآن . وقد كان الناس لذلك العهد فى حاجة إلى باعث قوى يحفزهم إلى ضبط هذه اللغة وتحريرها واستنباط علومها ، والصبر على ما فى ذلك من مشقة وجهد ، فكان ذلك الباعث القوى هو الرغبة الشديدة فى المحافظة على الدين وعلى ينبوع أحكامه أن يستغلق على الناس ، فلما فرغ المسلمون من ذلك وأمنوا على دينهم تعددت الوجهات فى دراسة الأدب واللغة ، فكان علماء الدين يدرسونهما كوسيلة وعلماء الأدب واللغة يدرسونهما كغاية .

أما قوله : إن اتصال اللغة بالقرآن والدين يجعلها مقدسة ومبتذلة فى آن فالواقع أن من يدرس اللغة اثنان لا ثالث لهما : فريق يدرسها لذاتها وهو فريق جمهور المشتغلين بالأدب وواضح أن هؤلاء لا يبتذلونها ، وفريق يدرسها وسيلة إلى شيء آخر يرضاه واتصالها بذلك الشيء الآخر يقتضى عليها من الإكبار الذى يحيط بها ويحول بينها وبين الابتذال . فليس هناك خطر يتهدد الأدب ومن هذه الناحية : ناحية الابتذال ، أن الذين يفيضون عليها التقديس لاتصالها بالقرآن والحديث لم يخطر لهم على بال أن يحظروا على أحد التفقه فيها عن أى طريق من طرق البحث الصحيح، بل هم يرون مثل هذا التفقه ضرورياً لهم وفرضاً على فريق منهم لأنه يعين على ما هم فيه .

وليس هناك غير الدكتور طه حسين وشيعته من يظن أن كرامة الدين تنافى حرية الأدب أو حرية العلم .

ويقول طه حسين : (من الذى يستطيع أن يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشراً بالإسلام أو هادما للإلحاد) .

فإذا كانت دراسة الأدب لهدم الإلحاد تصعيداً للأدب فهل دراسته لهدم الإسلام تحرير للأدب ؟ فليترك طه حسين نصرة الإسلام إن شاء ولكن ليترك معها أيضاً نصرة الإلحاد يسلم له الأدب .

أما استناده فى تحرير الأدب العربى من سلطان الدين إلى ملاءمة حاجات العصر العلمية والفنية فهو نوع من ذلك الكلام المبهم الذى يفهم الناس منه شيئاً ويريد به صاحبه شيئاً آخر ، ولو أخبرنا ما هى تلك الحاجات العلمية والفنية التى يحول دون قضائها اتصال اللغة بالدين . إن حاجة العصر هى أشد ما يكون إلى أدب شرقى نقى ، من أقذار الرذيلة ومن سموم الإباحة ، هذه اللغة التى أنهضها الدين وعاشت بالقرآن ثلاثة عشر قرناً لا تستطيع الآن أن تقطع ما بينها وبين الدين والقرآن من غير أن تقتل نفسها أو تقتل أهلها ويصبح مضروباً عليها الرق والذل.

ويقول طه حسين : (فلتكن قاعدتنا إذن أن الأدب ليس علماً من علوم الوسائل يدرس لفهم القرآن والحديث فقط وإنما هو علم يدرس لنفسه ويقصد به قبل كل شيء إلى تذوق الجمال الفنى فيما يؤثر من الكلام) .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى : لو كان يريد من هذا الكلام ظاهره لما كان بينه وبين أحد من رجال العربية خلاف ولكن علمنا بالنزعة التى ينزع إليها فيما كتب وفيما يكتب يجعلنا نخشى أن يكون أراد بهذا الكلام غير ظاهره فلا يكون هناك تحرج خلقى من معنى خسيس ، ما دام هذا المعنى يورده صاحبه فى شكل فنى يتذوقه ويلذه من ضعف أثر الأخلاق الفاضلة فى نفسه . ولكن الأدب ينبغى ألا يستقل قط عن الأخلاق استقلالا يجعله لا يبالى أوافق رذائلها أم أخالف فضائلها فإن الله قد خلق الإنسان وحدة متماسكة لا أوصالا مفصولة .

(٢)

ثانياً : فصل الدين عن اللغة :

يقول طه حسين فى كتاب (مستقبل الثقافة) :

(فالذين يزعمون لنا أننا نتعلم العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب ثم يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية إنما يخدعون الناس ، وليس ينبغى أن تقوم حياة الأمم على الخداع فإن اللغة العربية ليست ملكاً لرجال الدين يؤمنون وحدهم بها ويقومون وحدهم من دونها ويتصرفون وحدهم فيها ، ولكنها ملك للذين يتكلمونها جميعاً من الأمم والأجيال وكل فرد من هؤلاء الناس حر فى أن يتصرف فى هذه اللغة تصرف المالك ، فما استوفى الشروط التى تتيح له هذا التصرف ، وإذاً فمن السخف أن يظن أن تعليم الأزهر وقف على الأزهر الشريف والأزهريين وعلى المدارس والمعاهد التى يتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار ، هذا سخف لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية جميعاً وفيهم المسلم وغير المسلم) .

ويقول الدكتور محمد محمد حسين : كان الشعوبيون يروجون للهجات السوقية المحلية التى يسمونها العامية بمختلف الأساليب وكان أعداء العروبة يتحايلون فى انتزاع الدراسات العربية من حضانة الدين والقرآن حين قال قائلهم هذا الكلام ، والغرض الذى يرمى إليه صاحب هذا الكلام هو قطع الصلات التى تربط الدراسات العربية بالدراسات الإسلامية هو أن

ينزع عن العربية قداستها ويحرمها من حماية الدين وحضانته ليكشفها أمام أعدائها ويعينهم على الإجهاز عليها بعد أن يفردها من كل نصير أو معين ولم يستح صاحب هذا الكلام وشيعته أن يتخذوا مجمع اللغة العربية ومكاتب جامعة الدول العربية ومؤتمراتها ميداناً لنشاطهم، فدعا أحدهم فى المؤتمر الأول لمجامع اللغة العربية بدمشق ١٩٤٧ إلى تأليف معاجم محلية لا يثبت فيها إلا ما بقى من لهجات العرب حيا فى عامية كل إقليم، ودعا الآخر إلى إعادة النظر فى تبويب النحو وتدوينه من جديد وكان ذلك كله كلاماً فى كلام فإذا بنا الآن أمام هذه المشاريع جميعاً منفذة فى كتب القوصى وشركاه المشهورة، بكتب (شرشر) أو جلاجلا . وفى كتب النحو التى يتولى إبراهيم مصطفى توجيهها ولم يثنهم عن عزمهم ما قرره مؤتمر مجامع اللغة العربية الأول فى دمشق من أن مشاريعهم تحتاج إلى مزيد من الدرس والمراجعة والتمحيص . بل لقد استصدر قسم اللغة العربية فى إحدى كليات الآداب منذ سنوات بإنشاء شعبة سماها (شعبة الدراسات العربية الحديثة) أخلى الدراسة فيها من النحو والصرف والبلاغة ومن الشعر العربى ونصوص الفصحى ومن الأدب العربى والتاريخ الإسلامى ومن القرآن والحديث ، وجعل مكان ذلك كله :

١ — دراسات لغوية حديثة .

٢ — التطور اللغوى العربى فى العصر الحديث .

٣ — اللهجات العربية الحديثة .

٤ — الأدب الشعبى .

٥ — المذاهب الكبرى فى الآداب الأوربية .

٦ — مدرسة العصر .

٧ — تطور الفكر الإسلامى فى العصر الحديث .

وكان أعداء الإسلام من عمال الاستعباد والتبشير وسماسرة الصهيونية الهدامة يشيعون بجحود علماء الشريعة الإسلامية أو من يسمونهم خطأ (رجال الدين الإسلامى) ويندّدون بتخلف الأزهر عن ركب الحيـاة بزعمهم ، فإذا بنا نفاجأ بأحد أعضاء لجنة التربية الدينية بوزارة التربية والتعليم يقترح إنشاء شعبة للدراسات الإسلامية فى كليات الآداب لتخريج مدرسى الدين

الإسلامى المرن الذى يستطيع أن يساير الزمن . هذه بعض أمثلة تصور الأسلوب الجديد الذى يعتمد على (الغزو من الداخل) الذى لم يعد أصحابه يكتفون بالدعاية واجتذاب الأنصار والاستكثار منهم عن طريق الإقناع والإغراء أو الإرهاب. إنهم يعتمدون فى أسلوبهم الجديد على أفراد عصابتهم الذين نجحوا فى التسلل إلى مراكز القيادة ، فأصبح فى استطاعتهم أن يجعلوا أوهامهم التى لم ينجحوا فى إقناع الناس بها حقيقة واقعة بقرار أو بجرة قلم .

٢ – إن كتب القراءة الجديدة المتداولة فى الإقليم المصرى التى وضعتها لجنة تعمل بتوجيه عبد العزيز القوصى وسعيد العريان تعتمد على أسلوب جديد لا يمكن أن نصفه بأنه عربى مهما اجتهد أصحابه فى تبريره بما يزعمونه من أن كلماته التى تبدو من عامية مصر يمكن أن تجد سنداً من معاجم اللغة تصلها بإحدى لهجات العرب ، هذه الكتب لا تتجنب الفصيح الذى أجمع عليه العرب والمسلمون لغرابته أو لثقله ولكنها تتعمد إهماله لأنها تريد أن تهمله وأن تجعل استعمال لهجة الأسواق فى الكتب المدرسية أمراً واقعاً ومقرراً ، وهم يعلمون حق العلم أن هذه الكلمات الملتقطة من أسواق مصر وطرقاتها ، مهما جاءوا بأشجار للأنساب تثبت عروبتها – ليست عامة فى بلاد العرب جميعاً ، فهى مجهولة فى بعضها وهى مستعملة بمعنى آخر فى بعض آخر ، لأن الفصحى التى تجمع العرب بل المسلمين اليوم هى فصحى قريش خاصة التى نزل بها القرآن والتى دون بها الحديث والفقه والأدب وكل ما أثمرته الحضارة العربية من علوم وفنون وهى أفصح لهجات العرب وأسلمها دون نزاع . فرضتها صلاحيتها ونشرتها قبل أن ينزل بها القرآن ، فكان العرب على اختلاف قبائلهم يكتبون شعرهم بها ، ولا يستعملون لهجات قبائلهم إلا فى ضرب من ضروب الأدب المحلى المسف ، الذى يقرب مما يسميه البعض اليوم (الأدب الشعبى) وهو (الرجز) فهذه الكتب الجديدة التى يراد بها تقرير لغة جديدة للتدوين وإحقاق باطل فشل أصحابه فى إقناع الناس به رغم ما بذلوا له من دعاية طوال نصف قرن أو يزيد ، تريد فى ضحى القومية العربية أن ترد إلى الجاهلية . الكلمات السوقية الملتقطة من أسواق مصر وطرقاتها والتى يصر القوصى والعريان وشركاؤهما على استعمالها

لها ما يقابلها من الفصيح المستعمل المأنوس وأنهم يعدلون فى أكثر الأحيان عن الفصيح السمح الجميل إلى السوقى السمج الثقيل .

(العسكرى حلق عليه ، حطت اللحم فى الحلة ، مبسوط ، شاف زيطه ، استغرب ، زعلان ، ابن الحلال ، بصى ، حطها فى القفص ، زاحنى فى البحر ، المخدة تنزحلق) .

فمقابل هذه الكلمات من الفصيح مشهور خفيف شائع ،وهو على الترتيب :

(الشرطى ، اعترضه أو وقف فى وجهه ، وضعت اللحم فى القدر ، مسرور ، رأى ، ضوضاء ، عجب ، غضبان ، ابن الكرام ، نظر ، وضعها فى القفص ، يتحيلون ، الوسادة ، دفعنى فى البحر ، تنزلق) .

فهل يرى القارئ مبرراً لإهمال هذه الكلمات الفصحى التى هى قدر مشترك بين سائر العرب وأصحاب الثقافات العربية من المسلمين ، أليست هذه الكتب هى التنفيذ العملى لاقتراح أحمد عبد السلام مندوب حكومة تونس الذى دعا فيه أن يؤلف فى كل قطر معجماً صغيراً لا يتضمن إلا الألفاظ الفصيحة التى بقيت مستعملة بمعناها الأصلى فى لغة ذلك القطر ، وأن يوصى معلمو الأحداث والعامة الاقتصار عليها قدر المستطاع .

إنى أعجب لما تحويه هذه الكتب وكتب المطالعة فى عمومها من تفاهات غثة تبدد أعمار التلاميذ فى سخافات لا تفيد أسلوباً ولا ثقافة ولا خلقاً ، فهى لا ترتفع فى معظم محتوياتها عن تسجيل الواقع المسف المنافى للدين والخلق ، المهذب فى كثير من الأحيان .

٤ - زعم طه حسين فى تقريره الذى قدم إلى وزير المعارف سنة ١٩٣٥ فألقاه فى سلة المهملات وطلب إليه ألا يعيد الحديث فيه حين حاول أن يفاتحه فيه مرة من المرات . قال : إن الناس مجمعون على أن تعلم اللغة العربية وآدابها فى حاجة شديدة إلى الإصلاح ورد نفور الطلبة من الدراسات العربية إلى أن اللغة العربية وما يتصل بها من العلوم والفنون ما زال قديماً فى جوهره بأدق معانى الكلمة ، فالنحو والصرف والأدب تعلم الآن كما كانت تعلم منذ ألف سنة ولست أزعم أن الأمر يقتضى إحداث ثورة عنيفة على القديم وتغيير العلوم اللغوية والأدبية فجأة وفى شىء يشبه الطفرة ، وإنما أزعم

أن قد جاء الوقت الذى يجب أن نؤمن بأن العلوم اللسانية كغيرها من العلوم يجب أن تتطور وتنمو وتلائم عقول المعلمين والمتعلمين وبيئاتهم وحاجاتهم، ومتى آمنا بذلك فإن التطور سيأتى وسيتحقق شيئاً فشيئاً ولكن لابد أن نمهد له الطريق) .

ولم يمض على هذا التقرير سوى سنتين حتى صدر كتاب فى النحو نسقه إبراهيم مصطفى على ما تخيله طه حسين فى تقريره ذاك وقدم له طه حسين نفسه واقترح له اسماً ضخماً عريضاً فيه كثير من التبجح والادعاء ،فسماه (إحياء النحو) والمقول بأن إحياء النحو هو الحلقة الثانية من سلسلة تيسير النحو وهو الصورة التنفيذية لمذكرة طه حسين .

ومذكرة طه حسين صريحة فى أن الخطوة الأولى ليست إلا تمهيداً لما يجىء بعد من التطور الذى سيأتى وسيتحقق شيئاً فشيئاً . فهى صريحة فى الكشف عن نية صاحبها وعن أسلوبه فى استدراج الناس والبدء بالهين الذى لا يفاجئهم ليتدرج منه إلى الخطير ولأنه لا يسقيهم السم الزعاف القاتل لساعته لأن يلفت النظر ويثير الشكوك ، ولكنه يسقيهم سماً بطيئاً يصل إلى غرضه دون أن يكشف عن الجريمة . فليعرف الناس إذن أن تيسير النحو ليس هو منتهى ما يريدون ولكنه أول طريق طويل يدفعون الناس فيه إلى قرار سحيق .

٦ – ومن ناحية أخرى فإن هدف طه حسين هو استبعاد الأزهر عن القيام بوظيفة تعليم الدين ، لأن مناهجه لا تحقق للدارسين فيه عمق الثقافة وحرية الفكر ، وثانيهما هو الطبيعة المصرية التى تبرز فى الإشارة إلى مهمة مصر القيادية ، فى حل مشكلات الحياة المعاصرة ومسايرة التطور الاجتماعى وهو تطور غربى بالبداهة .

وهكذا تتبين خطوات المؤامرة التى خاضها طه حسين بحوراً من الدم فى سبيل تدمير لغة القرآن ضمن مخطط واسع يرمى إلى تبديل قواعد اللغة العربية وتغيير رسمها وإملائها ونحوها على ما قام به جماعة من المستشرقين منذ وقت طويل،ووكل أمره إلى سلامة موسى وطه حسين فى مصر وأنيس فريحة فى الجامعة الأمريكية فى بيروت،وقد قام به طه حسين فى الجامعة،ثم قام به فى

جامعة الدول العربية وفى مجمع اللغة بدراسة اللهجات السوقية وآدابها والدفاع عنها من فوق منبر جامعة الدول العربية ، حيث ألقى أنيس فريحة دراساته المسمومة فى دراسة اللهجات والدعوة إلى العامة .

ومضى أعداء اللغة العربية يجتمعون وينفضون هنا وهناك ويسيطرون على مناهج المدارس والجامعات لتحقيق أهدافهم .

٧ ــ قطع الصلة بأدبنا القديم :

إن إهمال أدبنا القديم وتوجيه أكثر العناية إلى الأدب الحديث بل التافه منه فى الأعم الأغلب وتجنب ما كان منه على منوال القديم جزالة وروعة وفخامة أسلوب واحتفالا بالمعانى الكبار خليق بأن يعين على تدعيم ما يدبره بعض المفسدين فيسلكون إليه مختلف المسالك ويعالجونه بشتى الأساليب حين يسعون إلى فصل حياتنا الراهنة والمستقبلية عن مصادرها القديمة حتى يتفرق جماعتنا ويتشعب شملنا . وحتى لا تكون أخلاقنا امتداداً لخلق أبائنا ولا تكون أذواقنا امتداداً لأذواقهم ولا تكون لغتنا وأساليبنا امتداداً للغتهم وأساليبهم ، وحتى لا تكون مذاهبنا فى الفن والأدب امتداداً لفنونهم وآدابهم بل لا يكون إسلامنا امتداداً لإسلامهم ، فإذا نجحت فى أن تجعل المجتمع الجديد مقطوع الصلة بماضينا فى الدين وفى اللغة وفى العادات وفى الذوق الفنى وفى المزاج وفى التقنين الخلقى ، فأى جامعة يمكن أن تجمعنا عند ذاك وأى طابع يمكن أن يميزنا عن غيرنا من سائر خلق الله ، ويجعل لنا الحق فى أن نقول : إننا قوم ، إننا عرب ، ما أيسر أن نكون عند ذلك تبعاً لسادة الشرق والغرب وذيلا لكائن من كان ممن يريد أن يستلحقنا كما كان السادة يستلحقون العبيد فى عصور الرق .

وهكذا نصل مع الدكتور طه حسين وشيعته ومؤامراتهم التى فرضوها على الجامعة والتعلم العام إلى مجموعة من الحقائق :

أولا : قطع الصلات التى تربط الدراسات العربية بالدراسات ــ الإسلامية .

ثانياً : أن ينزع عن العربية قداستها ويحرمها من حماية الدين وحضانته

ليكشفها أمام أعدائها ويعينهم على الإجهاز عليها بعد أن يفردها من كل نصير أو معين .

ثالثاً : تأليف معاجم محلية ، وإذ بنا أمام هذه المشاريع جميعاً منفذة فى كتب القوصى وشركاه المشهورة بكتب شرشر أو جلاجلا وفى كتب النحو الجديد التى يتولى إبراهيم مصطفى توجيهها .

رابعاً : خطف دراسات الإسلام من الأزهر ونقلها إلى كلية الآداب لتدرس بأسلوب العلمانية والمادية التى سيطر على دراساتها تحت اسم مسايرة الزمن .

خامساً : كتب القراءة الجديدة لا تثبت النصح الذى أجمع عليه العرب والمسلمون بدعوى غرابته وثقله ، لأنها تتعمد إهماله وتجعل استعمال لهجة الأسواق فى الكتب المدرسية أمراً واقعاً وفوراً (م ٣٠ مجلة الأزهر نوفمبر عام ١٩٥٨ ، ديسمبر عام ١٩٥٨) .

* * *

(٣)

محاولة لتيسير الكتابة

نشر طه حسين فصولا فى جريدة الجمهورية عام ١٩٥٦ تبشر بأسلوب جديد فى كتابه (اللغة بدعوى تيسيرها) . استهدف منها أن ينقل التشكيل إلى حروف الكتابة نفسها . حاول أن يكتب منها الكلمات بطريقة نطقها على هذا النحو :

وقت مضى : وقت مضا .
هذا الاسم — هاذا الاسم .
على الدولة — علا الدولة .

يريد بذلك أن تكتب الكلمة كما تلفظ رغبة منه فى تسهيل الكتابة العربية على أبنائها وغير أبنائها . وقد أيده فى ذلك دعاة الشعوبية فى العالم العربى وأعداء اللغة العربية : ميخائيل نعيمه، وأنيس المقدسى ، وأنيس فريحة، ورئيف خورى فى كلمات نشرت فى مجلة العلوم اللبنانية .

وقد كانت تلك إحدى البدع التى كان حريصاً على أن يواجه الناس بها من حين إلى حين ، بهدف خفى هو إثارة شبهات جديدة وهدف ظاهر هو أن يتحدث الناس عنه .

وقد علق الأستاذ عباس محمود العقاد على هذه البدعة فقال :

قرأت اليوم كلاماً عن الإصلاح الذى قيل : إنه سيحل المشكلات جميعاً فى كتابه (اللغة العربية) ، لأنه يعلم الناس أن يكتبوا الحروف كما ينطقونها فى جميع اللغات . وكل ما قرأته حتى الآن يزيد مشكلات الكتابة ويوقع اللبس والاختلاط حيث لم يكن من قبل لبس ولا اختلاط . هل تنوى

من اليوم أن تقول : (رمى يرمى رمياً ورجا يرجى رجياً وصفا يصفى صفياً ، إلى آخر هذه الألفات أو هذه الياءات) .

إن كنا ننوى ذلك فقد انحلت المشكلة وتساوت الألف والياء نكتبها ألفاً أو نكتبها ياء كما نشاء ، ولكننا لا ننوى ذلك ولا نستطيع إذا نويناه لأنه يجر إلى الخلط الذريع بين أبواب الفعل وأبواب المشتقات ، وكلها مرتبط بأساس تكوين اللغة العربية لأنها لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثى التى لا وجود لها فى جميع اللغات الهندية الجرمانية ، وهى اللغات التى تكتب بالحروف اللاتينية ويدعونا إلى التشبه بها من ينسون الفارق الأصيل بين لغة الاشتقاق ولغة النحت والتركيب ، ومتى كان إلغاء الفوارق بين أبواب الفعل الثلاثى ضرباً من المستحيل ، فالحفظ بين ألفها وبائها يزيد المشكلات ، ولا ييسر صعوبة واحدة من الصعوبات التى تيسرها القواعد المتبعة لأصغر التلاميذ . كل ألف رابعة فما فوقها تكتب ياء لأنها ياء المضارع أو المصدر ، كما نفهم من النطق البسيط للأفعال والمصادر ، فنحن نقول : اكتفى يكتفى ، واستوى يستوى ، واهتدى يهتدى ، واعتلى يعتلى ولا يوجد لسان عربى يصعب عليه أن يجرى على هذه القاعدة فى تصريف الأفعال ، ونحن نقول كذلك : تعالى تعاليا وترامى تراميا وتداعى تداعيا ولا يصعب على أحد يأتى بالمصدر بداهة وارتجالا على هذا القياس وهكذا نرى أن القاعدة تزيل اللبس وتحفظ للافعال والمشتقات أبوابها وأوزانها ولا توقعنا فى الخلط بين كل ألف وكل ياء .

ومن تسليات الإصلاح الذى يستطيعه عندنا من لا يستطيع أن يفك الخط قول بعضهم : إننا يجب أن نكتب كما نتعلم ليفهم عنا جميع القراء ما نقول :

وعلى هذه القاعدة يقول ابن القاهرة : (بقه) ، ويقول السورى : (تمه) ، ويقول الصعيدى : (خشمه) إذا تكلموا عن الفم فكيف تكتب ألفهم فى كتاب يقرأه القاهريون والسوريون وأبناء الصعيد .

وعلى هذه القاعدة يقول السورى : (اجره) ، ويقول : (رجله) ، ويقول السودانى : (كداعه) فكيف نكتبها فى كلام يقرؤه هؤلاء ، ونريد أن نعرف كيف يكتب الشمس والسماء والثورة والتوراة .

وينبغي أن نكتبهـــا كما تنطق أشمس ، وسماء ، وتتورة ، وتتوراة فبزول الأشكال بحمد الله لأننا لا ننطق الألف واللام فى هذه الكلمات ، كما تنطقها فى كلمات القمر ، والبلد ، والجمل ، والبرتقال .

إننا إذا فهمنا الفرق بين لغة الاشتقاق ولغة النحت بطل الجدال العقيم فى أقوال (المصلحين) المتعجلين . فالحركة جزء فى بنية الكلمة فى لغة الاشتقاق لأنها قد تغير معنى الكلمة من النقيض إلى نقيضه ، ويضاف إلى هذا الفارق أن المشتقات والمصادر تختلف فى أبواب الفعل الثلاثى ، كما تختلف فتح فتحاً ، وكرم كرماً ، وبلغ بلوغاً ، ولا تتغير هذه الأوزان جميعاً بتغيير حروف الكتابة ولا يمكن أن تتغير بتغير الأوزان .

(الأخبار ١٨ يونية سنة ١٩٥٦) .

* * *



الفصل التاسع

النحـــــو

هنالك دعوة طه حسين الخطيرة إلى ما أطلق عليه تطوير النحو وهو هدف خبيث يرمى إلى صرف الناس عن دراسة كتب النحو القديم والبلاغة القديمة بدعوى أن القواعد القديمة معقدة ، فإذا ذهب كل من هؤلاء المتآمرين مذهبه فى استنباط قوانين جديدة وتسمية المسميات بأسماء مبتكرة ، فقدت الاصطلاحات قيمتها .

يقول الدكتور محمد محمد حسين : والنحو العربى – ولا أقول : النحو القديم – ما عيبه وهل هو حقاً كما يزعمون معقد صعب ؟ وهل ثبت فشله كما يزعمون فى تنشئة جيل عربى يقيم عربيته ويحسن تذوقها ، نحونا وبلاغتنا لا عيب فيهما ، ومن الممكن تبسيطهما واختصار المطولات المؤلفة منهما فى حدود القواعد والأقسام التى التزمها القدماء أنفسهم . فالواقع أن إجماع الناس فى كل أمصار العرب – بل المسلمين – على قواعد موحدة دون أن تحملهم على ذلك قوة قاهرة أو تلزمهم سلطة منفذة ، هذا الإجماع على قوانين موحدة فى النحو والصرف والبلاغة بعد أن كانت مدارسها متعددة هو وحده الدليل الحى الذى لا ينقضى على صلاحية هذه القواعد ، وعلى أن هذه الدعوات التى توصف بدعوى التبشير والإصلاح ، هى دعوات مفتعلة يروجها هدامون وينساق وراءها مغفلون ، ولكى ندرك خطر هذه الدعوات ونفهم حقيقة مغزاها لابد لنا أن نقرنها إلى أمثالها ، فننظر إليها فى ظل ما نسمعه من الدعوة إلى تطوير : عاداتنا ، تقاليدنا ، أدبنا شعره ونثره ، أغانينا ، زينا ، تطوير قيمنا ومثلنا الأخلاقية والاجتماعية ، تطوير شريعتنا ، تطوير إسلامنا نفسه ، من أجال النظر فى هذا كله وقرن

بعضه إلى بعض عرف أن أصل هذه الفروع واحد وأن روح الدعوة فيها جميعاً واحدة وأن أصحابها لا يفعون إلا بقطع دابر كل ما يربطنا بإسلامنا وعروبتنا وشريعتنا من وشائج وصلات عند ذلك نفقد طابعنا الذى يميزنا بوصفنا جماعة أو قوماً أو أمة ، وإذا فقدنا طابعنا فقدنا كياننا ، وفقدنا القدرة على التكتل والتجمع وأصبح من اليسير على الشرق والغرب أو كائنا من كان من خلق الله أن يلحقنا به ويجعلنا تابعين له ندور فى فلكه ونسبح بحمده من دون الله .

ولو كان القصد هو التيسير حقاً لقنعوا بصنيع لجنة (حفنى ناصف ودياب وطموم ومحمود عمر وسلطان محمد) فى كتاب (قواعد اللغة العربية) لتلاميذ المدارس الثانوية ، فقد نجحت هذه اللجنة فى حصر قواعد النحو والصرف والبلاغة فى كتاب صغير لا يتجاوز مائة وأربعين صفحة خال من التعقيد . وقد كان صنيع الجارم بعد ذلك حسناً حين يسر هذه القواعد ومهد لها بالأمثلة الكثيرة ، وأعان على إقرارها بالتمرينات المتعددة وكان ذلك فى حدود القواعد التى أثبتت ألف سنة صلاحيتها والتى استطاع العرب بفضلها وحدها ولا شيء سواها أن يخرجوا فى القرن الأخير هذا الجيش الضخم من الشعراء والأدباء والنقاد الذين بلغ بعضهم مستوى أندادهم القدماء فى أزكى عصور الشعر والأدب العربى وذلك من بعد أن أدرك الضعف العربية حتى كاد يدنيها من القبر ، كيف وجد البارودى وشوقى ، وكيف نشأ محمد عبده وطبقته من الكتاب ، وكيف وجد الرافعى والمنفلوطى ، كيف استقامت ألسنتهم وصحت أساليبهم وذلك بعد الركاكة التى كانت تتمثل فى كاتب كالجبرتى يعتبر من أحسن كتاب عصره ، هل أتقن هؤلاء العربية عن طريق آخر غير قواعد النحو والصرف والبلاغة التى يزعم الزاعمون أنها مقيدة وغير صالحة ، فأيهما تصدق ، هل تصدق واقعاً قائماً ماثلا راسخاً قديماً أثبته ألف سنة وأعادت إثباته وتأكيده تجربة القرن الأخير ، أم تصدق مزاعم لم نر من آثارها منذ ظهرت إلا الشر وإلا التدهور والانحطاط فى مستوى تدريس العربية . إن انحطاط مستوى الجيل الحاضر فى اللغة العربية أمر واقع ولكن سببه ليس هو صعوبة القواعد (القديمة) بل إن سببه هو

زعم الزاعمين أنها معقدة لأنه قد صرف الناس عن إتقانها إلى التنقل بين تجارب فجة غير ناضجة وأعان على إقرار ما يتوهم التلاميذ والمدرسون من صعوبتها ، بل اختلق هذا الوهم نفسه بعد أن لم يكن والدليل على ذلك أن الجيل السابق وهو جيل لا يزال كثير من أفراده أحياء — أحسن إتقاناً للعربية رغم أنه قد نشأ فى ظل الاستعباد الإنجليزى وبرامجه ، وحب الداعين بهذه الدعوة هزالا وفشلا ما اقترحوه على المدارس الإعدادية من قواعد بينة الضعف والفساد والهزال .

* * *

(٢)

يقول الدكتور محمد محمد حسين :

إن أصحاب النحو الجديد أو ما يسمونه (تيسير النحو) شعبة من تلك . . . الفرقة الموكلة بهدم تراثنا وقطع كل صلة تربطنا به ، فهم لا يهدمون لأن الهدم هو وسيلتهم إلى البناء من جديد كما يزعمون ، ولكنهم يهدمون فى حقيقة الأمر لأن الهدم هو هدفهم وغايتهم وهم بهذا الهدم يمهدون الأرض ويسوونها لبناء جديد ولكنه للأجنبى لا لنا ويمحون كل ما فى صحفنا لتصبح صحفاً بيضاء يسطرون منها أو يسطر فيها الذين يسخرونهم لما يعملون من بعد ما يشاءون .

زعم أصحاب القواعد الجديدة أن قواعد النحو التى صنعها اثنا عشر قرناً سخيفة ومعقدة وزعم لهم صاحبهم أنه سيلخص لهم هذه القواعد فى كلمات مقسمة الكلام إلى مسند ومسند إليه وتكملة وسمى كلامه هذا تيسيراً ، والوصف الصحيح له أنه (تعقيد) لأن الاصطلاحات المتداولة ولا أقول : القديمة أدنى إلى عقل الناشئ وتصوره ، ومن ذا الذى لا يخطىء فى فهم كلمة فعل وفاعل . إن الأمى الجاهل والساذج الذى لاحظ له من الثقافة النحوية يستعمل هذه الكلمات بمدلولاتها النحوية فى حديثه اليومى المألوف ، الخفير والشرطى يسأل عن الفاعل : ويقول : قبض على الفاعل . ويقول : الفاعل معلوم أو الفاعل مجهول ويسأل ما الخبر ؟

هذه المصطلحات التى استبدلوا بها المسند والمسند إليه فسموا الفاعل ونائب الفاعل ، والمبتدأ مسنداً إليه وسموا الفعل والخبر مسنداً . إن ما أطلقوه من أسماء لما توهموه من أقسام لا تصح اصطلاحاً حتى يجمع عليها الناس .

أصحاب التيسير يضعون أمامهم التقسيم الغربى فى نحو بعض اللغات الأوربية وفات هؤلاء أن اللغات الأوربية التى نقلوا عنها هذا التقسيم ، كالإنجليزية لا تحتاج لعلم يقابل علم النحو عندنا لأنها غير معربة ، أما المعرب

من لغاتهم مثل الألمانية ، ومثل الفعل فى الفرنسية فهو لا يزال يحتاج فى ضبطه إلى قواعد تفوق قواعد النحو العربى فى أقسامها وفروعها .

٤ – بقى أن نسأل أصحاب التيسير كيف يصنع الناس بكتب التفسير والحديث والفقه وشروح دواوين الشعر التى تمتلىء صفحاتها باصطلاحات النحو المتداولة والتى حكموا عليها بالإعدام ، وبقى أن نسألهم : هل استشرتم العرب جميعاً فيما صنعتموه . بل وهل استشرتم المسلمين الذين لا يستغنى فقهاؤهم عن هذه اللغة التى لا تستعمل غير اصطلاحات النحو الذى يريدون أن يلحقوه بكل ما يرون إعدامه ، والقضاء عليه من قديم ، أم أنهم لا يعرفون أن هذه اللغة ليست ملكاً لطه حسين وإبراهيم مصطفى والقوصى ومن شابههم ممن يخافهم أو يرجوهم أو يصله شيطانهم بل هى ليست ملكاً للمصريين وحدهم ، بل هى ليست ملكاً للعرب وحدهم ولا للمسلمين وحدهم من أهل هذا الجيل ، إنما هى أمانة يتحتم علينا أن نحفظها للأجيال من بعدنا كما تلقيناها عمن قبلنا .

أقول هذا وأنا أعلم أنهم يقولون :

كلما حدثناكم فى شىء أقحمتم فيه الإسلام وقلتم : القرآن القرآن ، لا حجة لكم إلا هذا ولا تكأة لكم سواه ونحن نقول : نعم .

القرآن والإسلام فى تقديركم شىء هين يسير وهو فى تقديرنا كبير خطير ، ونحن لا نبالى شيئاً تزينونه وتزخرفونه إذا أبعدنا عن القرآن والإسلام ، فلو كان القرآن والإسلام عندكم لوناً من الألوان وواحدا من اعتبارات كثار ، فهو عندنا كل شىء ، به نحيا وعليه نموت ، وذلك بأن الحياة عندكم نعيم وزخرف ومتاع ثم لا شىء بعد ذلك إلا الفناء ، فلا قيمة عندكم لشىء لا يتحول إلى لذة أو شهوة أو أرقام .

أما نحن فالحياة عندنا معبر للآخرة وطريق إليها ، لذلك كان الأدب عندكم لهوا و متاعاً وخرافات وأوهاماً ، لذة للشذاذ الفارغين ، وكان عندنا أسمى من ذلك وظيفة وأعز مكاناً ، ومع ذلك كله فالقرآن والإسلام هو سبيلنا إلى العزة فى الدنيا التى تطلبونها ولا ترون سواها ، لأن الذى يفقدهما يفقد الضمير ومراقبة النفس ومحاسبتها على الصغير والكبير ، ويفقد الدافع

القوى الصادق إلى العمل المثمر النافع ، ويفقد الحصانة والمناعة التى تجعله يتماسك ولا ينهار أمام الشهوات والمغريات .

(أصحاب التيسير) كانوا يضعون أمام أعينهم التقسيم الغربى فى نحو بعض اللغات الأدبية : وقد اتخذ أصحاب التفسير كلمة (تكمله) وهى الترجمة الحرفية لكلمة Complement على اصطلاح البلاغيين المشهور وهو فضلة . وفات هؤلاء أن اللغات الأوربية التى نقلوا عنها هذا التقسيم كالإنجليزية لا تحتاج لعلم يقابل علم النحو عندنا لأنها غير معربة ، أما المعرب من لغاتهم مثل الألمانية ومثل العقل فى الفرنسية فهو لا يزال يحتاج فى ضبطه إلى قواعد تفوق قواعد النحو العربى فى أقسامها وفروعها .

* * *

وقد زعم طه حسين فى تقريره عن التيسير) :

أن الناس مجمعون على أن تعلم اللغة العربية وآدابها فى حاجة شديدة إلى الإصلاح إلخ . (مستقبل الثقافة) ، ولم يمض سوى سنتين حتى صدر كتاب فى النحو نسقه إبراهيم مصطفى على ما تخيله طه حسين فى تقريره وقدم له طه حسين نفسه .

والخطة واضحة تكشف عن نيته صاحبها وعن أسلوبه فى استدراج الناس ، ولم يتوقف طه حسين عند هذا الحد بل ذهب يحاضر فيه فى أماكن متعددة ، ففى سنة ١٩٤٧ فى الدورة الثالثة عشر لمجمع اللغة حرص طه حسين أن يلقى كلمة معلناً فيها وجهة نظره من ضرورة إصلاح النحو وتجديده ، واعتمد على كتاب ابن حزم (الرد على النحاة) وقد أورد ما جرى منذ قبل عندما عقد بهى الدين بركات سنة ١٩٣٠ لجنة لبحث ما يكتنف تعليم اللغة العربية من صعاب ، وكان طه حسين أحد أعضائها لاقتراح قواعد جديدة ، على أن لا يمس أصل من أصول اللغة وقد انتهت اللجنة إلى طائفة من المقترحات التى تخلص النحو من فلسفته وتقدمه إلى النشء فى صورة سهلة ميسرة ، وهونت من أمر الأعراب وهو عقدة العقد ، بدأ النحو الذى اقترحه أشبه ما يكون بأجرومية بعض اللغات الحية كالفرنسية والإنجليزية ، وظلت

الاقتراحات مطوية حتى عرضت على مجمع اللغة العربية ليدلى فيها برأيه ووقف عليها مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثمانى جلسات ، ودافع عنها طه حسين فى صدق وإيمان وأراد أن يسلك بها مسلك التنفيذ ، وبقى الموضوع فى طى النسيان عشر سنوات أخرى .

وفى عام ١٩٥٥ ألقى الدكتور طه حسين بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء محاضرة عنوانها مشكلة الإعراب ، ودعا إلى تيسير الكتابة وتيسير النحو معاً وقال إن علم النحو من أحب العلوم العربية إلى نفسه لأنه يجد لذة فى قراءة الكتب النحوية المعقدة ، على ما فيها من فلسفة وتعقيد ، مثلما يجد عند قراءة شعر جرير أو بشار (ولكن إذا كان النحو مستحباً إلى الإخصائيين وإلى الذين يفرغون لمثل هذه الدراسات فمن الحمق كل الحمق أن يفرض على الشباب فى القرن العشرين ، أقول من الحمق ومن الخطأ أن نأخذ عقول الشباب يتعلم هذا النحو والخضوع لمشكلاته وعسره والتوائه ، لأن ذلك لا يلائم الحياة الحديثة ولا التفكير الحديث ، ولا بد من تيسير النحو تيسيراً يتيح للشباب أن يتعلم العربية فى يسر ومن غير عنف (، وأشار إلى مشروع مجمع اللغة الذى يفى بهذا الغرض وهو نائم فى وزارة المعارف منذ أعوام وفى وزارة التربية والتعليم ينتظر من يوقظه) .

وهكذا لم يتوقف طه حسين عن دعوته هذه وبث سمومه يوماً واحداً .

ولكن محاضرة الدكتور طه حسين عن الإعراب لم تمر بدون تعليق فقد واجه العلماء الحاضرون من أساتذة دار العلوم والأزهر زيفه ودلالة جهله .

وقد ختم محاضرته بالعبارة الآتية :

(لقد تطورت اللغة الإنجليزية وتطورت قواعدها وتطورت الفرنسية وتطورت قواعدها وتطورت اليونانية وتطورت قواعدها ، أما اللغة العربية فقد بقيت حيث كانت ولم تتطور ولم تتطور قواعدها) .

وقد جابهه الأستاذ عبد الرحيم فوده الذى كان حاضراً فقال :

يا دكتور هل يدرس الإنجيل فى انجلترا وفرنسا واليونان بلغته الأولى : إن الإنجيل يدرس فى انجلترا بالإنجليزية ، وفى فرنسا بالفرنسية وفى اليونان باليونانية ، أما لغته الأصلية فهى العبرية (أو السريانية) .

ما رأيك فى أن هذا النحو وهذا الإعراب بل إن العلوم العربية كلها أسوار وضعها النحاة لحماية لغة القرآن الأولى ، وأن تطوير هذا النحو وتطوير الإعراب ، وتطوير اللغة يباعد بين المسلمين وبين لغة القرآن الأصلية الأولى .

إن الشعوب الإسلامية التى تدين بالإسلام ولا تعرف النحو والإعراب واللغة قد انقرضت فيها اللغة العربية لأنها جهلت هذا النحو وهذا الإعراب ، وأن اللغة العربية لم تبق إلا فى مصر لأن فيها الأزهر ، وفيها هذا النحو وهذا الإعراب وأن أستاذ علماء النحو هو سيبويه وهو فارسى ، وقد انقرضت اللغة العربية من فارس لأنها هجرت نحو سيبويه .

كذلك فقد أشار الدكتور عمر فروخ إلى أن الدعوة إلى تيسير النحو العربى والدعوة إلى اللهجات والدعوة إلى اللاتينية هى دعوات تبشيرية استعمارية مردها إلى رجل معروف هو ماسينون المستشرق الفرنسى ، هذا الرجل هو أستاذ طه حسين والذى تقول مؤلفة كتاب معك أنه كان لا يشرق ولا يغرب إلا ويهبط ليلتقى بطه حسين وبينهما خطط وأحاديث .

• • •

(٣)

دراسة الإسلام

ومما دعا إليه طه حسين فى مستقبل الثقافة وعمل على تنفيذه بعد ذلك فى مناصبه مستشاراً لوزارة المعارف ومديراً للثقافة ووزيراً للتعليم ، إنشاء معهد للدراسات الإسلامية يلحق بكلية الآداب : وهو يرى (أن كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوربية ، وهى تعرف جهود المستشرقين فى الدراسات الإسلامية ، ومن الحق عليها أن تأخذ نصيبها من هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التى ترى لنفسها زعامة البلاد الإسلامية وبين جهود الأمم الأوربية).

وأن المعلم الذى ينبغى أن يعاد النظر فى تكوينه وإعداده . كل هذا يتطلب من المصريين تعمقاً فى دراسة دينهم وتبين موقعه من مختلف المذاهب والاتجاهات التى يجىء بها التطور الاجتماعى ، ومن ذلك دراسة سيكلوجية الدين والتاريخ الدينى والفكرى للبشرية قبل الإسلام والنظم الدينية والأخلاق المقارنة ، ومعنى هذا كله تدمير الإسلام فى نفسية « المعلم » الذى ستخرجه كلية الآداب لأنه سيدرس علوم الإلحاد ومفاهيم النظريات المادية الغربية على أنها حقائق وتتداخل فى هذا الاتجاه خطة تطوير اللغة مع تطوير التعليم نفسه ، وهو يحيى عن طريق المناهج التعليمية ما دعا إليه كل من سبقوه من خصوم اللغة العربية حيث بدأت الدعوة إلى العامية (ويلكوس ولمور) ثم تلقفها لطفى السيد وسلامة موسى ثم جاء عبد العزيز فهمى ليدعو إلى الحروف اللاتينية ، ثم جاء طه حسين ليدعو إلى إبطال النحو وقواعد الإعراب ومن ذلك قوله (فى الأرض أمم متدينة ولكنها تقبل فى غير مشقة ولا جهد أن يكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التى تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ولها فى الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التى تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدى بها صلواتها ، فاللاتينية مثلا هى اللغة الدينية لفريق من النصارى واليونانية هى اللغة الدينية

لفريق آخر ، والقبطية هى اللغة الدينية لفريق ثالث ، والسريانية هى اللغة الدينية لفريق رابع .

(وهو فى هذا يردد ما قاله القاضى (ولمور) من كتابه (عامية مصر) طبعة لندن عام ١٩٠١) وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هى اللغة العربية ومن المحقق أنها ليست أقل إيماناً بالإسلام وإكباراً له وزياداً عنه وحرصاً عليه . .) .

هذا الأسلوب الخبيث الماكر يرمى إلى ماذا ؟

يرمى إلى أن تكون للغرب لغتان : لغة تكتب بها وتقرأ ولغة للعبادة وقراءة القرآن وهذا أسوأ ما دعا إليه داع من دعاة التغريب .

وهو يدعو إلى هذا تحت مصطلحات كريهة مثل قوله : تقديس لغة القرآن والتطور ، ومجاراة العصر فى اللغة والنحو والبلاغة .

وفى هذا يقول الدكتور محمد محمد حسين . :

(إن تقديس لغة القرآن والتزام أصولها وقواعدها وأساليبها لم تكن فى يوم من الأيام داعياً إلى تحجر اللغة ، وجمود مذاهب الفن فيها ووقوفها عند حد تعجز معه عن مسايرة الحياة كما يشيع الهدامون ، ويخدعون به الأغرار ، وصغار العقول ، وصغار الهمم ، فليس التطور نفسه هو المحظور ، ولكن المحظور هو أن يخرج هذا التطور عن الأساليب المقررة المرسومة .

(كذلك اللغة وضع اللغويون والنحاة والبلاغيون لها حدوداً طابقت بها مذهب الفنان وكلام العرب ، وتركوا للناس من بعد أن يستحدثوا ما شاءوا من أساليب وأن يتصرفوا فيما أرادوا من أغراض وأن يجددوا ما أحبوا فيما يشتهون ومما يتفق مع عبقرياتهم ولكن كل هذا لا ينبغى أن يخرج عن الحدود المرسومة فإذا نعق ناعق من بعد بأن إعراب أواخر الكلمات لا داعى له ، وبأن عربية القرون الأولى لغة ميتة لا وجود لها فى الحياة فسوف يجد هذا الناعق لصوته صدى فى عقول هذا الجيل . حيث لا تدرس لغة القرآن ولا البلاغة ولا النحو ولا الصرف ولا الأدب السابق على الحملة الفرنسية ، هذا الهدف الذى يحاول أن يربط حاضرنا ومستقبلنا الأدبى بالغرب فى الوقت

الذى يقرن فيه تراثنا الأدبى الحى العريق بالآداب السامية الميتة : آداب السريانية والعبرية إذ تجعلها جميعها شعبة واحدة ، هى شعبة الدراسات العربية والشرقية القديمة وفى نفس الوقت الذى أنشئت فيه هذه الدراسة كان (أنيس فريحه) المدرس بالجامعة الأمريكية فى بيروت يلقى محاضرات فى الدعوة إلى دراسة اللهجات السوقية وآدابها والدفاع عنها من فوق منبر جامعة الدول العربية فى القاهرة ، وكان مجمع اللغة العربية مشغولا بدراسة هذه اللهجات وهكذا بدا دعاة العامية لابسين ثوب الشعبية والدفاع عن لغة الشعب وهكذا ارتبط طه حسين بدعاة العامية القدامى بعد أن تخفى طويلا وراء ستار كاذب ، سبيتا ، فولارز ، باول ، فيلوت ، الذين قادوا هذه الدعوة فى مصر سنة ١٨٨٠ فظهر صداها فى صحيفة المقتطف التبشيرية أولا سنة ١٨٨٢ ثم انتقل إلى بقية السماسرة ، ومن ناحية أخرى ارتبط طه حسين برائد التغريب الأول (دنلوب) فى مجال هدم المناهج الإسلامية الغربية والدعوة إلى الأدب الشعبى التى دعا إليها وماسبيرو وبوريان :

ويقول : ويستطيع العالم أن يشير إلى التجارب الدينية منظوراً إليها فى ضوء الظواهر السيكولوجية لا يمكن تميزها من أوهام الحس .

ويقول : (إنه ليس للدين أن يتوقع أو يعتقد أن ستؤخذ قضايا مسلمة على أساس أنها جاءت من طريق الوحى وأن وراءها سلطة التقاليد القديمة . أما العالم فإنه يرى فى روح البحث الحر جوهر الحياة .

هذا هو المعنى الذى يرمى إليه طه حسين من دراسة سيكولوجية الدين فى كلية الآداب وهى معانى واضحة الدلالة على الإلحاد وإنكار الوحى والنبوة جميعاً فالعلم البشرى — كما يقول الدكتور محمد محمد حسين : لا يصلح لأن يكون فيصلا إلا فى شئون المادة المحسوسة التى يجرى عليها تجاربه بل فى بعض شئون هذه المادة مما يتيسر له الكشف عنه . أما ما وراء المادة من الغيب الذى لا يحصيه إلا الله ، فالعلم عاجز عن إبداء رأى فيه وكل ما يقال فى التشكيك فيما جاء به الدين ليس إلا ظنوناً لا تتجاوز مرتبة (الفروض العلمية) بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله هذا فضلا عن المواد الغارقة التى سوف تطغى على علوم اللغة العربية

الأصيلة خاصة وأن هذه الشيعة الجديدة تسقط من حسابها كل العلوم العربية : نحوها وصرفها وبلاغتها وأصولها العلمية شعراً ونثراً ، كأن ذلك كله ليس له وجود وليس له آثار ، وليست لنا به حاجة منذ القرن التاسع عشر ، ومعنى هذا أن هذا المخطط الذى عمل طه حسين على تنفيذه بعد أن وضع كتاب (مستقبل الثقافة) ووكل إليه تنفيذه مستشاراً ومراقباً للثقافة ، ثم وزيراً للتعليم ، هو حرب على العربية ومعول هدم يعمل فيها . إن التطور على كل حال ينبغى أن يكون بالقدر الذى لا يقطع صلتنا بالماضى وبالقدر الذى لا يخشى معه أن يتطور إلى قطع صلة الأجيال المقبلة بالجيل الماضى أيضاً لا يجب أن يتحول قرآننا وحديث نبينا صلى الله عليه وسلم وفقه فقهائنا إلى طلسم لا يقرؤه إلا طلبة من الكهان يحتكرون تفسير الإسلام .

* * *

ولا ريب أن الهدف من إنشاء شعبة الدراسات الإسلامية فى كلية الآداب يرمى إلى أمرين :

الأول : استبعاد الأزهر من القيام بوظيفة تعليم الدين لأن مناهجه لا يحقق للدارسين فيه (عمق الثقافة وحرية الفكر) . وقد وضعت الخطط منذ وقت بعيد لاضعاف الأزهر لأنه كان يصبغ التعليم بالصبغة الإسلامية فى مصر ، بل فى البلاد الإسلامية عامة والعربية خاصة وذلك بمحاصرته وعزله عن الحياة وسد أبواب الرزق أمام خريجيه .

والثانى : هو الصبغة المصرية التى تبرز فى الإشارة إلى مهمة مصر القيادية فى حل مشكلات الحياة المعاصرة ومسايرة التطور الاجتماعى وهو تطور غربى بالبداهة ، كما يبرز فى إمداد الدارس بما يقوى فيه الاعتزاز بفقهاء الإسلام وعلمائه من المصريين خاصة مما يوجد لوناً من الشعوبية الإسلامية تشبه الشعوبية السياسية .

وما أورده طه حسين مما سماه فى مشروع (سيكولوجية الدين) فهو شديد الشبه بكلام القس الأمريكى (ميلر بروز) فى دعاواه الهدامة التى

طالب فيها بوضع (تجربة الدين) و (تجربة النبوة) والمعجزات والصلاة والحياة الأخرى موضع البحث واصطناعها لقواعد علم النفس الحديث وغير فى ما ينطوى عليه (سيكولوجية الدين) من مفاهيم أولها وأبرزها : أن الدين ظاهرة نفسية ليس لها وجود خارجي حقيقى ، لأن المعروف أن هذه (السيكولوجيا) ترد كل التصرفات إلى مصدر مجهول فى أعماق النفس الإنسانية يسمونه (العقل الباطن) ، يقول المستر ميلر بروز صاحب الاقتراح الأصيل : إن تجربة النبوة يمكن أن تلاحظ وتدرس بنفس الطريقة وإلى نفس الدرجة التى يمكن بها ملاحظة التأثيرات الذوقية والوجدانية ودراستها .

* * *

الفصل العاشر

الأثر الإغريقى واليونانى فى الأدب العربى

منذ أن عاد الدكتور طه حسين من باريس وقد وكل إلى نفسه بعث الأساطير اليونانية والشعر التمثيلى اليونانى وتدريسه فى الجامعة المصرية القديمة ، وتأليف الكتب عنه وإذاعة تلك الدعوى العريضة بأنه عقلية مصر عقلية يونانية وأن الإسلام لم يغير تلك العقلية بالرغم من أن طه حسين يعرف أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية ، وكان من أخطر الخطوات التى اتخذها أن قرر كتابه (قادة الفكر) على التعليم الثانوى وهو الكتاب الذى يقرر أن العالم كله ليس له قيادة فكرية إلا سقراط ، وأرسطو وأفلاطون وكانت خطوته الخطيرة فى الجامعة هى فرض تدريس اللغتين اليونانية واللاتينية على طلبة كلية الآداب وكان من مخططه تلك الأحاديث التى أذاعها بالادعاء بالباطل أن الأدب العربى قد تأثر بالأدب اليونانى وأن الفكر الإسلامى قد تأثر بالفكر الإغريقى . وقد كانت الفكرة المسمومة التى دعا إليها طه حسين فى هذه الوجهة هى أن الفكر الإسلامى قد تأثر بالفكر اليونانى فى ماضيه ، ولما كانت النهضة الحديثة فى أوربا هى فى معظم أمرها أثر من آثار اليونان فإن النهضة الحديثة فى مصر والمشرق يجب أن تخضع للفكر الغربى الحديث تبعاً لخضوعها للفكر اليونانى القديم .

وهذه مغالطة مكشوفة فإن الفكر الإسلامى لم يقبل الأثر الهلينى وقد رفضه منذ اللحظة الأولى ، وقد تبين مدى تضليل الدعوى التى حملها طه حسين بأن الفكر الإسلامى كان مديناً فى عصره الأول لليونان وتلك دعوى باطلة عريضة كشفها كثير من الباحثين وفى مقدمتهم الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور على سامى النشار ومازال مدرسة الأثر اليونانى الذى أنشأها طه حسين وغذاها لطفى السيد وإبراهيم بيومى مدكور قائمة تنفث سمها .

لخص طه حسين موقفه كله من الفكر الهلينى اليونانى الإغريقى فى كتابه

(مستقبل الثقافة) على نحو واضح : هو أن عقلية مصر عقلية يونانية وأنه لابد من أن تعود مصر إلى أحضان فلسفة اليونان ، ومن هنا كانت دعوته الملحة إلى أن يكون المثل الأعلى يونانياً وأن يكون قادة الفكر الإنسانى هم هوميروس وسقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس . وتلك غاية أساسية فى قضية التغريب التى تولاها والتى عاش لها طوال حياته وتولاها بالبحث والمعاودة مرة ومرة . ودعواه العريضة التى كذبتها وقائع التاريخ وأبحاث العلماء المنصفين . هى أن الثقافة اليونانية هى مصدر الثقافات الإنسانية وأن الناس فى الشرق والغرب مدينون لثقافة اليونان .

وقد حرص طه حسين على إثبات هذه النظرية الباطلة فى الكتاب المقرر فى المطالعة على المدارس الثانوية . كما عقد فصلا خاصاً بهذه القضية عنوانه : (بين الشرق والغرب) أراد بهذا الفصل أن يجعل القيمة العقلية من حظ الغرب وأن يجعل البوارق الخيالية من حظ الشرق وانتهى إلى النص بأن الغرب وطن الفلاسفة وأن الشرق وطن الأنبياء ومن دعاواه الباطلة قوله : إن العقل الشرقى انهزم أمام العقل اليونانى مرات فى التاريخ القديم وأنه ألقى السلاح فى التاريخ الحديث .

ومن ذلك إهمال الخطابة عن الغرب والاهتمام بالخطابة عند اليونان فى مقرر الأدب العربى على الثانوية عام ١٩٣٩ حيث أدخل عدداً وافراً من خطباء يونان القديم واستيعاب الأدلة الوافية من كلامهم لا فى أصله اليونانى بل فى ترجمته إلى العربية عن الفرنسية ، وهدفه إبعاد النفس المسلمة عن بلاغة اللغة العربية وسمو أدبها ، ولا يستطيع الدكتور طه وهو يكتب (على هامش السيرة) أن ينسى اليونان والأوديسة ، فيعرض لآلهة اليونان وربينا أبولو ، والمريخ وأرتيمس وأثينيا . وقد اجتمعوا لينظروا عما عساهم يفعلون . فلم يلبثوا أن أجمعوا أمرهم على أن يرحلوا عن الديار التى سادوا فيها زمناً . ويتحدث فى كتاب (على هامش السيرة) عن الوثنية اليونانية وكيف زالت وحلت محلها اليهودية والنصرانية ويتحدث فى خمسة فصول أخرى عن بلاد الروم والأحباش واليمن .

ويذهب الدكتور طه فى مقدمة كتاب (نقد النثر لقدامة) إلى أن قواعد

البلاغة العربية إنما أسست على ما وضع أرسطو ونقله العرب من اليونانية وتابعه على ذلك عبد العزيز البشرى (الهلال – يناير عام ١٩٣٦) : مع أن أى نظرة سريعة للفكر الإسلامى الأصيل تكشف زيف ما عرضه التغريبيون ففى المثل السائر لابن الأثير أشهر كتب البلاغة ما يأتى :

(فإن قلت : إن هؤلاء وقفوا على ما ذكره علماء اليونان وتعلموا منه قلت لك فى الجواب : إن هذا شىء لم يكن . . إلى أن قال : وهذا باطل بى أنا فإنى لم أعلم شيئاً مما ذكره حكماء اليونان ولا عرفته ، ومع هذا فانظر إلى كلامى . . إلى أن قال : ولقد فاوضنى بعض المتفلسفين فى هذا وانساق الكلام إلى شىء ذكره لأبى على بن سينا فى الخطابة والشعر وذكر ضرباً من ضروب الشعر اليونانى يسمى (اللاغوذيا) وقام فأحضر كتاب (الشفاء) لابن على بن سينا فوقفنى على ما ذكره ، فلما وقفت عليه استجهلته فإنه طول فيه وعرض كأنه يخطب بعض اليونان وكل الذى ذكره لا يستفيد منه صاحب الكلام شيئاً) .

(ع . ط) الرسالة – ٤ ديسمبر سنة ١٩٣٩ .

(٢)

وقد واجه الدكتور زكى مبارك مقولة طه حسين فى كتاب (مستقبل الثقافة) فقال : إلى الدكتور طه . قلت : إن عقلية مصر عقلية يونانية وصرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية . إن طه حسين يعلم أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية والأمة التى تقضى ثلاثة عشر قرناً فى ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة هذا الدين . كيف جاز عندك يا دكتور أن تتوهم أن الإسلام لم يغز العقلية المصرية بتغيير أو تبديل ، أنا لا أنكر أن تكون مصر ورثت ما ورثت من علوم اليونان ولكنى أنكر أن تكون مصر عاشت بعقلية واحدة منذ آلاف السنين إلى اليوم ، هل تصدق حقاً يا دكتور أن المصريين أحسوا العقلية اليونانية بعد الإسلام إحساساً واضحاً صريحاً . أنا لا أنكر قيمة التراث الذى خلفه اليونان ولكنى أرتاب فى أنه وصل إلى ألفاف العقلية المصرية ، وأنت تعرف من نفسك ما أعرفه من نفسى ، أنت تعرف أننا لم نفقه الفلسفة اليونانية إلا بعد أن

ارتضنا رياضة عنيفة جداً ما وعيت أنك فقهت فلسفة اليونان وأنت طالب فى الأزهر ، فأنا أقول : إننى لم أفقه تلك الفلسفة حق الفقه ، إلا بعد أن تلقيتها على أساتذة أوربيين فى الجامعة المصرية ، وما أظنك تتهمنى بقلة الذكاء ، والعلوم التى لا تهضم إلا بعد جهد ومشقة لا تغير عقليات الشعوب وإن غيرت عقليات الأفراد ، أنت تعرف فيما تعرف أن الفقه الإسلامى نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض فكان للشافعى مذهب فى مصر ومذهب فى العراق ومعنى ذلك أن العقليات تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظروف الزمان وظروف المكان .

والموجة الإسلامية التى طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ، ومن دين إلى دين ، والتى قضت بأن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام بعد سقوط بغداد . هذه الموجة الغائية لا يمكن أن يقال : إنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية ، ولكن ما هى تلك العقلية الإسلامية ؟ هى لون آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال ، أقول هذا وأنا أشعر بأنى لم أزحزحك تماماً عن موقفك ولكنى موقن بأنى عرضت صدرك لشبهات ستوجب عليك الحذر حين تتكلم فى هذا الموضوع مرة ثانية ، وأنت تعرف ما أعنى .

(٣)

ويعرض الدكتور زكى مبارك لكتاب (قادة الفكر) التى قررته وزارة المعارف على الطلبة المصريين زمناً طويلا لتعلم هؤلاء أن قيادة البشرية لم تكن من نصيب الغزالى وابن تيمية والشافعى ومالك وأبى حنيفة ، ولكنها كانت من شأن أرسطو وأفلاطون . يقول :

لخص أراء الباحثين فى طوائف من قادة الفكر الذين سيطروا على العالم القديم والعالم الحديث ، والدكتور يعرف بأنه ملخص (قدرته على تلخيص ما يقرأ من جيد التصانيف) وهو يعترف اعتراف العلماء فلا يدعى أنه أجهد فكره فى غير التلخيص ، وأنه يفترع الآراء بقوة توهمك أنه المفترع الأول وأن كتابه سيكون المصدر لمن يتحدثون عن هوميروس أو سقراط أو أفلاطون . وقد وثق الدكتور طه بمن نقل عنهم ، فلم يجادلهم فى رأى من

من الآراء والحق أن للدكتور طه عذراً فى هذه المسايرة فقد قرأ كتباً ترى هذا الرأى ولو أنه تريث لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك بالتلخيص وقد ساير الدكتور طه الباحثين الأوربيين فى القول : بأن الثقافة اليونانية هى مصدر الثقافة الإنسانية وأن الناس فى الشرق والغرب وفى جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان . والحق أن الدكتور طه لو تريث لعرف أن هناك كتباً أجدر من تلك الكتب بالتلخيص وهى الكتب التى ترى أن المعارف اليونانية منقولة من المعارف المصرية وأن فلاسفة اليونان القدماء لم يكونوا إلا تلاميذ لفلاسفة مصر القدماء .

واستاذية مصر الفرعونية لليونان الوثنية ليست أسطورة وإنما هى حقيقة ويقول : أفى الحق أن العقل الإنسانى لم ينضج إلا فى القرن الرابع قبل المسيح ، العقل الإنسانى نضج قبل الوثنية اليونانية بأزمان وأزمان ، وكان مصدر نضجه فى مصر التى سبقت اليونان بأجيال وأجيال ، والتاريخ القديم يؤيده التاريخ الحديث ، لم يستطع اليونان بعد ظهور الإسلام أن تكون أمة تسيطر فى الشرق أو الغرب .

ثم يقول : إن السبب فى الإيجاز والأطناب فى دراسة هذه الشخصيات يعود إلى الكتب التى بين يديه وهو يؤلف كتابه وأهمها كتاب (ليون رومان) فى تاريخ الفكر اليونانى .

لقد قرر أن الإسكندر غرس الفكر اليونانى فى الهند ، مع أن الإسكندر لم يلم بالهند إلا إلمامة الطيف ، فما عساه يقول : لو تذكر أن الفكر العربى تغلغل فى أرجاء الهند وما زال يتغلغل بفضل المذاهب الإسلامية . ويعود الدكتور زكى مبارك بالذاكرة إلى نوفمبر عام ١٩١٩ حين وقف طه حسين أول مرة يتحدث فى الجامعة عن الفلسفة اليونانية وقال : إنه عزم على إحياء التراث اليونانى لأنه يؤمن إيماناً جازماً بأن مرجع الفكر فى الشرق والغرب إلى القدماء من مفكرى اليونان وأعلن زكى مبارك أنه لا يجوز أن يرجع الفكر كله إلى مفكرى اليونان وحتى عام ١٩٤٣ وما بعده وما زال طه حسين على إصراره على القول : بأن مرجع الفكر فى الشرق والغرب إلى القدماء من مفكرى اليونان وحرصه على إثبات هذا القول فى الكتاب المقرر للمطالعة فى المدارس الثانوية .

ومن ذلك قوله : إن الغرب وطن الفلاسفة وإن الشرق وطن الأنبياء ما حظه فى أن يقرر أن العقل الشرقى انهزم أمام العقل اليونانى ، وما الغرض من الإصرار على أن العقل الشرقى يذهب فى فهم الطبيعة وتفسيرها مذهباً دينياً فائقاً ، بدليل أنه خضع للكهان فى عصوره الأولى وخضع للديانات السماوية فى عصوره الراقية ، وقال : لابد من نقض هذه الآراء قبل أن يفتن بها التلاميذ لأنها صادرة من رجل ممتاز من الوجهة الأدبية أو لأنها مسجلة فى كتاب رقمه على اسم وزارة المعارف العمومية .

ومن أخطاء الدكتور طه فى تصوير الحياة العقلية :

١ ــ أنه يتوهم أن أخذ اليونانيين من الشرقيين نظام النقد ونظام المقاييس ليس إلا عملية مادية .

٢ ــ من أخطائه أنه يهون من فنون الحساب والهندسة فيجعلها فنوناً عملية لا عقلية .

٣ ــ من أخطائه أن يقول : بأن سيادة النظام الملكى فى الحكومات الشرقية دليل على أنها لم تنضج من الوجهة السياسية .

وحجة الدكتور طه على قوة الغرب أنه وطن الفلاسفة وحجته على ضعف الشرق أنه وطن الأنبياء ، فما قيمة هذا الكلام إذا أقيمت له الموازين ؟ الفلاسفة لم تكن لهم فاعلية بدليل أنهم عاشوا فى عزلة عن المجتمع ولم يفكروا فى إقامة حكومة تحقق آمالهم فى شرف الوجود ، ولم يكن للفلاسفة أى فاعلية بدليل أنهم عاشوا فى عزله عن المجتمع وسقراط أبو الفلاسفة لم يسلم عقله من الخضوع لمعبد أبولون وكان حاله عند الحكم عليه غاية فى سوء المصير فقد ظهر أنه لم يستطع خلق عصبية تحميه من العقل ولم يكن تلاميذه وحواريوه إلا أنصاراً لا يجيدون إلا البكاء . أما الرسول فرجل مجاهد يرى من واجبه أن يستقتل فى هداية المجتمع وأن يرحب بالموت فى سبيل الجهاد وقد نجح الأنبياء المرسلون فى هداية الشرق والغرب ، فإليهم الفضل فى إقامة الدعائم للحياة الإنسانية ، ثلاثة من الأنبياء سيطروا بالفكر والروح والعقل على أقطار الشرق والغرب أضعاف ما سيطر سقراط ، وأفلاطون وأرسطو . رفض محمد أن يقبل فكرة أن الشمس انكسفت لموت

ابنه إبراهيم وكانت هذه ذات أثر فى إيمان الناس به ، فأعلن أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله وأنهما لا يتأثران بمؤثر ولو كان من الأنبياء ، ولكن محمداً لا يبالى الأثر السريع بينما هو لابد أن يصدع بكلمة الحق ولو تعرضت نبوته للضياع .

ومن هنا فقد كان محمد هو القائد الأول للفكر الإنسانى لا سقراط .

أراد الدكتور أن يغض من العقلية الشرقية بحجة أنها خضعت للكهان ، والأنبياء (وهذا كلام موجود فى كتاب قررته وزارة المعارف) والظاهر أن الدكتور طه يتوهم أن الكهانة ظاهرة شرقية لا غربية وذلك توهم طريف لأن الدكتور طه نفسه يشهد بأن سقراط قد استلهم الكهان مع أنه فى زعم الدكتور طه أول محرر للعقل الإنسانى من أغلال الأضاليل . الكهانة لم تعد مهنة مقدسة إلا فى عهد الوثنية اليونانية فقد كانت لها معابد ولمعابدها سدنة وأمناء ، أما كهان الشرق فكان مركزهم فى المجتمع أخف وأيسر ، لأن الشرق سبق الغرب إلى استيحاء العقل وهل يستطيع مكابر أن ينكر فضل الشرق فى السبق إلى رفع القواعد من الحضارة الإنسانية .

أما الكلام على تفرد الشرق بالأنبياء ، فإن النبوات فى الشرق دانت الإنسان بديون يراها الحاضر ويذكرها التاريخ (فالأنبياء الثلاثة : موسى وعيسى ومحمد) من أروقة عربية ملأوا الدنيا فى أزمان لم تعرف سوى الذى أثاروا من صيال الآراء . إن الصراع بين الإسلام والنصرانية هو أول وثبة حرية لإيقاظ العقلية الإنسانية ، وكانت دعوة لوثر دعوة جريئة إلى تحرير المسيحية من العبودية الرهبانية فما مصدر تلك الدعوة التى حررت عقول الإنجليز وعقول الألمان ؟ أن مصدرها مصدر إسلامى فإن لوثر أثر فى الأخلاق الأوربية تأثيراً لا يقاس عليه تأثير سقراط وأفلاطون الشرق لن يتخلى عن السيطرة الروحية وإن عجز عن السيطرة الحربية .

وقد ذهب الدكتور طه إلى أن الثقافة اليونانية هى مصدر الثقافات الإنسانية . وأن الناس فى الشرق والغرب فى جميع الأجيال مدينون لثقافة اليونان .

* * *

(٤)

أما الدكتور طه حسين فى كتاب (نظام الأثينيين) فإنه يدافع عن أرسطو وعن نظريته فى عبودية البشر وتجنيد الرق ، فقد حاول فى كتابه هذا أن يبرئ نظرية أرسطو بكل ما أوتى من قوة من تجنيد الرق والدعوة إليه وأن يثبت أن الأمم المحدثة باستعمارها للشعوب المستضعفة تقدم أقبح صور الرق الذى كان مألوفاً فى العصور الأولى ، وأنه لا فرق بين هذه الأمم وبين أهل تلك العصور ، ويقول الدكتور محمد غلاب :

(لو أننا أردنا أن نستقصى الأمر لوجدنا أن نظرة أرسطوطاليس ما زالت قائمة واقعة برغم ما كان من رقى المدنية من الاعتراف بكرامة الإنسان ، فكل ما وصلنا إليه بعد عشرين قرناً إنما هو إزالة الرق الشخصى إن كنا قد توصلنا إلى ذلك ، أما الرق الاجتماعى فما زال قائماً موجوداً والاستعمار أوضح مثال له وأقوى دليل عليه ولسنا نريد أن نعرض لاستعباد الطبقات بعضها بعضاً وإن كان هذا الاستعباد صورة من صور الرق) .

يقول طه حسين : ولكن من قرأ أرسطوطاليس عرف أنه من أعداء الرق ومن الذين أعدوا لإزالته والقضاء عليه ، على أن أرسطو لم يدع إلى الرق وإنما اعترف به وبأنه مشروع ولو فعل غير ذلك لهدم قواعده العلمية .

انظر كيف يعترف الدكتور طه بصريح العبارة بأن الرق بأنواعه ومنها الاستعمار مهين لكرامة الإنسان ، ولكنه يخالف رأى نفسه فى كتابه فلسفة ابن خلدون الاجتماعية الذى يرثى فيه للفرنسيين من أجل أنهم يعانون الأمرين فى سبيل بسط حضارتهم على المراكشيين المتوحشين الذين رفضوا قبول هذه الحضارة ويعترف بأن الرق كان أصلا من أصول الاجتماع الأرسطى

لا ريب أن فى تبرئتك أرسطو أيها الدكتور من الدعوة إلى الرق بهذا الإلحاح شعور من ناحيتك بأن الدعوة إليه أمر مخجل سيتوارى منه فى المستقبل تلاميذك ومحبوك حين ينسب إليك أنك دعوت إلى الرق وزينت الأسلوب القاسى الذى تسلكه فرنسا إزاء المراكشيين المظلومين .

وهكذا نجد طه حسين يبرر مذهب أرسطو فى العبودية فى تلك العبارات الماكرة التى تحمل التمويه والتضليل .

٢ – ويقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدى (البلاغ الأسبوعى – يونية عام ١٩٣٠) :

الأستاذ طه حسين فى كتاب (نظام الاثينيين) لأرسطو الذى نقله من الفرنسية إلى العربية لا يتورع من الطعن ويرمى العرب بالجهل لسياسة أرسطو ، وما كان من ضرر عليهم من جهلها وقد سن لهم الإسلام سياسة عادلة رحيمة ليست كسياسة أرسطو الذى يقوم على أساس التميز بين بنى الإنسان إذ يرى أن هناك أناساً خلقوا ليكونوا أحراراً وآخرين خلقوا ليكونوا عبيداً ، وأن من حق الأولين استخدام الآخرين ، فأين هذا من قوله تعالى :

« **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى . . .** » .

ومن قول عمر : بما استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ويشاء الله أن يكون هناك علماء من أولئك العرب الذين يبخس الآن قدرهم نصوا فى كتبهم التى يهجرها شيئاً فشيئاً أولئك الباحثون المفتونون بغيرها من الكتب الأوربية على أن تلك الفلسفة التى نقلت إلى اللغة العربية ليست هى الفلسفة اليونانية الأصيلة ، وإنما هى فلسفة لعبت فيها النصرانية وعبثت بها حتى شوهتها وبعدت بها عن أصلها اليونانى ، فلم يكن إذن هناك غفلة من العرب عن حقيقة تلك الفلسفة حتى كشف أمرها ، بل كان هناك عدم ثقة عام بتلك الفلسفة وصل فى الحد الأقصى منه إلى الحكم بكفرها والاجتهاد فى صرف الناس عنها .

(٥)

وهو من يرى أن دراسة تاريخ اليونان من شأنها أن تحقق هدفه فى وضع التبعية على المسلمين وفكر الإسلام ، اتجه إلى إلزام طلاب كلية الآداب به ، فمهما كان للحضارة اليونانية والرومانية من التأثير الظاهر فى البلاد الإسلامية فإن هذا الأثر سرعان ما انطوى وزال بعد الإسلام بقليل وقام ما أسماه المؤرخون الانقطاع التاريخى . وقد واجه علماء المسلمين الفكر اليونانى المترجم والمسمى علم الأصنام مواجهة حاسمة وكشفوا عن زيفه ، كشف عنه الشافعى

وأحمد بن حنبل والغزالى وابن تيمية الذى ألف فى منطق اليونان كتاباً دحض فيه هذا المنطق وكشف عن منطق القرآن .

ولكنها تعلة من الدكتور طه ليفرض تاريخ اليونان المائج بالسموم والشبهات والإباحيات والقصص المكشوف الداعر ، والفساد الصارخ الذى أراد أن يدخله على المجتمع الإسلامى .

وإذا كانت الجامعات فى فرنسا تدرس اللغتين اليونانية واللاتينية فليس معنى هذا بالضرورة أن تدرسه الجامعات فى مصر والعالم الإسلامى ، لقد عنى الفرنسيون والإنجليز بهاتين اللغتين لارتباط أدبهما بهذا الأدب . أما الأدب العربى فليس له هذا الموقف ، لقد نشأت الفرنسية عن اللاتينية ، ثم غزت اللاتينية اللغة الإنجليزية ، أما العربية فإن اليونانية واللاتينية لم تغزها كما غزتا اللغات الأوربية .

(٦)

هذه المدرسة التى أنشأها طه حسين فى التبعية للفكر اليونانى والأدب اليونانى والتى انساق وراءه فيها صقر خفاجي ومندور ولويس وعوض وغلاب معناها تحسين الجاهلية القديمة وإحياء الأساطير تحت عبارات براقة منها الزعم بأن اليونان لها فضل على الحضارة الإسلامية وهو زعم باطل كاذب ، ولكنها تمويهات يراد بها خداع شبابنا المسلم وإذا كان الشعر الغربى لا يفهم إلا بدراسة اليونان فإن الأدب العربى لا يخضع مطلقاً لهذه الأضلولة ، بل إن طه حسين يذهب إلى إنكار فضل الحضارات القديمة ومعارفها على اليونان والعقل اليونانى ، حيث يثبتها الأوربيون أنفسهم . وقد أشار إليها غير واحد منهم ومنهم سانت هيلر فى مقدمة ترجمة الإلياذة حيث يثبت فى وضوح تتلمذ اليونان على المصريين القدماء ولكن الدكتور طه يبرئهم من هذه التبعية ثم يفرضهم على الإسلام نفسه فى صلف عجيب وتضليل بالغ .

بل إن الدارسين للأدب اليونانى أحصوا عليه أخطاء فى هذا الأدب نفسه تدل على أنه لا يعرف كيف يترجم ، وقد أشار الدكتور غلاب (السياسة الأسبوعية — يونية عام ١٩٣٠) إلى أنه ادعى أن أفروديت كانت ذات

قوة وصبخة وفتك وبطش ونحن لا نعرف أن أحداً وصلت به الجرأة فى قلب الحقائق وتغيير الحوادث هذا الذى بلغه الدكتور طه، فكل الناس يعلمون أن أفروديت كانت إلهة جميلة رشيقة خليعة مفقودة القوة تمثل الحور .
وقد تبين أن الدكتور طه إما أنه يجهل الأدب اليونانى جهلا تاماً وهذا ما لا نظنه وإما أنه بعيد عن النزاهة فى النقد والإخلاص فى العلم بعداً تاماً وهذا ما أعتقده ولا أتردد فى التصريح به .

إن هناك ناحية ضعف فى أخلاق الدكتور طه لا ينبغى السكوت عليها وهى غروره بنفسه إلى حد اعتقاده أنه يستطيع مهاجمة الناس جميعاً ، بل هدمهم وإبادتهم دون أن يقدر أحد على أن يهاجمه أو ينال منه ، هذه العقيدة نفذت إلى بعض الرءوس المستنيرة فآمن كثير من الخاصة بأن الدكتور طه أقوى من أن يهاجم وأمتن من أن يحطم فأصبحوا يهابونه وأصبحوا يعتقدون أنه أعلم من أظلت الزرقاء وأقلت الغبراء) .

وقد أولع الدكتور طه بترجمة الأساطير اليونانية الصارخة جنساً وجريمة ليقدم صورة من ذلك الركام الوثنى فى صورة براقة (كتابه صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان) وغيره ، ومن ذلك إشاعة الوثنية اليونانية حيث يتحدث فى هذه القصص عن عبادة اليونان والرومان للآلهتين (برسيفونه وديمتر) عبادة منظمة خفية وقال : إن أصولها ومراسيمها اعتبرت أسراراً مقدسة لا يعرفها الناس إلا إذا لقنوها تلقيناً ودرسوها درساً خفياً مستوراً على الذين احتكروا علمها وتعاليمها من القسس والكهان وانضم إلى هاتين الالهتين فى هذا المعبد إله ثالث هو ديونوزوس إله الخمر والكرم .

راجع : قصة برسيفونة (الوادى ــ مجلد عام ١٩٣٤) .

وقد بلغ من قدرة طه حسين على المبالغة فى الإعجاب بحضارة اليونان أن يقول فى التعريف بكتاب الأخلاق لأرسطو الذى ترجمه لطفى السيد : أنه لو أن الحضارة الحاضرة أزيلت وأريد تأسيس حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطو أساساً لهذه الحضارة الجديدة ، وأن أوربا الحديثة تعيش الآن وستعيش غداً على فلسفة أرسطو ، والواقع الذى تثبته جميع الأبحاث العلمية أن الغرب تخلص من فلسفة أرسطو منذ بدء النهضة وأن فرنسيس بيكون ومن

بعده روجر بيكون وغيرهم : أنهم تخلصوا من فلسفة أرسطو وأنهم نقدوها وهدموها بنفس الأسلحة التى هدمها بها المفكرون المسلمون ، وأنهم استبدلوا بها المنهج التجريبي الإسلامى الذى أخرجهم من جمود الفلسفة الأرسطية ، وأن الجريمة المعروفة أنهم حين أخذوا من المسلمين المنهج التجريبي لبناء الحضارة الحديثة أهدوهم منهج أرسطو ليجمدوهم ويمنعوهم من التقدم وهذا ما فعله جلارزا ولطفى السيد وطه حسين فى مؤامرة التغريب التى بدأتها الجامعة المصرية القديمة .

كذلك فقد امتدت مدرسة الهلينية إلى البيان والبلاغة ، وجرى كلام كثير عن أثر اليونان فى متكلمى المعتزلة ، وفى البلاغة ، وفى كتابات عبد القاهر الجرجانى الذين يعدونه على رأس المدرسة اليونانية فى البيان العربى وقد قام الشيخ أمين الخولى بدور واضح فى هذا الاتجاه ، فقد كتب بحثه عن البلاغة وأثر الفلسفة فيها ، وتحدث كثيرون عن أرسطو معلم العرب الأول ، وقالوا : إنه معلمهم فى الفلسفة كما هو معلمهم فى البيان .

– ولكن هذه المدرسة هزمت شر هزيمة عندما تولى الشيخ مصطفى عبد الرازق تدريس الفلسفة وكشف عن زيف هذا الاتجاه وأشار إلى أن الفلسفة الإسلامية تبدأ بالإمام الشافعى وكتابه (علم أصول الفقه) وأن ما غير ذلك فهو منسوب إلى المدرسة المشائية اليونانية ، وأن هؤلاء الفلاسفة هم المشاءون العرب وكان على رأس هذه المدرسة (ابن سينا والفارابى) ، قاد هذا التيار محمد عبد الهادى أبو زيدة ، على سامى النشار ، محمد محمود الحضيرى ، وغيرهم وفى كتاباتهم تفاصيل كثيرة عن زيف وجهة طه حسين .

* * *

وفى كتاب (رحلة الربيع) التى قصد فيها طه حسين إلى أصنام اليونان تهاويل وعبارات فيها مبالغة حادة فى وصف تلك الأطلال اليونانية التى يدعى أنها صدرت للعالم الفكر السياسى المعاصر والديمقراطية ويبالغ أشد مبالغة حين يقول : إنها (أى أثينا) هى التى رسمت للأجيال وللإنسانية طريقها الذى سلكته وستسلكه مدى الحياة) . ومن أين يملك طه حسين هذا التنبؤ وهو يعلم أن الإسلام جاء فمحا كل هذه الترهات والأساطير والأوهام وأن الديمقراطية التى يشيد بها تلفظ اليوم أنفاسها .

الفصل الحادى عشر

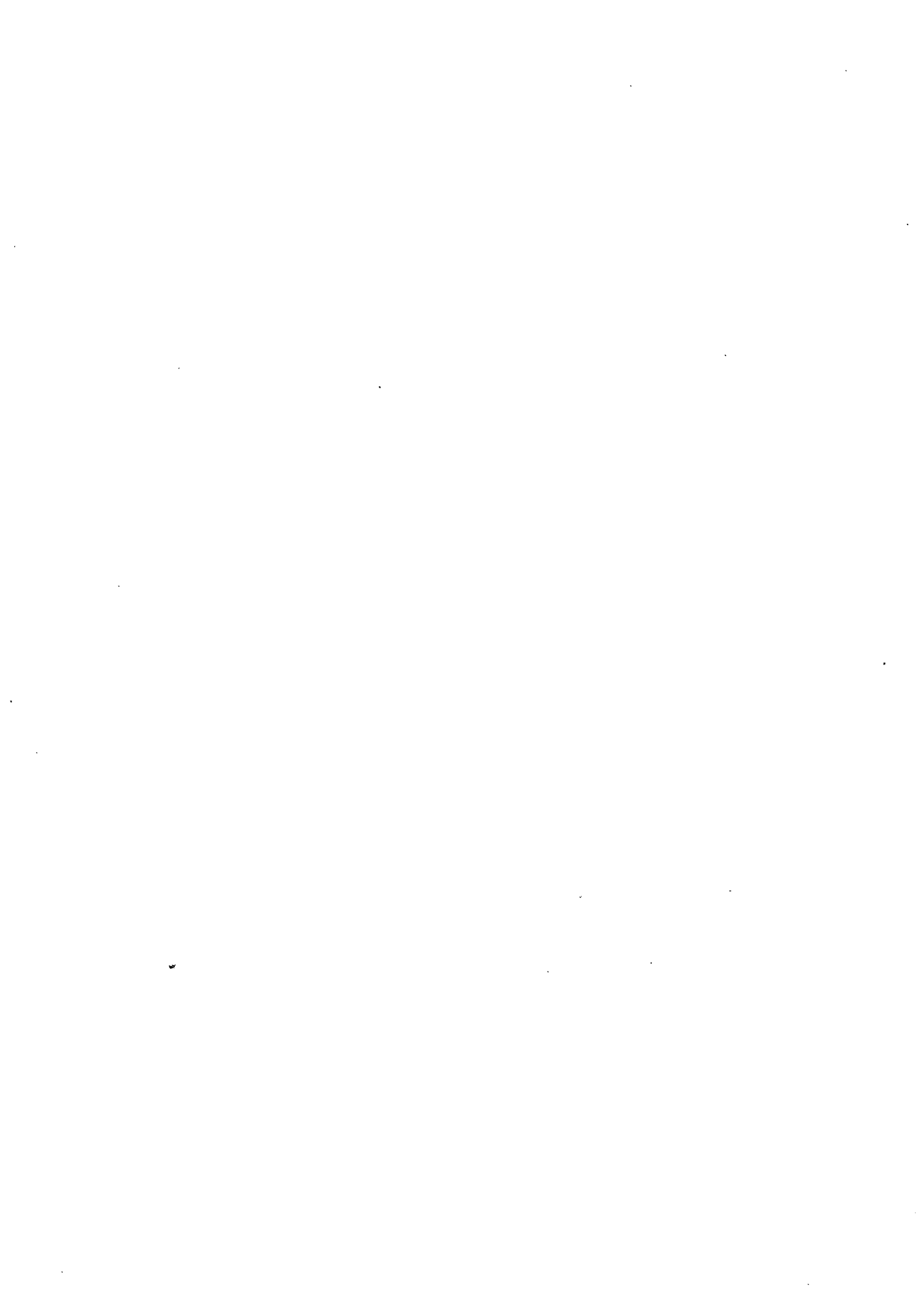
كتابا (الشعر الجاهلى) و (الأدب الجاهلى)

١ – فى الأدب الجاهلى .

٢ – نظرية ديكارت ومنهج الشك .

٣ – الشبهات المثارة حول كتاب فى الأدب الجاهلى .

* * *



(١)

فى الأدب الجاهلى

كتاب (فى الأدب الجاهلى) للدكتور طه حسين هو الكتاب الموجود الآن فى أيدى الباحثين وطلبة كليات الآداب فى بعض الجامعات فى الوطن العربى ، وبعضهم يعتبره دعامة أساسية لأنه قدم المنهج الغربى فى دراسة الأدب ونقده ، وهو الوليد الذى أسفرت عنه مصادرة كتاب (فى الشعر الجاهلى) للدكتور طه بعد تلك المعركة الشهيرة التى أثارت مشاعر المسلمين والعرب فى كل مكان ومن جراء العبارات الجريئة المنافية للقيم والعرف والمفاهيم فى الإسلام فى الإشارة إلى القرآن الكريم وإلى النبى صلى الله عليه وسلم والتى أرغمت الدكتور وحوارييه أن يحذفوها من الكتاب ويعيدوا طبعه تحت اسم جديد مع بعض الإضافات .

ومعنى هذا أن روح الكتاب الحقيقى العاصف الكاره الحاقد على الإسلام بقى كما هو ، وبقيت تلك النظريات المسمومة التى عمد إلى إذاعتها قائمة بل أن البعض الآن من التغريبيين والشعوبيين والماركسيين يرون أنها دعامة أساسية لإقامة منهج البحث الأدبى وقد كانوا يفخرون دائماً فى كتاباتهم بهذا العمل بالإضافة إلى كتاب على عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم).

وقد حذف الدكتور طه من كتابه ما حذف من غير أن يذكر أسباب الحذف حيث جرت سنة العلماء إذا نشروا بحثاً ألا يغيروا منه من غير أن يشيروا إلى الأسباب التى دعت إلى هذا التغيير ، خصوصاً إذا كان التغيير رجوعاً فى الظاهر عن رأى كان الباحث قد ارتآه وأذاعه باسم العلم وقد أشار إلى هذا المعنى الدكتور الغمراوى الذى قال : الواقع أن المحذوف هو ما أثار ثائرة المسلمين على صاحب الكتاب فكانت عملية تنقية الكتاب

بالحذف مما لم يقو على تخليصه من كل ما يجافى الدين وإن خلصته فيما يظهر من كل ما يؤاخذ عليه القانون . أما المثبت فى ثنايا الكتاب فقد بقى فيه طابع التهكم والشك ولعل القارئ يريد أن يعرف بعض ما رفع وإن كان بحثنا منصباً فى هذه الحلقة على الكتاب الباقى فى أيدى الناس :

رفع من الكتاب ما يتصل بتشكيكه فى وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وما يتصل بالسخرية من الرسول صلى الله عليه وسلم فى عبارته :

(فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم) ، وهى عبارة وصفها المحقق فى النيابة بأنها تمثل سوء الأدب فى حق النبى وعبارة (ولأمر ما شعروا بالحاجة . . إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب) وإن استبقى عبارة (وفى القرآن سورة تسمى سورة الجن أنبأت أن الجن استمعوا للنبى) وهو أسلوب مقصود منه استخفاف خفى بكتاب يجعل للجن سورة تحدث فيها عنهم بكذا وكذا مما لا عهد للناس به وما لا يمكن إثباته إلا عن طريق القرآن وفيما عدا هذا فكتاب (فى الأدب الجاهلى) هو نفس النص القديم بروحه وطابعه وهدفه الذى وجه إليه النقد من أعلام الفكر الإسلامى فى عصره : الخضر حسين . فريد وجدى ، مصطفى صادق الرافعى ، لطفى جمعة ، محمد الخضرى فى دراسات متصلة فضلا عن مقالات عديدة للكثيرين غيرهم .

هدف الكتاب يتمثل فى عدة أهداف :

أولا : محاولة تأكيد نظرية مسمومة كتبها المستشرق اليهودى مارجليوث ملخصها أن الشعر الجاهلى موضوع جله إن لم يكن كله بعد الإسلام والهدف هو تحطيم الدعائم التى يقوم عليها تفسير الألفاظ العربية الموجودة فى القرآن والتى نزل بها القرآن لأن العرب يعرفون معناها الوارد فى ديوانهم القديم والشعر كان ديوان العرب .

ثانياً : هدم النظرية الإسلامية الجامعة التى تجعل الأدب العربى قطاعاً من الفكر الإسلامى مرتبطاً به لا ينفصل عنه ويلتزم بقيمه الأخلاقية ومفاهيمه العقائدية .

ثالثاً : إذاعة نظرية مسمومة بتقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة ؛

رابعاً : دعوى أن المسلمين قضوا على الفكر السابق للإسلام .

خامساً : محاولة الادعاء بأنه اعتمد على نظرية الشك التى أذاعها ديكارت مع أن نظرية ديكارت تختلف ولقد كانت نظرية (الشك الفلسفى) هى عماد عمل طه حسين حياته وفكره كله فى زعمه .

سادساً : الدعوة إلى تخلى الأديب عن العاطفة الدينية والقومية ودراسة الأدب كما يدرس العلم الطبيعى وعلم الحيوان والنبات .

والنظرية فى مجموعها مسروقة سرقة كاملة من المستشرق اليهودى مارجليوث نشرها فى المجلة الملكية الآسيوية (الإنجليزية) عدد يوليو عام ١٩٢٥ وهو بحث فى ٢٢ صفحة بعنوان (نشأة الشعر العربى) يشك فى صحة الشعر الجاهلى ويرى أن الشعر الجاهلى الذى نعرفه إنما هو فى الحقيقة شعر إسلامى وضعه الرواة المسلمون فى الإسلام ونسبوه إلى أهل الجاهلية .

كان موقف مارجليوث ومن قبله نولدكه هو موقف الاشتباه والشك والترجيح . أما موقف طه حسين فهو موقف الحسم بأن هذا الشعر وضع بعد الإسلام مع تجاهل العلوم المعروفة التى تكشف عن الفروق الواضحة بين شعر الجاهلية وشعر عصر الإسلام وهى معارف يلم بها كل من له اتصال بهذا الباب ، هذه الفروق العميقة التى تميز الشعر الجاهلى عن الشعر الأموى والعباسى رغم مسافة مائة سنة يعرفها الباحثون .

إن فى الشعر الجاهلى كما يقول محمود محمد شاكر شيئاً مبايناً مباينة سافرة لما فى الشعر العباسى كله ، ففى الشعر الجاهلى ترجيع خفى غامض كأنه حفيف نسيم تسمع حسه وهو يتخلل أعواد نبات عميم متكاثف ، وترجيع الشعر الجاهلى ودندنته فيها مباينة ظاهرة لما يوجد فى الشعر الأموى والعباسى ، فضلا عن حفظه لعادات وتقاليد العرب قبل الإسلام ، وهذا هو ما انكشف لشباب كلية الآداب عندما بدأ طه حسين يلقى هذه المحاضرات وكان (شاكر) قد قرأ مقالة مارجليوث فى المجلة الآسيوية قبل أن يدخل كلية الآداب وقد سرى ذلك فى الأساتذة والمستشرقين ، وإلى الطلاب ، فقد أعلن ذلك لهم الأستاذ شاكر وقال : إن ما يلقيه طه حسين ما هو

إلا (حاشية على متن مارجليوث) وأن طه حسين تعمد ألا يذكر مارجليوث خلال العام كله ولا بكلمة واحدة فحق أن يصفه شاكر بزعامة السطو هذه الخليقة التى عممها طه حسين فى الجامعة كلها والتى شابت الأدب العربى فترة طويلة بفضل عميد الأدب .

وكان محمود محمد الخضيرى من زملاء شاكر وقد كان له دوره فى الكشف عن زيف ما ادعاه طه حسين من اعتماده على نظرية ديكارت فكان أن ترجم (مقال فى المنهج) لديكارت وطبعه لدى السيد محب الدين الخطيب ليثبت أن ما يقوله طه حسين ليس هو منهج ديكارت فى الحقيقة وإنما هى تهويمات مضللة مما سنفصله فى فصل خاص عن مذهب ديكارت ونظرية الشك الفلسفى ، وكان أن جبه شاكر الدكتور طه حسين عميد الأدب العربى بأنه من الضرورى قراءة الشعر الجاهلى (والأموى والعباسى) قراءة مستوعبة ليستبين الفرق بين الشعر الجاهلى والإسلامى قبل الحديث عن صحة نسبة هذا الشعر إلى الجاهلية أو التماس الشبه لتقرير أنه باطل النسبة وأنه موضوع فى الإسلام من خلال روايات فى الكتب هى فى ذاتها محتاجة إلى النظر والتفسير .

والحقيقة الواضحة فى هذا الأمر هى (المؤامرة على القرآن) دون الإشارة إلى ذلك والعمل على هدم القاعدة الأساسية التى يرجع إليها المفسرون برد كلمات القرآن الكريم إلى لغة العرب ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا أخطر مغمز لهدف طه حسين .

ولقد أصبح الشعر الجاهلى بعد الإسلام — كما يقول باحث كبير — بمثابة الوثيقة التى لا تكشف جوانب حياة العرب قبل الإسلام فحسب ، بل تعطى كذلك صورة صادقة للغتهم وأساليب تعبيرهم وطريق تصويرهم بها . لقد رجعوا فى القرآن إلى الشعر الجاهلى ليفهموا معانى الكلمات فاعتبر الشعر الجاهلى مصدراً لفهم القرآن ولذلك كانت محاولة طه حسين (التى ما تزال قائمة ومستمرة فى كتابه الأدب الجاهلى الذى ما زال يطبع وما زالت كليات الآداب فى كثير من البلاد العربية وأساتذتهم العلمانيون يعتبرونه أساساً لنظرية النقد والبحث فى الأدب) التى بثها خلال خمسين عاماً اليوم خطيرة وجد خطيرة لهدم اللغة التى نزل بها القرآن فأصبحت دراستها موضوع اهتمام

المسلمين وبذلك أصبح الشعر الجاهلى الذى يمثلها فى عصر نقائها الأول عنصراً ثقافياً هاماً فى الحياة الإسلامية . ولقد كان إعجاز القرآن ومجيئه على مستوى من البيان تنقطع دونه أطماع المقلدين وانقياده بأساليب خاصة فى التعبير سبباً فى أن لا يتخذ نموذجاً للاحتذاء بل مثالا للاستدلال والاستشهاد ، فلم يبق أمام الشعراء والنقاد واللغويين ما يمكن أن يتخذوا منه ذلك النموذج اللغوى البلاغى الذى لا يمكن احتذاؤه إلا فى الشعر الجاهلى وبذلك سيطرت مقاييسه اللغوية والبلاغية وتقاليده الأدبية على الإنتاج الأدبى فى العصور التالية إلى اليوم وفى الشعر والنثر على السواء .

حاول طه حسين بكتابه (فى الأدب الجاهلى) أن يفصل الأدب العربى عن الفكر الإسلامى ، وأن يخلى الأديب من العاطفة الدينية والقومية وأن يفرض عليه منهج النظرية المادية فى القول : بأنه يدرس الأدب كما يدرس العلم الطبيعى وعلم الحيوان والنبات . وتلك النظرية تعتبر الإنسان حيواناً وتدرسه على أنه لا يملك جوانب روحية أو معنوية وهذه نظرية فاسدة من أساسها لأن الأدب إذا خلا من عاطفتى الدين والقومية فقد كل معانيه ومميزاته وتصبح الأمة التى يوجد فيها هذا النوع مقفرة من الأدب الصحيح كل الأقفار .

ويقول الدكتور محمد أحمد الغمراوى : إن صاحب الكتاب ومن لف لفه يسوقون الأدب العربى فى طريق غير طريقه ويلبسونه ثوباً من غير نسيجه وينسجون عليه نسجاً فرنسياً ويسوقونه فى نفس الطريق الذى ضل فيه الأدب الألمانى حتى رده إلى الطريق الصحيح هالمر وهاجيدون ولسنج

وما تلك الطريق التى يسوقون الأدب العربى فيها إلا طريق الافتتان بالأدب الفرنسى خاصة والغربى عامة حين لا صلة بين ذلك كله وبين روح الأدب العربى ، خاصة أن التقليد إن جاز فى العلم من غير قيد لا ينبغى أن يؤخذ منه فى الأدب إلا بمقدار ، لأن أدب الأمة من روحها ، فالتقليد فيه إخضاع لروح الأمة وإضعاف لشخصها . أما العلم فإنه ميدان العقل ومتاعه وهو لا وطن ولا قومية له ، وليس الأدب كذلك فبينا أنت لا تجد فى العلم علماً إنجليزياً أو فرنسياً ولكن علماً واحداً إذا بك تجد الأدب متعدداً

بتعدد الأمم . لكل أمة أدبها كما لكل أمة لغتها ، وتجد أدب كل أمة مطبوعاً بطابعها طبعاً لا خفاء فيه . إن التجديد فى الأدب كالتجديد فى العلم لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون الحاضر والماضى .

وفى الرد على نقطة (نسيان القومية والدين كشرط أساسى من شروط البحث العلمى) يقول الدكتور الغمراوى : إن الإنسان يستطيع أن يراعى الدقة العلمية فى البحث وهو متذكر لدينه كل التذكر ومعتقد صحته كل الاعتقاد غير مجوز على قرآنه خطأ ولا على توراته ، بل إن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص إن أمكن حرصاً على الحق واستمساكاً به إذا وصل إليه . إن الباحث المتدين لا خوف عليه مطلقاً أن يخفى الحق أو يدلس فى البحث محاباة لدينه إذ ليس الحق يخاف على دينه ولكنه الباطل فالتدين الصحيح والعلم الصحيح ممكن اجتماعهما إذن كما أن العاطفة العلمية القوية والعاطفة الدينية القوية لا يتعارضان بل يتضافران فى خدمة العلم) .

هذا وإن فصل الأدب العربى عن الفكر الإسلامى إنما يدفعه إلى طريق التحرر من القيم والأخلاقيات ليمضى فى طريق الإباحية والانحراف وهو ما فعله بدراسة أبو نواس وبشار وترجمة القصص الفرنسى المكشوف .

هذا بالنسبة لهذه النقطة ، أما النقاط الباقية فموعدنا بها البحث القادم بإذن الله .

* * *

(٢)

نظرية ديكارت ومنهج الشك الفلسفى

إن (منهج الشك الفلسفى) هو الأطروحة الكبرى للدكتور طه حسين فى حياته كلها ، وهو الهدية المسمومة التى حملها إياه المستشرقون الصهيونيون ، والمبشرون الذين تلقفوه فى معهد الدراسات الشرقية ، الذى كانوا يصوغون فيه أتباعهم إلى البلاد العربية .

ونحن إذا أردنا أن ندرس حياة طه حسين ، فإن (مفتاح حياته) هو هذه الحكمة التى علموه إياها . ثم تركوه يناطح الفكر الإسلامى ، وهى : (أسلوب الشك هو مصدر الشهرة وإحداث الدوى) .

وقد كان طه حسين يتطلع إلى هذا الهدف منذ مطالع شبابه ، لظروف حياته وعاهته .

ومن ثم فقد استهل بها حياته فى الجامعة ، حين وكل إليه تدريس الأدب العربى ، وذلك بالشك فى الشعر الجاهلى ، ومتابعة المستشرقين ، فى القول : بأنه منحول .

لقد ادعى طه حسين أنه يستخدم (منهج ديكارت) ليغايظ الأزهريين ، حين قال لهم : إنهم لا يعرفون هذا المنهج .

وقد تصدى له الأستاذ محمد أحمد الغمراوى خريج كمبردج ، وقال له : إن ما قدمه ليس هو منهج ديكارت ، بل أن الأستاذ الخضيرى ترجم كتاب ديكارت (مقال عن المنهج) ، ليؤكد أن ما قدمه طه حسين ، ليس هو منهج ديكارت .

وقد طبعت هذا الكتاب المطبعة السلفية لصاحبها محب الدين الخطيب رحمه الله عام ١٩٣٠ . ليبين فساد اقتباس طه حسين .

ولقد أضطهد عميد الأدب . الاستاذ الخضيرى وطرده من الجامعة وتابعه ومنعه أن يدخل هيئةالتدريس فى كلية الآداب وحرمها عليه . حين أطلقها لكل ناعق — على حد تعبير الدكتور نجيب البهبيتى .

وقد تبين من بعد أن ديكارت قرأ ترجمة كتاب (المنقذ من الضلال) للإمام الغزالى ، وأشار على نسخته الخاصة الموجودة فى مكتبته المهداة إلى السربون على الهامش أمام عبارة الغزالى عن (اتخاذ الشك طريقاً إلى اليقين) .

ولكن طه حسين استعمل هذه النظرية لشىء آخر ، لإنكار كل قطعى وحقيقى ويقينى ، ولقطع الطريق على القيم الجامعة المكتاملة ، ولفصل الأدب عن الفكر ، ولأن يترك الباحث المسلم ، دينه وقوميته ، عندما يبحث فى أى أمر من الأمور ، وهذا غاية فى الخطأ والتمويه وفساد الرأى .

وقد عالج هذه القضية الأستاذ الغمراوى فى كتابه (النقد التحليلى للأدب الجاهلى) فقال :

١ ـ إنه تذرع بما سماه القاعدة الأساسية لمذهب ديكارت ، لينطلق به إلى الانسلاخ من كل قديم فى هذه اللغة التى هو أستاذ لآدابها ، وليتخذه ذريعة يرمى وراءها هذه اللغة وما اتصل بها ، حتى إذا قيل له : لم فعلت ما فعلت ، وهل يفعل هذا عاقل ؟ قال : فعله قبلى ديكارت .

٢ ـ لقد خلط الدكتور طه بين الشك وبين المخرج من الشك ، فجعل الشك القاعدة الأساسية للمنهج الذى ابتغى ديكارت أن يتخلص به من الشك ، والذى أدى به فى بعض ميادين البحث إلى نتائج عظيمة .

٣ ـ ليس صحيحاً ما ذكره الدكتور من أن القاعدة الأساسية لمنهج الشك عند ديكارت ، أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً ، وهذا قطعاً ليس من قواعد منهج ديكارت .

٤ ـ الواقع أن كلا من ديكارت وبسكال ، مسبوق إلى ما عرف باسمه من قواعد النظر ، سبقهما الغزالى على الأقل وقد سبقهما قبل ذلك بقرون ـ كما تشهد بذلك كتبه ـ مثل كتاب (محك النظر) و (معيار العلم) :

والغرب معذور حين ينسب بعض تلك القواعد إلى ديكارت ، وبعضها إلى باسكال ، فهما أول من أظهراه عليها ، ولكن ما عذر الدكتور طه حسين حسين ينسب إلى ديكارت منهجاً سبقه إليه الغزالى ، ألأن الدكتور كان يجهل مذهب الغزالى فى النظر ، أم لأن الغرب نسب وهو للغرب تابع .

٥ – ليس هذا الذى زعمه طه حسين ، من وجوب تجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه عن موضوع بحثه من قبل ، مما قال ديكارت ، فإن الذى قاله ديكارت هو : إنه يجب علينا ألا نقول عن شيء : إنه حق ، إلا إذا قام البرهان على أنه كذلك .

وشتان بين هذا المعنى ،وبين المعنى الذى زعم الدكتور من وجوب التجرد من كل ما قيل فى موضوع البحث من قبل ، إذ من الجائز أن يكون ما قيل قد قام البرهان على صحته .

ثم بدهى أن تلك القاعدة من معناها أن يتولى كل إنسان إثبات كل شيء لنفسه بنفسه ، كما تقتضيه القاعدة الأساسية التى زعم الدكتور ، لأن ذلك سخف لا ينتج عنه إلا التأخر والخطأ والفوضى .

هذا التصور ، يشهد على صاحب الأدب الجاهلى ، بما لا يمكن أن يسمى إلا جهلا بديكارت وافتراء عليه ، كما أنه افترى على علماء العربية المتقدمين .

٦ – على أن فلسفة ديكارت ، قد يكون لها الفضل فى الحكم بين طه حسين وبين بقية علماء الأدب العربى ، وفى الشعر الجاهلى وغير الشعر الجاهلى ، ذلك لأن من قواعدها أو حقائقها التى وصل إليها ديكارت نفسه : (أن ما وجد فى الدين واضحاً جلياً ، فهو حق يجب أن يسلم به تسلماً) .

والدكتور طه لا ينكر أن القرون قد مرت على العالم العربى ، وأن الأجيال قد تتابعت فيه ، والشعر الجاهلى قائم فى الأذهان واضحاً جلياً ، منسوباً إلى هؤلاء الشعراء الجاهليين ، فالشعر والشعراء والنسبة حق إذن ، يحكم بذلك القدماء وأنصار القدماء ، ولو كان كل باحث حديث يهمل نتائج أبحاث غيره ويستقبل بحثه خلواً من كل ما قيل ، فيما يتعلق به المعنى الذى يقول صاحب الكتاب : إن ديكارت يعنيه ، لوقف العلم عن التقدم ، بل لما كان هناك علم منظم محدود .

تصور أن كل باحث فى علم الطبيعة أو الكيمياء مثلا — شك فى كل ما عداه من العلماء ، شك كما شك الدكتور ، فى أمانة القادرين ، وفى مقدرة الأمناء ، وشك طبعاً فى النتائج التى وصلوا إليها ، وأنه أخذ بمنهج ديكارت ذلك ، وطفق يعيد تلك الأبحاث من جديد !

قل لى : هل يتسع عمره لهذه الأبحاث كلها أو أغلبها ، وهى قد استنفذت أعمار الأجيال من قبله ، أم هل يستطيع كل متشكك أن يعيد الصعب من أبحاث من عداه من العلماء .

إن التفرغ لفرع ما ، من علم ، يكسب المتفرغ مقدرة خاصة ، فى ذلك الفرع ، غير المقدرة الخاصة التى يكتسبها شخص آخر تفرغ لفرع آخر فى نفس العلم ، فهل من الممكن أن تنشأ تلك المقدرات الخاصة فى كل بحث شكاكاً حين يريد ؟ ! أم هل من الممكن أن تجتمع كلها لإنسان واحد ، طبيعياً كان أم كيماوياً أم لغوياً ؟ !

من أجل ذلك كان منهج ديكارت كما فهمه وطبقه (طه حسين) ، منهجاً غير علمى ، يفرق بين المجهود العلمى ، ويدخل الفوضى فى العلم ، ويؤدى فى النهاية إلى زوال جهد العلماء طالما يتناوله الجهلاء بالتحريف ، ولكن العلم لا يأخذ برأى طه حسين . والعلماء فى علومهم وأبحاثهم — يأخذون بغيره .

ولم تكن عظمة ديكارت راجعة إلى أنه شك ، ولكن إلى أنه تطلب مخرجاً من الشك ، واهتدى إلى طريقة فى البحث خرج بها إلى بحبوحة اليقين ، ثم ترجع إلى أنه حقق تلك الطريقة ، فأثمرت فى الرياضة ولم تثمر معه فى الفلسفة والطبيعة إلا قليلا مما يأخذ به العلم اليوم .

ولقد عقد صاحب الكتاب — (فى الأدب الجاهلى) — فصلا عن منهج ديكارت ، وعجز لامر ما عن أن يبينه فيه ، وذكر فى ذلك الفصل شيئاً سماه (القاعدة الأساسية لمنهج ديكارت) ، ليتذرع به إلى الانسلاخ من كل قديم ، فضلا عن أن (طريقة ديكارت ، وليس منهج ديكارت) . كان مما أخرجه فى الشباب ، صدرى لذلك الشك الذى استحوذ عليه فى الشعر ، ومن ثم فشكه شك الفتى الغرير ، لا العالم الخبير ، ومن الظلم أن يحتج به ، أو أن نشتد فى محاسبة صاحبه .

ولكن الدكتور طه ، خلط بين الشك وبين المخرج من الشك ، فجعل الشك القاعدة الأساسية للمنهج الذى ابتغى ديكارت أن يتخلص به من الشك ، والذى أداه فى بعض ميادين البحث إلى نتائج عظيمة ، وفى بعض الميادين الأخرى إلى نتائج بعيدة عن العظمة ، لأنها بعيدة عن ظن الصحة .

وبالجملة فقد أكد الدكتور محمد أحمد الغمراوى — وما ترجمه الأستاذ الخضيرى من كتابات ديكارت (مقال عن المنهج) — فساد ما عرضه طه حسين من قوله : إن القاعدة الأساسية هى أن يتجرد الباحث من كل شىء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه خالى الذهن مما قيل فيه خلواً تاماً ، إنما قال ديكارت : ألا يقبل قط شيئاً على أنه حق من غير أن يكون على بينة من أنه كذلك ، أى أن يتجنب العجلة والهوى ، وفارق بين المعنيين .

ونحن نسأل هل استطاع طه حسين فى بحثه هذا ، أو أى بحث آخر ، أن يتجرد من كل شىء كان يعلمه من قبل ، حين تحدث عن الشعر الجاهلى أو على هامش السيرة أو مستقبل الثقافة ؟ بالعكس ، لقد فرض طه حسين فروضاً تغريبية وشعوبية ، وضعها أمامه ثم بحث فى النصوص ، حتى وجد منها ما حسب أنه يؤكد فكرته ، فنمقها وتجاهل حقائق غيرها تدحضها ، ومزق بعض النصوص ، فأخذ منها ما يؤيد فرضه وترك الباقى .

وإن طه حسين كان فى كل عمله يقوم على العجلة والهوى ، وأنه كان حريصاً على إثارة الشكوك والشبهات حول جميع النصوص والوقائع التى صادفته فى جميع كتبه ، ذلك لأنه سار فى هذا على منهج التلمودية الذى عرفته كتابات فرويد ودور كايم ، وهى أن يسأل ويثير الشك ، ثم يترك من يتحدث إليه فى حيرة ، فلا يهديه إلى شىء من اليقين ، لأن الهدف هو خلق هذا الجو من (الشك) ، الذى كان مصدر الفكر التغريبى كله ، وقاعدة العمل التى قام به الاستشراق والتبشير فى العالم الإسلامى :

وقد أشار الأستاذ محمد طاهر نور ، رئيس النيابة الذى حقق مع الدكتور طه حسين ، إلى هذا العمل الخطير فقال : إن الخطأ حيث يبدأ بافتراض يتخيله ، ثم ينتهى بأن يرتب عليه قواعد كأنها حقائق ثابتة ، كما

فعل فى أمر الاختلاف بين لغة حمير ولغة عدنان ، وفى مسألة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهجرتهما إلى مكة وبناء الكعبة ، فقد بدأ بقوله :

(للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن إثبات هذه القصة) ، إلى هنا أظهر (الشك) بعدم قيام الدليل التاريخى فى نظره ، كما تتطلبه الطرق الحديثة ، ثم انتهى بأن قرر فى كثير من الصراحة :

(أمر هذه القصة إذن واضح ، فهى حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب دينى) ، فما هو الدليل الذى انتقل به من الشك إلى اليقين ؟ هل دليله هو قوله : (نحن مضطرون إلى أن نرى فى هذه القصة نوعاً من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الإسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، وإن أقدم عصر يمكن أن يكون قد نشأت فيه هذه الفكرة إنما هو هذا العصر الذى أخذ اليهود يستوطنون فيه شمالى البلاد العربية ؟

المؤلف يرى ، أن ظهور الإسلام قد اقتضى أن يثبت الصلة بينه وبين ديانة اليهود والنصارى ، وأن القرابة المادية بين العرب واليهود ، لازمة لإثبات الصلة بين الإسلام واليهودية ، فاستغلها لهذا الغرض فهل له أن يبين السبب فى عدم اهتمامه أيضاً بمثل هذه الحيلة لتوثيق الصلة بين الإسلام والنصرانية .

إن الأستاذ (أى طه حسين) ، ليعجز حتماً عن تقديم هذا البيان ، وكل ما استند إليه من الأدلة قوله : (ليس يبعد أن يكون) ، أو (فما الذى يمنع) ، أو (ونحن نعتقد) ، أو (وإذن فنستطيع أن نقول) .

فالأستاذ المؤلف فى بحثه ، إذا رأى إنكار شىء يقول : لا دليل عليه من الأدلة التى تتطلبها الطرق الحديثة للبحث ، وإذا رأى تقرير أمر لا يدلل عليه بغير الأدلة التى أحصيناها له ، وكفى بقوله حجة ! !

وسئل عن أصل هذه المسألة — أى تلفيق القصة — وهل هى من استنتاجه ؟ أو نقلها ؟ فقال : هذا فرض فرضته ، أنا دون أن أطلع عليه فى

كتاب آخر . وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب ، أن شيئاً من هذا الفرض يوجد فى بعض كتب المبشرين ا . هـ .

وهكذا نجد أن البحث كما أثبتته النيابة العامة هو (إشاعة الشك)، وإقامته على الفروض، ثم لا يلبث أن يعتبر هذه الفروض حقائق تبنى عليها أكاذيب أخرى.

ويقول الأستاذ محمود محمد شاكر : (إن اتكاء طه حسين على ديكارت إتكاء فيه كثير من المغالطة ، بل فيه إرادة التهويل بذكر ديكارت الفيلسوف مع أن الدكتور فى محاضراته ليس من منهج ديكارت فى شيء . وقد صارحته بهذا فى حينه ، وقلت له : إن ما يقوله عن المنهج وعن الشك غامض ، وأنه مخالف لما يقوله ديكارت ، وإن تطبيق منهجه هذا قائم على التسليم تسليماً لم يداخله الشك بروايات فى الكتب هى فى ذاتها محفوفة بالشك ، فانتهرنى الدكتور طه وأسكتنى . .)

وقال الدكتور نجيب البهبيتى : لم يعرض ديكارت التاريخ على منهجه ، فأبى طه حسين إلا أن يعرض الشعر الجاهلى والتاريخ على ما دعى له بمنهج ديكارت ، فنزل بالهدف من الشك الغزالى إلى دون ما نزل إليه ديكارت ، وناحله بمنهج الغزالى ، وكان اصطناع الغزالى الشك طريقاً فكرياً يهدف إلى الانتهاء منه إلى الإيمان بالله ، وقد اتخذ ديكارت شك الغزالى فى بيئته التى كانت لا تزال تعيش على الأساطير ، وتتداوى ببقايا رفات القديسين ، وتستسلم للتثليث باسم التوحيد .

وننتهى من كل هذا ، إلى أن (منهج الشك) ، الذى حمله طه حسين ، ليس هو منهج الغزالى الذى اصطنع منهج الشك البصير ، ولا منهج ديكارت ، الذى قصد به الخروج من دائرة الأساطير ، وإنما هو منهج زائف يراد به إثارة الشبهات فى وجه كل حقيقة علمية دينية يقينية ، وإثارة كل عوامل القلق والاضطراب فى نفوس الشباب المسلم ، لينكر قيمه الأساسية .

ومن هنا فقد كان كل كتاب التغريب وما زالوا ، يعلنون إعجابهم بمذهب الشك الذى قدمه طه حسين لأنه أفسد العقول والقلوب ، وقضى على اليقين والإيمان فى قلوب رخوة، فى فترة لم يكن فيها غذاء روحى وثقافى كاف لمقاومة الشبهات والشكوك المثارة، أما اليوم فإن الأمر يختلف تماماً والحمد لله.

(٣)

الشبهات المثارة حول كتاب فى الشعر الجاهلى

أثار كتاب (فى الشعر الجاهلى) عند صدوره سنة ١٩٢٦ ضجة كبرى ، وكانت نقطة الخطر فيه : أنه ألقى على طلبة كلية الآداب على هيئة محاضرات ، والجامعة يومئذ حديثة العهد .

وقد تبين منذ اليوم الأول : أن نظرية انتحال الشعر الجاهلى (مسروقة) من مستشرق يهودى كتبها قبل ذلك ، هو (مرجليوث) الذى قصد إلى إثارة الشك حول هذا المصدر ، الذى اعتمد عليه المفسرون فى شرح معانى كلمات القرآن الكريم ، باعتبار أن الشعر سجل العرب كما قال ابن عباس رضى الله عنه .

وقد نشر فى الرد على كتاب (فى الشعر الجاهلى) عدد من المؤلفات :

١ – تحت راية القرآن : مصطفى صادق الرافعى .

الشهاب الراصد : محمد لطفى جمعة .

٣ – نقض كتاب فى الشعر الجاهلى : محمد الخضر حسين .

٤ – نقض كتاب فى الشعر الجاهلى : محمد فريد وجدى .

٥ – محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية والتاريخية فى كتاب الشعر الجاهلى: محمد الخضرى .

٦ – النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى : محمد أحمد الغراوى .

٧ – مقدمة فى كتاب الرافعى : كتابة التاريخ لا تكون بالافتراض ولا بالتحكم : شكيب أرسلان .

تقرير علماء الأزهر :

وقد وضعت اللجنة التى شكلت من كبار علماء الإسلام لدراسة كتاب (فى الشعر الجاهلى) تقريراً جاء فيه :

أنها وجدت شيئاً كثيراً مما يناقض الدين الإسلامى ، ويمسه مساً مختلف الدرجات فى أصوله وفروعه :

١ - أضاع على المسلمين الوحدة والعاطفة الدينية وكل ما يتصل بهما .

٢ - أضاع عليهم الإيمان بتواتر القرآن وقراءاته وأنها وحى من الله .

٣ - أضاع عليهم كرامة السلف من أئمة الدين واللغة وعرفان فضلهم .

٤ - أضاع عليهم الثقة بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم فى كل ما كتب فيها .

٥ - أضاع عليهم الاعتقاد بصدق القرآن وتنزيهه عن الكذب .

٦ - أضاع عليهم الوحدة الإسلامية التى أوجدها الدين والقرآن والنبى صلى الله عليه وسلم بين الأنصار والمهاجرين .

٧ - أضاع عليهم تنزيه القرآن وقداسته عن مواطن التهم والاستخفاف

٨ - أضاع عليهم ما وجب من حرمة الصحابة والتابعين .

٩ - أضاع عليهم تنزيه النبى صلى الله عليه وسلم وأسرته عن مواطن التهكم والاستخفاف .

١٠ - أضاع عليهم صدق القرآن والنبى صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به عن ملة إبراهيم وصحف إسماعيل .

١١ - أضاع عليهم الأدب العام مع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وكرام خلقه .

وقد سجلت اللجنة فى تقرير آخر أن كتاب فى الأدب الجاهلى لم يبرأ من هذه الشبهات .

والذين يتصورون أن طه حسين ألف كتابه عن الشعر الجاهلى ، ليناقش (الشعر المنحول) هم مع الأسف قصار النظر .

فالواقع أن طه حسين أراد أن يبث مجموعة من الآراء المنحرفة الإلحادية ، ويطرح نظرية الشك الفلسفى ، ويهدم عدداً من القيم والدعائم فى الفكر الإسلامى والأدب العربى ، فلا علاقة فى الحقيقة بين البحث وبين اللهجات العربية ، ولكنه محاولة للهجوم على القرآن الكريم والتشكيك فيه ، والقول ببشرية القرآن ، وأنه من قول محمد صلى الله عليه وسلم .

لذلك فإنه حين كشف أمره أسرع فاستبدله بكتاب فى الأدب الجاهلى، وهو المطبوع الآن والمنشور ، لم يغير شيئاً من جوهر الغاية والهدف، وإنما رفع بعض الكلمات والجمل الجارحة، ليس هذا فقط، بل لقد مضى طه حسين يعلم تلاميذه فى كلية الآداب نقد القرآن ، والقول بأن بعض آياته ضعيف وقوى ، (على النحو الذى سنبينه) .

كما أنه واصل عمله بالحديث عن إنكار القراءات السبع الموحى بها .

وقد أصر طه حسين على متابعة هدفه إلى آخر أيام حياته فى كل ما كتب وإن ظهر أنه مختلف أو متعارض معه ، كل ما هنالك أنه غير الأسلوب للخداع والتمويه .

بل أن كتاب على هامش السيرة جرى فى نفس المنطلق ، حين حسب بعض البسطاء أنه عودة إلى الإسلام أو تمجيد للرسول صلى الله عليه وسلم ، ويبدو أثر مفاهيم الشعر الجاهلى فى كتابه (الشيخان) وكتابيه : (مرآة الإسلام) و (الفتنة الكبرى) .

سأل وكيل النيابة الذى حقق مع طه حسين بعد أن أثبت عليه أنه :

أولا : كذب القرآن الكريم ، فى أخباره عن إبراهيم وإسماعيل .

ثانياً : أنه أنكر القراءات السبع المجمع عليها ، فزعم أنها ليست منزلة من الله تعالى :

ثالثاً : أنه طعن فى نسب النبى صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : أنه أنكر أن للإسلام أولية فى بلاد العرب وأنكر أنه دين إبراهيم .

سأله المحقق :

هل قرأت هذا فى مصادر قبل ذلك ، فقال طه حسين :

هذا فرض فرضته دون أن أطلع عليه فى كتاب آخر ، وقد أخبرت بعد أن ظهر الكتاب ، أن شيئاً من هذا الفرض يوجد فى كتب المبشرين .

وهذه ليست الحقيقة ، فإن طه حسين كان يعلم أمرين :

أولا : أن مرجليوث نشر بحثه فى المجلة الآسيوية ، عام ١٩٢٤ وأن الشعر الجاهلى صدر عام ١٩٢٦ .

ثانياً : أن هناك كتاب (مقالة فى الإسلام) - لجرجيس صال المبشر الإنجليزى - عربه عن الإنجليزية هاشم العربى وطبع عام ١٨٩١ فى مصر ، ولا بد أن المبشرين الذين ألهموا طه حسين مواد البحث قد هدوه إلى هذا البحث الذى اعتمدعليه ، فى إنكار حديث القرآن والتوراة عن إبراهيم عليه السلام.

وإحقاقاً للحق نقول : إن الشيخ عبد المتعال الصعيدى - رحمه الله - هو أول من كشف (سطو) طه حسين على الكتاب الثانى ، كما كان الأستاذ محمود شاكر ، هو أول من كشف (سطو) طه حسين على الكتاب الأول . فقد وفق الشيخ عبد المتعال الصعيدى رحمه الله فى العثور على هذا الكتاب ، الذى يرى مؤلفه ما رأى الدكتور طه حسين فى قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وينسبه لنفسه على أنه ابتكار من ابتكاراته ورأى من آرائه الجديدة ، فلماذا استحل الدكتور طه هذه السرقة البلقاء ؟

غير أن هناك خلافاً بين دعوى المبشر الإنجليزى وعميد الأدب العربى .

يقول الدكتور طه حسين :

(أمر هذه القصة (قصة إبراهيم وإسماعيل) إذن واضح ، فهى حديثة العهد ، ظهرت قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب دينى وسياسى ، وإذن فيستطيع التاريخ الأدبى واللغوى ألا يحفل بها ، عندما يريد أن يتعرف على أصل اللغة العربية الفصحى ؟) .

ويقول المترجم هاشم العربى فى كتابه (مقالة فى الإسلام) : (وحقيقة الأمر فى قصة إسماعيل أنها دسيسة لفقهاء قدماء اليهود العرب تزلفاً إليهم وتذرعاً بهم إلى دفع الروم عن بيت المقدس أو تأسيس مملكة جديدة لهم فى بلاد العرب يلجؤون إليها .

وصاحب الذيل يجعل التوراة هى الأصل ويعرض عليها القرآن ، فإن خالفها طعن فيه (أى فى القرآن) .

أما الدكتور طه حسين فيكذب بالتوراة والقرآن جميعاً . ويؤمن صاحب الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ، ويكذب أبوة إسماعيل للعرب ، فيأتى المقلد فيكذب بوجود إبراهيم وإسماعيل ، فضلا عن أبوتهما للعرب ، وكان صاحب الذيل فطناً محترساً ، وكان حاكيه قليل الفطنة فاصطدم بالنقض الآتى :

(أن التوراة قد انتشرت فى البلاد قبل نزوح اليهود إلى يثرب وما حولها فى جزيرة العرب ، وكان فيها ذكر إبراهيم وإسماعيل ، فلم يكن ذلك من صنع اليهود الذين كانوا بين ظهرانى العرب ، حيلة منهم للتقرب إليهم .

ولو كان يهود يثرب هم الذين اخترعوا ذلك حيلة فما هو السر فى أن كان ذكر إبراهيم وإسماعيل فى جميع نسخ التوراة) .

إن صاحب الذيل هو صاحب الفكرة الأصلية وقد كان أفطن لهذه الاعتراضات التى وقع فيها طه حسين فصدق صاحبه الذيل بوجود إبراهيم وإسماعيل ، وكذب بأبوتهما للعرب فقط .

لقد سرق الدكتور طه حسين بحثه من كتاب سخيف ، ولم يفهمه على وجهه ، ونقله من كتاب المسيحى المبشر ، على أنه ابتكار من ابتكاراته ورأى من آرائه الجديدة .

ومعنى هذا كله أن طه حسين سرق من يهودى ومن مسيحى وأثار الشبهات حول القرآن والإسلام ، وأنه شكك فى التنزيل أساس دينه ، بينما دافع هؤلاء عن أديانهم .

ما حذفه من كتاب الشعر الجاهلى :

لقد بقى كتاب الشعر الجاهلى فى منهجه وهدفه وتخطيطه كما هو ، تحت العنوان الجديد (فى الأدب الجاهلى) وكل ما حذف منه بعض عبارات أزيلت قبل إعادة طبع الكتاب مرة أخرى بالاسم الجديد ، وهى العبارات الجارحة التى أشار إليها تقرير العلماء :

أولا : تكذيبه للتوراة والقرآن الكريم فى وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

ثانياً : ما أشار إليه من أن فى القرآن سورة تسمى سورة الجن ، أنبأت أن الجن استمعوا للنبى صلى الله عليه وسلم وقد أوردها بلغة التشكيك .

ثالثاً : عبارته السخيفة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله : (ولأمر ما اقتنع الناس بأن النبى صلى الله عليه وسلم يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم :

رابعاً : عبارته المريرة عن القرآن : (ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات

أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب ، وهى أساس مؤامرة هدم الشعر الجاهلى ، أو هى فى أن القرآن من عند الله تبارك وتعالى .

خامساً : قضية الصلة بين اليهود والعرب ، التى نقلها من (جرجس صال) على النحو الذى أشرنا إليه ، وقد خدم جرجس صال كتابه وهاجم القرآن ، بينما هاجم طه حسين كتابه ودينه وخدم التبشير والاستشراق .

اسم واحد فى كتابين :

وقد أشار السيد عبد الرزاق الحسنى إلى الفارق بين الشعر الجاهلى والأدب الجاهلى فقال : إن كان قد طوى من الطبعة الجديدة بعض الخزى الذى كان فى الطبعة القديمة ، كزعمه أن ما ورد فى القرآن وفى التوراة عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، إنما هو أسطورة ؟ ؟ غير مستند فى هذا الزعم إلى دليل علمى ، فإن الطبعة الجديدة من العداء للإسلام والعرب ، ومن السفسطة المستورة والمكشوفة شيئاً كثيراً ، لقد أحاطه بشىء من الإخفاء ولكن الخطوط العريضة والكفر الصريح بقى معروضاً وبشكل واضح .

انتقاد القرآن الكريم :

لم يتوقف الدكتور طه حسين بعد الضجة بشأن كتابه ومضى فى طريقه فقد أرسى الدكتور طه حسين فى كلية الآداب منهج نقد القرآن الكريم على قاعدة ما رسمه فى كتابه (فى الأدب الجاهلى) .

ونشرت مجلة (الحديث) التى تصدر فى حلب نموذجاً من أربع محاضرات ألقاها على طلبة كلية الآداب جاء فيها :

أولا : التشكيك فى القرآن :

١ — (ونحن نستطيع أن نظفر بشىء واحد يؤيد ما أشرنا إليه هو : أن الكتاب شىء غير القرآن ، كان موجوداً قبل إنزال القرآن ، والقرآن صورة عربية منه ، وقد أخذ صوراً من قبل كالتوراة والإنجيل) .

وهذا نص آخر ، فيه إنكار (عالمية الإسلام) وإصرار على (بشرية

القرآن) (وإذن فالقرآن دين محلى لا إنسانى عالمى ، قيمته وخطره فى هذه المحلية وحدها ، قال صاحبه متأثراً بحياته التى عاشها وعاش فيها ، ولذلك يعد تعبيراً صادقاً عن هذه الحياة ، أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفاً عاماً للإنسان ، فليس ذلك بحق ، إنه دين بشرى وليس حياً إلهياً والقرآن مؤلف ، ومؤلفه نبيه محمد ، ويمثل تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة فى شبه الجزيرة فى اتجاهات حياتها المختلفة السياسية والاقتصادية والدينية) .

ثانياً : نقد القرآن كأنه كتاب بشرى :

فى مجلس النواب :

وقد أشار الدكتور عبد الحميد سعيد - رحمه الله - فى خطاب أمام مجلس النواب المصرى (مارس ١٩٣٢) إلى أن طه حسين كان يكلف بعض طلبته أن ينقدوا بعض آيات من القرآن الكريم يعينها لهم ، ويطلب منهم إثبات هذا النقد فى كراسات يتلونها عليه ، فكانوا يثبتون أن هذه الآية ليست من البلاغة بمكان ، وأن تلك الآية على جانب من الركاكة وأن الآية الأخرى مفككة ، لا تؤدى المعنى المقصود منها ، وأنه كان يريد أن يمرن طلبته على النقد .

دليل دامغ ونص خطير :

وقدم الدكتور عبد الحميد سعيد كراسة لأحد طلبة طه حسين أثبت فيها ما كان يلقيه عليهم . . يقول فى محاضرة فى كلية الآداب بقصر الزعفران (١٩٢٧ - ١٩٢٨) أى بعد ضجة الشعر الجاهلى :   وصلنا فى المحاضرة الماضية إلى موضوع اختلاف الأساليب فى القرآن ، وقررنا أنه ليس على نسق واحد ، واليوم نوضح هذه الفكرة ؛

لا شك أن الباحث الناقد والمفكر الحر الذى لا يفرق فى نقده بين القرآن وبين أى كتاب أدبى آخر ، حيث يلاحظ أن فى القرآن أسلوبين متعارضين لا يربط الأول بالثانى صلة ولا علاقة ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الكتاب قد خضع لظروف مختلفة وتأثير بيئات متباينة ، فمثلا نرى القسم المكى فيه يمتاز بكل ميزات الأوساط المنحطة ، كما نشاهد أن القسم المدنى واليثربى تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة ، فأنتم إذا دققتم النظر وجدتم القسم

المكى ينفرد بالعنف والقسوة والحدة والغضب ، والسباب والوعيد والتهديد ، ويمتاز كذلك بتقطع الفكرة واقتضاب المعانى وقصر الآيات ، والخلو التام من التشريع والقوانين ، كما يكثر فيه القسم بالشمس والقمر والنجوم والفجر والضحى والعصر والليل والنهار والتين والزيتون ، إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الجاهلية الساذجة التى تشبه بيئة مكة تأخراً وانحطاطاً .

(أما القسم المدنى فهو هادىء لين وديع مسالم، يقابل السوء بالحسنى ، ويناقش الخصوم بالحجة الهادئة ، والبرهان الساكن الرزين ، كما أن هذا القسم ينفرد بالتشريعات الإسلامية ، كالمواريث والوصايا والزواج والطلاق والبيوع وسائر المعاملات ، ولا شك أن هذا أثر من آثار التوراة والبيئة اليهودية ، التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة ، يشهد بها هذا التغيير الفجائى ، الذى ظهر فى أسلوب القرآن) .

(ليس القرآن إلا كتاباً ككل الكتب الخاضعة للنقد ، فيجب أن يجرى عليه ما يجرى عليها ، والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائياً عن قداسته التى تتصورونها ، وأن تعتبروه كتاباً عادياً فتقولوا فيه كلمتكم ، ويجب أن يختص كل واحد منكم بنقد شىء من هذا الكتاب ويبين ما يأخذه عليه) .

(هناك موضوع آخر أريد أن أنبهكم إليه وهو مسألة هذه الحروف الغريبة غير المفهومة ، التى تبتدىء بها بعض السور أمثال : ألم ، ألر ، طس ، كيعص ، حم ، عسق ، الخ ، فهذه كلمات ربما قصد منها التعمية أو التهويل وإظهار القرآن فى مظهر عميق مخيف ،أو هى رموز وضعت لتميز بين المصاحف المختلفة التى كانت موضوعة عند العرب) .

(منقول بالنص عن محضر الجلسة الرابع والعشرين لمجلس النواب المصرى ٢٨ مارس سنة ١٩٣٢ (ص ٣٤٦) وما بعدها) .

ونحن نقدم هذه النصوص دون تعليق عليها ، إلا من ناحية ذلك التوافق بين إنكار إبراهيم وإسماعيل فى هذا الوقت المبكر ، وهو ما أذاعته كتابات اليهود من بعد خدمة للصهيونية ، وإشارته إلى أن صلة النبى صلى الله عليه وسلم باليهود قد أدخلت على عبارات القرآن الكريم بعد الهجرة إلى المدينة ليونة ورقة ، وفى هذا ما فيه من الولاء اليهودى ، مضافاً إلى قصة عبد الله بن سبأ

فى كتاب (الفتنة الكبرى) ، ولكن القضية الكبرى هى : قول طه حسين بشرية القرآن ، على النحو الذى يجرى فيه النقد الأدبى ، للكتب التى كتبتها أقلام الرهبان والأحبار . .

(٤)

كتب الأستاذ محيى الدين صبحى (الحوادث اللبنانية) مجلد عام ١٩٧٧

طرح الدكتور طه حسين قصة (الشعر الجاهلى) طرحاً أقل ما يقال فيه اليوم أنه كان وقحاً فجاً تعمد فيه الاستفزاز تعمداً . ذلك أن قصة الشك فى الشعر الجاهلى ليست جديدة ولا مبتكرة . وليست من وضع المستشرقين ولا من اكتشافات الدكتور طه حسين ، بل لقد تنبه إليها العرب فى حينها ونبزوا أنواع التزييف بين (كل الرواه) وكل المولدين فاستبعدوا روايات الرواة المشكوك بصدقهم من أمثال حماد الراوية وخلف الأحمر .

فإن كانت مشكلة الشك فى صحة بعض الشعر الجاهلى ما يعرفه القدماء ونعرفه عند المحدثين ، فماذا فعل طه حسين بها حتى جعلها تستنفر البيئة الثقافية ضده فى مصر والبلاد العربية .

قام الدكتور طه حسين بخطوة غير علمية حين عمم الشك ليشمل التراث كله وهو فى هذا يشبه أى مراهق ممن يطالعوننا فى هذه الأيام على صفحات المجلات ويطلقون الأحكام الجزاف مثل الشعر العربى التقليدى أو التراث العربى المسروق من اليونان ، هذه الأحكام نمر بها غير عابئين ولا يتعدى رد فعلنا عليها إيحاءه استخفاف وضيق بالهذر والهاذرين لأننا أصبحنا شديدى الوثوق بشخصيتنا ، وكذلك حال القوم قبل نصف قرن من الزمان ، وعلى الصعيد الفكرى والأدبى نجد أبحاث مرجليوث التى تتراوح بين الشك فى أصالة

---

(١) تبين بعد أن أصدر طه حسين عندما تولى مديراً لدار الكاتب المصرى اليهودية كتاب (العقيدة والشريعة) لليهودى (جولد تزيهر) ، بعد ترجمته عام ١٩٤٧ ، أن هذه الآراء موجودة به ، وكنا نفتقر إلى معرفة مصدرها ، فقد عودنا طه حسين على السطو على المستشرقين دون إسناد أو إشارة لأصل ما اقتبس .

التراث العربى والطعن فيه والزراية عليه ، فجاء طه حسين يضم شتات تلك التحاملات فى كتاب يدعيه لنفسه .

ولما كان الجميع على علم باجتهادات المستشرقين تعد امتداداً لطه حسين متسللا أو خائناً أو متواطئاً .

إن القصة اللغوية — الأدبية قصة سياسية منذ فجر التاريخ إلى اليوم وبالتالى فهى قصة عاطفية انفعالية عند الحديث بالعموميات ، ولن نجد مشككاً فى تراث أمة إلا وهو يستهدف صميم شخصيتها ولب كيانها .

وقد فعل الدكتور طه حسين هذا كله وزاد وأربى فلما حوكم اعتبره الفكر الكبير إلى ضميره الفكر الحر والبحث العلمى وهو منهما براء لأن حياته التى امتدت نصف قرن بعد ذلك تخلو من أى من هذه المواقف . وفى الواقع فإن تجربته الفكرية الأولى (فى الشعر الجاهلى) تكاد أن تلخص حياته كلها فتجربته الأولى اتسمت بسمات ثلاث :

١ — التهوين من أمر التراث مع التهويل فى التأثيرات الأجنبية عليه .

٢ — الإغارة على آراء الأولين والآخرين مع ادعاء جهودهم .

٣ — التوصل إلى أحكام نقيمة مغلوطة لا تثبت للبحث العلمى الرصين .

ومن يقرأ فى الأدب الجاهلى وبعده حديث الأربعاء ثم مستقبل الثقافة فى مصر يدرك مدى التزام طه حسين بالتهوين من أمر التراث والتهويل بتأثير اليونان عليه قديماً ، ثم التطلع حديثاً إلى ربط مصر بأوربا وبالثقافة المتوسطة توصلا إلى سلخها من العرب إذا لم يجاورها فى الدوران بالفن الغربى .

(٥)

كتب الأستاذ محمود محمد شاكر : عن حقيقة الشعر الجاهلى يقول :

المستشرقون لم يقولوا بأن الشعر الجاهلى موضوع كله أو أكثره ولا أن الكثرة المطلقة مما نسبه شعراً جاهلياً ، ليست من الجاهلية فى شىء فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهلية وأن ما بقى عندنا من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جداً لا يمثل شعراً ولا يدل على شىء ، لم يقل المستشرقون هذا ، بل قاله مستشرق واحد لا غير هو مرجليوث

وأن كثيراً منهم قد رفض هذه القصة ورد عليها ونقضها ، وكان أمد أمدهم (اربرى) فى كتابه المعلقات السبع ، وقال أن السفسطة وأخشى أن أقول الغش فى بعض الأدلة التى ساقها مرجايوث لا تليق البته .

٢ ـ أما ابن سلام ـ سنة ٢٣٢ هـ صاحب كتاب فحول الشعراء فهو من هذه القصة بمعزل . .

فإن لفظة الشعر الجاهلى من يطلق لا يراد به إلا الشعر العربى الذى كان قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة .وشعراء هذه الفترة مدونون بأسمائهم وقد ألف الناس أن يجعلوا أولهم أو من أولهم امرؤ القيس الكندى .

ولكن كان فى عهد ابن سلام كتب فيها شعر عربى آخر منسوب إلى أمم بائدة من العرب ، هم عاد وثمود وحمير وتبع ، بل إلى أبينا آدم عليه السلام فأشار فى مقدمة كتابه إلى هذا الشعر فقال :

(وفى الشعر مصنوع موضوع لا خبر فيه ولا حجة فى عربيته » وذمه ذماً شديداً قال لمن حمل إلى الناس هذا الشعر : أفلا يرجع إلى نفسه فيقول من حمل هذا الشعر وأراده منذ آلاف السنين والله تعالى يقول (وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى) فهذا قطع ببطلانه لا شك فيه ، وذلك لتطاول الزمن وهلاك هذه الأمم من العرب البائدة عاد وثمود . .

ثم ذكر العرب المستعربة أبناء إسماعيل عليه السلام فقال : إن العرب ليست التى تقف عند أبيهم عدنان وابن عدنان وابن إسماعيل آلاف السنين وأن معد بن عدنان كان بإزاء موسى بن عمران عليه السلام ، ومع ذلك فنحن لا نجد لهؤلاء العرب الأوائل من معد بن عدنان شعراً فكيف بعاد وثمود

وهذه حجة أخرى مرتبطة بالزمن وفضائله

ثم استدل بدليل آخر مرتبط بتطاول الزمن ثم باللغة فقال : إنه قد بقيت بقايا قليلة فى أقاصى الدين ، كان عندهم بقية من لسان حمير وهم عرب ولسانهم عربى أيضاً وزمانهم أقرب عهداً من زمان عاد وثمود ، ذاكر قول أبى عمرو بن العلاء (٧٠ ـ ١٥٤ هـ) فى ذلك وهو ما لسان حمير وأقاصى

الذين اليوم بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا فكيف بما على عهد عاد وثمود ، هذه الحجة الآخيرة. هي التي ضللت من شك فى الشعر الجاهلى لأنه وضعها فى غير موضعها وحرفها إلى الشعر الجاهلى فى اليمن قبل الإسلام بمائة وخمسين سنة .

وقد ختم ابن سلام كلامه فى هذه القصة وبين ما عناه من الشعر فقال بلفظ واضح لا ليس فيه :

(لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته وإنما قصدت القصائدوطول الشعر على عهد عن المطلب وهاشم بن عبد مناف (يعنى قبل الإسلام بنحو مائة وخمسين سنة) فهذا يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع ، هذا تحديد واضح وقطع ببطلان الشعر المنسوب إلى هذه الأمم التى ذكرها والتى لا يدخل شعرها تحت اسم الشعر الجاهلى هذا قطع بالبطلان لا شك فى الشعر الجاهلى الذى يضم الشعر العدنانى والقحطانى اليمنى

بقيت قصة أخرى تعرض لها ابن سلام فى كتابه عن فحول شعراء الجاهلية والإسلام واستخدمت استخداماً سيئاً جداً .

وخلاصة القضية بلفظ ابن سلام لا بلفظى أنا ولا بلفظ من خلطوا بين القضيتين :

قال ابن سلام :

(وكان قوم قلت وقائعهم وأشعارهم فأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسنة شعرائهم ثم كان الرواة بعد ، فزادوا فى الأشعار التى تليت وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواةولا ما وضعوا ، ولاما وضع المولدون، إنما عضل بهم (أى صعب عليهم) أن يقول الرجل من أهل البادية من ولد الشعراء أو الرجل من ولدهم فيشكل عليه بعض الأشكال) فهذا كما ترى ليس شكاً فى الشعر الجاهلى بل هو الدليل القاطع الحاسم على أن العلماء بالشعر قبل ابن سلام وبعده قد محصوا لنا هذا الشعر ووثقوه وأدوه إلينا على أسلم وجه .

أما قصة الزيادة فى شعر شاعر أو نسبه شعر إليه ليس من شعره ، فهذه قضية معروفة فى جميع آداب الأمم ، فهذا شكسبير مثلاتعرضت لبعض أعماله

للنقد وقيل إنه لم يكتبها هو ، بل كتبها فلان ، فهل يمكن بعد ذلك أن نشكك فى شعر شكسبير كله ونطرحه كله ، حتى بعد أن يثبت على وجه القطع صحة ذلك الشك .

وفى زماننا هذا جمع شعر الدكتور ناجى ، ثم تبين لبعض الباحثين أن فى ديوانه قصائد ليست له فهل يجوز لى أنا بصفتى معاصراً له أن أشك فى شعر ناجى كله وأقول أنه مصنوع كله وأضم إليه شعر على محمود طه ومحمود حسن إسماعيل ثم أرتفع بهذا الشك إلى شوقى وحافظ والبارودى : هذه أساليب عجيبة تأتى فى زمن عجيب !

ابن سلام يا سيدى لا يشكك فى شعر هو أحد حفاظه وعلمائه ثم يؤلف فى هذا الشعر وشعرائه كتاباً قائماً برأسه هو كتاب (طبقات فحول الشعراء) فلماذا نزيف الحقائق .

(٦)

عاربة ومستعربة

من أبرز شبهات كتاب (الشعر الجاهلى) أكذوبة تقسيم العرب إلى عاربة ومستعربة : هذه نظرية روجتها كتابات المستشرقين والتبشير وحفلت بها الكتب المدرسية وهى تشير إلى أن العرب العاربة هم القحطانيون (وهم أصل العرب) ظهروا فى اليمن وانتشروا فيها واستقرت هجراتهم على حافة الهلال الخصيب عقب حادث سيل العرم وقبله ومنهم المناذرة فى الحيرة وكذلك فى نجد والغساسنة فى الشام .

والمستعربة : وهم الفدائيون أو المصريون وأخصهم نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام الذين سكنوا الحجاز ومنهم ظهرت قبيلة قريش التى تنتمى إلى مضر وعدنان . الهدف هو القول بأن عشيرة محمد صلى الله عليه وسلم الذى نزل عليه القرآن بلسانه تعد كسائر العدنانيين من غير العرب وقد دخلوا على العرب العاربة .

الواقع أن كثيراً من المؤرخين القدامى من شكك فى هذا الكلام وفيهم من خالفه ونقضه ، وكانت هناك آراء أخرى اختلف فى العاربة والمستعربة

فذهب ابن إسحق والطبرى إلى أن العاربة هى ثمود وعاد وطسم وجديس والمستعربة بنو قحطان وبنو إسماعيل .

ويقول الدنيورى مؤلف الأخبار الطِوال إن ولد أرم بن سام بن نوح هم الذين اختصوا باللسان العربى عند تعليل الألسنة وأولاد إرم عاد وجديس وطسم وثمود وصحار وجاسم وبار نزل الأول اليمن والثانى اليمامة والثالث عمان والبحرين والرابع الحجاز إلى الشام والخامس من الطائف إلى جبل طى والآخر قرب الحرم والأخير ما وراء الرمل وبذلك تتساوى بلاد نجد والبحرين وبادية الشام والحجاز واليمن وأقصى الجزيرة فى عروبتها لانتشار أولاد إرم فيها .

ويقول الدينورى أن فالغ هو جد إبراهيم وإسماعيل وأن عدنان وقحطان أخوان.

وجاء فى لسان العرب : كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها فهم عرب يمنهم ومعدهم ، بل نجد أبلغ من ذلك فى الدلالة على رجحان العدنانية فابن خلدون يقول : إنه لم يكن فى بنى قحطان من زمن نوح إلى عابر من تكلم العربية .

ويقول أبو عمر بن العلاء : ما لسان حمير وأقاصى اليمن لساننا ولا عربيتهم عربيتنا .

قال ابن حزم فى كتاب الأحكام ، إن الذى وقفنا عليه وعلمناه يقيناً أن السريانية والعبرانية والعربية (التى هى لغة مصر لا لغة حمير لغة واحدة تبدلت تبدل مساكن أهلها ، ويلخص العلامة الكرمى إلى أن النتيجة أن اللغة العربية هى لغة عدنان وكلمة عربى إنما أطلقت على قوم — هم قوم عدنان — ثم نسبت أرض الجزيرة كلها إليهم ، فكيف يقال عن هؤلاء الأصول أو الأصلاء إنهم دخلاء (١) .

ويقول فيليب حتى : أن لغة الشمال هى لغة القرآن إلى اللغة العربية المعروفة ، أما أهل الجنوب فكانت لهم لغة سامية قديمة لغة سبأ وحمير وهى تمت إلى اللغة الحبشية بصلة

(المجلة العربية محرم ١٣٩٨)

---

(١) هذا النص عن سعيد الكرمى بمجلة المجمع العلمى العربى .

الباب الثانى

تاريخ الإسلام والسيرة

الفصل الأول : القرآن الكريم .

الفصل الثانى : السيرة :

١ – هامش السيرة .

٢ – الشيخان ، مرآة الإسلام ، الوعد الحق .

الفصل الثالث : تاريخ الإسلام :

١ – الفتنة الكبرى .

٢ – على وبنوه .

الفصل الرابع : الإسلام .

الفصل الخامس : التراجم :

١ – الأيام .

٢ – الشيخان .

٣ – المتنبى .

٤ – ابن خلدون .

الفصل السادس : الفكر الصهيونى (اليهود والأدب العربى) .

الفصل الأول

القرآن الكريم

إن موقف الدكتور طه حسين من القرآن الكريم موقف مقنع ، وذلك لخطورة التصريح بما يعمل على إذاعته وبثه فى الخفاء لتلاميذه فى كلية الآداب وما يعرفه المتصلون به وما توحى به الخطوات التى اتبعها على مدى حياته الفكرية جميعاً من محاولات لإشاعة الشبهات حول التفرقة بين كلمتى الكتاب والقرآن فى نصوص القرآن ودعاواه حول النحو والبلاغة موقفه الواضح الصريح فى إنكار وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من ورودهما صريحاً فى القرآن بدعوى أنه يقبلها وجدانياً ويعارضها عقلياً وهى دعوى باطلة توحى بالثنائية الممزقة للكيان الإنسانى بين مؤمن وغير مؤمن فى وقت واحد ، ولقد كشف طه حسين عن هويته فى نص صريح سجله فى كتابه (فى الصيف) حين تحدث عن (نقد الكتب المقدسة) وقال : « إذا كان من حق الناس جميعاً أن يقرءوا الكتب الدينية ويدرسوها ويتذوقوا جمالها الفنى فلم لا يكون من حقهم أن يعلنوا نتائج هذا التذوق والدرس والفهم ما دام هذا الإعلان لا يمس مكانة هذه الكتب المقدسة من حيث أنها كتب مقدسة فلا يغض منها ولا يضعها موضع الاستهزاء والسخرية والنقد وبعبارة أوضح لم لا يكون من حق الناس أن يعلنوا آراءهم فى هذه الكتب من حيث هى موضع للبحث الفنى والعلمى بقطع النظر عن مكانتها الدينية » .

ومعنى هذا عند طه حسين أن الكتب الدينية كتب بشرية فهى معرضة للنقد ، وهو حين يقبل هذا الرأى الذى يقول به الغربيون فى التوراة ، والإنجيل ليطبقه على القرآن الكريم يغفل عن الفوارق العميقة بين كتب تأكد أصحابها من علماء اللاهوت إلى أنها من كتابات الأحبار والرهبان وبين القرآن الكريم الذى هو النص الموثق المنزل بالوحى الذى لم يدخل عليه أى إضافة أو حذف والذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل

من حكيم حميد ، ولكن طه حسين يود أن يخدع مجموعة من الشباب المسلم الغر الذى وكل إليه تعليمه فى كلية الآداب ولم تكن له خلفية إسلامية فى فهم هذه الحقيقة ولذلك فهو قد فتح هذا الباب واسعاً لهذا الغرض على النحو الذى كشف عنه الدكتور عبد الحميد سعيد فى مجلس النواب المصرى عام ١٩٣٢ حيث قدم كراسة لأحد الطلبة فى كلية الآداب وفيها يطلب إليهم طه حسين (نقد القرآن) والكشف عن الآيات الضعيفة فيه والآيات القوية ويدعوهم إلى الجرأة على القرآن لأنه كتاب أدبى ومن ذلك قوله : إن فى القرآن أسلوبين مختلفين : أحدهما جاف وهو مستمد من البيئة التى نزل فيها القرآن أول ما نزل فى مكة ، ففى هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر ، وأسلوب آخر عندما هاجر النبى (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة واتصل ببيئة اليهود وهو أسلوب فيه شيء كثير من الليونة والانطلاق .

كذلك فقد أثار شبهة الحروف الواردة فى أوائل سور القرآن ووصفها بأنها معميات . وقد تبين من بعد عندما كلف الدكتور طه حسين عام ١٩٤٣ بعض الأساتذة بترجمة كتاب المستشرق اليهودى جولد زيهر (العقيدة والشريعة فى الإسلام) وأصدره حين كان مشرفاً على دار الكاتب المصرى (هرارى اليهودية) . إن هذه الأفكار موجودة فيه وأنه أخذها قبل هذا الوقت الباكر ليسمم بها أفكار طلبته ، وهذا ما كان يقصد إليه طه حسين من دعوته إلى نقد الكتب المقدسة ، والفكرة يهودية الأصل فلحساب من يعلن طه حسين عام ١٩٢٦ أن وجود إبراهيم وإسماعيل ليس صحيحاً من الناحية التاريخية ، ويدعو إلى نقد القرآن على مفاهيم يهودى متعصب هو جولد زيهر ، ويكون كتاب (الشعر الجاهلى) من كتابات يهودى متعصب آخر هو (مرجليوث) حتى أطلق عليه (حاشية طه حسين على متن مرجليوث)

ولنوصل ما قاله الدكتور عبد الحميد سعيد ، فقد جاء بالصحف ١٧/ ٣/ ١٩٣٢ وبمحاضر جلسة مجلس النواب فى اليوم السابق قوله :

(إنه يحث الطلبة على أن ينظروا فى القرآن كأى كتاب عادى يجرى عليه من النقد العلمى ما يجرى عليها وأن يغضوا النظر عند البحث فيه عن قدسيته ، وقال : إن فواتح السور علامات مميزة لمصاحف الصحابة ،

وقال : إن للقرآن أسلوبين مختلفين كل الاختلاف : أحدهما (جاف) وهو مستمد من البيئة التي نزل فيها القرآن أول ما نزل فى مكة ، فى هذا الأسلوب تهديد ووعيد وزجر ، فلما هاجر النبي إلى المدينة تغير الأسلوب بحكم البيئة أيضاً وأصبح ذلك الأسلوب ليناً) .

ومن عبارات طه حسين قوله : إن قرآن مكة مالىء النصارى ، وقرآن المدينة مالىء اليهود .

ومن عجب أن يكتب طه حسين فى بعض ذكرياته : أنه تعلم فهم القرآن من مستشرق متعصب فى باريس هو (كازنوفا) وأنه لم يكن يفهم القرآن قبل ذلك ، بالرغم من السنوات التي قضاها فى الأزهر .

ولا ريب أن رأى هذا المستشرق وغيره فى القرآن معروف ، فهو عندهم من عند محمد ، لا من عند الله ، وأنه مكى مدنى ، عرف محمد فيه النصارى فى مكة وعرف منه اليهود فى المدينة .

إن مفهوم كازنوفاً هو الذى قدمه طه حسين لطلابه فى الجامعة عن القرآن وهل يمكن أن يكون رأى مستشرق مسيحى متعصب خاضع لفكر غربى له جذور وثنية وهلينية وغيرها أن يفهم القرآن فهمه الأصيل وأن يصل إلى مفاهيمه الصحيحة على النحو الذى يذكره طه حسين .

إنه لمن المؤسف والمخزى والمثير للسخرية أن يترك طه حسين الأزهر دون أن يفهم القرآن ، ثم يأتى باريس ليتعلم ذلك من رجل مستشرق ، ثم يجد فى هذه المفاهيم ما يرضى نفسه وما يشعره بأنها المفهوم الحقيقى للقرآن بينما ضاق صدره بمفاهيم القرآن الحقيقية فى كتب المسلمين الأصيلة التى واجهته أول حياته فى الأزهر ، فأعرض عنها ، مهما كان ورقها أصفراً وكان عرضها قديماً ، إنه لمن المؤسف حقاً أن يقال : إن طه حسين قد تلقى فهم القرآن على مستشرق غربى .

يقول : لم أكد أجلس إلى كازنوفا حتى استيقنت أن هـذا الرجل كان أقدر على فهم القرآن وأمهر فى فهمه وتفسيره من هؤلاء الذين يحتكرون علم القرآن ويرون أنهم خزنته وسدنته وأصحاب الحق فى تأويله .

ومن هنا فنحن نقرر أن الدكتور طه حسين عاش حياته كلها بفهم

الإسلام فهماً غربياً كنسياً ، وأنه قد اقتنع منذ ارتضع لبان المفاهيم المسيحية الغربية بهذا المفهوم الذى يصر عليه ، وهو أن الإسلام سبحات روحية وتهويمات وجدانية وراء تراتيل موسيقى الكنائس ، ويؤمن بأن الإسلام انتهى فى عهد الخلفاء الراشدين ، وأن الحكومة الإسلامية لم توجد ، وأن الخلافة الإسلامية انزوت ، وهذه هى المفاهيم التى قدمها فى كتبه (الفتنة الكبرى ، الشيخان ، . . . إلخ) على نحو ما سيأتى عرضه فى تضاعيف هذا البحث .

إن مفهوم الإسلام عنه مشوب بالتمسح ، وقد كان مؤهلا ليكون داعية الإسلام على هذا النحو من الذين ساندوه لولا حماقته فى كتاب (الشعر الجاهلى) غيره ، فقد نزعت منه روح الإسلام الأصيلة عمداً وشكل على أساس روح أخرى لها طابع المسيحية من ناحية والوثنية الإغريقية من ناحية أخرى ، ونحن نعرف أن اليونان والمسيحيين والأوربيين يؤمنون بالله ولكنه إيمان يختلف عن التوحيد الإسلامى الذى يجعل من التوحيد الخالص حجر الأساس ويجعل من الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع وليس مفهوماً لاهوتياً خالصاً مقتصراً على العلاقة بين الإنسان والخالق جل شأنه ، بل يمتد ليشمل أيضاً العلاقة بين الناس وبعضهم ولذلك فإن أسلوب طه حسين فى كتاباته الإسلامية قد اكتسب روح التراتيل الكنسية وليس روح البيان الإسلامى .

ومن يقرأ كتاب (معك) للسيدة سوزان يرى أن طه حسين دخل عشرات الكنائس وسمع مئات التراتيل ولكنه لم يدخل مسجداً واحداً .

(٢)

لقد كان الغربيون يعلمون أن القرآن هو مصدر الرسالة الإسلامية وأن عودة المسلمين إلى الإسلام من جديد تبدأ من منطلق فهم القرآن على وجهه الصحيح دعوة إلى بناء المجتمع الإسلامى على أساس أن الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع ، ولذلك فقد كان عليهم أن يربوا أتباعهم الذين سيبثونهم فى البلاد العربية والإسلامية على مفاهيم خطيرة أولها الاستهانة بالقرآن والنظر إليه على أنه كتاب أدب أو كتاب تراث ويدعون قومهم إلى الجرأة عليه

بالنقد والنظر ووصف آياته بالعنف أو القوة ، على النحو الذى تعلمه طه حسين من كازنوفا فى مدرسة الكولج دى فرانس فى قوله فى جريدة السياسة (٢٧ مارس عام ١٩٢٦) :

(كان كازنوفا مسيحياً شديد الإيمان بمسيحيته يذهب فيها إلى حد النصوص ولكنه كان إذا دخل غرفة الدرس فى الكولج دى فرانس نسى من المسيحية واليهودية والإسلامية كل شىء إلا أن لها نصوصاً يجب أن تخضع للبحث اللغوى كما تخضع المادة للعلماء يتناولونها فى معاملهم بما يشاءون من ألوان البحث والامتحان) .

وهذا الكلام فيه زيف كثير ، فإن كازنوفا كان يتناول الإسلام وأقدس قدس الإسلام وهو القرآن ، وهو خصم له . أما دعاوى المنهج العلمى فإننا نعرف هذه المناهج العلمية التى صلك بها أذاننا طه حسين سنوات . إنها ليست من العلم فى شىء ، وإنما هى مناهج الفلسفة المادية التى صنعها اليهود وفرضوها على الدراسات الإسلامية وجعلوها سلاحاً لتكوين أتباعهم الذين يخرجهم معهد الدراسات التبشيرية الذين أطلقوا عليه : (كوليج دى فرانس) .

ومعنى هذا إن الهدف هو الحيلولة بين المسلمين وبين العودة إلى هذا الأساس المتين وأن على طه حسين أن يدمر هذا الأساس المتين إن استطاع وهو عندما كان يتحدث عن القديم ويسخر به إنما كان يقصد القرآن والسنة وعلى مراحل متعددة : مرحلة الشعر الجاهلى ، وإنكار مصدر الدين الربانى ، ومرحلة هامش السيرة ومرحلة الفتنة الكبرى ومرحلة كتاب الشيخان .

أولا : بشرية القرآن :

إن الواضح من مواقع كثيرة فى كتابات طه حسين المنقادة ببشرية القرآن وإنكار بعض آياته وأن إنكاره لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إنكار لآيات صريحة فى القرآن الكريم : « **وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً**

واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم . ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

(سورة إبراهيم ٣٤ – ٣٧)

لقد أنكر طه حسين هجرة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلى الحجاز واعتبرها أسطورة أولا ، ثم – على حد تعبيره – حيلة اختلقتها قريش لأسباب سياسية واقتصادية وصدقها القرآن ليحتال على اليهود بتآلف قلوبهم ولينسب العرب إلى أصل واحد، ويرى أن قريش كانت تبحث عن أصل تاريخي قديم فليس ما يمنعها من أن يتصل هذه الأسطورة التي تفيد أن الكعبة من تأسيس إسماعل وإبراهيم عليهما السلام .

٢ – يعتقد طه حسين أن القرآن يمثل العصر الجاهلي جنباً إلى جنب مع التاريخ والأساطير وأن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية .

٣ – إرجاع كلمة القرآن إلى مفهومهما في اللغة السريانية بمعنى الجهر وذلك اعتقاداً منه بأن القرآن من كتب التراتيل والدعاء الديني .

٤ – يرى أن القراءات السبعة ناتجة عن اختلاف لهجات القبائل ، مع أنه من الثابت ومن المتفق عليه في أصول الإسلام . إن القراءات السبعة منقولة بالتواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم وطريقها الوحي .

٥ – التشكيك في الحروف التي تفتح بها السور والقول : بأنها إشارات موسيقية أو رموز صوتية يقصد بها ذكر النغمة قبل تلاوة السورة .

٦ – يؤمن طه حسين بأن المسلمين ربطوا بين الإسلام من جهة وبين دين إبراهيم عليه السلام من جهة ثانية كي يثبتوا أولية الإسلام في الحجاز وكي يوجدوا جذوراً له في المنطقة .

٧ – يزعم طه حسين بأن الرسول صلى الله عليه وسلم حرض على الهجاء وأثاب شعراء المسلمين عليه .

٨ – شكك طه حسين في كل ما يتصل بالقرآن ومن ذلك أنه لم ينف ما زعمه المستشرق كليمان هوار من زعمه بأن شعر أمية بن الصلت من مصادر

القرآن ويقول : من ذا الذى يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص القرآنى كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى وبعضه عند العرب أنفسهم وكان من اليسير أن يعرفه غير النبى ثم أن النبى وأمية متعاصران ، فلم يكون النبى هو الذى أخذ من أمية ألا يكون أمية هو الذى أخذ من النبى » .
وهذا أسلوب من تثبيت الشبهة وإدخالها إلى الأذهان والقلوب .

(٣)

إنكار عالمية الإسلام

عرض الدكتور محمد البهى فى كتابه (الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى) إلى فكرة طه حسين عن بشرية القرآن كما أوردها فى كتاب (فى الشعر الجاهلى) وكما أعادها فى كتاب (فى الأدب الجاهلى) وهى محاولة ماكرة فى الطعن على القرآن طعناً غير مباشر ويكشف أسلوبه الخبيث فى نسف إلهية القرآن دون أن يتلبس بالفكر الصريح ، على حد تعبير (غازى التوبة) ، يقول الدكتور البهى : تعرض فكرة بشرية القرآن فى إحدى صورتين :

الأولى : أنه انطباع فى نفس محمد صلى الله عليه وسلم نشأ عن تأثره ببيئته التى عاش فيها ، بمكانها وزمانها ومظاهر حياتها المادية والروحية والاجتماعية .

الثانية : أنه تعبير عن الحياة التى عاش فيها محمد صلى الله عليه وسلم بما فيها المكان والزمان وجوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والدينية والاجتماعية .

والفكرة التى يرددها طه حسين مأخوذة من المستشرق جب فى كتابه (المذهب المحمدى) وهى قوله : إن القرآن هو من عمل إنسان هو محمد عاش حياة خاصة وهى حياة المكيين ، وطه حسين فى كتابه (الشعر الجاهلى) يقول : (إذا رجعنا إلى القرآن نجده قد صور العرب وحياتهم بما يجعلهم أمة سياسية ، تنشد أن تكون قوة ثالثة بين الفرس والروم ، كما كانت أمة

وسطاً بين البحر المتوسط والمحيط الهندى وبذلك تكون مدخلا للتجارة العابرة، وهو أى القرآن يصف اتصالهم الاقتصادى، بغيرهم من الأمم فى السورة المعروضة : « **لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف** » . ثم يقول : أرأيت أن التماس الحياة العربية الجاهلية فى القرآن أنفع وأجدى من التماسها فى هذا الشعر العقيم الذى يسمونه الشعر الجاهلى ، أرأيت أن هذا النحو من البحث يغير كل التغيير ما تعودنا أن نعرف من أمر الجاهليين .

ومعنى هذا القول كما يريد أن يفهم المؤلف قارءه : إن القرآن انطباع للحياة القائمة فى وقت صاحبه وهو النبى ، وهو يمثل لذلك بيئة خاصة ، فى عقيدتها ولغتها وعاداتها .

ويقول طه حسين فى توضيح هذا المعنى :

(وليس من اليسير ، بل ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديداً كله على العرب ، فلو كان كذلك لما فهموه ولما وعوه ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر) .

(وفى القرآن رد على الوثنيين فيما كانوا يعتقدون من وثنية، وفيه رد على اليهود وفيه رد على النصارى ، إنما يرد على فرق من العرب كانت تمثلهم فى البلاد العربية نفسها، ولولا ذلك لما كانت له قيمة ولا خطر) .

(وإذن القرآن بعبارة أخرى دين محلى لا إنسانى عالمى، قيمه وخطره فى هذه المحلية وحدها ، قال به صاحبه متأثراً بحياته التى عاشها وعاش فيها ولذلك يعبر تعبيراً صادقاً عن هذه الحياة . أما أنه يمثل غير الحياة العربية أو يرسم هدفاً عاماً للإنسانية فليس ذلك بحق) .

(إنه دين بشرى وليس وحياً إلهياً ، قاله صاحبه لقوم معينين ولذلك تجاوبوا معه أو قاموا ضده ، ولو أن صاحبه قاله فى جماعة أخرى (لما حفل به أحد) ، لأن ما يقوله فيه لا يتصل عندئذ بحياة الجماعة الأخرى فى قليل أو كثير) .

فالقرآن مؤلف ومؤلفه محمد ، ويمتاز تأليفه بأنه يمثل حياة العرب المحدودة فى شبه جزيرة العرب فى اتجاهات حياتها المختلفة : السياسية ، والاقتصادية والدينية ومنهج دراسة الحياة الجاهلية للعرب قبل الإسلام

دراسة علمية ، كما يدور عند صاحب كتاب (الشعر الجاهلى) بين أمرين لا ثالث لهما : بين ما يسمى بالشعر الجاهلى ، وبين القرآن كلاهما للإنسان وكلاهما يتحدث عن الحياة العربية الجاهلية ولكنه استبعد الشعر الجاهلى واختار القرآن لهذه الدراسة لأنه صادق فى كونه (انطباعاً) دقيقاً — لهذه الحياة .

القرآن إذن عند طه حسين مصنوع مؤلف وهو مرآة لأفق خاص من الحياة فى شبه الجزيرة العربية فى مكة بوجه خاص .

وبالموازية بين (المذهب المحمدى لجب) والشعر الجاهلى لطه حسين نجد أن كليهما يرى :

١ — أن الحياة الجاهلية قبل الإسلام كانت حياة حضارية ، كانت حياة حافلة بالكياسة السياسية والنشاط الاقتصادى والنهضة الدينية .

٢ — أن محمداً — أو الإسلام أو القرآن — استغل المقدسات فى مكة وفى مقدمتها البيت الحرام أول بيت وضع للناس بمكة والذى قام على عمارته إبراهيم والد إسماعيل . وظاهرة استغلال هذه المقدسات كما يرى كتاب (المذهب المحمدى) : هى فى أن ثورة محمد ، والإسلام أخذت طابع الدين دون الطابع الاجتماعى . أما كتاب (الشعر الجاهلى) فيرى هذه الظاهرة فى أن محمداً أو الإسلام اضطر إلى قبول قصة إسماعيل وتعليمه العربية اضطراراً مع أنها خرافة أثبتت الحقائق العلمية عدم وقوعها ! اضطر إلى ذلك حتى لا يفقد سلاح (المقدسات الدينية) القائمة فى مكة وحول مكة فى صراعه مع خصومه (المكيين) ! إذا المكيون أنفسهم كانوا على استعداد نفسى لقبول هذه القصة ، رغبة فى الوحدة والتكتل ، ليكونوا قوة ثالثة فى مواجهة قوى الفرس والروم .

٣ — كذلك فإن (القرآن) لم يكن جديداً كل الجدة على العرب فما فيه من عقائد كانت تعرفها مكة ويعرفها العرب فى شبه الجزيرة .

ولكن صاحب كتاب (المذهب المحمدى) يرى أن آية معرفتهم لذلك هى عدم معارضة المكيين له فيما ذكر من عقائد — حتى عقيدة الوحدانية — وارجع معارضتهم إياه إلى المنافسة السياسية والخشية من انهيار اقتصادهم

بينما يرى صاحب كتاب (الشعر الجاهلى) أن آية ذلك هى قبول من قبل منهم ومعارضة من عارض من بينهم ، فلو لم يكن القرآن مألوفاً لديهم لما عارض من عارض ولا قبل من قبل ولا حفل به أحد ولا كان له أى خطر !

٤ – وإن دعوة الإسلام دعوة محلية فى جماعة خاصة وفى حياة خاصة ، ولذا فالقرآن أو الإسلام انطباع واضح لهذه الجماعة الخاصة ، فى حياتهم الخاصة ، ويمكن أن يتبع آثار هذه الجماعة الخاصة فى حياتها الخاصة ، فى حياة محمد فى جميع أدواره ، وهذا ما يصوره صاحب كتاب (المذهب المحمدى) ولهذا السبب يعتبر القرآن تعبيراً صادقاً عن هذه الجماعة الخاصة فى حياتها الخاصة حتى عن أمانيها كما يصوره صاحب كتاب (الشعر الجاهلى) وإذن فالقرآن محدود القيمة ، محدود المكان ، محدود الزمان .

ومنطق هذا كله : أن القرآن ليس وحياً لرسالة ، إذ لو كان وحياً من عند الله لكان للناس جميعاً ، فى كل مكان وفى كل جيل ، ولو كان وحياً أيضا لرسم خطة جديدة لهداية الناس فى عقيدتهم ولم يكن حاكياً لما كان عليه بعض أفراد الجماعة الإنسانية ، ثم إن العرب أنفسهم قبل – الناس الآخرين – لم يكونوا على جهل ولم يكونوا على ضلال حتى يحتاجوا لرسالة جديدة تدعوا إلى الهداية .

والفرق بعد ذلك بين الكتابين فى عرض فكرة (بشرية القرآن) هو :

أن أحد الكتاب فى وصفه للقرآن وفى وصفه لصلة القرآن بالعرب يقول :

– فيه آى القرآن ما أخذ من الوثنية العربية .

– وفيه ما أخذ من المسيحية الغربية .

– وفيه ما أخذ من اليهودية العربية .

وهذا الكتاب هو كتاب (المذهب المحمدى) .

ويهم الاستشراق أن يردد دائماً أن القرآن أخذ من المسيحية أو اليهودية بدلا من أن يذكر أنه رد على المسيحية أو اليهودية بينما الكتاب الثانى : (الشعر الجاهلى) فى تحديد هذه الصلة يذكر أن القرآن :

- فيه رد على الوثنية العربية .
- فيه رد على المسيحية الغربية .
- فيه رد على اليهودية العربية .

وذلك كي يوهم القارئ المسلم أن القرآن لم يلتق مع المسيحية القائمة ومع اليهودية الموجودة إذ ذاك ، طالما حدد الكتابان القرآن بالبيئة العربية فما وراء ذلك من اختلاف لا يحدث فرقاً أصلا بينهما ، لأن التعبير بأنه (أخذ) من المسيحية واليهودية قصد التمهيد إلى الحكم بأن القرآن لم يكن كله جديداً على العرب ، وهذا عين ما قصده التعبير بأنه (رد) وبيئة الكاتبين هى التى أوحت إلى كل منهما بالاختلاف فى التعبير على نحو ما رأينا .

ولم يكن القصد من الموازنة بين الكتابين فى عرض بشرية القرآن إلى بيان أن أحدهما أخذ من الثانى ، بل كان القصد أولا بالذات ، إلى توضيح : أن كتاب (الشعر الجاهلى) فى العالم العربى يحكى رأى المستشرقين فى هذا الجانب ، ذلك رأى الذى تنوعت أساليبهم فى عرضه ، والذى يعد مع ذلك هدفاً سياسياً فى بحوثهم منذ أن نشأ الاستشراق ومنذ أن اتجه الاستشراق فى مبدأ أمره إلى تمكين الاستعمار الغربى فى البلاد الإسلامية عن طريق إضعاف قيمة الإسلام كدين ورسالة من رسالات السماء .

(٤)

مؤامرة (ترجمة القرآن)

دعا طه حسين إلى ترجمة القرآن بهدف الغاية الخفية وهى تمزيق الأمم الإسلامية وتوسيع مسافة التباعد بينها . وقد تصدى له الدكتور محمد سعاد جلال (الجمهورية فى ١٩ أغسطس عام ١٩٥٥) قال : أن ذلك هدف الاستعمار الذى لايطمئن على أنه قد ازدردت الأمم الإسلامية ازدراداً كاملا إلا بعد تخليصلها من الشوكة التى تقف فى حلقه وتمنع عنه عملية الابتلاع الكامل وهو صوت القرآن العربى المجلجل فى صدور المسلمين أياً كانوا ، وأياً كانت لغاتهم ، وأن عربية القرآن هذه تحمل قداسة القرآن ومهابة القرآن ومعجزة

القرآن فى خلق الأنفس ودعم الإيمان ، فإذا نزعنا القرآن من لغته الإلهية فقد نزعناه من هذا كله و نزعنا الأمم الإسلامية من هذا كله أيضاً .

هل صحيح ما يقال : من إنه ليس كتاب دينى معجز إلا هذا القرآن وأنه معجز بلغته العربية ، وأن هناك أصحاب أديان على الأرض ليس فى لغتهم المجاز ، وإن سلخ القرآن من عربيته وتجريده من نظم إعجازه من أعمال المساواة المقصودة بين الكتب جميعاً ؟

هل علماء الفرس والترك كانوا من الغباء والجهالة وفقدان الغيرة على صوالحهم بحيث تركوا السعى إلى ترجمة القرآن وهم يعلمون أنه مشروع وعمل مفيد ، أم أن صدودهم عن الترجمة مع توافر الداعى لها وظهور بعض المنفعة بها كان لاعتقادهم ومهمتهم . إن ترجمة القرآن ونقله من لغته الربانية ونظمه الإلهى عمل لا يجيزه الشرع ولا تتحقق به المصلحة ، وإن محاولة ذلك مما لا يقدم عليه مسلم ، هل كان أولئك الأفذاذ فى العراق والشام وفارس وما وراء النهر ومصر والأندلس وغيرها من الأطراف وكلها أمم ذات لغات أصيلة غير لغة القرآن مات بعضها وبقى بعضها إلى اليوم حياً ؟ وهل كان علماء الأتراك وقد عاش سلطانهم على الأرض قروناً وامتد ملكهم إلى قلب أوربا ؟ ، هل كان هؤلاء جميعاً حين لم يقدموا على ترجمة القرآن وإقامة الترجمة فيهم مقام الأصل عبادة وقراءة واستنباط للأحكام أقل علماً وذكاء وفهماً للمصلحة القومية والإسلامية من الدكتور أحمد زكى وأمثاله من الداعين المتحمسين لفكرة الترجمة ، أم أن هذه الدعوة المتحمسة تحمل باطناً غير ظاهر وغرضاً فى نفس قائلها ، ثم لماذا لا تظهر هذه الدعوة فى نطاق واسع إلا فى لحظات التاريخ المظلمة التى يمر بها المسلمون تحت مطارق الاستعمار وأعناقهم وأيديهم فى قيوده واصفاده وليس لهم فى مقاومة ذلك كله إلا آيات القرآن ينادون بها القصى ويواصلون بها القريب ، ويربطون بأسلوبه الموحد ولغته الموحدة شتات وحدتهم الضائعة ، ودولتهم المستذلة المهيضة الجناح ، ولماذا تقترن الدعوة إلى ترجمة القرآن بالمؤثرات الاستعمارية والتبشيرية الضخمة حول أمم العالم الإسلامى فى بقاع الأرض طراً) .

وقد تواصلت المعركة وحاول الدكتور طه حسين أن يدافع عن وجهة

نظره ويبرئ نفسه من تهمة التآمر فى هذا المجال ، وهو واحد من مجالات عدة فأجاب الدكتور محمد سعاد جلال بقوله :

قلنا : إن سر الترجمة هى القدرة على الإحاطة بالمعنى الذى أراده صاحب الأصل وعدم الإحاطة بمعنى الأصل مانع من صحة الترجمة وبالتالى هو مانع من الإقدام عليها وإلا لكانت الترجمة حينئذ تزويراً وتزييفاً على الأصل . إن البحث الذى يستهدف صدع هذه المشكلة يجب أن يبتدئ من السؤال عن طبيعة الوحى المحمدى هل هو(وحى ذاتى) أو هو (وحى إلهى)؟ يذهب عامة المستشرقين وأصحاب الدراسات الإسلامية فى أوربا إلى أن الوحى المحمدى وغيره من صنوف الوحى إنما هو (وحى ذاتى) أى أنه عبارة عن تضاغط طائفة من الأفكار الدينية الإصلاحية اختمرت فى العقل الباطن لدى النبى حتى إذا بلغت نضجها ارتدت إليه فى عالم الوحى على أنها منزلة من السماء ، يصرح بذلك (نولدكه) فى كتابه الضخم عن تاريخ القرآن ، وحاصله بعبارة لا تقبل النفاق : أن القرآن أفكار بشرية وفى إمكاننا أن نحيط علماً بمراد صاحبها وفى إمكاننا بناء على ذلك أن ننقلها بأمانة ميسرة إلى أى لغة أخرى كما ننقل أفكار شكسبير أو جوته أو دانتى ، أو أى فكر عالمى . أما إذا ذهبنا إلى أن الوحى المحمدى إنما هو (وحى إلهى **« نزل به الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين »** كما هو معتقد المسلمين فى كل عصور التاريخ وفى كل مكان فى الأرض فهيهات هيهات ثم هيهات أن يتفق منطق هذا الرأى مع إمكان ترجمة القرآن أو نقل معانيه إلى لغة أخرى ، إذ كان لابد فى ذلك من الإحاطة على سبيل القطع بمراد الله من كل كلمة ومن كل جملة ومن كل سورة وهذا محال وفوق المحال .

ويقول طه حسين : والإسلام دين فيمتد إلى الناس كافة لا إلى العرب خاصة وليس من الطبيعى ولا من الممكن أن يفرض على الناس أن يقرءوا القرآن فى نصه العربى إذا أرادوا أن يعرفوه . لأن هذا تكليف بالمحال كما يقولون فلا أقل من أن يفسر لهم القرآن بنقل معانيه إلى لغاتهم .

ويقول الدكتور محمد سعاد جلال : لاحظت أن هذه الجملة المركزة ربما تطرق الضعف إلى مكان الاستدلال بها من وجهين :

أحدهما : يصح أن يسمى (مغالطة) والآخر ما يبدو أن يكون تناقضاً ، أما المغالطة فتظهر أولا فى قوله : (وليس من الطبيعى ولا من الممكن أن يفرض على الناس أن يقرءوا القرآن فى نصه العربى إذا أرادوا أن يعرفوه) وقبل أن ندخل فى الصميم نمر بملاحظة شكلية تتعلق بقول الدكتور الفاضل : (إذا أرادوا أن يعرفوه) ذلك أنهم إذا أرادوا أن يعرفوه حقاً تعين عليهم أن يطلبوه فى نصه العربى بغير شك ، فمن أراد معرفة شىء تعين عليه فى شرعه المنطق أن يطلبه بوسائله المؤدية إليه لا أن يكلف الآخرين بتقديمه إليه ، وكما كان الدكتور مريداً للمعرفة الأوربية والآثار الأوربية يوماً ، فتعلم من أجل ذلك بعض لغاتها ، فكل من أراد علم شىء فعليه أن يتخذ إليه سبيله ولعل التعبير الدقيق الذى فات الدكتور هو أن يقول : (إذا أردنا أن نعرفهم به) فهذا هو التغيير الصحيح الذى يتسق مع اتجاه تفكير الدكتور فى هذا الاستدلال . يجترح الدكتور مغالطة كبيرة حين يزعم أننا نفرض على الناس أن يقرءوا القرآن ، فمن الذى فرض هذا من فقهاء المسلمين وعلمائهم أو حتى من عامتهم . إن علماء المسلمين لم يفرضوا قراءة كل القرآن على أحد من المسلمين عرباً وغير عرب فضلا عن غير المسلمين ولم يفرضوا على المسلمين الناطقين بالعربية بعضاً من القرآن إلا ما تيسر لأداء الصلوات وهو مقدار ضئيل جداً .

ثانيهما : من وجه المغالطة ذهابه هو وأصحاب الرأى الأول إلى أن نقل معانى القرآن غير ترجمة القرآن وهذا إبهام وتلبيس وهم بهذا الإبهام والتلبيس يتحاشون مصادمة الأدلة التى تمنع جواز الترجمة وترد القول بها على أصحابه . والحق أن ترجمة القرآن ونقل معانى القرآن شىء واحد ، لأن البيان فى أى لغة ألفاظ ومعان ، تقع تحت الألفاظ ولا يمكن ترجمة الألفاظ – أى نقلها إلى لغة أخرى – إلا بنقل ذواتها وأعيانها ، وإذن فلا ترجمة ولا نقل فى الألفاظ . فانحصر وقوع اسم الترجمة والنقل على المعانى خاصة إذا كانت هى وحدها التى يمكن نقلها من اللغة المنقول عنها ، وإلباسها ألفاظ جديدة

من اللغة التى نقلت إليها ، فالقول : بأن ترجمة القرآن غير نقل معانى القرآن تلبيس وعبث لا يثقل فى يد الحق موازينه . أما التناقض فى قول الدكتور بعد ذلك كنتيجة لمقدماته التى استبان فسادها : (فلا أقل من أن نفسر لهم — للناس — القرآن بنقل معانيه إلى لغاتهم) وكأنما يخاطب الدكتور بهذه العبارة قوماً لم يقرءوا العلم أصلا ، فانظر أنه يقول : نفسر القرآن ، ثم يقول : بنقل معانيه ، فهذا هو مكان التناقض فامسك به ذلك أن التفسير فى الكلام المركب يفيض شيئاً من الزيادة على الأصل وإلا لم يكن تفسيراً ونقل المعنى يقتضى عدم الزيادة على الأصل أبداً وإلا لم يكن نقلا ، بل كان تحريفاً وتزيداً ، فإذا قال الدكتور طه : إن التفسير يكون بالنقل فكأنه قال صراحة : إن التفسير يكون زائداً على الأصل وغير زائد عليه فى وقت واحد وهذا هو التناقض الذى أطبقت العقول على القول به ولعل الذى أوقع الدكتور فى هذا التناقض الغريب هو اندفاعه فى طريق المغالطة إلى آخر الشوط ، فلما علم أن بعض العلماء يبيح ترجمة تفسير القرآن فأراد أن يوهم عليهم بأن الترجمة التى يعنيها أو نقل المعانى الذى يبغيه إنما هو من قبيل ترجمة التفسير تجنباً لمخالفتهم وابتعاداً عن الوقوف أمامهم . إنه يستهدف غرضاً فلماذا لا يحاوله من كل السبل تناقضاً ومغالطة أو أى شىء .

أما بعد : فقد كشف النقاب عن سر المسألة فما رأى الدكتور طه وأصحابه فى حقيقة الوحى وفى أى صف يقفون ؟

وكان فى مقابل ذلك صمت طويل للدكتور طه ، فقد عرف أنه فشل .

ويعاود الدكتور محمد سعاد جلال فى بحث آخر فى ١٦ أغسطس عام ١٩٥٥ قضية الوحى على النحو الذى أشار إليه (نولدكه) وهو غير الوحى الإلهى الذى عرفه النبى صلى الله عليه وسلم ويقول فإذا ذهبت إلى أن الوحى المحمدى إنما هو وحى إلهى : **(نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين)** كما هو معتقد المسلمين فى كل عصور التاريخ وفى كل مكان فى الأرض فهيهات ثم هيهات أن يتفق منطق هذا الرأى مع إمكان ترجمة القرآن أو نقل معانيه إلى لغة أخرى .

هذا هو السؤال الذى أوردناه على الدكتور طه حسين لما رفع رأسه بفكرة الترجمة من أكتوبر عام ١٩٥٤ إلى اليوم ونقدمه الآن مرة أخرى إلى الدكتور أحمد زكى الذى كان قد بدأ حلقات فى هذا الصدد ، وكان الرد هو الصمت المطلق وهذه هى عادة الدكتور طه حسين إذا ألجم بالحجة وفى كثير من المواقف .

• • •

الفصل الثانى

السيرة

إن موقف الدكتور طه حسين من سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، لايخرج عن نطاقه معتقده الذى كونه وسار على أساسه فى عرض الأدب والتاريخ والقرآن والإسلام ، وهو موقف يستمده من كراهية حقيقته للإسلام ، وإذا ذهبنا إلى أول نص كتبه عن الرسول صلى الله عليه وسلم لوجدنا ذلك النص الذى أورده فى كتابه الشعر الجاهلى وأعاده فى كتابه الأدب الجاهلى ص١٤٦ : وهو قوله .

(لأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب) .

وليس بعد هذا النص شىء يمكن أن يدل على عقيدة طه حسين ووجهته وغايته من كتابه السيرة التى طلع بها على المسلمين بعد أن انتقل إلى معسكر الوفد ، حيث أصبح فى حماية الحزب الشعبى الضخم ، وقد استظل بظلاله وكسب ثقة قادته فأصبح يستطيع أن يواجه خصومه بعبارة واحدة هى أنهم يهاجمون فى الهجوم عليه : الوطنية المصرية .

ولما كان طه حسين من بين العمل المكلف به تدمير التراث الإسلامى بنقده وتزييفه والتشكيك فيه ، فلقد كان عليه أن يخطو خطوة أخرى بعد ذلك أكثر جرأة وهى كتابة التراث الإسلامى من جديد وهو مافعله عندما كتب هامش السيرة ثم الفتنة الكبرى والشيخان وغيرهما .

فقد جمع كل السموم والشبهات التى أثارها الاستشراق فى مختلف كتبه وفى دائرة المعارف الإسلامية وأدخلها فى دراساته عن النبى وأبى بكر وعمر وعثمان وغيرهم .

ومن هنا فإن قول الباحثين بأن (على هامش السيرة) هو نتيجة تجربة (الشعر الجاهلى) وامتداد له قول صحيح ، هو نتيجة التجربة من حيث النأى عن المصادمة والتماس طريق المراوغة والمكر فى عرض السموم ، ومن ناحية أخرى فى إفساد السيرة نفسها بعد أن نقاها مؤرخو الإسلام من الشبهات والأساطير فقد جاء طه حسين يعيدها إليها بل ويتزيد من عنده حيث أعلن أنه وسع على نفسه فى القصص ، وما كتبه فى مقدمة (على هامش السيرة) يحاول به أن يثير فى نفوس الناس الشك فى سلامة السيرة وأنها أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق وأنها ليست من العلم والتاريخ ، مع أن القرآن الكريم هو مصدر أساسى من مصادر السيرة حتى يمكن القول بأن (على هامش السيرة) يمكن أن يسمى (على هامش الشعر الجاهلى) .

ولقد عنى بالبحث فى هذا الموضوع كاتبان جليلان هما : غازى التوبه فى كتابه عن الفكر الإسلامى المعاصر ومحمد النايف فى مقالاته المستفيضة عن السيرة التى نشرها فى مجلة المجتمع الكويتية سنوات (١٣٩٤ و ١٣٩٥) .

وقد كسب الدكتور طه حسين من كتاب (على هامش السيرة) كثيراً فقد استعاد الثقة فى نفوس بعض البسطاء الذين كانوا قد اتهموه بعد صدور كتاب (الشعر الجاهلى) بالمروق من الدين . ولكنه كان خبيثاً ماكراً فقد استطاع بهذا العرض الموسيقى الجميل خداع الكثيرين حين أدخل عليهم كثيراً من الشبهات مع أن كتبه الإسلامية كلها تحمل السخرية الواسعة العميقة بكل مفاهيم الإسلام.

(٢)

على هامش السيرة

إن فكرة عرض كتب طه حسين والكشف عن السموم التى حشدها للنيل من الإسلام — تحت ستار براق من أسلوب زخرفى خادع ، خدع به عميد الأدب الكثيرين من شباب الإسلام الذين لا يعرفون أبعاد حركة التغريب والغزو الثقافى — إن هذه الفكرة يجب تحقيقها بلا إبطاء .

والذين يظنون أن ترديد أسماء (النبى) صلى الله عليه وسلم والصحابة ، وعرض هذه الصفحات ، إنما هو عمل على طريق الدعوة الإسلامية مخدوعون ؛

بل أن عدداً كبيراً من كبار المثقفين فى المشرق والمغرب ، قد خدعتهم تراتيل هامش السيرة .

ولما كان قد جاء بعد مرحلة طويلة من كتابات وصفت بأنها خصيمة للإسلام ، كما جاء فى (الشعر والأدب الجاهلى) و (حديث الأربعاء) وأحاديث عن الدين والعلم، نشرت فى الصحف فقد صفق كثير من الناس وقالوا : لقد عاد الدكتور طه حسين مرة أخرى إلى حظيرة الدين .

ولم تكن هذه هى الحقيقة . وإنما الحقيقة غير ذلك . عكس ذلك تماماً تحت ستار المراوغة .

لقد أحس الذين كانوا من وراء طه حسين ، أنه فى اندفاعه نحو إغاظة الجماهير ، قد بلغ مرتبة أصبح منها موضع احتقار الهيئات الأدبية والثقافية ، ولما كانوا يعدونه ليتسنم أعلى المناصب لتحقيق أغراضهم فى السيطرة على التربية والتعليم والثقافة كما حدث بعد ، لذلك فقد أوحى إليه بأمرين :

الأول : ترك أحزاب الأقليات والاندماج فى الحزب الشعبى الكبير (الوفد) فإن ذلك يعطيه مكانة وقوة :

الثانى : التأليف فى السيرة لإرضاء السذج والبسطاء .

وقد بدأ نشر هذه المقالات فى هالة كبرى فى الأعداد الأولى لمجلة الرسالة ، التى أصدرها الأستاذ أحمد حسن الزيات عام ١٩٣٣ فكان لذلك ضجة وأثر .

ولكن حقيقة الهدف وخفايا القصد لم تعرف إلا بعد أن صدر الجزء الأول ، وقد تصدى له المراقبون فكشفوا حقيقة الموقف ، وقد تبين ما يأتى :

أولا : وضع الكتاب على نمط كتاب غربى كتبه (الفريد أورشيم) الأستاذ بجامعة أكسفورد تحت عنوان : (على هامش سيرة المسيح) ، (ذكر ذلك الأستاذ عبد الله كنون فى كتابه : التعاشيب) .

وأشار دكتور محمد برادة إلى أن طه حسين كتبه تقليداً لكتاب (على هامش الكتب القديمة) لجيل لومتير .

يقول الدكتور طه حسين فى كتاب (الإسلام والغرب) الصادر عام ١٩٤٦ فى باريس : ويتحتم أن نعترف بأن كتابين فرنسيين كانا بمثابة الشرارتين

اللتين أشعلتا موقدين مختلفين ، أحد الكتابين لجيل لومتير وعنوانه : (على هامش الكتب القديمة) والثانى : (حياة محمد) لإميل در منجم .

أما كتاب جيل لومتير فإنى بعد أن شغفت به كثيراً . وضعت فى نفسى الأسئلة الآتية :

هل يمكن إعادة كتابة مآثر الفترة البطولية فى تاريخ الإسلام فى أسلوب جديد ، أم أنه يتعذر ذلك . وهل تصلح اللغة العربية لإحياء هذه المآثر ؟

لقد حاولت أن أقص (بعض الأساطير) المتصلة بالفترة التى سبقت ظهور النبى – صلى الله عليه وسلم – ثم قصصت مولده وطفولته ، ونشرت هذه السلسلة تحت عنوان مقتبس من جيل لومتر وهو (على هامش السيرة)

وهذا الكتاب من عمل المخيلة . . اعتمدت فيه على جوهر بعض الأساطير ثم أعطيت نفسى حرية كبيرة فى أن أشرح الأحداث واختراع الإطار الذى يتحدث عن قرب إلى العقول الحديثة ، مع الاحتفاظ بالطابع القديم) .

وقد كان الدكتور يتحدث بهذا إلى المستشرقين فى أول مؤتمر للحوار بين المسيحية والإسلام ، ويعد كتابه هذا خطوة فى هذا السبيل ، من حيث دمج الأديان كلها فى كتاب واحد وفى اختراع أخطر بدعة من إحياء الأساطير فى الأدب العربى .

هذا ما كشف عنه طه حسين بعد سنوات طويلة من ظهور (على هامش السيرة) فماذا كان موقف الباحثين منه ؟

يقول صديقه ورفيق دربه ، الدكتور محمد حسين هيكل : أستميح الدكتور طه حسين العذر إن خالفته فى اتخاذ النبى – صلى الله عليه وسلم – وعصره مادة لأدب الأسطورة .

ثم أشار إلى ما يتصل بسيرة النبى – صلى الله عليه وسلم – ساعة مولده وما روى عما حدث له من إسرائيليات روجت بعد النبى – صلى الله عليه وسلم – ثم قال :

(لهذا وما إليه يجب فى رأيى أن لا تتخذ حياة النبى – صلى الله عليه وسلم – مادة الأدب الأسطورى ، وإنما يتخذ من التاريخ وأقاصيصه مادة لهذا الأدب ،

وما اندثر أو ما هو فى حكم المندثر ، وما لا يترك صدقه أو كذبه فى حياة النفوس والعقائد أثراً ما .

والنبى – صلى الله عليه وسلم – وسيرته وعصره تتصل بحياة ملايين المسلمين جميعاً بل هى فلذة من هذه الحياة ، ومن أعز فلذاتها عليها وأكبرها أثراً ، واعلم أن هذه الإسرائيليات قد أريد بها إقامة (مثيولوجية إسلامية) لإفساد العقول والقلوب من سواد الشعب ، ولتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه ، صلى الله عليه وسلم ، وقد كانت هذه غاية الأساطير التى وضعت عن الأديان الأخرى ، من أجل ذلك ارتفعت صيحة المصلحين الدينيين فى جميع العصور لتطهير العقائد من هذه الأوهام) .

ثم قال هيكل : (من أجل ذلك أود أن يفصل الدكتور طه حسين فيما قد يكتب من بعد من فصول تجرى مجرى (على هامش السيرة) بين ما يتصل بالعقائد وما لا يتصل بها) .

ولا ريب أن كلام الدكتور محمد حسين هيكل هذا هو اتهام صريح للدكتور طه حسين فى اتجاهه وتحميل له لمسئولية من أخطر المسئوليات . وهى : إعادة إضافة الأساطير التى حرر المفكرون المسلمون سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – منها طوال العصور ، إعادتها مرة أخرى لخلق جو معين يؤدى إلى إفساد العقول فى سواد الشعب ، وتشكيك المستنيرين ودفع الريبة إلى نفوسهم فى شأن الإسلام ونبيه – صلى الله عليه وسلم –

وهذا الذى كشفه هيكل ما زال كثيرون يجهلونه ، وما زال المتابعون لحياة طه حسين وتحولاته ، يرون أن هذا أخطر تحول له ، وأن هذا التحول جاء بعد أن انضم إلى حزب الوفد وأمن الهجوم عليه ، وخدع الناس بأسلوبه ، وطارت الدعوات تقول : إن طه حسين عاد إلى الإسلام وأنه يكتب حياة الرسول عليه الصلاة والسلام .

ولم يكن هذا صحيحاً على الإطلاق ، ولكنه كان تحولا خطيراً وفق أسلوب جديد ، لضرب الإسلام فى أعز فلذات حياته وهى سيرة الرسول الأمين – صلى الله عليه وسلم – ولقد دمغه هيكل حين قال : لقد تحول طه الرجل الذى لا يخضع لغير محكمة النقد والعقل ، إلى رجل كلف بالأساطير يعمل على

إحيائها ، وأن هذا ليثير كثيراً من التساؤل ، إذ أن طه حسين ــ وقد فشل فى تثبيت أغراضه عن طريق العقل والبحث العلمى ــ لجأ إلى الأساطير ينمقها ويقدمها للشعب إظهاراً لما فيها من أوهام فى الظاهر تفتن الناس ..) .

ولقد كان هذا مصدراً لما أورده الأستاذ محمد النايف فى كتاباته (دراسات عن السيرة) حيث قال : (على هامش السيرة) هو فى حقيقته (على هامش الشعر الجاهلى) ومتمم له ، فهو على طريق تطاوله على الإسلام ولكن مع المراوغة والمداهنة .

وقد ساء طه حسين أن يكون لليونان أساطيرهم وللرومان أساطيرهم وأن الناس يقبلون برغبة ملحة على دراسة هذه الأساطير ، ثم لا يجد الراغبون أساطير للعرب يتناقلها الناس ، من أجل هذا ألف هذا الكتاب ليكون أسطورة عربية . وقد كتب ما كتب متأثراً بجيرد . وبلوت . وموليير ، ولما كان يقلدهم فى كل شىء ، فقد أقبل على السيرة النبوية يضع منها أساطير كأساطيرهم

ولقد شهد على نفسه بالكفر حين شهد بأن السيرة النبوية أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق وليست من العلم والتاريخ .

لقد كفر لأن القرآن الكريم مصدر رئيسى من مصادر السيرة ، والسيرة وصلت إلينا من أوثق المصادر العلمية وأمتنها ، والمسلمون يدرسون سيرة فيأخذون منها عقيدتهم وعبادتهم وقدوتهم . لا يدرسونها للمتعة ولا للتسلية كما يفعل الملاحدة .

ثانياً : تحدث فى هامش السيرة عن قساوسة مصر والشام وحمير ونصارى اليمن ، وهذا شىء خطير يناقض المنهج الصحيح . كما أنه عنى عناية كبيرة بالتاريخ اليونانى والرومانى ، على نحو لا يفهم منه إلا أنه خلط بين المسائل خلطاً شديداً ، وأنه كان يرمى إلى خلط شديد بين تاريخ الإسلام وتاريخ آخر لا يتصل به ، وإنما هو حديث عن الرهبان والأحبار ، مقصود به إثارة جو من الخلط الشديد بين الإسلام المتميز بذاتيته الخاصة وبين هذه الجاهلية ، وقد اهتم بإنصاف اليهود ، وأن يقدم لهم شيئاً فى قصة مخيريق ، فهو يروى حديث الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ (مخيريق خير يهود) .

ثالثاً : فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، يأخذ بالأحاديث

الموضوعة ، وحين يأخذ أحاديث موضوعة يرد أحاديث صحيحة لأنها خالفت هواه ، ويعول كثيراً على الإسرائيليات التي جاءت في تاريخ الطبري وأكثر منها في الواقدي وأحياناً ابن إسحق (والمعروف أن روايات ابن إسحق عن أهل الكتاب وعما قبل النبوة لا يعتد بها) .

رابعاً : حشد قدراً كبيراً من الأساطير في قصة حفر زمزم على يد عبد المطلب ، وبالغ جداً في قصة ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه لم يثبت منها إلا حديث واحد ، وأخذ بالأخبار الموضوعة في قصة (زينب بنت جحش) وجسم بعض المعجزات التي حدثت للرسول صلى الله عليه وسلم عند مرضعته حليمة السعدية وأثناء سفر النبي — صلى الله عليه وسلم — في تجارة خديجة رضي الله عنها .

خامساً : خص الشياطين في كتاب هامش السيرة باهتمام بالغ متوسع في الحديث عنهم ، وصور مؤتمراً يتصدره إبليس للشياطين ورسم صورة للشيطان الذي حضر خلاف قريش على الحجر الأسود ، وكان على شكل شيخ نجدي ، وتحدث عن الشيطان الذي صادف عمرو بن هشام على هيئة شيخ أعرابي فما أن سمع عمرو صوته حتى توقف .

سادساً : أولع بتجسيم الروايات واختراع الحكايات عن ولادة النبي — صلى الله عليه وسلم — وحتى بعثته . وعمد إلى إحاطة الدعوة بالخوارق ولخص القصص المكذوبة عن مدعي النبوة في قريش .

وعلى ندرة الصفحات التي خصصها لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم جاءت هذه الصفحات مملوءة بالمغالطات والذي سلم من التحريف كان للمتعة والتسلية .

ومن أخطر مزاعمه زعمه أن النبي صلى الله عليه وسلم . قد أحب زينب وهي زوجة لزيد وهذا بهتان عظيم .

سابعاً : توغل في الحديث عن أهل نجران وتوغل في أمر اليهود وتحدث عن اليهود وصراعها مع أهل نجران . وعن راهب الإسكندرية والأديرة والنجاشي ، والحوار بين الحاكم الروماني وصديقه كاليكراتيس واندروكليس والنصرانية وآلهة اليونان والرومان القدماء .

ولا ندرى لماذا كل هذا البحث عن حاجات اليهود وتاريخهم فى السيرة وتركيز الدكتور طه حسين عليه وإبرازه .

وإذا كان طه حسين قد أشار فى المقدمة إلى أنه اهتم باختراع الأحاديث فإن الحرية التى أباحها لنفسه لم تكن إلا لهوى معين وهدف واضح ، هو أن يقدم عن طريق القصص من السموم ما عجز عن طريق النقد والكتابة الأدبية .

ثامناً : سوى بين أساطير الجاهلية وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم : يقول (فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة ، ولم تحفظ فى صورة بعينها ، وإنما قصها الرواة فى ألوان من القصص ، وكتبها المؤلفون فى صنوف من التأليف ، وقل مثل ذلك فى السيرة نفسها ، فقد ألهمت الكتاب والشعراء فى أكثر العصور الإسلامية ، وفى أكثر البلاد الإسلامية ، فصوروها صوراً مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفنى) .

ويدحض هذه الشبهة الأستاذ غازى التوبة فيقول : (كذب طه حسين فى هذا القول على التاريخ ، فلم يقصد رواة سيرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الجمال القصصى فى حديثهم عنه ، ولم يبتغوا الزينة اللفظية فى تأريخهم لدقائق حياته ، وإنما جاء الجمال القصصى والزينة اللفظية عرضاً فى مثانى الكلام ، فعملهم فى سيرة نبيهم أسمى من أن يهدفوا منه التقاصص أوالتلاعب ، وهم أوعى من أن يسفوا إلى هذا الدرك . إن مكان رسول الله عليه الصلاة والسلام من نفوسهم ونظرتهم إليه مانعان بينهم وبين هذا اللغط) .

تاسعاً : يعتذر الدكتور طه حسين لتناقض بعض أحداث السيرة مع العقل ، وعدم استقامتها مع التفكير العلمى ، ولكنه يبرر موقفه بأن هذه الأساطير ترضى ميل الناس إلى السذاجة ، وترفه عنهم حين تشق عليهم الحياة فيا لهوان السيرة عنده .

ويقول : (وأنا أعلم أن قوماً سيضيقون بهذا الكتاب لأنهم محدثون يكبرون العقل ولا يثقون إلا به ، ولا يطمئنون إلا إليه وهم لذلك يضيقون بكثير من الأخبار والأحاديث التى لا يسيغها العقل ولا يرضاها) .

ويقول غازى التوبة : (إن طه حسين ينصب نفسه إماماً للأساطير اليونانية ويضع السيرة فى مصاف الالياذة ويطلب من المؤلفين والكتاب

أن يفتتنوا فى الحديث عنها افتتان أوربا بأساطير اليونان ، كى يرضوا ميول الناس إلى السذاجة ، ويمتعوا عواطفهم وأخيلتهم ، ولكن هل يتساوى الأثران فى المجتمعين (الالياذة فى المجتمع اليونانى ، والسيرة فى المجتمع الإسلامى) وهل كانت السيرة يوماً ما فى التاريخ موضوعاً لتسلية قصصية أو مباراة لفظية ؟) .

ليس من شك فى أن تناول السيرة بقصد الترفيه عن النفس وإرضاء ميل الإنسان إلى السذاجة وتنمية بعض عواطف الخير ليس من شك أنها سابقة خطيرة لا يحسد عليها طه حسين لأن من كتبوا — دوماً وكثيراً — فى سيرة نبيهم صلوات الله وسلامه عليه، ومحصوا أحاديثها وميزوا دقائقها وبوبوا تفاصيلها ، كان نظرهم خلال ذلك كله وبعده يرمق فى محمد — صلى الله عليه وسلم — مثلا أعلى للإنسانية ويلتذ فى ذلك ويشم الصفات العبقة .

عاشراً : لم يكن الدكتور محمد حسين هيكل وحده هو الذى كشف خطة طه حسين المدمرة ، ولكن هناك كثيرون فى مقدمتهم الأستاذ مصطفى صادق الرافعى ، الذى وصف كتاب على هامش السيرة بأنه تهكم صريح .

وفى الجزائر نشرت مجلة الشباب الجزائرية (ذى القعدة عام ١٣٥٢ هـ — ١٩٣٤ م) تحت عنوان (دسائس طه حسين)قالت : ألف طه حسين كتاباً أسماه (على هامش السيرة)، يعنى السيرة النبوية الطاهرة، فملأه من الأساطير اليونانية الوثنية وكتب ما كتب فى السيرة الكريمة على منوالها ، فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة وأساطير الخيال ، حتى يخيل للقارىء أن سيرة النبى — صلى الله عليه وسلم — ما هى إلا أسطورة من الأساطير ، وفى هذا من الدس والبهت ما فيه .

ومن العجب أن قام كاتب فى مجلة الرسالة يطرى هذا الكتاب يقول : فالدكتور طه حسين الذى كان يقول فى الإسلام ما شاء ولا يبالى بالمسلمين ، أصبح اليوم وبعد ما خرج من الجامعة يحسب للمسلمين حساباً ، فلا يكتب إلا ويقول أنه مسلم وأنه يعظم الإسلام . ولكن ما انطوى عليه صدره يأبى إلا الظهور ، كما بدأ جلياً فى كتابه الأخير .

وقال زكى مبارك فى البلاغ (يناير عام ١٩٣٤) : (وأنا أوصى قرائى

أن يقرأوا هذا الكتاب (على هامش السيرة) بروية فإن فيه نواحي مستورة من حرية العقل ، عرف الدكتور كيف يكتمها على الناس ، بعد أن راضته الأيام على إيثار الرمز على التأليف (يقصد بعد ضربة الشعر الجاهلى ، آثر أسلوب الرمز لتغطية أهدافه) .

بل إن الدكتور هيكل فى جولة أخرى حول كتاب (على هامش السيرة) جـ ٢ ، فى ملحق السياسة الأسبوعية (٢٥/١٢/١٩٣٧) أشار إلى جملة من المعانى الخطيرة ، وإن كان قد تناولها بحذر لكى لا يغضب صديقه القديم .

أولا : أشار إلى أن طه حسين (أراد أن يمزج الثقافة العربية بالثقافة الإغريقية ، حين تحدث عن حياة الرهبان والرومان .

ثانياً : أنه لا يريد أن يقص شيئاً من أمر السيرة لذاتها ، ولا مما قد يرى أنه التاريخ الحق فيها . وهو لذلك يريد أن يبقى على هامشها .

ثالثاً : جانب الأساطير غزير واليهود لهم باع طويل فى دس الإسرائيليات على الإسلام ، وأن من رجال الأدب من يرون أن هذه الأساطير لها أثر سيء ، لأنه يسيء إلى الفكر الإسلامى الذى لا يعرف من الأساطير ما يعرفها اليهود وما يعرفها الإغريق) .

ثم لم يلبث الدكتور محمد حسين هيكل أن قال :

(الحق أننى كنت أشعر أثناء قراءتى هذا الجزء الثانى من هامش السيرة ، وكأنما أقرأ فى كتاب من كتب الأساطير اليونانية ، أو فى بعض ما كتب أناتول فرانس ومثلها فى هذه الأساطير ، وليس فصل (نادى الشياطين) بأشد إمعاناً فى أدب الأسطورة من سائر فصول الكتاب) .

طه حسين فى كتابه (على هامش السيرة) يمضى فى طريقه المرسوم بعد أن توقف ملياً أمام السهام التى ناشته بعد كتابه (فى الشعر الجاهلى) . الخطة واحدة وإن اختلف الأسلوب ، الغرض واحد ، وقد أمعن فيه تحت ستار خداع كلمات براقة وقد انكشفت الخطة من الجزائر إلى أقصى المشرق ، ولكن هل

---

(١) قصص أسطورى يحرك العواطف وإن لم يكن له أصل من الصحة (المجلة) .

توقف طه حسين ، لقد أوغل فى دراسات تاريخ الإسلام يثير السموم فى (الفتنة الكبرى) وفى (الشيخان) وفى غيرهما .

خلاصة البحث أن التبعية واضحة فى كتابات طه حسين الإسلامية ، للمناهج الغربية التى تود إخراجنا من الأصالة ، والاستسلام الواضح للفكر الوثنى بصفة عامة ، واليهودى بإسرائيلياته بصفة خاصة ، بل يكاد يكون الدكتور طه حسين فى مختلف كتبه الإسلامية محيياً لمفهوم الإسرائيليات ، ووجهة نظر اليهود ولذلك الباب تفصيل كبير سنفرد له فصلا خاصاً .

(٣)

الشيخان ومرآة الإسلام والوعد الحق

١ – قصص أسطورى يحرك العواطف وإن لم يكن له أصل من الصحة.

يمضى الدكتور طه حسين فى كتبه هذه على نفس النمط الذى سار عليه فى كتاب الفتنة الكبرى ، وهى مجموعة أحقاد ووصايا تبشيرية واستشراقية موجهة ومدروسة ، يضعها فى قلب هذه الدراسات لإثارة الشكوك حول تاريخ الإسلام والخلافة وصحابة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد مهد لكتاب (الشيخان) بمقدمة خطيرة أعلن فيها مذهب الشك الفلسفى بوضوح .

فقد أعلن أنه يشك (أعظم الشك) فيما روى عن هذه الأحداث التى تناقلتها الكتب عن حياة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، وهما الشيخان حيث يقول :

(وأنا بعد ذلك أشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث ، وأكاد أقطع بأن ما كتب القدماء من تاريخ هذين الإمامين العظيمين ، وعن تاريخ العصر القصير الذى وليا فيه أمور المسلمين ، أشبه بالقصص منه بتسجيل حقائق الأحداث التى كانت فى أيامها .

وإن كان من الحق أن النبى صلى الله عليه وسلم نفسه قد كذب الناس عليه ، وكان كثير من هذا الكذب مصدره الإكبار والتقديس ، فلا غرابة

فى أن يكون إكبار صاحبيه العظيمين وتقديسهما مصدراً من مصادر الكذب عليهما أيضاً) .

ويذهب إلى أبعد من ذلك حين يقول : (إن الذين رووا التاريخ الإسلامى هم المنتصرون وحدهم بل من طريق الذين لم يشهدوا الانتصار بأنفسهم ، وإنما نقلت إليهم أنباؤه نقلا ، أقل ما يمكن أن يوصف به أنه لم يكن نقلا دقيقاً ، وهم لم يسمعوا أنباء هذا الانتصار من المنهزمين من قريش وروم وأمم أخرى شاركتهم فى الحرب وشاركتهم فى الهزيمة ، فهم سمعوا صوتاً واحداً ، هو الصوت العربى ، وأيسر ما يجب على المؤرخ المحقق أن يسمع أو يقرأ ما تحدث به أو كتبه المنهزمون والمنتصرون معاً) .

١ ـ تطوع للدفاع عن الروم :

وهكذا تطوع الدكتور طه حسين (كما يقول الأستاذ محمد النايف فى بحثه المستفيض عن السيرة) للدفاع عن المنهزمين من علوج الرومان ، ليكون لسان حاله مطعوناً بعدالته ، محكوم عليه بالكذب ، لا يعرف طعم الأمانة ، ويأبى الطريق الذى يوصله إلى الحقيقة .

ومن المقدمة وحدها نعلم أن طه حسين اتخذ من الشيخين رضى الله عنهما تقية وستاراً ، ليعبث فى تاريخ أمتنا الإسلامية ويطعن بالرواة الثقاة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين وتابعى التابعين وينكر أحاديث متفقاً على صحتها .

ويمضى طه حسين فى كتابه على غرار ما ذهب إليه فى المقدمة مشككاً بالرواية والراوى ويتكرر هذا الأسلوب فى كل حادثة من الحوادث .

٢ ـ الطعن فى حادث السقيفة :

يقول : (ولست أطمئن إلى أكثر ما يرويه الرواة من نصوص الحوار الذى كان بين أبى بكر وصاحبيه من جهة ، وبين الأنصار (أوسهم وخزرجهم) من جهة أخرى) .

٢ ـ الطعن فى الحديث الذى روى عن العباس وعلى رضى الله عنهما ،

من أن العباس عرف الموت فى وجه النبى — صلى الله عليه وسلم — والغريب أن الطبرى يروى هذا الحديث من طريقين دون أن ينكر منه شيئاً .

هذا الحديث رواه أيضاً البخارى فى كتاب المغازى فى صحيحه ، ونقله ابن كثير فى البداية والنهاية ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده ، ولعل طه حسين يعلم رواة هذا الحديث ولكنه أراد التشكيك .

٣ — تشكيكه فى استسقاء عمر بالعباس — رضى الله عنهما — مع أن الحديث رواه البخارى فى صحيحه عن أنس : أن عمر خرج يستسقى وخرج بالعباس يستسقى به . ورواه ابن كثير فى البداية والنهاية ، وشيخ الإسلام ابن تيمية فى رسالة التوسل والوسيلة .

٤ — تشكيكه فى أن يكون عمر قد راجع أبا بكر — رضى الله عنهما — معترضاً على حرب المرتدين ، مع أن مراجعة عمر لأبى بكر صحيحة رواها الجماعة فى كتبهم ، سوى ابن ماجه ، أى رواها البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى .

وفى جميع هذه الحوادث التى ينكرها الدكتور طه حسين لا يعتمد على سند علمى صحيح ، وإنما على عقله الذى وصفه فى بعض المواضع بالتناقض والضعف والاضطراب .

٣ — محاولة لنسف التاريخ :

ولأن طه حسين يعلم أن التشكيك برواة التاريخ الإسلامى الأعلام العدول ، محاولة لنسف التاريخ من أصله ، لأجل هذا فهو يناصبهم العداء ويصدر أى خبر لهم بقوله (ويزعم الرواة) وكلمة يزعم تقال للخبر المشكوك فيه .

وأخيراً يستخدم العصبية الجاهلية ، فإن أكثرهم موالى يكرهون العرب حسب زعمه دون أن يذكر أسماءهم . ومعظم الرواة من غير العرب وفى مقدمتهم ناصر السنة الإمام البخارى .

بل إنه يضم هؤلاء الرواة بأن قلوبهم لم تبرأ من الضغن على العرب لأنهم فتحوا بلادهم .

ونحن نعلم أن الله تبارك وتعالى قد طهر قلوب هؤلاء العلماء الأبرار الذين

صاغهم الإسلام فى بوتقته . وأخرجهم من هذه العصبية وهذه العنصرية التى لم يعرفها المسلمون ، إلا حين أيقظها الشعوبيون بعد ذلك .

٤ – ولوغه فى أعراض الصحابة :

وقد شارك طه حسين كثيراً من المستشرقين المتعصبين فى تجريح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلمز أبا هريرة رضى الله عنه ، وسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه . وتحامل على معاوية رضى الله عنه ، وأوغل فى عرض سيف الله خالدبن الوليد، ووجد فى القصص التى اختلقهاالوضاعون من أعداء الله عبر التاريخ الإسلامى ذريعة للطعن بأعظم قائد عرفته المعارك بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويذكر قتل خالد لمالك بن نويرة ، واستدعاء أبى بكر – رضى الله عنه – له . ثم يعقب بأن : هذه الواقعة تبين ما أسماه (عنف خالد وإسرافه فى القتل) وأنها تظهر عن خلق آخر ، هو حبه للتزوج ، وخلق آخر معروف فى عشيرته من بنى مخزوم ، وهو العجب والخيلاء .

وما زال يتطاول على سيف الله خالد رضى الله عنه حتى جاء بأسطورة لم يشهدها تاريخ الفتوحات الإسلامية ، وقد ترفع المستشرقون عن نقلها : وهى ادعاءه أن خالداً قد أجرى ماء النهر بدمائهم ، وقد أثبت الدكتور طه حسين هذه الرواية التى لا سند لها ، بينما أنكر الروايات الموثقة التى رواها البخارى رضى الله عنه .

وهو يهدف من ذلك إلى تصوير الفتوحات الإسلامية وقواد المسلمين بالهمجية ، ولم يثبت سائر الروايات التى اعتذر فيها عمر رضى الله عنه عن عزل خالد (راجع محمد النايف) و (غازى التوبة) .

ثانياً : ولم يتوقف انتقاد طه حسين للشيخين فى كتابه هذا وحده ، ولكنه تعداه إلى كتبه الأخرى ، فقد وصف عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – فى غير موضع بالبطش ، وقال أنه لم يمت حتى ملته قريش .

وانتقد أبا بكر – رضى الله عنه – فى أنه حصر الخلافة فى قريش وعمر كان يعارضه فى ذلك ؟

ثالثاً : افترى الدكتور طه حسين على الصحابة وسبهم واحداً واحداً وصنع لهم مثالب ووصفهم بالنفاق ، وهدفه من ذلك إزالة الكرامة عن الصحابة – رضوان الله عليهم – وجعلهم فى صف السياسيين المحترفين فى هذا العصر : ومن ذلك وصفه عمرو بن العاص – رضى الله عنه – بأنه ماكر أهل الشام ، ووصف الأشعث بن قيس ، بأنه ماكر أهل العراق ، ولا ريب أن الطعن على الصحابة – رضوان الله عليهم – يرمى إلى زلزلة الثقة بأهل الثقة .

٥ – الجرأة على القرآن والسنة :

وهو فى كل ذلك جرىء – إن صح التعبير – على القرآن والسنة والحديث ضعيف المصادر منتحل من كتب الأدب ، وعندما تقرر كتاب « الشيخان » فى المعاهد المصرية ، كتب الغيورون يطلبون إلغاء تقريره ، وفى مقدمتهم الأستاذ عبد الحفيظ القرنى الذى قال ، إن هذا الكتاب عرض هذين الخليفتين العظيمين لموجة من الشك الذى حشى به كتابه ، فترك الشباب فى قلق وحيرة لا يدرى أين يضع قدمه بين تلك الأمواج المتدفقة من عباراته ، مثل : أنا أشك ، زعموا ، يزعمون ، أنا غير واثق ، إلى غير ذلك مما يفتح الطريق واسعاً للتخبط والشك والضياع .

وكان الأستاذ محمد عمر توفيق ، قد ألف كتاباً عنوانه (الشيخان) رداً على كتاب طه حسين – فى إبان حياته – وقال :

إن طه حسين تجافى منهج أهل الحديث فى اعتماده على أحاديث مشكوك فيها ، لإثارة الشبهات عامداً ، وقال : إن أسلوبه الخلاب خطير ، لأنه يخفى وجه الحق فلا يتنبه قراء كتابه فيضلون ، وإن الناس قد تخفى عليهم وجوه الخطأ والصواب فى كتاب مثله ، وقد يغريهم اسم المؤلف بتصديق كل ما يقول ، وأن طه حسين خدع قراءه فى أول كتابه بإظهار حبه للشيخين ، وشعوره بالتقصير فى حقهما ، لأنه لم يشارك فى الحديث عنهما من قبل .

وقال المؤلف : أن طه حسين قد شكك فى القدماء والروايات الإسلامية القديمة ، ولكن لم يتجاوزها إلى المستشرقين – الذين هم عنده موضع الإجلال – دون أن يكون لديه ميزان دقيق فى هذه الأحكام الجائرة .

ويعرض الأستاذ عبد العظيم الديب لنص مسموم من كتاب طه حسين :

(الشيخان) يقول : (وكان حظ الكوفة من سواد العراق ومما فتح من أرض الفرس أعظم من حظ البصرة ، وكان أهل البصرة يطمعون فى أن يوسعوا رقعتهم ويكثروا من الفتوح ، لتتاح لهم من الغنائم وسعة الفىء ، إلى ما كانوا يؤمنون به من فضل الجهاد والغزو فى سبيل الله .

حتى قال الأحنف بن قيس ذات يوم لعمر رضى الله عنهما :

إن عيشنا أضيق من عيش إخواننا بالكوفة ، وأنا لن نأمن الفرس ، وما زال الإلحاح حتى أذن عمر ، فاندفع أهل البصرة حتى بلغوا من الفتح ما أرادوا .

وهكذا يروى الخبر بصيغة الجزم والقطع (حتى قال الأحنف بن قيس) ولا يكلف نفسه أن يأتى بصيغة تخفف من هذا التأكيد مثل (روى) ونحوها ثم انظر قوله (أهل البصرة يطمعون فى أن يوسعوا رقعتهم ويكثروا من الفتوح ليتاح لهم من الغنائم وسعة الفىء) وانظر (أن عيشنا أضيق من عيش إخواننا بالكوفة) .

هذا الفهم وهذا التفسير لا يكون إلا من نقص الإدراك ، وبالتالى من نقص الاستجابة للأحداث ، ولو كان لدى طه حسين الإدراك الكامل السليم ، لأدرك الروح التى كانت تحكم هؤلاء الأطهار ، ولعلم أن هذه الحكاية أولى بكل أدوات الشك التى بعثرها فى كتابه ، ولأدرك أن هؤلاء هم الذين تربوا فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ووعوا قوله : (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فذلك فى سبيل الله) فما بال القتال فى سبيل الغنائم والمال الذى يبعد المجاهد عن سبيل الله .

ولو وعى — طه حسين — أبسط الحقائق النفسية ، لأدرك أن من يقاتل فى سبيل الغنائم لا يدوم له النصر ، ذلك أنه يكون معلق القلب بما خلفه وراءه من مال ، وبما يبغيه من أيدى عدوه . ومثل ذلك لا يدوم له نصر وإن كسب المعركة أو أكثر .

ولعمرى إذا كان المستأذن الأحنف بن قيس أحلم العرب ، وكان الآذن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما الذى كان يكره الحرب ويتمنى أن لا يلجأ إليها ويكره عليها .

إذا كان الأمر كذلك ، فما يبقى للمسلمين والإسلام ، ولكن الدكتور عميد الأدب العربى ، المباهى دائماً بأنه ربيب الثقافة الغربية ، والمتبرك دائماً بالثقافة الإغريقية ، فاته أن يدرك وأن يستجيب لأحداث تاريخ الإسلام كما يجب أن يكون الإدراك والاستجابة .

وهكذا نجد أصولا عامة مشتركة فى كل كتب طه حسين الإسلامية :

أولا : ظلم عثمان واستنقاص الصحابة — رضوان الله عليهم — والافتراء على السيدة عائشة رضى الله عنها .

ثانياً : محاولة الغض من شأن الخلافة الإسلامية ، والقول بأن تجربتها فى أيام أبى بكر وعمر رضى الله عنهما قد انتهت إلى الفشل .

ثالثاً : متابعة المستشرقين فى شبهاتهم ، وإثارة جو من الانتقاص للسيرة والتاريخ الإسلامى .

رابعاً : تكذيب الروايات التى وردت فى صحيح البخارى وكتب السنة .

وفى كتاب الوعد الحق :

أولا : يطيل الحديث فى كتابه (الوعد الحق) عن ظلم عثمان رضى الله عنه وطغيانه ، وأنه ما زال يضرب ابن مسعود رضى الله عنه حتى كسر ضلعه ، وأشبع عمار بن ياسر رضى الله عنه ضرباً ، حتى أصابه الفتق ، وغشى عليه ، وفاتته صلوات الظهر والعصر والمغرب (ص ١٧٠) .

والرواية على هذه الصورة لا صحة لها . وأن خلاف عثمان مع ابن مسعود — رضى الله عنهما — على المصحف كان بدون ضرب والحق فى ذلك مع عثمان رضى الله عنه . وخلاف عمار مع عثمان رضى الله عنهما لم يتجاوز العتاب ، كما يقول ابن عساكر فى تاريخه .

ثانياً : يؤمن بأن بنى أمية فى عهد عثمان حكموا حكماً جاهلياً بعيداً عن الإسلام ، وأن عثمان رضى الله عنه نكث عن بيعته لعبد الرحمن بن عوف ، وانحرف عن طريق صاحبيه .

وفى كتاب مرآة الإسلام :

يمضى طه حسين فى كتابه حتى الربع الأخير فيه ، دون أن يثير شبهة ، ثم تبدأ الشبهات وتتوالى ، وهذا أسلوب ماكر من أساليب الاستشراق ، وفى هذه الصفحات الأخيرة تتوالى عباراته الجارحة للصحابة رضوان الله عليهم وتكذيب الأحاديث الصحاح .

ويركز طه حسين فى هذا الكتاب على خصوم الإسلام الذين تآمروا عليه من أمثال الزنادقة فى عهد المهدى ، والحلاج ، فيدافع عنهم ويهاجم الخليفة المهدى فى صنيعه بالزنادقة . ويصف قتل الحلاج بالغلو . ويحاول أن يعمم هذا فيتحدث عن ابن رشد وابن حزم . ويزكى المعتزلة القائلين بخلق القرآن .

وقد تجاهل طه حسين أن الحلاج اتخذ بيتاً ليطوف الناس به ، بدلا من أن يذهبوا إلى البيت الحرام فى مكة ، وأنه كان من دعاة الحلول — حلول الله ، تعالى عن ذلك — فى البشر .

بل أنه يدافع عن قتلة عثمان رضى الله عنه ، ويرى أن الذين ثاروا عليه لم يكونوا مخطئين ، وبذلك يضع نفسه فى صف رجال عبد الله ابن سبأ الذى شكك فيه فى كتاب الفتنة الكبرى .

إعجاب طه حسين بثورات التخريب :

بل أنه يذهب إلى أبعد من ذلك فى مغايظة المسلمين وتنكب الطريق الصحيح ، ويعتبر أن مؤامرة القرامطة والزنج ، ثورتان إسلاميتان تطلبان العدل والمساواة .

حاشية :

كتب الدكتور السيد الطويل عن أخطاء طه حسين فى كتاب (الشيخان) فقال: إنه كتاب يشكك فى القرآن وفى صحة آياته :

أولا : فى التعليق على الآية الكريمة :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله . . . » .

قال طه حسين : وهذا يفارق الدنيا الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويختاره الله إلى جواره فلا غرابة أن يشك الصادقون فى أنه قد مات وكان النبى — صلى الله عليه وسلم — قد أظهر دين الحق =

ولا ريب أن طه حسين كما يقول محمد النايف ، لا يستطيع أن يتخلى عن عاطفته نحو الملحدين ، كالسبائة والزنادقة والحلولية والقرمطية وثورة الزنج . ويحشر المرء مع من أحب . .

* * *

—على الدين كله فى جزيرة العرب ولم يظهره فى سائر أقطار الأرض،فلا غرابة فى أن يرتد الذين يعبدون الله على حرف .

ثانياً : يقول طه حسين :

(المصحف الذى جمع فى أيام أبي بكر وعمر لم يكن مرجعاً جامعاً لعامة المسلمين ،أما المصحف الذى أريد به جمع للناس على قراءة موحدة فهو المصحف الإمام وعبارة طه حسين توحى بأن المصحفين متغايران .

ثم يقول فى مقدمة حديثه : (وأشك أعظم الشك فيما روى عن هذه الأحداث)،فهل معنى ذلك أنه يشك فى أحاديث البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم من العلماء الأجلاء ؟

(هذا ما جاء فى رسالة الأستاذ حسن بطل محمد عبد الخالق) .

الفصل الثالث

تاريخ الإسلام

بعد أن تعرض طه حسين للسيرة النبوية بكتابه (على هامش السيرة) وبها استرد بعض ثقة الناس ، الذين لم ينفذوا إلى ما فى كتبه من سخرية وسموم اقتحم المرحلة الثانية من خطته فأخذ يكتب عن الإسلام ، وانتقى أخطر ما فى ذلك التاريخ من قضية وهى قضية الخلاف الذى وقع فى آخر عهد الخليفة عثمان رضى الله عنه وأول عهد الخليفة على رضى الله عنه ، وخاض فى هذا الأمر الخطير خوضاً واضح الوجهة من خلال الخطوط التى رسمها فى (الشعر الجاهلى) وفى (هامش السيرة) وفى موقفه من الإسلام نفسه و أراد بهذا العمل أن يخدم هدفاً واضحاً كان واضحاً فى الشعر الجاهلى عندما أنكر وجود إبراهيم وإسماعيل لحساب الصهيونية العالمية ، وحين ذهب إلى أبعد من ذلك فى هامش السيرة وفى كتاباته عن الأدب حين أعلى من شأن اليهود وجعل لهم دوراً فى الأدب العربى كما جعل للفلسفة اليونانية أثراً فى الفكر الإسلامى .

وقد كانت ضرباته للتاريخ الإسلامى واضحة منذ وقف موقفه المسموم من أهل القرن الثانى الهجرى ، حين اتهم العصر بأنه عصر شك ومجون (حديث الأربعاء) وتجاهل أعلام الإسلام فى هذا العصر الذين فتحوا القلوب إلى الإيمان وأعلى من شأن عصبة المجان الذين كانوا موضع ازدراء المجتمع الإسلامى واحتقاره أمثال أبى نواس والضحاك وبشار بن برد وغيرهم .
وقد حرص طه حسين على أمرين هامين فى كتاباته عن تاريخ الإسلام :

أولا : إنكار دور عبد الله بن سبأ اليهودى فى مؤامرة قتل عثمان وما بعدها والتشكيك فيما ورد عنه فى كتب التاريخ الصحيحة

ثانياً : الطعن فى الحكومة الإسلامية التى أقامها النبى والادعاء بأن الدعوة الإسلامية لم تغير المجتمع العربى الجاهلى ، وأن هذه التجربة ماتت وسقطت على يدى أبى بكر وعمر . وليس أسوأ فى ذلك من قوله :

(إن الدولة التى أقامها النبى لم تكن دولة دينية بأضيق معنى الكلمة ولا ديمقراطية ، ولا ملكية ولا دولة تحكمها مكة ، ولكنها نظام من نوع خاص على نسق النظام السياسى القبلى بعد أن أضيف إليه العنصر الدينى بما يضمن من عناصر التهذيب والاستقامة) .

وقد هاجم طه حسين كتابه (التاريخ الإسلامى) وسخر منها ومن كتابه الصادقين فى دعوة عريضة إلى إنكار مجد القدماء من أعلام العرب والإسلام فهو يرى أن هؤلاء الكلام من أعلام الصحابة ليسوا إلا أناساً أشبه بالساسة المحترفين وهو يصورهم فى كتاباته على هذا النحو ، ويتجاهل مكانتهم الكريمة فى بناء المجتمع الإسلامى والفتوح ، وفى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما وصفهم به وما لهم من مكانة تجعلهم أصحاب جلال وخطر وكرامة إزاء الدور الذى قاموا به وما زالوا يمثلون لنا أكرم صورة من صور البطولة .

ولكن طه حسين كان يهدف إلى إنكار هذه المكانة وإشاعة روح الاستهانة بكرامة الأعلام والعظماء فى تاريخ الإسلام تحت اسم كسر هذه القيمة الأساسية فى ديننا وتاريخنا ، وهو منهج صنعه كتاب اليهود ليجعلوه أداة لاحتقار عظماء البشرية ، بينما هم لا يطيقونه على أبطالهم ولا الشخصيات المعروفة فى تاريخهم ، ولم نجد فى كتاب الغرب من طبقة على عظمائهم الذين لا يضلهم فى كفة واحدة من الصحابة والتابعين ، ولكن طه حسين كما يقول تلاميذه لا يعلمنا ألا نخدم أحداً ولا ننظر إلى الراحلين نظرة التقديز بحكم الحرية التى للآباء فى أعناق الأبناء) .

وقد وجه إليه العلامة رفيق العظم نقداً صريحاً لمقاييسه التاريخية ، وكشف له عن فساد الوجهة التى اتجه إليها فى نتائج أبحاثه منها :

الحذر من الحكم على أبى نواس ومن فى طبقته أو على شاكلته من الشعراء بأنهم كانوا مثالا صادقاً للعصر الذى عاشوا فيه وأن الرشيد والمأمون ذهبا من الشك والاستمتاع باللذائذ فى ذلك العصر ، فذهب أبى نواس وأضرابه من شعراء المجون .

وقال : إن المقدمات التى استخرجتم منها تلك النتيجة ربما ظهرت صحيحة

لأول مرة لأنها تستند إلى أشعار وأخبار مكتوبة ومنسوبة إلى ناقليها وقائليها وهم معروفون مشهورون فى التاريخ ولكن هذا وحده لا يكفى لمثل ذلك الاستنتاج ، ولا تبنى عليه أحكام سوداء فى تاريخ أبيض ناصع كتاريخ الرشيد والمأمون . ومن عاصرهما .

وكشف خطأ طه حسين فى تعجل الحكم لتلقى أخبار أبى نواس وما نقل إلينا من سفره كأخبار صحيحة لا غبار على نسبتها إليه وصدورها عنه وهذا ما لا يصح للمؤرخ الممحص السليم به والسكوت عليه .

وقال : إن الحقائق التاريخية ولا سيما فى تاريخ الإسلام تشبه الدر الملقى بين أشواك تحتاج من يريد استخراجه من تلك الأشواك إلى أناة وروية ونظر فى وجوه السلامة من أذى الأشواك .

وأشار إلى ما عاناه رواة الحديث ونقلة الأخبار النبوية فى تمحيص تلك الأخبار وتنظيفها من الشوائب : شوائب الوضع المكذوب ، ولا سيما فى أيام الفتنة الكبرى التى انقسم منها المسلمون إلى شيع سياسية كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية وإن كان فيه مساس بالدين وتشويه له .

وأشار إلى كتب القصاصين فى عصور المحنة ، وإلى أخبار نسبتها شيع العباسيين إلى خلفاء بنى أمية وأخبار نسبتها شيع آل على إلى خلفاء بنى العباس وقال إنه من المحال أن يكونوا من انحطاط الأخلاق والسيرة إلى المنزلة التى أنزلها إليهم الوضاع ، وقال إننا نقرأ أقبح من ذلك فى كتب القصاصين منسوباً إلى الخلفاء وأهل العلم والأدب .

وقال إن التنازع السياسى بين الشيع الإسلامية أدخل من روايات بعض الأحباريين من شوائب فى التاريخ الإسلامى ليست منه ، وإنما هى من موضع المتزلفين لبيوت الإمارة والملك والمتشبعين ببعض المذاهب السياسية والدينية .

وقال : إن كتب القصاصين : وضعها واضعوها لأغراض وبواعث تجارية أو سياسية أو دينية . أما الأغراض التجارية فهى الكسب والانتفاع

أما البواعث السياسية والدينية فهى منع العامة من الخوض فى سياسة الخلفاء والحكام والخوض فى أخبار الصحابة .

وقال : إن بعض الأذكياء وضعوا قصصاً تتلى فى المجتمعات وهى مثيرة للعواطف والأفكار ، وقد تناقش الرواة والقصاصون فى تدوين الأخبار ، ووضعها مفرقة تارة ومجموعة تارة فى كتب الأدب كأخبار العشاق والشعراء والبخلاء والكرام .

وقد غالى بعض الإخباريين فى إيراد أخبار المجون والتهتك والانغماس فى الشهوات مغالاة تكاد تشهد على نفسها بالغلو والتلفيق لما فيها من العبث بالأخلاق والتجرد من معنى الأدب الذى أخذ فيه الشعراء والأدباء المنسوبة إليهم) .

وهكذا كشف العلامة رفيق العظم فساد وجهة الدكتور طه حسين فى دعواه العريضة بتسمية عصر الصحابة : عصر شك ومجون ، كما أنه كشف فساد وجهته فيما سماه مذهب تقديس السلف وإسباغ الدين على التاريخ وهو مذهب دعا إليه كثير من خصوم الإسلام ، المستشرقين وتوسعوا فيه من بعد أمثال نبيه أمين فارس .

فهم يعرفون مدى قدرة التاريخ الإسلامى على العطاء وبناء الأجيال وأثره فى تكوين النفسية الإسلامية والمزاج الإسلامى والوجدان الحر الكريم المؤمن ولذلك يرغبون فى طمس هذه الوجهة حتى لا يكون التاريخ عاملاً فى بناء الأمة الإسلامية من جديد .

ولقد كشف العلامة رفيق العظم فى أدب جم فساد وجهة طه حسين وقال له فى أدب كريم إنه اعتمد على كتب القصاصين والرواة المبطلين والمفسدين الذين جمعوا الروايات الباطلة لإفساد وجه التاريخ الإسلامى النضر الكريم تحت عنوان عدم تقديس التاريخ وإبطاله وهى عبارة صهيونية دخيلة وما كان المسلمون يوماً من الأيام يقدسون التاريخ ولكنهم يرونه ضوءاً كاشفاً يتتبعون به فى بناء حياتهم فيقدرون إيجابياته ويتجنبون سلبياته .

ولقد كان من أخطر خطايا طه حسين اتهام الإسلام بأنه حجب تاريخ الجاهلية وآدبها الذى كان يمثل المعارضة ضد الإسلام .

وكان الدكتور طه قد ألقى محاضرة عن تأثير الوثنية اليهودية والنصرانية فى الشعر العربى أعلن فيها أن ما وجد من الشعر مشتملا على مبادئ الوثنية أو اليهودية أو النصرانية إنما هو مدسوس على من نسب إليهم وأنه لم يكن موجوداً فى عصرهم وأرجع هذا إلى أن الحكام المسلمين منعوا تداول كل شعر اشتمل على مبادئ هذه الديانات بما يخالف سنن الإسلام ومبادئه ومحوه جميعاً ، وقال إن أهل هذه الملل بعد سكون حركة الفتوحات واستتباب السلم وتيقظ الحركة الفكرية فى ميدان الأدب والعلم قد دفعهم تعصبهم لشعراء ملتهم السابقين إلى التقول عليهم بما لم يقولوه ونسبة أشعار إليهم لم تكن من نسيج بيانهم ولا من منتجات عقولهم . وقد كتب الأستاذ عباس فضلى (جريدة السياسة (١٣/ ١/ ١٩٢٦) يناقش الدكتور طه حسين فى هذا الادعاء بأن العرب بعد الإسلام محوا جميع الأشعار التى تشتمل على مبادئ هذه الديانات وقال إنها تهمة على جانب كبير من الخطورة ، ولا يصح السكوت عليها على أنها من مقررات العلم المسلم بها لأن الأبحاث العلمية ليست أساسها المشاعر وقيام نزعات وميول خاصة ولا بد أن تقوم على أساس اليقين الذى يطمئن إليه الباحث فى بحثه ويقتنع به كل من يدلى إليه . بهذا البحث ، فمن من ملوك المسلمين وحكامهم هو الذى أمر بوأد الشعر الوثنى واليهودى والنصرانى ومحوه ومن من أعوان هؤلاء الحكام الذى تولى ذلك بدأه بقوله : وإذا كان لحاكم أياً كان أن يمحو ما حوته بطون الكتب فكيف السبيل له أن يذهب بما وعته صدور الحفاظ من أهل هاته الملل وأن يعقل ألسنتهم عن أن ينقلوا إلى أهل ملتهم من بيئتهم ومعاشريهم ومخالطيهم وأصدقائهم . وهناك دليل آخر نسوقه وهو أن ديننا يحث على نشر العلم ويزهو نبيه بقوله « أنا مدينة العلم » يستحيل أن يعمل على دثر آثار شعراء هاته الديانات لمجرد مخالفته لمبادئه .

إنه لا يمكن التسليم بحال من الأحوال بما أراد أن يصل إليه وهو أن جميع الشعر المنسوب إلى شعراء الملل الأخرى فى الجاهلية على الأخص هو شعر

مدخول عليهم مدسوس بحكم التعصب ونعرة الانتصار لأهل الملة ، إن هذا الاتهام لا يرتكن إلى شيء من الحقيقة اليقينية وكذلك القول بتلفيق كل الموجود من شعر هؤلاء القوم مما هو منسوب إلى العصر الجاهلى أو الأموى أو العباسى هو الآخر قوم لم يقم الدليل على صحته فضلا عن مخالفته لمقتضى المعقول الذى يحرم باستحالة منع تسرب شعر هؤلاء القوم . إن واجب الذمة والأمانة التى علقها العلم فى رقاب من تصدوا لنشره قد دعا إلى أسماعنا كلمته بشأن هذه الشكوك وتبين حجته الباعثة لنا وباقى مستمعيه إلى الاطمئنان إلى أحكامه ، ولم يجب الدكتور طه حسين بل صمت وتصدى تلميذه زكى مبارك فقال كلمات عائمة قوامها « أيظن أن رجال الإسلام كانوا من التسامح بحيث يرضون أن تبث أصول هذه الديانات من جديد ، أن النبى وأصحابه لم يروا من الخير أن يبقوا على أى نزعة تخالف وجهة الإسلام فقضوا قضاء مبرماً على ما كان من شعر النصارى واليهود والمشركين » .

ولكن الأمر لم يتوقف عن هذا الحد فقد تصدى له أمير البيان الأمير شكيب أرسلان فى مقال مطول نشر فى مجلة « الزهراء » ثم مقدمة لكتاب النقد التحليلى للأدب الجاهلى الذى نشره الأستاذ محمد أحمد الغمراوى .

إن الدعوى بأن السلف فى صدر الإسلام وضعوا (سانسوراً) على الشعر الجاهلى المشرب بمبادئ الوثنية أو النصرانية أو اليهودية ، أى وضعوا حجاباً دونها ولما كانت هذه الدعوى مبنية على الافتراض والتخيل ، وأنها لا تستند إلى دليل بل الواقع يناقضها من كل الجهـات فقد تحدث كثيرون فى دحض دعوى الأستاذ العميد .

قال أحدهم : من من ملوك المسلمين وحكامهم أمر بوأد الشعر الوثنى واليهودى والنصرانى ومحوه ، ومن هم أعوان هؤلاء الحاكم الذى تولى ذلك ، وكيف كانت طريقة المحو ، وهل كتب لها النجاح فى بلاد الإسلام إلخ . ؟

والحقيقة أنه ليس لهم من جواب على هذا السؤال ، ولا حيلة لهم فى التخلف منه إلا بإيراد أدلة واهية لا تدفع شيئاً عن حقيقة حرية الرواية فى ذلك ومن كون بابها بقى مفتوحاً على مصراعيه .

ويقول الأمير شكيب أرسلان : إن عصر الصحابة لم يعرف (السانسور) ولا مراقبة الرواية ولا كم الأفواه ولا شيئاً من أوضاع ديوان التفتيش ، إن مراقبة الكتابات والروايات هى من أوضاع الهيئات الاجتماعية المتمدنة التى استبحر منها العمران وتأثل الملك وأن (السانسور) لا يتأتى مع بداوة المجتمع ولا يعقل وجوده فى الأيام التى عاش فيها النبى صلى الله عليه وسلم . فمراقبة الكتب والخطب كانت تقع فى رومية والقسطنطينية لعهد عظمة القياصرة وفى أيام سلطة البابوات ، وفى عهد ملوك فانحين كلويس الرابع عشر وقد بالغ فيها نابليون الأول ثم نابليون الثالث ، وقد وقعت فى أيام العرب فى عهد العباسيين وغيرهم من ملوك الأعاجم أو الملوك العرب الذين اتخذوا أطوار الأعاجم . أما أنها كانت فى عهد الخلفاء الراشدين وفى أيام الصحابة فمحض تحكم ومكابرة .

ومن قال إن العرب أعرق الأمم فى الحرية فغير مبالغ ، لهذا نجدهم رووا بألسنتهم وكتبوا بأقلامهم جميع مطاعن المشركين فى النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه ولم يخفوا منها قليلا ولا كثيراً ونقلوا الشبه والاعتراضات التى كانت تقع على الرسول ورهطه ، وذكروا كثيراً مما كان يسفه به بعض العرب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أن اثنين تخاصما إليه فحكم لأحدهما فقال المحكوم عليه هذا حكم لم يرد به وجه الله فقال عليه الصلاة والسلام : أوذى موسى من قبلى بأكثر من هذا وغير ذلك مما هو مستفيض فى كتب السيرة النبوية وأخبار صدر الإسلام ولم يكن عندهم حرج فى نقل تلك الأحاديث وإيرادها كما جاءت ، لأنهم كانوا على بينة من دينهم الذى دانوا به ، وكانت قلوبهم مطمئنة بالإيمان وكانت سيرة النبى صلى الله عليه وسلم معلومة عندهم بدقائقها فلم يكونوا يحتاجون إلى (السانسور) درءاً للشبهات عنها وخوفاً من أن يقضى تداول هذه الروايات إلى زعزعة عقيدة الإسلام التى لم تكن منذ جاء بها صاحبها (صلى الله عليه وسلم) إلى اليوم على شفا جرف

هاربل الإسلام مولود رزق الصحة ووثاقه التركيب منذ ولادته نعم: فى هاتيك الأيام وما بينها كانوا يرددون أهاجى بعض الشعراء للصحابة والأنصار ولبنى النجار ، وفى تلك الأيام كان يعاتب الرسول ويقال له :

ما كان ضرك لـــو عفوت فربما من الفتى وهـــو المغيظ المحنق

وفى أيام السلف كان ينادى الأخطل :

ولست بصائم رمضان عمـــرى ولست بآكل لحم الأضاحـــى
ولست بقائـــل ما عشت يوماً قبيل الصبح (حى على الفلاح)

كان يقول هذا ويدخل على الخلفاء ويجيزونه الجوائز السنية ، وكان هو وغيره من النصارى واليهود يفتخرون بدينهم ويعلنونه فى أشعارهم التى كان يرويها المسلمون ويقيدونها فى دفاترهم ، ولما جاء الملك النعمان بن المنذر رجل نصرانى فى اليوم الذى عنده يوم بؤس ، وأقر النعمان بقتله استماحه النصرانى مهلة أن يودع أهله فأذن له على أن يقدم كفيلا يحل محله فى القتل إذا هو لم يرجع فرجع وتعجب النعمان من وفائه ، فسأله : ما حملك على هذا الوفاء فأجابه النصرانى : حملنى دينى . فقال له النعمان وما دينك قال له النصرانية وتنصر النعمان بعد هذه فكانت هذه الرواية مما حرره المسلمون ولم يغمطوا النصرانية حقها ولا غمطوا اليهودية حقها وأجمع العرب المسلمون على نقل مآثر السموءل وكان السموءل يهودياً ، وما زال السموءل مضرباً للأمثال من علو النفس وكرم السجية إلى يومنا هذا حتى قال عنه شوقى شاعر العصر منذ أيام قلائل :

فكان من السموءل فيـــه شيئاً فكل جهاتـــه كـــرم وخلق

فكيف يكون المسلمون الأوائل حاولوا خنق كل صوت غير صوتهم ومحوا آثار النصرانية واليهودية والوثنية من شعر العرب .

ثم إن شعر شعراء النصرانية من الجاهلية يملأ الدواوين وما منهم إلا من حرص علماء الإسلام على التنبية أنه كان نصرانياً وقد نقلوا خطب قس بن ساعدة الذى كان مطراناً ، ونقلوا ثناء النبى (صلى الله عليه وسلم) عليه .

أما كون ديوان شعراء النصرانية المطبوع فى بيروت موضوعاً وأن الشعراء المروية أشعارهم فيه لم يكونوا نصارى بل جعلهم صاحب الديوان

نصارى وهم جاهليون لا غير فمن يقول هذا ومن يصل به المرء إلى إنكار أن أكثر هؤلاء الشعراء كانوا نصارى ، غاية ما يقال : إن بعض هؤلاء الشعراء لم تثبت نصرانيتهم ؛ وهذا لا ينفى أن شعراء كثيرين مثل العبادى والأخطل والقطامى كانوا نصارى مجمعاً على نصرانيتهم ، وأن المسلمين نقلوا أشعارهم كما هى ولم يحذفوا منها شيئاً . وكان شعراء المسلمين يناقشونهم ويداعبونهم وكان جرير يقول :

قال الأخطل : إن رأى راياتهم يا مار جرجس لا نريد قتالا

فالقول : بأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يبقوا على نزعة تخالف دين الإسلام وأنهم طووا شعر النصارى واليهود والمشركين محض تحكم لم يقم عليه أدنى دليل ، بل قام الدليل على حرية الإسلام وتساهله فى الدين . ونقل رواة المسلمين ليس شعر النصارى واليهود والمشركين فقط ، بل أهاجى كثيرة قالها هؤلاء فى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنصاره ، ومن من العلماء والمؤرخين المحققين يقدر أن يقول : إن أدباء العرب بعد الإسلام رغبوا عن شعر الجاهلية وأهملوا روايته من أجل أن قائليه كانوا مشركين ، أو أن المسلمين طووا كلام قس بن ساعدة ، لأنه كان نصرانياً أو لم يعجبوا بقصيدة : (إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه) ، لأن صاحبها كان يهودياً ، من يارب يقول هذا إلا الذين يبنون التاريخ على الأهواء والخيالات .

ورويت أشعار المعرى ومن فى سبيله حتى فيما يخالف الدين الإسلامى (قوم أتوا من أقاصى البلاد لرمى الجمار ولثم الحجر) ورسالة الغفران وصلت إلينا ولو أنها تداولت بالنسخ من قرابة ألف سنة لما وصلت إلينا ، ولو كان هناك (سانسور) لما أبقى على رسالة الغفران وشاعت أقوال التعطيل والإلحاد فى هاتيك الأيام برغم الضغط والمراقبة ، ودونت أقوال الملحدين والدهريين ، ولا أنفى مع ذلك أن الدول الإسلامية فى القرون التالية كانت تحجز أحياناً على الفلسفة التى يراد بها التعطيل أو الإلحاد ويسمون ذلك (الزندقة) . أما إزالة شعر النصارى واليهود والمشركين ومنع روايته فشىء لم يقع لا فى زمن الصحابة ، ولا فى أيام بنى أمية ، ولا فى أيام بنى العباس . ولقد ألف

النصارى فى تعظيم دينهم فى زمان بنى العباس كتباً كثيرة وتواريخ أيدوا فيها مذهبهم وما اعترضهم أحد ، ولا منعت الدولة كتبهم ، وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم أمر بأن لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان وأجلى عمر النصارى واليهود فلم يكن ذلك لينقص شيئاً من حرية النصارى واليهود فى دينهم فى سائر بلاد الإسلام ، بل حرية الصابئة والمجوس وما قال مؤرخ غربى ولا شرقى : إن الإسلام أكره أحداً فى الدين أو منع كتب الملل الأخرى .
يا إخواننا إنه فى صدر الإسلام كانوا يتناقلون مثل قوله :

لعبت هاشم بالدين وما نبأ جاء ولا وحى نزل
ليت أشياخى ببدر اعلموا قلق الخزرج من وقع الأسل

روى هذا المسلمون وما زالوا يروونه .

وقال السيد محب الدين الخطيب الذى نشر هذا الفصل فى مجلة الفتح تحت عنوان : التاريخ لا يكون بالافتراض ولا بالتحكم :

لقد صار للغرب اليوم جنود منا يعملون على تشويه فضائلنا وتشويه تاريخنا وقطع صلتنا بآبائنا ، وفتح قلوب أبنائنا لنوع آخر من أنواع الاحتلال الأجنبى ، قد يكون شراً من احتلال البلاد ، والقضاء على استقلالها .

وقال إبراهيم الإبيارى فى مقال له عن كتب طه حسين فى التاريخ الإسلامى أنه يريد أن يطبق المنهج الاجتماعى المادى فى (تفسير الإسلام) ، ويريد أن يضع شخصيات الصدر الأول على طاولة النقد كأنهم رجال السياسة يصطرعون حول الحكم » .
الآن قد فهمنا .

(٣)

ومن أخطر القواعد التى وضعها طه حسين للنظر فى الأدب والتاريخ تلك القاعدة المسمومة التى تقول : نسيان القومية والدين شرط أساسى من شروط البحث العلمى : وقد رد الأستاذ محمد أحمد الغمراوى داحضاً إياها فقال : إن الإنسان يستطيع أن يراعى الدقة العلمية التامة فى البحث وهو متذكر دينه كل التذكر ومعتقد صحته كل الاعتقاد ، غير مجوز على قرائه

قرآنه خطأ أو على توراته ، بل إن التدين الصحيح يزيد الباحث المخلص إن أمكن حرصاً على الحق واستمساكاً به إذا وصل إليه ، ولا خوف عليه مطلقاً إن يخفى بعض الحق أو يدلس فى البحث محاباة لدينه ، لأنه ليس الحق يخاف على دينه ولكن الباطل هو يعلم أن دينه حق ، يعلم ذلك علم متيقن ، ويعلم أن العلم قائم على قاعدة استحالة التنافى بين أجزاء الحق ، يعلم ذلك علم مستيقن أيضاً ، فهو لا يخشى أبداً أن يكشف البحث الصحيح عن حقيقة تنافى دينه ، ولذلك يمضى فى أبحاثه آمناً مطمئناً متبعاً أقوم الطرق فى البحث والتفكير ، لا لأن هذا هو الطريق الوحيد للوصول إلى نتائج صحيحة ، فحسب ، ولكن لأن هذا فى اعتقاده هو أيضاً الطريق الوحيد الذى لا يؤدى إلى تخالف بين العلم الذى يبحث فيه والدين الذى يؤمن به . فالتدين الصحيح والتفكير العلمى الصحيح ممكن اجتماعهما إذن، وكثيراً ما اجتمعا كما أن العاطفة الدينية القومية ، والعاطفة العلمية القومية لا تتعارضان بل تتضافران على خدمة العلم وتبعثان على الإخلاص فى البحث » ا . هـ .

(٤)

اتهام العرب بحرق مكتبة الإسكندرية

أقحم الدكتور طه حسين نفسه فى هذه القضية ، على أثر تقديم المستشرق (جريفينى) تقريراً عنها فى مؤتمر التاريخ الذى عقد فى يناير عام ١٩٢٤ فى فلورنسا، على نحو ما نشر فى جريدة السياسة اليومية فى ٢٣/ ١/ ١٩٢٤ وقد اتخذ أسلوب الشك والسخرية على نحو يكشف عن تهاون فى المسئولية العلمية فضلا عن أنه ليس مؤرخاً فى الحقيقة ، وإنما دعاة المستشرقون إلى هذا المؤتمر ليفتحوا له الآفاق إلى إثارة الشبهات ، ومع أن بحث المستشرق (جريفينى) لا يتهم العرب اتهاماً واضحاً بحرق مكتبة الاسكندرية ، ولكنه يقدم وثائق من هنا ومن هناك فإن الدكتور طه اقتحم هذا الموضوع بحقده المعروف على الإسلام والمسلمين ، وبسخريته المقذعة حين قال : أؤكد لك أيها القارئ أن حركة الفلك لن تقف حين يعلن المؤرخون أن من الجائز أن يكون العرب قد حرقوا خزانة الكتب فى الإسكندرية ، كما أن من الجائز ألا يكون قد حرقوا هذه الخزانة . لو أنك ذهبت تستشير العقل وفروضه

فى أمر هذه الكتب التى يقال أنها أحرقت فى مصر وفى فارس ، لما جزم العقل بأن تحريق هذه الكتب مستحيل ، بل لمال إلى أن تحريق هذه الكتب ممكن ، فليس من الغريب فى شىء أن أمة بدوية كالأمة العربية قد اعتنقت ديناً جديداً كالدين الإسلامى ، ليس من الغريب أن أمة كهذه الأمة تقوم على تحريق كتب لا تعلم ما فيها ، ولكنها تعلم أنها تمثل ديناً غير الدين الذى أذعنت له وكتبت فيه ، وهى أن كانت فعلت ذلك فليست آثمة إلا أمام طائفة معدودة من العلماء والمؤرخين .

وهذا الكلام رخيص وتافه ، ويمكن أن يوصف بأنه ليس كلام علماء ، وإلا فكيف يمكن أن يكون الحدث واحداً فى تقدير الأمم كلها ، أو الأديان كلها ، فإن معنى هذا أن موقف الإسلام من ذلك هو موقف الفراعنة فى مصر أو الوثنيين فى فارس من مثل هذا الأمر ، فهو يريد أن ينكر فضل الإسلام وتميزه فى مواجهة مثل هذه الأمور ، وارتفاع الإسلام عن هدم آثار الأقدمين مهما كانت مخالفة للإسلام نفسه ، والدكتور طه حسين يجرى فى ذلك مجراه مع قوله المسموم بأن الإسلام قضى على الشعر والأدب الذى كان سابقاً للإسلام وقد جوبه فى ذلك بانتقاد شديد ، على النحو الذى أوردناه فى مكانة هذا الكتاب .

وطه حسين يكتب هذا منافقة للمستشرقين ، وإرضاء لهم ، وليس إرضاء لله ولا للحق ولا للعلم نفسه ، ذلك لأن المصادر العلمية جميعاً تؤكد حرق هذه المكتبة قبل أن يصل المسلمون إلى الإسكندرية ، وهناك مؤرخ واحد هو القفطى الذى ادعى هذه الدعوة وعنه أخذ المستشرقون وجرجى زيدان ، ومن العجيب أن الأجانب نفسهم هم الذين كذبوا ابن القفطى . كما أوردت ذلك دائرة المعارف البريطانية حيث تقول : أن الدعوى ليست فى الحقيقة إلا مهاترة وتلفيقاً لأن المكتبة لم تكن وقت الفتح العربى تحوى شيئاً ذا قيمة بعد الحرائق التى انتابتها قبل العرب بزمن طويل ، وجاء فى دائرة المعارف الفرنسية أنه ليس يصدق أن يكون عمر بن العاص قد أمر بإحراق بقايا مكتبة الإسكندرية التى كان المسيحيون قد سبقوا فأعدموها ، وكذلك هناك ما أورده جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) الذى قال أن كتاب القرنين ، الخامس والسادس الميلادى لم يذكروا شيئاً عن وجود مكتبة

فى الإسكندرية وكذلك كتاب أوائل القرن السابع ، وأن دعوى الإحراق لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة المزعوم وقوعها ، وقال أنه لو صح أن المكتبة كانت موجودة وأن العرب أحرقوها لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم قريب العهد من الفتح مثل حنا النيقوسى .

(٥)

الفتنة الكبرى

كان اقتحام الدكتور طه حسين لمجال دراسات التاريخ الإسلامى ، بمثابة مرحلة جديدة فى حياته الفكرية ، وفى وجهته التغريبية .

وكان قد بدأ ذلك بكتابه (على هامش السيرة) ثم أحس — وأحس ذووه — بنجاح الخطوة الأولى ، فمضى فى الطريق مقتحماً حياة الصحابة رضوان الله عليهم ، عن طريق الحديث عن الخلاف ، الذى بدأ فى عهد أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فكتب الفتنة الكبرى فى جزأين .

وهنا نعرض للجزء الأول « على وبنوه » ، على أن أخصص الحلقة التالية عن الجزء الثانى (عثمان) .

ثم تابع خطواته على هذا الطريق فكتب : (الوعد الحق ، مرآة الإسلام ، الشيخان) ، وقد عرضنا لكل منها .

غير أننا فى هذه الحلقة يجب أن نكشف عن هذه الوجهة وخلفياتها ، وأبرز ما يتصل بها هو تحقيق هدف من أهداف الصهيونية العالمية ، وهو :

إنكار الدور الذى قام به (عبد الله ابن سبأ) اليهودى اليمنى المعروف بابن السوداء ، والذى كان القائد الحقيقى للفتنة التى اضطرمت ضد سيدنا عثمان رضى الله عنه ، فى مختلف الأقطار (مصر والشام والعراق) .

وكان اليهود قد مهدوا لذلك فى إسرائيل ، بطبع كتاب (أنساب الأشراف) وهو كتاب مريب وملفق للبلاذرى ، ضاعت منه أجزاء ، وقد بدءوا بطبع الجزء الخامس منه بإشراف مستشرق يهودى .

وقد اعتبر هذا مقدمة للدور الذى يقوم به الدكتور طه حسين بالاعتماد عليه ، فى إنكار وجود شخصية عبد الله ابن سبأ ، والادعاء بأنها شخصية وهمية اخترعها المؤرخون المسلمون .

قال هذه القولة البلهاء الدكتور طه حسين ، بينما توجد عشرات المراجع الموثقة ، التى تصلك دعوته وتؤكد وجود من يسمى عبد الله بن سبأ .

هذه المراجع التى يعرض عنها طه حسين جميعاً ، ويتكىء على البلاذرى فى كتابه « الملفق » . فى جميع المراجع – ما عدا البلاذرى – يرد أمر ابن سبأ .

فى مقدمة ذلك الطبرى – الذى تجاهله طه حسين فى هذا الموقف تماماً – قال الطبرى :

« كان (عبد الله بن سبأ) يهودياً من أهل صنعاء أمه سوداء ، فأسلم زمن عثمان – رضى الله عنه – ثم تنقل فى بلدان المسلمين ، يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ، ثم الشام » .

كما ذكره الشهرستانى فى الملل والنحل ، وابن حزم فى الفصل ، وعبد القادر البغدادى ، فى الفرق بين الفرق ، والاسفراييني فى (التبصير فى الدين) وابن قتيبة فى (تأويل مختلف الحديث) وابن عبد ربه فى (العقد الفريد) .

وقد كشف هذا عن خطة المؤامرة التى جاءت فى الوقت الذى كانت فيه إسرائيل تستعد للسيطرة على فلسطين وكانت تمهد بذلك لفرض مفاهيم مختلفة ، بدأتها برسالة الدكتوراه ، التى قدمها اليهودى (إسرائيل ولفنسون) التى أنفذها الدكتور طه حسين من خلال مدرج الجامعة « جامعة فؤاد » الأول – القاهرة فيما بعد » عن اليهود فى بلاد العرب ، وفيها محاولة للادعاء بأن اليهود هم الذين مدنوا العرب فى شبه الجزيرة .

(أ)

الدعوى ورد الدعوى

بدأ طه حسين حديثه فى إسقاط قصة اليهودى ابن السوداء « عبد الله بن سبأ » فذكر « أن الرواة المتآمرين أكبروا من شأنها وأسرفوا فيها ، وأنها لم ترد

فى المصادر المهمة ، وأن (ابن سعد) لم يذكرها ، وأن البلاذرى لم يذكرها فى (أنساب الأشراف) وهو فيما يرى الدكتور من أهم المصادر « وأن الذى ذكرها هو الطبرى وأخذها عنه المؤرخون الذين جاؤوا من بعده » .

ولكى ينفى الدكتور طه حسين تهمة (الفتنة الكبرى) عن ابن سبأ اليهودى ، بدأ كتابه بدعوى عريضة هى : (أن الفتنة عربية ، نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة لهؤلاء الأغنياء) .

وكرر هذه العبارات فتنة عربية . وعامة عربية ، لتعلم ماذا يريد بهذا التكرار ، وما الذى يريد أن ينفيه من شركة أحد غير العرب فى دم عثمان .

حتى إذا اطمأن إلى توسيد الأرض ، بدأ يعرض القضية بعرض ما أسماه « قصة ، أكبر الرواة المتأخرون من شأنها ، وأسرفوا فيها ، حتى جعلها كثير من القدماء والمحدثين مصدراً لما كان من الاختلاف على عثمان رضى الله عنه ولما أورث هذا الاختلاف من فرقة بين المسلمين » ، وهى قصة عبد الله بن سبأ .

ويقول : « إن كثيراً من الناس يضيف إليه ، كل ما ظهر من الفساد والاختلاف فى البلاد الإسلامية أيام عثمان رضى الله عنه ، ويذهب بعضهم إلى أنه أحكم كيده إحكاماً ، فنظم فى الأمصار جماعات خفية وتستتر بالكيد وتتداعى فيما بينها إلى الفتنة ، حتى تهيأت له الأمور ، ووثبت على الخليفة ، فكان ما كان من الخروج والحصار وقتل الإمام » .

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر معلقاً :

« فأنت ترى من هذا لماذا أصر الدكتور على أن يصف الفتنة بأنها (عربية) ، وبأن العامة الذين كانوا أشرار هذه الفتنة ، كانوا (عامة عربية) أى أنه ليس لهذا اليهودى الخبيث عبد الله بن سبأ يد فيها ، وأن ليس لليهود عمل فى تأريث نارها ، وهذا تخريج بين جداً ، لا يخالفنا فيه أحد » .

ويمضى الدكتور طه فيقول :

(ويخيل إلى أن الذين يكبرون من أمر ابن سبأ إلى هذا الحد ، يسرفون على أنفسهم وعلى التاريخ إسرافاً شديداً وأول ما نلاحظه أننا لا نجد لابن سبأ

ذكراً فى (المصادر المهمة) التى قصت أمر الخلاف على عثمان ، وانتقاض الناس عليه) .

فلم يذكره (البلاذرى) فى (أنساب الأشراف) وهو فيما أرى (أهم المصادر) لهذه القصة وأكثرها تفصيلا وذكره الطبرى عن سيف بن عمر ، وعنه أخذ المؤرخون الذين جاءوا بعده فيما يظهر .

ثم هون من أمر (عبد الله بن سبأ) وقال : (إنه من الهوان بحيث كان يمكن أن يأخذه الولاة ويعاقبوه أو يبطشوا به) ، ثم يقول : (فلنقف من هذا كله موقف التحفظ والتحرج والاحتياط ولنكبر المسلمين فى صدر الإسلام ، عن أن يعبث بدينهم وسياستهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء) ، ويقول : (هذه كلها أمور لا تستقيم للعقل ، ولا تثبت للنقد ، ولا ينبغى أن يقام لها أمر التاريخ) .

وهكذا يقطع الدكتور الرأى بجملة واحدة .

ثم عاد فأشار إلى قصة الكتاب — كتاب إلى والى مصر — الذى يقول الرواة : إن المصريين قد أخذوه أثناء عودتهم إلى مصر ، فكروا راجعين ، ويرى أن هذه القصة ملفقة من أصلها .

ويواجه الدكتور طه قضية (الرواة المتأخرون) فيروى : (أن فيها إبهاماً شديداً متعمداً فيما يظهر) .

وقد كان الرد الذى تقصى خبيئته : أن الطبرى ليس من الرواة المتأخرين ، فقد ولد سنة ٢٢٥ ﻫ ومات سنة ٣١٠ ﻫ ، فهو معاصر للبلاذرى . ومن طبقة تلاميذ (ابن سعد) صاحب الطبقات ، وأن سيف بن عمر الذى روى عنه الطبرى هذا الخبر من كبار المؤرخين القدماء ، فهو شيخ شيوخ الطبرى والبلاذرى ، وهو فى مرتبة شيوخ (ابن سعد) ، ومات قبل سنة ١٩٠ من الهجرة ، فلا يقال عنه ولا عن الطبرى : إنهما من (الرواة المتأخرين) كما أراد الدكتور طه أن يوهم قارئه .

ويستطرد الأستاذ محمود محمد شاكر فيقول : (إن ذكر الدكتور (المصادر المهمة) فيه إيهام شديد وإجحاف جارف ، فإن لم يكن كتاب الطبرى من المصادر المهمة ، فليت شعرى ما هى المصادر المهمة التى بين أيدينا ؟) .

(ب)

كتابان مريبـان

هما كتاب ابن سعد ، وكتاب البلاذرى :

(وإن كان الدكتور طه يعلم أن : كتاب ابن سعد الذى بين أيدينا كتاب ناقص . . وأنه ملفق من نسخ مختلفة بعضها تام وبعضها ناقص ، وبعضها مختصر .

والدليل على ذلك مما نحن بسبيله أنه ترجم لعمر رضى الله عنه فى ٨٤ صفحة ، ولأبى بكر رضى الله عنه فى ٣٣ صفحة ، فلما جاء إلى عثمان رضى الله عنه والأحداث فى خلافته هى ما يعلم الدكتور ويعلم الناس ،لم يكتب سوى ٢٢ صفحة . ولما جاء إلى على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – والأمر فى فترته أفدح . لم يكتب عنه سوى ١٦ صفحة .

هذا على أن الكلام على طريقة ابن سعد فى تراجم الرجال شىء آخر ، غير كتابة التاريخ ، فإنه لم يذكر فى هذا الفصل إلا قليلا جداً مما ينبغى أن يكتب ، لو أنه ألف كتابه فى التاريخ العام ، لا فى الترجمة للرجال وهذا شىء يعلمه الدكتور طه حق العلم ولا ريب .

وكانت حجة الدكتور فى نفى خبر عبد الله بن سبأ اليهودى اللعين : (أن البلاذرى لم يذكره) ، وهو فيما يرى (أهم المصادر لهذه القصة وأكثرها تفصيلا) .

ثم عاد فنفى أيضاً خبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل وفد مصر ، مع أن البلاذرى ذكره وأطال فيه وأتى فيه بما لم يأت فى كتاب غيره .

ولا ندرى كيف يستقيم أن يجعل عدم ذكره خبراً ما حجة فى قضية ، ثم ينفى أيضاً خبراً آخر قد ذكره ولج فيه ؟) .

أين ابن سبأ . . فى البلاذرى ؟

(بقى أمر آخر : هل كان فى نص البلاذرى قديماً ذكر عبد الله بن سبأ اليهودى ثم سقط ؟ أو أسقط عن الكتاب ؟ وهذا لا يتاح لى إلا إذا وقفت

على نسخة قديمة وثيقة من كتاب (أنساب الأشراف) ، فإن النسخة التى بين أيدينا إنما طبعت فى أورشليم ، كما يسمونها وطبعها رجل من طغاة الصهيونية ، وقدم لها مقدمة لم تكتب لا بالعربية ولا بالإنجليزية وإنما بالعبرية)

وليأذن لنا الدكتور : أن نشك أكبر الشك فى ذمة اليهودى الصهيونى ، الذى طبع الكتاب فى مطابع الصهيونية ، فى أورشليم ، فقد رأينا من قبل رجلا آخر أحاطه الدكتور يوماً برعايته وعنايته واستقدمه إلى الجامعة المصرية وكان يسمى نفسه (أبو ذؤيب) : إسرائيل ولفنسون (وهو الآن فى فلسطين يجاهد فى سبيل الصهيونية) ، فألف كتاباً فى تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، طبع فى مصر ، وقدم له الدكتور مقدمة أثنى فيها عليه ثناء بالغاً) .

(ومع ذلك فقد وجدنا فى الذى نقله من الأخبار والأحاديث : تحريفاً ، وبتراً ، واقتطاعاً من نصوص محفوظة معروفة) .

(أفلا يجوز لنا على الأقل أن نشك فى أن اليهودى الآخر طابع كتاب البلاذرى يفعل مثل هذا) .

(هذا إلى أن طريقة التأليف القديمة ، وبخاصة ما كان على غرار تأليف البلاذرى ، قد يترك المؤلف فيه شيئاً فى مكان ثم يذكره فى مكان آخر ، وكان أولى أن يذكر فى المكان الأول . أفلا يجوز أن يكون البلاذرى قد ذكره مثلا فى ترجمة (عمار بن ياسر) أو (محمد بن أبى بكر) أو (محمد ابن أبى حذيفة) أو رجل ممن اشترك فى الفتنة ؟ وهو يعلم أن الذى وجد من كتاب البلاذرى قسم ضئيل جداً ، طبع منه فى ألمانيا عام ١٨٨٣ ، ثم تولى اليهودى الصهيونى طبع جزء آخر ، هو الذى ترجم فيه عن عثمان فى عام ١٩٣٦ ثم طبع جزء آخر فى عام ١٩٣٨ .

المقدمة العبرية :

قال الناشر فى مقدمته المكتوبة بالعبرية :

(إن هناك حوادث جرت فى عهد يزيد بن معاوية وهى وقعة كربلاء وموت الحسين – رضى الله عنه – ، ولم تذكر فى ترجمة يزيد ، بل ذكرها فى تراجم بنى أبى طالب ، وذلك حسب ما اقتضاه نظام الكتاب ، وفقاً لتسلسل الأنساب) كما قال بنص كلامه .

أفلا يجوز إذن أن يكون (البلاذرى) قد أدمج أمر (عبد الله بن سبأ) فى مكان آخر ، كما فعل فيما لاحظه وذكره اليهودى ؟ كل هذا جائز .

(ولكن الدكتور حين ينفى شيئاً لا يبالى أن يختار كل هذا ، ويغضى عنه ليقول فيه الرأى الذى يشتهيه ويؤثره غير متلجلج ولا متوقف) .

الطبرى مؤرخ ثقة :

ثم كيف ينسى الدكتور أن من يرووا خبراً ما ليس حجة على من روى هذا الخبر ، وبخاصة إذا كان الرجلان من طبقة واحدة ، كالبلاذرى والطبرى . بل لعل الطبرى . أقوى الرجلين وأعلمهما وأكثرهما دراية بالتاريخ وتحصيلا له . وهو الذى روى عنه أنه قال لأصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا مما تفنى فيه الأعمار قبل إتمامه ، فاختصره لهم فى ثلاث آلاف ورقة) .

(ومن قرأ كتاب الطبرى فى تاريخه وتفسيره ، علم أن (عزيمة هذا الرجل) حق ، وأن الرجل كان متفرغاً للعلم لا يلفته عنه شىء قط ، ولا يدع شاردة ولا واردة إلا تقصاها وحققها ، ورأى فيها الرأى الذى لا يكاد ينقض ، والفرق بينه وبين البلاذرى لا يخطئه بصير بهذا العلم ، فليس من الحجة فى شىء أن يقال (فى عصرنا هذا) : إن البلاذرى لم يذكر هذا فيكون ذلك كافياً للرد على ما ذكره الطبرى ، وهذا شىء بين لا يحتاج إلى جدال كبير) .

(إذن : فالدكتور قد اشتط وركب مركباً لا يليق بمثله ، حين نفى خبر عبد الله بن سبأ ، وخبر الكتاب الذى فيه الأمر بقتل المصريين بعد الذى رأيت من تهافت أسلوبه العلمى) .

(وإذن فالدكتور قد خالف سنة العلم والعلماء فى نفى الأخبار وتكذيبها بلا حجة ، عن طريق أهل التمحيص ، بل تحكم حكماً بلا دليل يسوقه عن أفضلية البلاذرى وتقديمه على الطبرى . وبلا مراجعة للصورة التى طبعت عليها الكتب ، وبلا دراسة لنفس الكتب التى ينقل عنها ، كما هو القول فى ابن سعد والبلاذرى معاً) .

(وإذن فقد أراد الدكتور طه أن يقول : إن (الفتنة الكبرى) التى أفضت إلى مقتل عثمان إنما كانت (فتنة عربية نشأت من تزاحم الأغنياء على الغنى والسلطان ، ومن حسد العامة العربية لهؤلاء الأغنياء) ص ١٠٩ ، فمن أجل تحقيق هذه الكلمة الكبيرة ، ركب كل مركب فى تصوير الحياة الإسلامية بعد الفتوح . بالصورة التى تنتهى به إلى هذا الغرض وحده دون سواه ، وهو الغنى والمال والسلطان . وتزاحم الأغنياء على الغنى والمال والسلطان وحسد العامة العربية . . . إلخ) .

ولكن الدكتور كشف عن هدف آخر حين جاء معرض هذه الفتنة فنفى خبر (عبد الله بن سبأ) اليهودى وخبر الكتاب الذى كتب فيه الأمر بقتل رؤوس وفد مصر .

وهذا الهدف هو الذى ينفى عن اليهود الشركة فى دم عثمان ، والتحريض على قتل الإمام ، فركب مركباً وعراً خالف فيه أسلوب العلماء ، فى جرح الأخبار ، وكذب الرواة فى شىء بغير برهان ، وصدقهم فى شىء آخر بغير برهان أيضاً ، وهو نفسه ينعى فى كتابه على (الذين يكذبون الأخبار التى نقلت إلينا ما كان من الناس من فتنة وخلاف ، فقال فى ص ١٧٢ :

(فنحن إن فعلنا ذلك لم نزد على أن نكذب التاريخ الإسلامى) بيد أن الدكتور طه نفسه قد فعل ذلك، فكذبهم حين روى الرواة ما لا يعجبه، وحين رووا ما يؤذيه ، وفعل ذلك أيضاً فصدقهم ، حين رووا ما يروقه وحين رووا ما يرضيه ، فإن الذين رووا أخبار الكتاب بقتل وفد مصر ، فلم أخذ شيئاً بغير برهان ، ونفى أخاه بغير برهان .

(والشىء البين هو أن الدكتور أراد كما قال فى ص ١٣٤ : (إن يكبر المسلمين فى صدر الإسلام عن أن يعبث بدينهم وسياسيتهم وعقولهم ودولتهم رجل أقبل من صنعاء . . . إلخ) . وهذا قصد حسن ونية جميلة ، ولكن الحق أحسن منهما وأجمل ، وليس يجمل بنا ولا بالدكتور طه أن يغالط فى الحق لشىء يراه هو ، أو نراه نحن حسناً جميلا ، والتاريخ لا يكتب بالتحكم وإنما يكتب بالرواية ثم بالاستدلال) ا . هـ .

هذه النقطة هى أخطر ما فى الكتاب . وقد أحصى على الكتاب الاعتماد على أحاديث ضعيفة ، اعتبرها المؤلف أساساً لإقامة منهج البحث ، بالإضافة إلى المصدرين المضطربين : (طبقات ابن سعد) لابن سعد ، و (أنساب الأشراف) للبلاذرى ، وكلاهما طبعهما أعداء العرب والإسلام أول ما طبعا .

كما أخذ على المؤلف خلوه من المراجع ، بل أن طه حسين — وهو يذكر البلاذرى — لم يكن دقيقاً ، فلم يعرف بعضهم هل يقصد كتابه (الفتوح) أم كتابه (الأنساب) .

كذلك فقد أخذ على المؤلف اعتماده على مراجع ليست أصيلة فى البحث بل هى ثانوية القيمة ، مع تركه الكتب الهامة فى هذا البحث ، ومنها شرح النهج لابن أبى الحديد، وتاريخ ابن واضح اليعقوبى ، كما ذكر الأستاذ سعد محمد حسن فى نقده للكتاب .

مع ملاحظة أن كتاب ابن أبى الحديد لا يوثق به ، لأن مؤلفه على مذهب ابن سبأ .

وقد أخذ على طه حسين اعتماده حديث (من كنت مولاه فعلى مولاه) على أنه يعنى خلافة على ، وقد أشار الحافظ ابن عساكر فى تاريخه عن الحافظ البيهقى عن فضيل بن مرزوق : أن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على ابن أبى طالب قيل له : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كنت مولاه فعلى مولاه ؟ فقال : بلى ولكن والله لم يعن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك الإمارة والسلطان ، ولو أراد ذلك لأفصح لهم به . فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان أنصح للمسلمين ، ولو كان الأمر كما قيل لقال : يا أيها الناس هذا ولى أمركم والقائم عليكم من بعدى فاسمعوا له وأطيعوا ، والله لئن كان الله ورسوله اختارا علياً لهذا الأمر ، وجعله القائم للمسلمين من بعده ، ثم ترك (على) أمر الله ورسوله لكان على أول من ترك أمر الله ورسوله .

ولذلك كان حقاً على الدكتور طه ألا يعتمد على هذا الحديث، وأن يلتزم الأمانة العلمية فيورد رأى أهل السنة فيه وقد قال فى حقه العلامة ابن حزم :

(« أما من كنت مولاه فعلى مولاه » ، فلا يصح من طريق الثقات أصلا) الفصل فى الملل والنحل ج ٤ ص ١٤٨ .

وقال العلامة ابن خلدون فى أحاديث الشيعة : (لا يعرفها جهابذة السنة ، ولا نقلة الشريعة ،وأكثرها موضوع أو مطعون فى طريقه ، أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة . المقدمة ص ٩٦ طبعة بولاق سنة ١٢٧٤ هـ) وفى كتاب التمهيد للقاضى أبى بكر الباقلانى ، تتمة شيقة لهذا الموضوع .

وهكذا يتضح جلياً أن المؤلف لم يعن مع الأسف الشديد بدراسة موضوعه دراسة جيدة (ونقول : أو ربما كان على غرض خفى فى نفسه يهدف إلى تحقيقه) .

ويشير طه حسين إلى أبى ذر رضى الله عنه ، فيقول : إنه نفى إلى (الرملة) والصحيح (الربذة) ، ويقول : (ولم يطق عثمان نفسه معارضة أبى ذر فأخرجه من المدينة) .

ويقول السيد محب الدين الخطيب ، رحمه الله : الصواب فى أمر أبى ذر ما رواه ابن خلدون فى العبر : أن أبا ذر هو الذى استأذن عثمان فى الخروج من المدينة إلى الربذة وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا(مكان)،فأذن له،ونزل الربوة وبنى بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمة (عدد بين العشرة إلى العشرين) من الإبل ، وأعطاه مملوكين وأجرى عليه رزقاً ، وكان يتعاهد المدينة ، وبين الربذة والمدينة ثلاثة أميال ، وقال ياقوت : وكانت من أجمل منزل فى طريق مكة .

وقد حاول الدكتور طه فى دعوى عريضة ، أن يقول : بأن المؤرخين أعرضوا عن ذكر عبد الله بن سبأ لأنهم تبينوا أن أمره متكلف منحول قد اخترع باخرة ، والمؤلف يرى أن خصوم الشيعة من أهل السنة وغيرهم ، من الذين وضعوا أمر ابن السوداء وتولوا كبره ، ليدخلوا فى أصل الشيعة عناصر يهودية ، إمعاناً فى الكيد لهم والنيل منهم على حد تعبيره .

ويرى الباحثون الذين نقضوا كتاب (الفتنة الكبرى) وفى مقدمتهم السيد محب الدين الخطيب : أن الدكتور طه قد جانب الصواب ، فأى كيد للشيعة فى وجود عناصر يهودية فى بعض فرقها وأهل السنة والشيعة جميعاً يلعنون ابن السوداء ويتبرمون منه ومن جماعته ، وأن ابن أبى الحديد شارح النهج قد أعلن ذلك ، وهو مؤرخ شيعى .

ويحاول الدكتور طه أن ينكر على المؤرخين . تأليه ابن السوداء لعلى ابن أبى طالب ، مع أن هذه حقيقة لا يدفعها شك ، رواها رجال أثبات من السنيين والشيعة وغيرهما ، منهم الشهرستانى فى الملل ، ابن حزم فى الفصل وعبد القادر البغدادى فى الفرق بين الفرق ، الرسعنى فى مختصر الفرق ، الاسفرايينى فى التبصير فى الدين ، ابن قتيبة فى تأويل مختلف الحديث ، ابن قيم الجوزية فى الطرق الحكمية ، وغيرهم كثيرون . أما دعوى الدكتور بأن خصوم الشيعة دسوا عليهم ابن سبأ ، فهى تدل على قلة اطلاعه على كتب الشيعة قديمها وحديثها .

* * *

(٢)

على وبنوه

صدر كتاب (الفتنة الكبرى) فى جزئين : الأول : عن عثمان (رضى الله عنه) ، والثانى : عن (على وبنوه) ، وقد استهدف الكتاب إحداث فتنة كبرى حقيقية فى مفاهيم الإسلام ، بإثارة التشكيك والدس ومغالطة الحقائق وإذاعة الروايات الباطلة .

ولقد كان هدف صدور كتاب الفتنة الكبرى واضحاً : وهو إثارة الشبهات حول صيحة العودة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وقيام الحكومة الإسلامية ، وقد رأى الاستشراق أن يطرح أمام هذا (الأزهرى) صاحب الاسلوب الموسيقى الجميل ، شبهات معينة لإذاعتها ، ونصوصاً معينة لعرضها ، وتشكيكات معينة لتقديمها ، فى داخل عرض واسع مرن ، يقدم السموم فى إطار من العبارات البراقة ، والكلمات الرقيقة ، فتخفى على السذج والبسطاء غايتها .

أهداف سياسية :

ولقد كانت هناك مسائل أساسية أريد طرحها ، وإقناع القارئ المسلم بها ، من خلال هذه الكتب المتوالية – بالإضافة إلى الفتنة الكبرى – وهى : (مرآة الإسلام ، والشيخان ، والوعد الحق) ، ولكنها برزت بصورة واضحة فى كتاب الفتنة الكبرى وهى :

أولا : وهو العمل الهام الخطير ، الذى برز فى مختلف هذه الكتابات واستغرق أغلب الكتابات : انتقاص الصحابة الكرام والتشنيع عليهم ، وإثارة الشبهات حولهم ، وتصويرهم ، بصورة السياسيين العصريين المحترفين .

ثانياً : انتقاص الشيخين (أبو بكر وعمر) بالباطل ، والافتراء على عائشة وظلم عثمان ، والافتراء على أصحاب بيعة الرضوان — عليهم رضوان الله أجمعين .

ثالثاً : التشكيك فى نظام الحكم الإسلامى فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

رابعاً : التشكيك فى الدور الذى قام به عبد الله بن سبأ بالادعاء بأنه يهودى ضعيف ، لا يستطيع أن يحدث كل هذا الأثر ، أو التشكيك فى وجوده إطلاقاً ، (وقد تكلمنا عن هذه النقطة فى الحلقة السابقة ، فلا نعود إليها) .

أولا : انتقاص الصحابة الكرام :

كان الهدف واضحاً من انتقاص طه حسين للصحابة الكرام ، وهو هدم هذا الصرح الإسلامى الذى تقوم عليه السنة والتاريخ وسير الغزوات والحياة الإسلامية ، فى عصر الخلفاء الراشدين وما بعدهم ، وقد أطلق لسانه فيهم جميعاً — كما يقول الأستاذ النايف — يغمز بهم ويجرحهم فى أمور ، ويكشف عنهم تلك الكرامة التى أمدهم بها الإسلام والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : « **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه . . .** » . (التوبة — ١٠٠)

ويقول صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا أصحابى ، لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه » . (رواه مسلم)

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

هذه الكرامة التى أمدهم بها الإسلام ، أراد طه حسين أن يهدمها ، وأن يسخر بها ، وأن يفسدها بالدس والفتنة .

فهو يكتب عنهم مصوراً إياهم وقد عادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى ، ويحاول أن يصور معركة الجمل ، وكأنها معركة جاهلية بين بنى هاشم ، وبنى أمية ، ويتحامل على (بنى أمية) ، فيدعى أنهم من الطلقاء الذين دخلوا الإسلام ، وقد غلبوا على أمرهم ، ثم عادوا إلى جاهليتهم مرة أخرى ، ويحكم بأن من الذين عادوا إلى جاهليتهم : مروان بن الحكم ، والوليد بن عقبة ، وعبد الله بن أبى السرح ، ومن الذين كانوا يحكمون أهواءهم ومصالحهم وهم فى وضع قريب من الجاهلية : عمرو بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان رضى الله عنهم أجمعين .

وقد اتهم عمر بن العاص ، بأنه بدد خراج مصر ، وأنه كان يكره بيعة على كرم الله وجهه ، لأنه لا ينتظر من هذه البيعة ولا ولاية ولا مشاركة فى الحكم ، ولهذا انضم إلى معاوية .

وكان ابنه (عبد الله بن عمرو) ، يرى أن أباه باع دينه بثمن قليل ، وقد وصف طه حسين عمرو بن العاص مع معاوية رضى الله عنهما بقوله : (وهنا ظهر عمرو بن العاص ، الذى لم يكن أقل دهاء ، ولا أدنى مكراً ، ولا أهون كيداً من معاوية) .

وتصل به دعواه وجرأته فى الباطل أن يقول : إن مروان بن الحكم ، هو الذى قتل طلحة فى موقعة الجمل ، مع أنهما كان يحاربان فى صف واحد .

ويصور معاوية ، وقد عاد إلى جاهليته فى موقفه من أبى ذر ، فيقول : (وقد ضاق معاوية برجل عظيم الخطر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، هو أبو ذر ، ولم يستطع أن يبطش به لمكانه من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، وإيثاره إياه ولسابقته فى الإسلام ، ولم يستطع أن يفتنه عن دينه بالمال) .

ثانياً : انتقص الشيخين الكرام :

١ ــ كذلك فقد حرص طه حسين ، على انتقاص الشيخين (أبو بكر وعمر (رضى الله عنهما) بالباطل ، ووصف عمر بن الخطاب فى غير موضع

بالبطش ، وقال أنه لم يمت حتى ملته قريش ، وانتقد أبا بكر فى أنه حصر الخلافة فى قريش ، وقال أن عمر كان يعارضة لذلك ، حتى قال ، لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً لولاه عمر عند وفاته ، وهو ليس من قريش .

٢ — سب الصحابة واحداً واحداً — رضوان الله عليهم — ولم يترك أحداً منهم دون أن يصنع له المقالب والاتهامات ، ثم وصفهم جميعاً بالنفاق .

قال : « وكان الذين يعودون منهم إلى المدينة يلقون عمر ، فيتكلفون التجمل بسيرته ، ويحتالون فى ألا يظهر على دقائق أحدهم وحقائقه ، يلقونه مظهرين الشظف وغلظة الحياة وخشونة العيش ، ليرضى بعضهم ويطمئن إليهم ، فإذا خلوا إلى أنفسهم ، أو خلا بعضهم إلى بعض . أخذوا بما ألفوا من لين الحياة ، وأشفقوا على عمر من حياته الخشنة تلك ، فى كثير من الإكبار له والإعجاب به » . ووصف (عمروا) بأنه ماكر أهل الشام وداهيتهم ، وأن الأشعث بن قيس ، هو ماكر أهل العراق وداهيتهم .

ثالثاً : الافتراء :

وافترى على أصحاب بيعة الرضوان . وفى مقدمتهم (الزبير وطلحة بن عبيد الله) رضى الله عنهما ، فقد اتهمهما بالتنافس من غير وفاق . وصور طلحة بن عبيد الله بصورة غير لائقة ، ووصفه بأنه كان يبحث عن الثراء من أى طريق ، وأن ذلك دفعه إلى مبايعة عثمان ، ثم كان من المؤلبين عليه والمشاركين فى حصاره ، وأنه بايع علياً ونكث البيعة .

هذا والزبير ، هو الذى قال عنه النبى صلى الله عليه وسلم : « لكل نبى حوارى وحواريى الزبير » .

وطلحة والزبير من العشرة المبشرين بالجنة .

٤ — افترى على السيدة عائشة رضى الله عنها ، افتراء واسعاً ، فقد تحدث طويلا عن أنها كانت تخطب الناس وهى على جملها ، وتحرضهم على القتال ، فى خيال ودعاوى باطلة ، فهى لم تخرج إلى قتال .

وما يتصل بخبر (الجوأب) ، قال الذهبى وابن حجر فى رواتها أنه

مجهول فلم تصل عائشة (الجوأب) . ولا اضطر عبد الله بن الزبير أن يأتى بخمسين شاهداً ليشهدوا كذباً بأن المكان ليس (الجوأب) .

ومن دسه الرخيص ، قوله أن السيدة عائشة رضى الله عنها ، كانت تنكر على « على كرم الله وجهه » ، أنه تزوج فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورزق منها الحسن والحسين . فكان أباً للذرية الباقية للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولم يتح لها هى ، الولد من الرسول صلى الله عليه وسلم مع أنه أتيح لمارية القبطية أم إبراهيم ، أواخر أيام النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال : « إن هذا العقم كان يؤذيها فى نفسها بعض الشىء » .

وأمر آخر كانت تجده على سيدنا على رضى الله عنه ، فيما روى الدكتور طه حسين كاذباً ، أنه تزوج أسماء الخثعمية بعد وفاة أبى بكر رحمه الله وأسماء هى أم محمد بن أبى بكر الذى نشأ فى حجر على ، فكانت عائشة تجد على على لهذا كله » .

أى دس رخيص هذا وأى مقاييس تلك التى وضعها له المستشرقون ، وأما أهل السيرة فهم منه براء .

اتهام ابن عباس بالسرقة :

ولقد كان نصيب الصحابى الجليل « عبد الله بن عباس » رضى الله عنه من تحامل الدكتور طه حسين فى كتابه (الفتنة الكبرى) ، كبيراً ، فقد بدأ هجومه عليه — كما يقول الدكتور إبراهيم شعوط — بعبارات لا يليق توجيهها لأى إنسان له منزلة مثل منزلة ابن عباس رضى الله عنهما ، فقد اتهمه بنهب أموال المسلمين فى البصرة كما اتهمه بالغدر لابن عمه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وذكر أنه هرب الأموال المسروقة إلى مكة . وفوق ذلك فقد ذكر أن ابن عباس كان يتطلع إلى الانضمام لمعاوية ضد ابن عمه على رضى الله عنهم أجمعين .

ويقول الدكتور طه حسين ، أن المؤرخين تحرجوا من ذكر هذه الوقائع المدعاة وأن فى ذلك ما يكشف نيات المؤلف ويسفه رأيه ، لأنه إذا كان رجال الحديث — وهم المصدر الموثوق فى كل ما يرى عنهم — لم يذكروا

شيئاً من ذلك ، وكذلك كتب التراجم للمؤرخين الثقات ، فمن أين جاءت هذه الأخبار للمؤرخين الذين اعتمد عليهم طه حسين ، فضرب بكلام المحدثين عرض الحائط ، وظل فى تخبطه هكذا حتى يصل إلى هدفه ، ليحط من مقام ابن عباس رضى الله عنهما الذى اعترف له — دون أن يشعر — بأن مكانته من النبى صلى الله عليه وسلم ، ومكانته من الفقه والدين ، أعظم من أن يظن به مثل هذا التجاوز للحق والخلاف على الإمام .

قال الدكتور شعوط : « إذا قرأنا ما يكتبه خصوم الإسلام ، من اليهود والمسيحيين والشيوعيين ، نقرؤه بحذر ، والحذر أصل من أصول البحث التاريخى ، أما إذا كتب المسلمون عن الإسلام فإننا نكتفى بأن الكاتب مسلم ، وقد يكون المسلم هذا أشد خطراً على الإسلام من كل خصومه » .

ومتى نبت الشك فى عقيدة المسلم ، وسبقت فيه الجرأة على الأصول المقررة فى الإسلام ، فإننا يجب أن نضعه فيما يسمى (القائمة السوداء) ، ونقرأ ما يكتب بكل دقة وحذر .

إن قضيتنا هى جرأة الدكتور طه حسين على ما هو أعظم ، على تهجمه على مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث جعل من نفسه قاضياً يصدر الأحكام على سيد الخلق صلى الله عليه وسلم المعصوم من كل ذلة ، ونحن هنا نجد الكاتب قد ترك أدلة البراءة كلها ، سواء منها الصريحة وغير الصريحة ، واعتمد اعتماداً كلياً على أدلة الاتهام مع ضعفها وفساد أسانيدها .

ثالثاً : التشكيك فى نظام الحكم الإسلامى :

ولعل هذه هى غاية الغايات التى أراد أن يصل إليها الدكتور طه حسين حين قال : إنها تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ، وأنها لم تنته إلى غايتها (ولم يكن من الممكن أن تنتهى إلى غايتها ، لأنها أجريت فى غير العصر الذى كان يمكن أن تجرى فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيما) .

ومن حيث عبارته قوله (حاولت الخلافة الإسلامية لعهد أبى بكر وعمر ، أن تنشىء هذا النظام القديم ، فمات أبو بكر رحمه الله ، ولم يكد يبدأ التجربة ، وقتل عمر رحمه الله ، وقد خطا بالتجربة ، ولكنه لم يرض عنها » :

ويقول : « إن الناس كانوا يعارضون حكم عمر ولكنهم يخشون سلطانه ويخافون منه ، والثورة على عثمان دليل على فشل التجربة الإسلامية ، وأن الوقت لم يعد فى مصلحة الحكم والخلافة الإسلامية » .

وهو يرد العدل والحرية والمساواة (فى عهد أبى بكر وعمر) رضى الله عنهما ، إلى مواهب وشخصية الرجلين وليس إلى الإسلام ، ويرى أن جهودهما كانت محدودة .

ويزعم أن الحكم (أيام الرسول) صلى الله عليه وسلم ليس سماوياً ، وأنه ليس بين الإسلام والنصرانية فرق فى هذه الناحية .

ويقول : « كان الحكم أمراً من أمور الناس يقع فيه الخطأ والصواب . يتاح للناس أن يعرفوا منه وينكروا وأن يرضوا عنه ويسخطوا عليه » ، فهل كان الناس حقاً يسخطون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! !

وهو يزعم أن الخلافة الراشدة كانت تجربة بشرية ، وليست تطبيقاً للإسلام ، ولا يكتفى إلا بتشبيه نظام الحكم الإسلامى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بنظام الحكم الرومانى أيام الجمهورية .

ويرى أن العنصر الدينى فى النظام الإسلامى زال بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ولم يعد له وجود بعد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اقتتلوا على الدنيا وتنافسوها وتقاتلوا عليها ، وادعى أن هناك ارستقراطية قامت ، قوامها القرب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأصبح الحكم إلى قريش وحدها دون الأنصار . وأن استئثار قريش بالخلافة جر على المسلمين كثيراً من الفتن .

ويعتقد أن نظام الخلافة قد أخفق ، وأن تجربة الحكم الإسلامى انتهت بالفشل ، وأن (علياً) لم يحقق وحدة وإنما أخفق نظام الخلافة كله ، وأن هذه الدولة الجديدة التى كان يرجى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام ، لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها . فيقوم فيها الحكم على مثل ما كان يقوم من قبل ، من الأثرة والاستعلاء ، ونظام الطبقات الذى تستذل فيه الكثرة الضخمة ، لا من شعب واحد ، بل من شعوب كثيرة لقلة قليلة من الناس .

والحقيقة غير ذلك تماماً ، فإن الإسلام قد استمر قائماً على مصالح المسلمين بالعدل والرحمة ، وظل حكام المسلمين يحكمون كتاب الله . إلى أن جاء الاستعمار الغربى .

ويرى أن « الأوباش » الذين قتلوا عثمان لم يكونوا مخطئين ، فسياسة عثمان فى العزل والتولية لم تكن ملائمة للعهد الذى أعطاه ، وليس من شك فى أن الذين ضاقوا بهؤلاء العمال ، وثاروا عليهم ونقموا من عثمان توليتهم ، لم يكونوا مخطئين .

الهدف هو تسفيه نظام الحكم الإسلامى :

وهكذا تجدنا أمام مجموعة ضخمة من السموم والأكاذيب والافتراءات ، التى حشدها الاستشراق على لسان رجل مسلم اسماً ، ليحطموا به تلك الدعوة المنطلقة على ألسنة وأقلام دعاة اليقظة الإسلامية .

وقد تركزت الحملة على نظام « الحكم فى الإسلام » ، مما صح معه القول بأن كتاب « الفتنة الكبرى » ، إنما هو فتنة كبرى فى الفكر الإسلامى ، لما امتلأ به من التشكيك والدس ومغالطة الحقائق ، وقد أراد الدكتور طه حسين من هذا العمل — أو أريد له — إقناع المسلمين بأن الحياة الإسلامية لا وجود لها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأن طبقت فلأمد محدود لايتجاوز حياة عمر ، فقد عمد إلى تلطيخ صورة الخلافة الوضاءة ، لكى يصرف أبصار الناس عنها ، على حد تعبير الأستاذ « محمد النايف » .

بلا دليل :

ولكن هل استطاع الدكتور طه حسين أن يقدم سنداً علمياً أو تاريخياً لكل هذه الافتراءات ، فما هى مصادره فى دعاواه ، الحقيقة أن مصدره هو هواه ، وما فطر عليه من غلو وتطرف فى الاعتماد على الروايات الضعيفة ، وعلى كتب الأدب لا روايات الحديث والسير .

إن طه حسين يريد أن يقول للمسلمين :

إن النظام الإسلامى قد عجز ، وأن الطريق الصحيح الذى تحقق وما زال مفتوحاً هو النظام العلمانى ، الذى يحل مشكلات الدنيا ، وهو يدعو مسلمى

عصره إلى صرف النظر عن التفكير فى النظام الإسلامى وفى الخلافة وأن يبطلوا السعى إليها ، وأن يرضوا بحكم الديمقراطية الغربية (حل مسائل الدنيا بوسائل الدنيا) .

الله أكبر . . والحق أكبر :

ولكن الحق أكبر من طه حسين . فقد زيفت الدراسات الإسلامية كل دعاواه وكشفت الصحوة الإسلامية عن أن نظام الحكم فى الإسلام هو الأعلى ، وأنه هو المنطلق الذى لا سبيل غيره لإقامة حياة المسلمين ومجتمعاتهم ولو كره الذين حرضوا طه حسين ، وفتحوا له أبواب الشهرة والمناصب والأوسمة . وقد باء بهذه التبعية الذليلة ، « أن يكون خادماً للفكر الوثنى المادى » ، وأن يستغل هذا الأسلوب الجزل الذى أعطاه الله إياه ودراسته القرآن ، ليكون حرباً على كلمة الله والقرآن .

وسيظل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مكانهم العظيم الكريم ، وفى ذلك المستوى الذى لن يستطيع الناس أن يبلغوه .

وقد سخر منه كل قارىء مؤمن ، فما كان يستطيع الدكتور طه حسين ، أن ينال من هذه الأسماء الكريمة مهما ذهب فى الدس والتزييف .

تناول هذه الكتب بالدراسة عدد من الباحثين فى مقدمتهم الأساتذة غازى التوبة ، محمد النايف ، الدكتور ابراهيم سسقوط ، الدكتور محمد البهى ، الأستاذ محمد عمر توفيق .

حاشية :

كتبت الدكتورة بنت الشاطىء (إبريل عام ١٩٤٨) مقالا فى الأهرام أشارت فيه إلى الدور الذى قام به عبد الله بن سبأ فى خروج جموع الأقاليم إلى المدينة ودوره فى حادثة الجمل يوم تم الصلح بين المسلمين ، ودوره فى أحداث صفين ، وقالت : إن طه حسين لم يعرض لشىء من هذين الحادثين الأخيرين ، وقال : إن هذا الإضعاف من هذا الشأن وهذا الإغفال ، يخالف الروايات الشائعة ويوافق الروايات القليلة التى لم تشتهر ، وأشارت إلى الفرق بين كتابة الأديب وكتابة المؤرخ لهذه الأحداث ، وقالت : إن الدكتور يلقى إلينا أحكامه أحياناً فى إطلاق ينافى الحرص واعتداد يمنع من الحذر .

الفصل الرابع

الإسـلام

إذا أردنا أن نصور موقف طه حسين من الإسلام فى كلمة واحدة لاستطعنا أن نقول : هى الجرأة على الله تبارك وتعالى .

فإذا تحدث الناس عن فساد وجهته فى الاختلاط بين الجنسين فى الجامعة قال : لا أعلم فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله نصاً يحول دون الاختلاط بين الرجل والمرأة ، وإذا سأل (روم لاندو) عن ظاهرة الإسلام التى تكشفت فى شباب الجامعة حين وقفوا ضد موافقة كلية الآداب على تقرير كتيب فيها إساءة للنبى والإسلام ، قال : إنه لا يعتقد أن الدين أصبح عاملا مهماً فى حياة شباب الجامعة .

وعندما سأله المحقق عند إنكاره وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام بالرغم من وجود نص ذلك فى القرآن قال إن العالم يعتقد شيئاً بوجدانه ولكنه لا يقبله بعقله ، ومعنى هذا هو تراوحه بين الإيمان والشك . وقد أثبتت نصوص كثيرة أوردناها فى الفصول السابقة عن قوله ببشرية القرآن دون أن يصرح بذلك خوفاً من غضب الجماهير ، وغمزه للسيد الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله : (لأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم ، ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربى مطابق فى ألفاظه للغة العرب) .

وحين ينكر طه حسين أن القراءات السبع منزلة من عند الله تبارك وتعالى إلى عديد من المواقف كلها تكشف بوضوح عن جرأة شديدة على الله تبارك وتعالى .

وفى فصل كتبه فى سنوات مبكرة عام ١٩٢٣ يتحدث فيه عن المؤمن والملحد وكيف يتردد فى النفس ذلك الإيمان مرة وذلك الإلحاد مرة أخرى ، وهو حريص أن يبث الشك والحيرة فى النفوس حين يقول :

« وهذا الملحد الذى يستشعر الإلحاد ويتخذه مذهباً وعقيدة فيعاند وينازع ويدفع عن إلحاده ، كما يدفع المؤمن عن إيمانه وينكر الله ، كما يثبته المؤمن . ويعتقد أن العقل كل شىء وأن آثار العقل وحدها خليقة بالإجلال والإكبار وأن نجاة الإنسان فى عبادة العلم والإذعان له لا فى إكبار الدين ، والخضوع لأوامره ونواهيه » . هذا التصوير مهما يراد به فهو أمر خطير أن يقدم للشباب فى الصحف السيارة على هذا الوجه ، وهو ما كان طه حسين يقوله لتلامذته ، وما قاله لهم حين أخرج من الجامعة بعد حادث كتاب (برنادرشو) الذى يهاجم الإسلام وحين اقتحم الطلبة مكتبه وكادوا يفتكون به . يقول للشباب فى إبان الاحتفال الذى أقيم له (الأهرام ٦/ ٤/ ١٩٣٢) :

أرجو أن يكون بيننا عهد ، كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم هذا العهد هو أن لا نؤمن إلا بالعلم وطه حسين هو الذى يقول : إن الدين ظاهرة اجتماعية وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة كلها . وأن الدين لا يستطيع القدرة على إثبات الله . وزعم أن السيرة النبوية أسطورة لا يقبلها عقل ولا منطق ، وقال : إنه فى البحث عن الأدب ننسى قوميتنا وكل مشخصاتنا وننسى ديننا وكل ما يتصل به وإن علينا أن ندرس الأدب العربى غير حافلين بتمجيد العرب أو الغض منهم ولا مكترثين بنصر الإسلام أو النعى عليه .

والدكتور طه حسين هو الذى عارض مادة (الإسلام دين الدولة) التى وردت فى الدستور . قال : إن للدولة المصرية ديناً رسمياً هو الإسلام ، ولو قد استشارنى أولئك أو هؤلاء لطلبت إليهم أن يتدبروا ويتفكروا قبل أن يضعوا هذا النص فى الدستور ، وقال : إن هذا النص كان مصدر فرقة لا بين المسلمين وغير المسلمين – وإنما كان مصدر فرقة بين المسلمين أنفسهم ، فهم لم يفهموه على وجه واحد ولم يتفقوا فى تحقيق النتائج التى ترتب عليه .

وفى أحاديث أخرى وصف هذا النص : بأنه [النص المشئوم] وحين استشرت فتنة التبشير وتحدثت الصحف عن محاولات المبشرين فى تخدير ضحاياهم ونقلهم إلى المسيحية من أمثال نظلة غنيم ، كتب يقول : من

المحقق أن الإسلام لن يضعف إذا خرجت منه نطلة غنيم ، وأن المسيحية لن تقوى إذا دخلت فيها نظلة غنيم .

وحتى عباراته العامة فى كتاباته توحى بالاستهانة بالإسلام والسخرية ، فهو الذى يقول : من ذا الذى يستطيع أن يكلفنى أن أدرس الأدب لأكون مبشراً للإسلام أو هادماً للإلحاد .

هذه النصوص كلها تستطيع أن تعطى الانطباع الصحيح لموقف طه حسين من الإسلام .

(٢)

إذن فما هو موقف طه حسين من الدين ؟

يقول طه حسين : ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية . وما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين ، فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم ، فالعالم الحقيقى ينظر إلى الدين كما ينظر اللغة وكما ينظر الفقه وكما ينظر إلى اللباس من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة ويتبع الجماعة فى تطورها وتتأثر بما تتأثر به الجماعة من المؤثرات المختلفة كالبيئة والإقليم والوضع الجغرافى وما إلى ذلك . إذن فالدين ظاهرة كغيره من الظواهر الاجتماعية لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى ، وإنما خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها. (السياسة الأسبوعية ، وكتابه (من بعيد) ١٧ يوليو سنة ١٩٢٦) .

هذا هو العلم الذى عاهد طه حسين طلبته بعد إخراجه من الجامعة أن لا يؤمنوا إلا به ، فما هو هذا العلم ؟ هل هو حقيقة ذلك العلم التجريبى الذى خرج نتيجة معادلات الأنابيق فى المعامل ؟ الحقيقة أن كلمة العلم هنا هى خدعة خدع الدكتور طه حسين بها الناس سنوات طويلة من دعواه . إن ما يقوله هو البحث العلمى والمنهج العلمى ، وما يقوله العلماء ، وأن هذا العلم هو ما اعتمد عليه فى البحث فى الأدب والتاريخ والاجتماع . إنها خدعة كبرى ، ذلك أن هذا الذى يعنيه طه حسين إنما هى الفلسفة ، والفلسفة المادية خاصة التى شكلها دعاة التنوير فى الغرب من اليهود والذين حملوا

لواء الدعوة إلى هدم كل مقدرات الأديان والعقائد ، وفى الأخير أساتذته أصحاب مدرسة العلوم الاجتماعية : دوركايم ، وليفى بريل ، وكازنوفا أتباع نظرية التفسير المادى للتاريخ وتلاميذ ماركس وخدام أهداف بروتوكلات حكماء صهيون ودعاة هرتزل والممهدون لسيطرة الفكر الصهيونى الشيوعى على العالم الإسلامى .

وهذه الأطروحة التى قدمها طه حسين كانت فى الحقيقة مقدمة لما كشفت عنه محاضرات الشعر الجاهلى على طلبة كلية الآداب بالجامعة ، فهذه الفكرة مأخوذة من (دوركايم) اليهودى ، الذى غض من قدر ابن خلدون وتابعه طه حسين فى هذه الوجهة فى رسالته إلى جامعة باريس . وفكرة الشعر الجاهلى وانتحاله والتشكيك فيه من عمل (مرجليوث) اليهودى أيضاً ، فهذه خطة مرتبة لم تكن أبعادها واضحة فى ذلك الوقت للباحثين والمراقبين ولكنها كانت واضحة فى نفس طه حسين ، فقد كانت فكرة الكوليج دى فرانس الخفية هى هدم الإسلام ، والأسلوب الظاهر هو الأدب والعلم والشعر الجاهلى والقصة الجنسية المكشوفة وإحياء شعر أبى نواس وبشار ، بدعوى أنه يمثل العصر ، وإن القرن الثانى للهجرة عصر شك ومجون . وهكذا تظهر القطاعات منفصلة عن بعضها ثم تتشكل فى صورة كاملة خطيرة .

وكلام طه حسين عن الدين والعلم واضح فى إنكار طه حسين لمصدر الدين وللوحى وللنبوة وإيمانه بالفلسفة المادية التى أطلقها خصوم الإسلام تحت اسم العلم خداعاً وتضليلا .

وقد وجدت كتابات طه حسين هذه فى وقت ظهورها من ردها وكشف زيفها . يقول الأستاذ عبد الباقى سرور نعيم :

(إن منشأ القول بالتنافر بين العلم والدين هو التوسع فى إطلاق لفظ العلم على آراء الفلاسفة ومذاهب علماء الطبيعة وفروضهم ، فقد ظن بعض الناس ألا بأس بإطلاق لفظ : العلم على مذهب العالم الفلانى ، وأثبت العلم نظرية الفيلسوف الفلانى . وهكذا تراهم يتوسعون فى إطلاق لفظ : العلم حتى جر بعض أصحاب النيات الفاسدة إلى أن يطلقوا على الآراء الإلحادية

بأسرها لفظ : العلم ، ولا شك أن العلم بهذا الإطلاق يتنافر مع الدين لأنه ينقضه ويبطله ، ولأن الدين ينهى عن اتباع مثل هذا النوع من الوهم والضلال ولكن إذا حدد معنى العلم يتبين أن هذا النوع الأخير — أى الفلسفة المادية — يتنافر مع العلم كما يتنافر مع الدين لأنه لم تؤيده تجربة ولم يشهد بصدقه اختبار ، غاية الأمر أنه منسوب لعالم يعرف علم الطبيعة أو لفيلسوف يدرك نظريات الكيمياء ، وهل ضل الناس إلا منذ أن غفلوا عن التفرقة بين ما يقوله العالم تطبيقاً لقواعد العلم ، وبين ما يقوله من تلقاء نفسه جرياً وراء أهوائه واستحساناته ؟ يقرر الدكتور طه : أن العلم لم يرض بأن يقتصر على الخصومة بينه وبين الدين ، بل عمل على إخضاع الدين لمباحثه ، فجعل يقلبه بين يديه وينظر فيه نظرة استقراء واستقصاء وأخذ يطبق عليه مذهب النشوء والارتقاء ، فاعتبره شأناً من شئون الاجتماع وحالا من حالاته يتحول و ينتقل من حالة أدنى إلى حالة أعلى وهى فى جميع تطوراتها من صنع الإسلام ، ومن مبتكراته فهو مبدع الدين وموجده .

وهو يريد بلفظ : العلم (علم الاجتماع) فهو الذى يتناول هذا المبحث ، وفى الحق أن الباحثين فى علم الاجتماع نقدوا هذا المذهب ، فلم يذهب إليه إلا فريق قليل (كسبنسر) من حذا حذوه . إن نظرة واحدة فى علم الاجتماع تكفى للحكم بأنه لا يزال فى دور التكوين وأن قواعده لم تثبت ومباحثه لم يبرهن عليها ، وإنما هناك طائفة من المباحث اصطلحوا على تسميتها (علم الاجتماع) وذكروا مع هذا الاصطلاح أن هذا العلم لم يبلغ بعد مبلغ العلوم الرياضية ولا مبلغ العلوم الطبيعية .

يقرر بعض الباحثين فى هذا العلم : أن الدين من مبتكرات البشر وأنه ليس وحياً سماوياً وأن الكتب من مختلقات الرسل ، وأن دعوى الرسالة كذب وافتراء ، فيأتى الدكتور طه ويقول لنا : إن العلم أخضع الدين لمباحثه وأنه شرع يحلله وينقده وأنه اعتبره من شئون الاجتماع يجرى عليه ما يجرى من أحكام وفروض . وهو فى إطلاقه لفظ : العلم ، يوهم القراء أن العلم الذى أوجد المخترعات والماكينات وأنشأ سلك المدنية المادية هو يعنيه العلم الذى يقرر هذا الرأى ويثبت أن الدين من صنع البشر ، مع الفارق الواضح بين

مرتبة العلوم الطبيعية وعلم الاجتماع ، أم هو يدلس فيستعمل لفظ : العلم فيما لا صلة له بالعلم ليوهم القراء أن العلم الذى شاد تلك الحضارة الهائلة واكتشف تلك المكتشفات الباهرة وغير وجه البسيطة : هو يعنيه العلم الذى أخضع الدين لمباحثه فشرع ينقده ويحلله ويعتبره شأناً من شئون الاجتماع له من الأحكام والصفات ما لظواهر الاجتماع وحالاته من نشوء وارتقاء وتحول من أدنى إلى أعلى .

إن خطأ تطبيق علم الاجتماع مذهب النشوء والارتقاء على الديانات واضح ، مع أن المذهب نفسه لم يثبت فى مجاله العلمى . إن تطبيق مذهب من المذاهب لا يكون إلا بعد التثبت من صحته والجزم بأنه قد جاوز طور الوهم وطور الظن ودخل فى حيز العلم الواقعى وتطبيقه — قبل التثبت من هذه الأمور — جناية على العلم وتدليس على الناس . إن إخضاع الدين للعلم يقتضى أن يكون العلم قادراً على استحضار جميع الأدوار التاريخية التى مر بها الدين استحضاراً تاماً والوقوف عليها وقوفاً تفصيلياً . وإذا كان المقرر فى العلوم الطبيعية إنها ليست بقادرة ولا بمستطيعة أن تعطى رأياً نهائياً فى مقدراتها العلمية ، وإذا كانت الآراء كلها نسبية فى العلوم والمعارف وقابلة للتحوير والتعديل والمراجعة وإعادة النظر فكيف يقرر الدكتور فى تلك المسألة أن العلم يقرر وأن العلم يؤكد ؟

لقد كان الدكتور فى كتاب (الشعر الجاهلى) يعتمد على الشك ، كان يشك فى كل شىء وكان يقول : إن العلم يؤيده فى شكه ، وإن مذهب ديكارت يعتمد الشك فى كل شىء ، وها هو اليوم يقول : إن العلم يؤكد خضوع الدين للنشوء والارتقاء . فالعلم يعتمد الشك حينما يريد الدكتور الشك ويعتمد الإثبات حينما يريد الدكتور الإثبات ، فالعلم طوع إرادة الدكتور يصرفه كيف يشاء ويضعه حيث يشاء . العلم متاع من أمتعة الدكتور يرسله إلى المحطة التى يريدها ، فإن شرق شرق معه وإن غرب غرب معه ، وعلم هذا شأنه أولى أن يكون فى نعال الناس لا فى رءوسهم وأن يداس بالأقدام لا أن يحفظ فى الصدور. إن العلم الذى يمتهنه صاحبه إلى هذه الدرجة خليق به أن يلعن وأن يطارد من البيئات العلمية فإنه سفاهة وحمق .

ولخص الباحث فكرته فى سطور قليلة فقال :

١ - العلم إذا أطلق حينما يراد المقارنة بين العلم والدين فالمراد به ما أنتجته التجارب وأيدته الاختبارات وتجاوزت به طور الظن .

٢ - أما الفروض والظنون والنظريات المحتملة فلا تسمى علماً ، وكذلك لا يسمى علماً ما يثبته الفلاسفة من الآراء بعد أن تحددت العلوم الطبيعية وامتازت بنتائجها التى جاوزت دور الاختبار والتجربة .

٣ - المذاهب الفلسفية لا صلة لها بالعلوم الطبيعية ولا علاقة تربطها بمسمى العلم حينما يراد بلفظ : العلم : النتائج الصحيحة .

(٣)

وهناك نظرية أخرى خطيرة يدعو إليها الدكتور طه : هى ازدواجيه الإيمان والإنكار . ومعنى هذا إنه إذا نفى العلم السموات السبع وذكر أنها ليست ثمة كواكب تسير فى الفضاء آمنا بذلك وإذا أثبت الدين السموات السبع آمنا بذلك وصدقناه ، وإذا قال الدين : إن ما جئت به من السموات ومن عند الله نزل به الروح الأمين آمنا بذلك وصدقناه ، وإذا قال العلم : إن الدين ظاهرة من ظواهر الاجتماع كاللغة والأزياء لم ينزل من السماء وإنما هو من الأرض آمنا بذلك وصدقناه .

وهكذا يرى الدكتورطه ،وبذا استقام له فيما يظن الدفاع عن نفسه ضد من يرمونه بالكفر وأظن أنه بالغ الغاية فيه ، فهو حين يعلن فى كتاب (الشعر الجاهلى) أن قصة إبراهيم وإسماعيل أسطورة حدثت قبل الإسلام ، إنما يعتقد ذلك بالشخصية العاقلة وهو بعد يؤمن بالله وملائكته وكتبه .

ونحن نؤكد للدكتور أن ما ذكره من تهيئته لاحتمال النقيضين فى مجالات العقول باطل ، وأنه لا يمكن الإيمان بالنقيض فلا يمكن الإيمان بأن البحر الأبيض شمال إفريقيا وليس شماليها .

ولذا قال علماء الكلام الذين شرطوا فى التكليف الإمكان : إن الله لا يكلف بالعلم والجهل معاً ولا بالإيمان بالنقيضين معاً وعلم أن الإيمان بالنقيض محال من بديهيات العقل ومهما قال علماء النفس على طريق التسمح :

إن فى الإنسان شخصين ممتازتين فلم يريدوا (الاثنينية) بمعناها الذى يجوز أن أحد الاثنين يؤمن بأحد النقيضين والآخر بالنقيض الآخر فلم يبلغ التهافت بأحد أن ينكر بأن لكل إنسان وحدته وشخصيته . وإذا رجع أحد منا إلى نفسه آمن بما يقول ، وكل بديهيات العقل تبين أن الإنسان من المحال عليه أن يؤمن بالنقيضين وأن يجمع فى معارفه بين التصديق بالشيء والتصديق بضده .

هذا هو الدكتور طه حسين الذى فتش المصريون فلم يوجد بينهم من يصلح أن يكون مدرساً للآداب فيها سواه ، هذا هو الذى يطعن فى الأديان ويكذب الكتب السماوية ويطعن فى علم الأوائل المعاصرين ، يجهل ما يعلمه بتميز الإنسان المميز عن المجنون والحيوان الأعجم ، ولطالما نبهنا الناس إلى أن الدكتور طبل أجوف صوته عال وفواده هواء ،وأنه ليس عند المنزلة التى يدعيها لنفسه ولكننا فى بلد تروج فيه كل دعوى) .

(مجلة الفتح)

ويقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى :

(فى مقاله يريد أن يثبت أنه من الممكن أن يكون مثله كافراً أشد الكفر على اعتبار أنه عالم يبحث بعقله ، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون مؤمناً أقوى الإيمان على اعتبار أنه شاعر يحتوى الإيمان فى شعوره ، وليس يخفى أن الشعور محل الغفلة ، كما أن العقل محل الخطأ ، فلم يكون طه كافراً ومؤمناً فى عقله وشعوره ، ولا يكون فى فلسفته هذه مغفلا من ناحية ومخطئاً من ناحية أخرى ، وهل يجتمع هذا التناقض إلا فى عقل واهن ضعيف كعقل الأستاذ ، وإلا فمن ذا الذى يعقل أن نفى النبوة والوحى وتكذيب الكتب السماوية هو على وصف من الأوصاف علم وعقل وعلى وصف آخر دين وإيمان ، وفى أى عقل أن فى النفى إثباتاً لما ينفيه وهما نقيضان ولا يجتمع نقيضان معاً فى هذا الكون كله) .

(٤)

وعندما اتسع نطاق البحث دخل فيه كثيرون يكشفون زيف طه حسين ومغالطاته .

يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق : لم يخض الدين على معارضة العلم ،

بل على العكس إن الإسلام يدعوا إلى حرية البحث وصراحة التفكر والتسامح الذهنى : العلم والدين اليوم يتكاملان ، والفضل فى ذلك يرجع إلى تفكير العلماء على النمط الفلسفى ، فأصبح العلم اليوم يسلم بوجود ما ليس قائماً أمام الحس ، وذهب عصر البديهيات وتغير واقع القواعد العلمية وأصبح عصرنا عصر يقين واعتقاد بالقوى الخفية . وقد أستطيع القول : بأن العلم فى الأيام المقبلة سيخطو نحو الدين خطوات جريئة .

وقال الدكتور محمد حسين هيكل : ليس بين العلم والدين خصومة بحال من الأحوال لأنه مستقل فى ناحية لا تناقض الدين ولا تقع فى دائرته ، وواضح أن العلم بهذا الإطلاق ليس من مباحثه إثبات وجود الله ولا إثبات نبوة الأنبياء لأنهما ليسا مما ينال بالتجربة أو يقع تحت الاختبار ووظيفة العلم الطبيعى لم تخلق لبحث هذه المسائل ، ولا عيب يلحق العلوم الطبيعية إذا لم تتناول ما هو خارج عن وظيفتها .

فالحق المؤيد بالدليل أن للمعارف طرائق متعددة منها التجربة ، وقد اختصت بها العلوم الطبيعية ، ومنها البرهان والقياس على مدار العقل البشرى ، ومن هنا يتضح أنه ليس بين العلم الطبيعى الثابت بالتجربة وبين الدين خصومة ، نعم بين بعض المذاهب الفلسفية والمذاهب العلمية التى دخلتها الفلسفة وبين الدين خصومة ولكن هنا فرقاً واضحاً بين العلم الثابت بالتجربة وبين ذلك المذهب الوهمى الذى لم تؤيده تجربة ولم يقم عليه استقراء .

وكتب الأستاذ محمد محمود بدير المحامى : إن ظروفاً أحاطت بالدكتور طه حسين فى تدبير حياته الأدبية جعلت منه رجلا خطراً فى بعض آرائه وتصرفاته إن مغالطته وعناده يدفعان به غالباً إلى أمرين ظاهرين :

أولا : ممالقة أساطين العلم لا فى الشرق فقط بل فى الغرب .

ثانياً : مهاجمة العقائد وعدم مراعاة الشعور العام .

ولعل الذين يتبعوا تطورات الدكتور طه وعرفوا شيئاً من آرائه ومواقفه لن يجدوا كبير جهد فى الوصول إلى الحقيقة .

ومعلوم أن علماء الإسلام فى الماضى والحاضر قد تحدثوا عن العلم والدين

وكلهم مجمع على أن النظريات العلمية الحديثة لم يثبت تناقضاً بين العلم والدين وقد تناول الدكتور هيكل هذه الناحية فى جريدة السياسة الأسبوعية فأثبت فيه تعاون العلم والدين وعدم وجود تناقض بينهما ، وقال : ليس هناك خلاف بين العلم والدين ولكن يوجد أحياناً خلاف بين رجال العلم ورجال الدين .

كان الدكتور طه فى أوربا فلم يستطع السكوت ولم يستطع التأييد لأنه يميل بطبعه إلى الخلاف والشذوذ فى مغالطة وعناد مهما كلفه ذلك ، فأسرع يبعث للسياسة بمقال كبير يرد فيه على الدكتور هيكل قال فيه : (ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية . . . إلخ) .

وقال : من زعم غير هذا وحاول التوفيق بين العلم والدين فهو إما خادع أو مخدوع ، وأنه لا سبيل لاجتماعهما إلا يوم أن ينزل أحدهما عن وجوده ، وحرص على أن ينشر هذه الآراء فى كل فرصة تسنح له . وقد حصل أن أقام له طلبة الجامعة ذات يوم حفلا فخاطبهم قائلا :

ـ أرجو أن يكون بيننا عهداً ، كما أرجو أن يبلغه الحاضرون إخوانهم (أن لا نؤمن إلا بالعلم) .

على أن الدكتور طه ومصلحته الآن تناقض مصلحته منذ سنين ، إذ خرج فى إعلان رأيه فى العلم والدين ـ الآن قد لا يجد مانعاً من أن يعلن أنه أخطأ فى الماضى وإن كان هذا صعباً عليه .

* * *

الفصل الخامس

التراجـــــــــم

١ – الأيام .

٢ – مع المتنبي .

٣ – ابن خلدون .



مدخل

أراد طه حسين بكتابته عن التراجم الإسلامية قطع الطريق على العمل الذى قام به المخلصون من إعادة التمثل لبطولات كبار الصحابة وأعلام المسلمين أمثال : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وخالد وسعد بن أبى وقاص ، هؤلاء صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم الذين شيدوا هذا الملك الباذخ ونشروا الإسلام فى آفاق الأرض من أمثال محمد المثل الكامل وما كتبه الشيخ الخضرى ومصطفى صادق الرافعى ، فكان هدف طه حسين أن يقطع عليهم هذه الوجهة وأن يفسد هذا الاتجاه وأن يحاول اتهام هؤلاء الصحابة الكرام بأنهم جماعة من السياسيين المحترفين .

فهل كان طه حسين مؤرخاً ؟ اللهم لا . إذن فهذا العمل الذى يدخل فى باب الأدب لم يستوف شرائط المنهج العلمى حتى يكون صالحاً ، فضلا عن أنه كان بعيداً عن النصفة والنزاهة ، فقد تابع المستشرقين المتعصبين فى أحقادهم على فضل هؤلاء الأعلام وإنكار فضلهم وحاول أن يتصيد لهم الأخطاء .

وهو لم يتوقف عند هذا فحسب بل ذهب إلى أبعد من ذلك بأن قدم لشباب المسلمين هيرمروس وسقراط وأرسطو وأفلاطون على أنهم قادة الفكر البشرى ، فى كتاب تقرر فى المدارس ردحاً طويلا ونشأت عليه أجيال ، من دون أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسعد بن أبى وقاص وخالد ، فلما استدارت الدنيا واعلا صوت اليقظة الإسلامية جاء طه حسين لينقض هؤلاء الأعلام الكرام ويغمز لهم على النحو الذى تجده فى كتاب الفتنة الكبرى ، والوعد الحق ، والشيخان وغيرهما .

* * *

(١)

الأيام

حاول الدكتور طه حسين فى كتاب (الأيام) أن يكتب ترجمة لحياته فى أسلوب فنى على نحو التراجم الذاتية الغربية وقد تردد أنه كتبه فى ظروف نفسية قلقة بعد حادث كتاب (الشعر الجاهلى) ولقد كان لهذا الحدث آثاره على الصورة التى رسمها لأسرته ومشايخه .

فانك تحس من قراءة الجزء الأول أن الحياة مملوءة بالظلم والكذب ، وأن الإنسان يظلمه حتى أبوه ، وأن الأبوة والأمومة لا تعصم الأب والأم من الكذب والعبث والخداع . وهكذا يصف أباه وأمه بالكذب والعبث والخداع . ثم يعود إلى اتهامه بالكذب مرة أخرى فى صورة تظهر فيها نقمته على المجتمع بأسره يقول : (وأى فرق بين الشيخ – أبوه – يقسم ويحنث وبين سيدنا (أستاذه) يرسل الطلاق والإيمان إرسالا وهو يعلم أنه كاذب ويعود مرة ثالثة ليصف أمه بأنها كانت مهملة له غليظة عليه ، وأن أباه كان يهمله وينظر إليه بشىء من الازدراء ، ويريد أن يلفت الناس إليه وأن يتحدثوا عنه ولاسبيل إلى ذلك إلا بإنكار مايعتقدون وتسفيه ما يؤمنون به .

ويرى الباحثون أن روح القسوة اللاذعة تشيع فى كتاب (الأيام) بأجزائه الثلاثة وأن المؤلف يصف أباه فى الجزء الأول ص ٣٨ بالظلم والكذب والخداع ، ويصف جده بثقل الظل وأن يستشعر بغضاً له دون أن يؤذيه فى شىء (ص ٢٦) . أما مبالغته فى ذم فقيه القرية فيظهر بجلاء إذا قورنت بما كتبه أحمد أمين فى (حياتى) أو هيكل فى (أوقات الفراغ) أو الزيات فى (وحى الرسالة) .

وقد أشار الدكتور محمد رجب البيومى إلى ظاهرة الظلم الواضحة فى كتاب الأيام للشخصيات اللامعة فى تاريخ العصر ، أمثال : طنطاوى جوهرى ومحمد المهدى ومحمد الخضرى وحفنى ناصف ، ظلماً ربما يدفع إلى إهمال

آثارهم الأدبية على نفاستها المشهورة ، مما جعل ظاهرة روح القسوة اللاذعة أبرز مظاهر هذا الكتاب .

فعن الشيخ طنطاوى جوهرى وهو علامة كبير له تفسير علمى للقرآن كان غاية فى الأثر لأهل عصره ، وكان من الدعاة إلى السلام العالمى ، وكان لآثاره مكانها فى الدوائر العالمية يقول عنه :

(كان يدرس الفلسفة الإسلامية ، وكان يتكلم كثيراً ولا يقول شيئاً ، وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة أكثر الكلمات جرياً على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن يتمه ، وكان لا ينطق بكلمة منها إلا مد ألفها وأسرف فى المد وربما أخذه شيء من ذهول وهو يمد هذه الألف فيغرق الطلاب فى ضحك يخافت بعضهم ويجهر به ببعضهم الآخر . . . الخ) ويمضى الدكتور فى مثل هذا الاستخفاف دون اقتصاد وإذا كان من حقه . وقد صور انطباعه الخاص نحو دروس الشيخ أن يقول ما يعتقد ، فإن من الواجب العلمى عليه أن يقرن هذا التهكم المتصل ببعض ما يشير إلى فضل الأستاذ فى إنتاجه العلمى المبتكر وفى تأليفه الموسوعى الذى ترجم إلى عدة لغات ،أما أن يكون هذا التهكم الخالص كل ما يخص الرجل من تلميذه فذلك إجحاف صارخ إن أحس به الدارسون فلن يشعر به من يقرءونه من الطلاب .

وكذلك كان موقفه من أستاذه الشيخ محمد المهدى أستاذ الأدب فى عصره فى دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعى خلال أكثر من عشرين عاماً ، قال عنه : كان أبعد ما يكون من العمق وكان متكلفاً متفاصحاً لا يتكلم إلا العربية مغرباً فيها ، يملأ بها فمه وربما أضحك منها طلابه ، وكان الفتى (يريد الدكتور طه حسين نفسه) جريئاً عليه ، يجادله فى الدرس فيرهقه من أمره عسراً وربما أضحك منه الطلاب لأنه كان لا يحقق ما يروى من الشعر ، ولأن الفتى كان يرده إلى الصواب فيظهر عليه الاضطراب .

ويمضى الدكتور فى شبه ذلك عن تأثر بموقف منه فى درجات الامتحان .

أما الأستاذ الشيخ محمد الخضرى فهو أحد أعلام النهضة الفكرية المعاصرة ، وصاحب المؤلفات الذائعة ، التى تعددت طبقاتها مثل : نور الدين، وتمام الوفاء وأصول الفقه ، وغيرها ، يقول عنه طه حسين :

(وقد سحر (الخضرى) الفتى (طه) بعذوبة صوته وحس إلقائه . وصفاء لهجته ، وأحب دروسه فى السيرة وفى تأريخ الخلفاء الراشدين وحقوقهم ، وكان يظن أن ليس فوق علم الأستاذ علم ، ولكنه لم يكن يسمع دروس التاريخ فى أوربا حتى عرف أن الأستاذ رحمه الله كان ينقل دروسه من كتب القدماء فى غير نقد ولا تعمق وفى أيسر ما يكون من فقه التاريخ) .

وهو فى هذا لم ينصف الشيخ الخضرى ، بل أجحف به ، وموضع الإجحاف فى هذه المقارنة الفرق بين منهج الخضرى وبين أساتذة الاستشراق فالأستاذ الخضرى لم ينقل دروسه من كتب القدماء نقلا آلياً ولكنه انتخب واختار ووازن بين رواية ورواية حتى وفق إلى بناء مطرد ، وما كان طه حسين فى رأيه هذا من المنصفين ولكنه حمل من بعد على أستاذه عندما نقى كتاب (الأغانى) مما يحمله من الروايات الإباحية وكان هذا الكتاب هو المرجع الذى يعتمد عليه فى أن يتهم القرن الثانى الهجرى بأنه عصر شك ومجون .

(٢)

أما موقف الدكتور طه من الأزهر فقد كان شراً كله : فقد أراد أن ينتقم من موقف العلماء من كتابه فى الشعر الجاهلى ، فحمل على الأزهر حملة قاسية وظالمة ، حمل عليه مرتين : مرة لموقفه منه حين أسقطه فى امتحان العالمية ، ومرة أخرى نتيجة موقفه من كتاب (الشعر الجاهلى) .

ولقد جابه الدكتور الأزهر بالانتقاص والتشهير على حد تعبير الدكتور محمد رجب البيومى ، وملأ الصحف هجاء منكراً لأساتذته ، وقد عفوا عنه فلم يهموا ببعض ما يستحق ، ثم شاء صاحب الأيام أن يواصل هجومه عليهم دون مبرر معقول ، فكيف يكون الأزهر قد ظلمه وضاق به وهو ، المتحرش المهاجم .

وفى الجزء الثانى من كتب (الأيام) يكشف الدكتور نفسيته ويفسر سلوكه الهجومى على مجتمعه تفسيراً سافراً لا يقبل أدنى شك ، فقد أشار إلى أنه عندما رجع إلى قريته للمرة الأولى بعد انتسابه للأزهر فلم يجد من حفاوة الاستقبال وبشاشة الترحيب ما يجده أخوه الأكبر ، فغاظه هذا الإهمال ، فجعل يهاجم الناس فى أفكارهم وهكذا كما يقول : (انتقم الصبى لنفسه وخرج من عزلته وشغل الناس بالحديث عنه) .

وهذا ما يفسر سلوكه المهاجم للأزهر فى جميع مراحل حياته .

وقد روى كيف أن أستاذه المستشرق أخذه إلى دروس الأزهر وحرضه على نقد الأستاذ ، فلما رده الأستاذ رداً شديداً ، أمسك به المستشرق حتى لا يجادله وأخذه وخرج به ، وهكذا كانوا يحرضونه على الأزهر ويثيرون فى نفسه الأحقاد عليه ، هذه التى ظلت تتلظى فى قلبه إلى آخر يوم من أيام حياته ، وكان هجومه على الأزهر بمثابة نجوم جديدة يعلقها المستشرقون على صدره .

يقول الدكتور البيومى : لقد اتسع له صدر الأزهر ، ولكنه كان يريد أن يلفت الناس له ، فاصطنع الخلاف وآثر الشقاق ، وفزع إلى الصحف ليهاجم من يعلمونه ، وقد آذاهم بالباطل دون إنصاف .

وقد ظل يجادل مدرس النحو حتى ضاق به وقال له :

(الله يحكم بينى وبينك يوم القيامة) .

وكان لطه فى الأزهر يومها سبعة أشهر وهى مدة لا تتيح له مهما كان عبقرياً أن ينازل شيخاً ، قضى فى العلم والتدريس أربعين عاماً حتى يضيق به صدره ولم ينتقصه الشيخ ولم يغضب عليه ، ولكن طه لا يرعوى ، بل يحاول إثارة أساتذته وهم راحمون ، فأخذ يصفهم بالغيبة والنميمة والدس ، وهو بعد لجوج عنيد يعارض الأساتذة ويسرف فى التهكم والاستنكار .

وقد تعرض لكبار علماء الأزهر وفى مقدمتهم الشيخ نجيب المطيعى ووصفه بالجهل ، وكانوا ينقلون كلام المشايخ ليكون مادة جديدة للتشنيع ، ثم زاد طه فى اغتياب الأساتذة وفى التهجم على كبار العلماء تهجماً سافراً أمام الطلاب فى ساحة الأزهر .

وتحدث عن سقوطه فى امتحان العالمية بالأزهر : هذا الرسوب الذى عده السطحيون ظلماً صريحاً له ، فإذا حللنا أحداثه تحليلا صريحاً وجدناه نتيجة طبيعية لا محيد عنها ولا متصرف ، إذ أن الظلم قد انصرف — كما قال عن نفسه — عن دروس الأزهر انصرافاً تاماً حين فتحت أبواب الجامعة لمثله ، فهو إذن بعد انقضاء أربع سنوات من عمره بالأزهر لم يشأ أن يستفيد من دروسه شيئاً ، وخص دروس الجامعة بكل اهتمامه ، نائياً عن دروس المنطق والفقه والأصول والتوحيد والوضع والتفسير الحديث ، نأياً تاماً

لا اتصال من بعده ، وكان لا يلم إلا بدروس المرصفى فى الأدب والفقه ، واتسعت الصحف لنقد أساتذته لا لشئ سوى الدوى والاشتهار ، ثم تقدم لامتحان العالمية دون أن يستعد ويتسلح بمعرفة كتب الأزهر المعقدة وفهم موادها العلمية ، تقدم وهو لا يجيد غير علوم العربية وحدها ، وهناك علوم كثيرة لم يجلس إلى الأساتذة لكى يستظهرها ، وجاء الطالب إلى لجنة الامتحان يسبقه تاريخه الأليم فى سب الأزهر والأزهريين واحتقاره الصريح لكل ما يدرسونه ويتناولون به أساليب الشرح والتقرير وهو بعد لا يلم فى غير دروس العربية شيئاً ذى بال ، ولقد كان عليه حين أراد أن يظفر بإجازة الأزهر أن يستوعب علوم الأزهر ، إما أن يتعالى على هذه العلوم ثم يشنع على أصحابها فى الصحف والمجلات ثم يرى من حقه أن يظفر بالنجاح فيها دون تعمق فذلك ما لا يرتضيه منصف(١) .

ثم هو يغضب من حملة الأزهر على رجل يقول فى دروسه أن القرآن يتحدث عن إبراهيم وإسماعيل، ولكن حديث القرآن لا يكفى لإثبات وجوده. ماذا ينتظر المسلمون فى بقاع الأرض من الأزهر الشريف حين يرى أستاذاً جامعياً لا يطمئن إلى حقائق القرآن بل يعلن شكه فى هذه الحقائق على مئات من الطلاب المسلمين فى الجامعة ، ثم ينتقل ليقوله إلى آلاف القراء حين يصدر باطله الصريح فى كتاب يتداوله الناس ، فإذا كان ينتظر من رجال الأزهر غير أن يعفوا فى وجه من يشكك فى حقائق كتاب الله ويحاول أن يزلزل عقائد الشبيبة الإسلامية فى الجامعة ، أكان ينتظر أن يسكتوا على هذا الإفك الجرئ ليرضوا أعداء الإسلام ، أم أن ينتظروا أن يهب العلماء فى طليعة المستنكرين لما أريد من الطعن فى حقائق القرآن .

وقد قاموا بواجبهم ولم يحدث أن تراجع منهم أحد لينال منصباً دنيوياً حقيراً كما شاء مخرج مسلسل (الأيام) أن يفترى على الشرفاء بغياً بدون حق) محمد رجب البيومى (الأزهر ديسمبر عام ١٩٧٩ — الهلال سبتمبر عام ١٩٨٢) .

---

(١) والمعروف أن المستشرقين حققوا له أعلى ما يمكن أن يصل إليه من رد اعتباره ، فأعطوه دكتوراه من باريس، وعدد من هذه الشهادات من جامعات العالم ولكن ذلك لا يغنى شيئاً عن حقيقة جهله بعلوم الإسلام .

ولقد استنكر الناس تلك الإضافات التى وردت فى المسلسل تحاول أن تدين الأزهر عن مواقف لم تكن موجودة فى أصل الكتاب على نحو يوهم بأن علماء الأزهر هادنوا فى أمر الدين ابتغاء عرض الدنيا .

(٣)

(مع المتنبى)

يمكن القول بأن المستشرق (بلاشير) الفرنسى قد كتب كتابه عن المتنبى بهدف واضح هو تقزيم المتنبى الذى اتخذه الأدب العربى مدخلا إلى البطولة العربية فى فترة من فترات الحرج واستعلاء النفوذ الأجنبى ، والمتنبى مكروه فى الغرب وفى الاستشراق لأنه شاعر سيف الدولة ، ذلك الأمير المجاهد الذى قاوم دولة الروم على الحدود مع الشام وحمل فى وجهها سيف الجهاد سنوات طويلة فأدال منهم وكان لشعره أثر كبير فى بعث الحماسة فى قلوب أولئك المقاتلين الذين قاوموا نفوذ الدولة الرومانية الشرقية ولذلك فكان لا بد أن يهاجم المستشرق (بلاشير) هجوماً عاصفاً شنيعاً ويؤلب عليه ويدعو كتاب العرب من أوليائهم لكتابة دراسة تكشف عن دخائل هذا الشاعر الضخم وكان أول من لبى النداء هو الدكتور طه حسين الذى وجد مفتاح الهجوم على المتنبى فى تلك الدعوة المبطلة : وهى ما ادعاه عليه من أنه كان لقيطاً بحجة أنه لم يذكر أباه فى شعره صراحة .

ويرى (بلاشير) أن إحياء المتنبى كان بهدف انبعاث عقائد القومية والوحدة العربية الشاملة فى البلاد العربية فى هذه الفترة يقول :

إن شهرة المتنبى فى وقتنا هذا صادرة عن ينبوع آخر : هو تلك المؤثرات القومية والعربية الشاملة التى تحمل المسلمين على أن ينقبوا فى (شرق) القرون الوسطى عن رجال يقاتلون بهم رجال الغرب ، تجعل من مادح أمراء سوريا ومصر وفارس ممثلا للعبقرية العربية ، منتصباً تجاه العبقرية الأعجمية ، وهكذا يظهر المتنبى بمظهر فينى أو جوته بل بمظهر نيتشة شرقى يبرهن بمقدرة باهرة على المساواة الثقافية فى بلاد هى اليوم تحت وصاية أوربا الفكرية والسياسية . . إلخ .

وهكذا نجد أن دراسة طه حسين كانت استجابة لهدف استشراقى ضخم، هو هدم شخصية عربية التمس فيها العرب فى هذه الفترة وسيلة للدفاع عن وجودهم ومقاومة الاستعمار الأجنبى الذى يفرض عليهم نفوذه ومطامعه، فإذا اتخذوا من أمثال المتنبى بطولة يتحدثون من حولها عن الحرية والبطولة كان لا بد أن يضرب هذا الهدف وأن يوكل هذا الأمر لرجل يكتب بالعربية فتحمس طه حسين ليستعمل مذهب الشك الفلسفى فيتهم المتنبى بأسوأ تهمة وهو أنه « لقيط » ولما كان الأستاذ محمود محمد شاكر قد أصدر قبل وقت دراسة عن المتنبى قرأها طه حسين فإنه لذلك دار بينهم فى هذا حديث :

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر : أراد الدكتور طه أن يخلص إلى القول بأن مولد المتنبى كان شاذاً وأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به فى سيرته كلها ، وسبب الشك هو أنك إذا قرأت ديوان أبى الطيب لا تجد فيه ذكراً لأبيه ، أنك تجده لم يمدحه ولم يفخر به ولم يرثه ولم يظهر الحزن عليه .

يذهب الدكتور طه حسين إلى أن المتنبى (لقيط لغية) وكان من حديثه لى أن قال : أنت تذهب إلى أن المتنبى علوى النسب وأنا قرأت هذا الفصل وأوافقك على الشك فى النسب ولكنى لا أوافقك على أنه علوى ، ثم ماذا يا فلان، لو قلنا إن المتنبى لقيط — وقد والله خيل إلى أن الشيطان فاغر فاه بينى وبين الرجل فرجفت رجفة وعذت بالله .

ثم قلت له : إن هذا رأى منقوض من وجوه ، وهو على كل حال نتيجة للشك فى نسب المتنبى مع التوقف عند هذا الشك قبل القول بأنه علوى أو جعفى ، أو هذا وذاك ، أخذ الشك من النسب منى وعجز أن يقول شيئاً فى نسب جديد يلصقه به ، وهذا الرأى وحده هو سر اهتمام الدكتور طه حسين بالكتابة عن المتنبى فلو لم يكن وقع عليه ما كتب عنه .

ويقول طه حسين : وليس المتنبى مع هذا من أحب الشعراء إلى وآثرهم عندى ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسى منزلة الحب والإيثار ، ولقد أتى على حين من الدهر لم يكن يخطر لى أن سأعنى بالمتنبى ، أو أطيل صحبته أو أديم التفكير فيه » فلولا أنه شك فى نسب أبى الطيب وانتهى إلى أنه (لقيط) لما كتب عنه حرفاً واحداً لأنه لا يحب الرجل ولا فنه . وقد شرح المازنى

ذلك فى كتابه (قبض الريح) قال (ص ٨٣) : ولقد لفتنى من الدكتور طه حسين فى كتابته (حديث الأربعاء) و (قصص تمثيلية) أن له ولعاً بتعقب الزناة والفساق والفجر والزنادقة) .

وما ذهب إليه الدكتور طه حسين من أن المتنبى (لم يكن يعرف أباه ، ولم يكن يستطيع أن يفاخر بأسرته ولا أن يجهر بذكر أمه وأبيه ، وأنه كان يشعر بالضعة والضعف من ناحية أسرته ، لم يستطع الدكتور الجليل أن يأتى ببيت واحد من ديوان أبى الطيب يؤيد به هذا الرأى ، ومع ذلك هو يقول به ويكرره ويعيده .

أين وجد المتنبى يشعر بالضعة أو ينكر أمر نفسه أو أمر أسرته وأين هذا الأثر الذى أتاح له أن يقتنع بأن مولد المتنبى كان شاذاً وبأن المتنبى أدرك هذا الشذوذ وتأثر به فى سيرته كلها . لم يشر الدكتور طه فى موضع واحد إلى حكاية هذا النسب فهو بذلك عاجز من ناحيتين : ناحية شعر المتنبى وعاجز من ناحية تفسير حياة المتنبى وتحليلها على ضوء هذه الصفة وهذا المولد الشاذ . وكبر مقتا عند الله وعند الناس . (البلاغ ٢٧/ ٢/ ١٩٣٧) .

(٤)

وقد أشار الأستاذ (محمد خالد (أبو خلدون) إلى ترجمة الدكتور للمتنبى فقال : إنه يتبع فضائل أبى الطيب ومانحله الناس إياه من الفضائل فينسخها واحدة بعد واحدة ويعمد إلى القواعد التى أقام التاريخ عليها مجد المتنبى فينتقصها قاعدة بعد قاعدة، ومازال به حتى جرده منها جميعاً وأصاره إلى شىء ضئيل تزور عنه العين وتعافه النفس ، إن رجع تلك الصدمةالعتيقة التى لاقيتها حين رأيت الدكتور يحاول هدم أبى الطيب المتنبى ويحط منه وهو الشاعر الذى زين الشعر العربى وجمله ونفح منه من روح الفتوة والحماسة : إن الدكتور طه حسين قد أقام كثيراً من قضاياه على أبى الطيب مقام الافتراض والظن ثم ذهب يعرض تلك القضايا كأنها قضايا قائمة على حقائق ثابتة ووقائع ناهضة ، وفى هذا من الظلم لأبى الطيب والتحامل عليه ما لايخفى ومما يزيد هذا الظلم سوء مغبة أن المواضيع التى أقام الدكتور طه حسين قضاياه لتأييدها

وإثباتها هما من المواضيع الخطيرة التى تقترح نتائجها فى المترجم له وتهوى به إلى الحضيض . وحق قضايا مثل هذه أن لا تقوم على الطعن والافتراض بل على اليقين والواقع ، من مثل هذا أن الدكتور اجتهد بل ألح إلحاحاً شديداً فى الزراية على نسب أبى الطيب حتى لقد خيل إلى وأنا أقرأ الفصول التى كتبها عن مولده وآبائه الأدنين أن الدكتور يهيئ ذهن القارئ نتيجة لموقفه هى أشنع ما يمكن أن يقترح بها فى إنسان من عامة الناس ، بل أمثال أبى الطيب من ذوى الأنفة والحمية . فإنه فهم ما عناه من تلك المقدمات الطويلة ولمح على كره النتيجة التى تنتهى إليها هذه المقدمات إن صحت ، وهى أن المتنبى ممن يوصف بأنه « ابن أبيه » وقد استند الدكتور طه حسين فى هذا الحكم الموبق إلى شيء واحد هو أن والد المتنبى لم يرد له ذكر فى شعره .

وفى الكتاب كثير من هذه الأمثلة التى تؤيد ما أسلفنا ذكره من أن الدكتور طه حسين قد اعتمد كثيراً على ظنه واستخلص من وراء هذا الظن نتائج خطيرة بعيدة الأثر .

(٥)

ويقول الأستاذ خليل شيبوب (الأهرام ٢٧/ ٣/ ١٩٣٧) إن طريقة الدكتور طه حسين فى نقد المتنبى ليست هى الطريقة العلمية التى راعت الأستاذ ابن خلدون لأنها ذاتية لا موضوعية ، بدليل تقريره أن المتنبى ليس أحب الشعراء إليه فلا عجب فى ذلك بل العجب أن يكون غير ذلك . والمتنبى رجل خشن المجس ، صلب العود ، أكثر من ذكر الدم والقتل ، ووصف الحرب ومجانبة اللهو وطمح إلى الملك والإمارة وجاب آفاق الشرق من مصر إلى العجم قلقاً نافراً مطارداً ، أمثلة عليا لا يحققها ، والدكتور طه حسين رجل ناعم النفس وادع الخلق لين العريكة دمث الجانب يحب المفاكهة والمداعبة والنكتة البارعة مطمئن القلب ، لا يكون حبيباً إلى نفسه إلا شاعر كالبحترى وأبا نواس ، ولذلك جاء نقد الدكتور طه حسين متمشياً مع عاطفته وذوقه لامع الجمال الموضوعى فى المنقود والفن المستقل الذى يشع عنه ، ودون التفات إلى اللذة النفسية التى يثيرها أو لا يثيرها ، وإذا حاول مرات

أن يتخلص من مؤثرات نفسية ويسير فى نقده على ضوء الفن المجرد ، فإنه سرعان ما كان يقتضب البحث ويختصر الطريق ويعود إلى سجيته وطبعه .

قال إناتول فرانس : النقد كما أفهمه ضرب من القصص تتداوله العقول وكل قصص إذا حسن تناوله ترجم حياة كاتبه ، فالناقد المجيد من قص حوادث نفسه فى ثنايا الوقائع الأدبية ولكى يبقى الناقد جرئ يجب عليه أن يقول أيها السادة : سأكلمكم عن نفسى بمناسبة شكسبير وبمناسبة راسين وبسكال أو غوته فإنها لفرصة جميلة » .

وهذا ما فعله الدكتور طه حسين ، وكان صريحاً جداً لأنه أعلنه من غير مداراة ولا التواء ، فهذه هى الطريقة الذاتية فى النقد التى يعنى الناقد على مقتضاها بذاته وبنفسه أكثر مما يعنى بذات المنقود وحينما جابه قراء العربية بما ينطوى عليه من دعاية ومفاكهة راع مثل صديقنا الأستاذ خلدون إذ ظن أنها الطريقة العلمية التى تبنى وتهدم ، وفيها أسرار التركيب والتحليل ، أما الذى ثبت لها ثبات الطود ولم تنل منه فتيلا ، فالمتنبى نفسه وإذا كان قد طال عجبى وإعجابى من براعة الدكتور طه حسين إلا أن الروعة الصحيحة لاتزال تملكنى كلما جرى ذكر المتنبى وحسب عبقريته أنه لا تزال تؤلف فيه الكتب وتدرس أشعاره على أحدث طرائق النقد .

وردت مزاعم فى الدراسة ، وكل ما فيها قائم على استنتاج واستنباط هما أقرب إلى الاستبداد والتحكم ، وكان آخر من توسع فى الكلام عليه صاحب الصبح المنبى المتوفى فى القرن الحادى عشر للهجرة ما ورد ، فأورد فى سياق حديثه أموراً كثيرة استقل بتقريرها ولا شك أن الأستاذ بلاشير وغيره من الغربيين إنما رجعوا إلى هذه المصادر العربية وكتبوا ما كتبوه على طريقتهم التى يشغف بها الدكتور طه وينتهجها . أما البديعى صاحب الصبح المنبى فأغلب الظن أنه لم يبتدع الوقائع التى سردها ، بل لأن أنه طالعها مبعثرة فى كتب كانت عنده فجمعها على طريقه فى التأليف . أما هذه الكتب فلا شك إما أنها فقدت فأقفل بفقدها باب البحث فى صحة ترجمة البديعى للمتنبى أو أنها تحت أطباق من التراب فى إحدى مكاتب الدنيا) .

يقول الأستاذ محي الدين صبحي :

لقد كتب المستشرق ريجيش بلاشير كتاباً عن حياة المتنبي جاء آية من آيات التحقيق التاريخي ، وهو في الوقت ذاته كتاب مثير للاشمئزاز في تحقيره للعرب بثقافتهم وشعرهم ، جهادهم وحضارتهم ، أنكر فيه بلاشير على سيف الدولة كل عظمة أو نصر في حروبه مع بيزنطة ، وبالغ في إبراز طابع البداوة غالباً على الحضارة والبلاطات العربية ، ليغزو فضائل المدنية إلى الفرس والفلسفة إلى اليونان بحيث أرجع إلى أرسطو معظم معاني المتنبي ، والعلوم إلى الهند ، فلم يبق للعرب مع هذه البداوة سوى إمارات ممزقة متناصرة انفرد العرب منها بإمارتي الموصل وحلب للحمدانيين . يأخذ بلاشير على المتنبي إيمانه بعروبته ، بل يتخذ من هذا الإيمان مطعناً عليه ينفذ به إلى السخرية بالشاعر وبأميره سيف الدولة وبالأمة التي أنجبتهما ففي سنة (٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م) كان المتنبي في فلسطين عند أمير الرملة التابع للأخشيديين في مصر ، وكان له أن يختار بين سيف الدولة في حلب ، وكافور الإخشيدي في الفسطاط ، فكان خياره التاريخي بطبيعة الحال أن اتجه إلى سيف الدولة فلتنظر بأي ابتذال وحذلقة عرقية ساخرة يعلل ويحلل بلاشير خيار المتنبي ذاك . ويشير إلى أن المتنبي العربي القح ، الذي شعر بالهوان من جراء الانحناء أمام زنجي وعبد سابق هو كافور . هذه نقمة بلاشير في كتابه عن المتنبي استهانة بالأمة العربية كلها توصلا منه إلى الاستهانة بشاعرها الأعظم ومواقفه القومية .

إن بلاشير يسلم بعظمة المتنبي لكنه لا يغفر له اختياره العربي ، فنجد بلاشير يغض من قيمة السيفيات (قصائد المتنبي في سيف الدولة) ويقيمها تقييماً مجحفاً من خلال حقده على تحديات سيف الدولة لبيزنطة وانتصاره عليها :

(لابد لنا أخيراً من قبيل النصفة من الاعتراف بأن المتنبي أجاد طوال تسع سنين ، العزف برشاقة دوماً ، وبإخلاص أحياناً على الآلة التي ارتضاها لنفسه ، وأنه استعمل بخاصة ، دقائق فنه ومهاراته كلها ، وحيل مهنته كلها ، ليوسع بعد هذا موضوعاً وحيداً ، ألا وهو تمجيد عظمة أمير شامي صغير ،

أى باختصار لا يرى بلاشير أن من حق المتنبى أن يمدح سيف الدولة أو يستلهم بطولاته . وقد رد طه حسين على بلاشير رداً مباشراً لا لبس فيه ولا التواء حين درس سيفيات المتنبى فى أفصل فصول كتابه عن المتنبى ، ويصور عجز بلاشير عن تذوق جمال هذا الفن من شعر المتنبى لاختلاف المزاج والطبع ، والدين أيضاً وهذه شجاعة تحمد لطه حسين لو قرن إليها شيئاً من الأمانة العلمية والنزاهة الشخصية .

فماذا فعل طه حسين بالمتنبى ؟

أغار على التحقيق التاريخى الذى أنفق بلاشير عشر سنوات لإثباته (ولولاه لما كان لكتاب بلاشير أية قيمة) ، فسلخه سلخ الأهاب وادعاه لنفسه فى يسر ودعه وهون وخفض من العيش وراحة الضمير . وانقض على آثار كل من كتب فى شعر المتنبى وحياته من القدماء والمعاصرين بحيث لا يحمل إلا جزءاً يسيراً من الحقيقة قول العلامة محمود شاكر : إن كتاب (مع المتنبى) للدكتور طه حسين هو فى الحقيقة حاشية كبرى على ثلاثة كتب : أولها كتابى ، ثم كتاب الدكتور عبد الوهاب عزام ، ثم كتاب المستشرق الفرنسى بلاشير عن المتنبى .

وقد غاب عن محمود شاكر ما هو أعلم منا به ، فلم يذكر أن طه حسين إن كان سارق التحقيق التاريخى من بلاشير فقد سرق أحكامه النقدية من كتاب (الوساطة بين المتنبى وخصومه) للقاضى على عبد العزيز الجرجانى سنة (٣٩٢ هـ) مستفيداً من كل ما فى هذا المصدر المتعمق من مناقشات غنية فى اللغة والنحو والمعانى والأدب والنقد ، فضلا عن شروح الواحدى والعكبرى وغيره دون أن يشير إلى مصدر واحد من هذه المصادر إلا حين يستدرك عليه بخطأ أو زيادة .

عند ذلك يذكر طه حسين الكاتب وينبه على غلطه أو تقصيره ، ويظهر هو بمظهر المصحح والمفكر الذى يضيف إلى التراث — وإن كانت الإضافات المزعومة ليست أكثر من نثارات جمع طه حسين فتاتها من مصادر أخرى بمهارة لا يتقنها سواه .

هذا من ناحية الأمانة العلمية ، أو بالأحرى انعدام الأمانة العلمية عند طه حسين .

أما النزاهة الشخصية ، فعلاقة طه حسين بها أسوأ بكثير جداً من علاقته بالأمانة العلمية ، فقل إن عرف تاريخ الأدب والنقد باحثاً مثله يسخر دراساته لصقل صورته الشخصية فى مخيلة القارئ وسيلة إلى إصدار أخلاقية قاسية على شخصيات الشعراء وسلوكهم .

هذا الخلط بين السيرة والنقد والتقويم الخلقى ، يؤدى بطه حسين دائماً إلى انعدام النزاهة لأنه يربط تلك العناصر الثلاثة جميعها لشخصة المتعالى عن الدنايا ، والمسافة بعد ذلك قصيرة بين انعدام النزاهة وانعدام الموضوعية ، فحين يدس الباحث شخصية بين عقله وبين الأديب موضوع الدراسة ، يغدو الميل مع الهوى أقرب مثالا عند الدارس من التجرد المفترض فى الحكم الموضوعى . فقد وضع طه حسين كتابه (مع المتنبى) ليحط من شخصية الشاعر وإن كان قد سلم بعظمة شعره ، كان طه حسين يتأذى أن يرى العرب فى المتنبى عظيماً من عظماء هذه الأمة ، فلم يترك صغارا ولا هواناً أو إلحاداً إلا ألصقه به وإمعاناً من طه حسين فى الكيد للمتنبى فإنه يجعل كافوراً فى موقع السياسى الحقيقى الذى سخر من شاعر طامع ، ولا أدرى إذا كان تصغير المتنبى يجعل من طه حسين شيئاً كبيراً بحال من الأحوال ، غير أن إلصاق الدنايا بالأدباء يوقع فى روع القارئ أن طه حسين يتبرأ منها ومنهم ، ويترفع عنها وعنهم ، وقد فعل ذلك بمعظم من تناولهم فى (حديث الأربعاء) .

وتحدث الكاتب عن ما أسماه الدور التضليلى الذى يقوم به نتاج طه حسين ، أنه ينشر أفكاراً مضللة ، سطحية أو عامة ، أو مبالغاً فى مثاليتها أو انحطاطها ، عن حياة الأدباء وأدبهم ، وبالتالى فإن كتبه لا تصلح مراجع تاريخية لأنها ليست بتاريخ ولا تصلح لأن تكون مراجع نقدية لأنها ليست بنقد أدبى ، ولا تصلح أن تكون مراجع علمية لأنها ليست من البحث العلمى فى شىء ، ولن تجد موضوعاً طرقه طه حسين يصلح لباحث جاد أن يعتمد على نتائجه لتواصل البحث انطلاقا منها ، بل لابد لكل باحث من أن يبدأ أولا بتمحيص ما جاء به طه حسين ونحله ليرى ما تبقى لديه من حصيلة هذا الغثاء الأحوى

وإذا كانت كتابات طه حسين لا تصلح للباحث فهي شديدة الخطر على الطلاب في الجامعة وما قبلها لأنها تملأ أذهانهم بأوهام وأباطيل عن الأدب العربي يصعب اقتلاعها منهم بعد ذلك ، فبشار طه حسين وأدبه هما غير بشار الحقيقي وأدبه ، ومتنبي طه حسين وشعره هما غير المتنبي التاريخي .
مثل ذلك عن الصحابة وفي كل ما دار على قلم طه حسين أو لسانه . فنتاجه يبلبل الأفكار الناشئة مثلها يقف حجر عثرة في طريق البحث العلمي الرصين بحيث لا يستقيم الأمر دون إزالتها ، وسوف يحتاج الأمر إلى أجيال من الباحثين قبل أن يتم نهائياً تصفية التأثيرات المخلة والضارة التي تركها عبث هذا الرجل وممالأة الجامعين له باسم الليبرالية على نحو ما نجد اليوم من محالاة للجهلة والأدعياء باسم التقدمية .

(الحوادث اللبنانية سنة ١٩٧٧ م)

* * *

(٧)

فلسفة ابن خلدون

كان كتاب فلسفة ابن خلدون الاجتماعية بمثابة أطروحة الدكتور طه حسين ، التي تقدم بها إلى جامعة السربون ، بإشراف أساتذته المستشرقين دور كايم ، وليفي بريل (اليهوديان) وكازانوفا ، وقد كتبها بالفرنسية وترجمها الأستاذ محمد عبد الله عنان ، وكانت أول صيحة من شرقي ، لانتقاص هذا العملاق الذي أشاد به علماء الشرق والغرب والذين أجمعت الآراء على أنه منشيء علوم التاريخ والاجتماع والاقتصاد بشهادة علماء الغرب أنفسهم (قدم الرسالة للحصول على الدكتوراه عام ١٩١٧ م) .

فماذا فعل الدكتور طه حسين ؟

أولا : أنكر على ابن خلدون نظريته الاجتماعية ومن رأيه أن ابن خلدون لا يستحق لقب (اجتماعي) .

ثانياً : شكك في نشأة ابن خلدون ونسبه العربي .

ثالثاً : نقل آراء دور كايم المؤرخ اليهودى من أتباع النظرية الماركسية وجعلها أساساً للبحث .

رابعاً : خلط بين المصادر ، ونسب إلى ابن خلدون اعتماده على كتب لم يقتبنها .

خامساً : لم يفهم مسائل التاريخ الأساسية وزعم أنه جمع آراءه فى علم الاجتماع من قضايا التاريخ . ولم يلاحظ العالم الاجتماعى الواقعى .

سادساً : اتهمه بأن أسلوبه مضمحل جداً ، تكثر فيه العبارات المسجعة والاستعارات .

سابعاً : قال : إن طريقة البحث التى لجأ إليها كانت محدودة وناقصة وأنه بقى جاهلا بطريقة استنتاج التاريخ من الآثار .

ثامناً : ادعى أن هناك تناقضاً منطقياً فى طريقته فى البحث .

تاسعاً : هاجم أهل المغرب فى مقاومتهم للاستعمار الفرنسى .

عاشراً : اعتمد على المستشرقين ، وجهل المنهج الإسلامى فى — مراجعة المصادر .

وقد ظهرت أبحاث عديدة تكشف زيف طه حسين ، وفساد اتهاماته لعملاق التاريخ (ابن خلدون) فى مقدمتهم : الدكتور على عبد الواحد وافى . والأستاذ ساطع الحصرى ، والسيد محب الدين الخطيب رحمه الله ، والدكتور عمر فروخ .

أما أسلوب ابن خلدون ، فقد وصفه طه حسين بأنه كأسلوب معاصريه مضمحل جداً تكثر فيه العبارات المسجعة والاستعارات والمقامات التى يكثر فيها التكلف ، وقال وافى : الحقيقة إن هذا الوصف لا يصدق إلا على خطبة الكتاب التى لا تستغرق إلا بضع صفحات ، وهى ليست فى الحقيقة جزءاً من المقدمة ، بل هى ديباجة لكتاب العبر كله . وقد تعمد ابن خلدون تعمداً أن يخرج فيها عن طريقته ويصوغها فى هذا الأسلوب ، ذلك لأن افتتاحيات الكتب كانت تعد فى عصره وسيلة لإظهار البراعة والتمكن من مفردات اللغة ، والقدرة على اللعب بالألفاظ والتراكيب فجارى عصره فى ذلك حتى لا يتهم بالضعف .

وبالنسبة لطريقة البحث التى اعتمدها ابن خلدون ، فقد وصفها طه حسين بأنها كانت محدودة وناقصة. وقوله: إنه كان يزعم أن المعلومات التاريخية تأتى من الأخبار المكتوبة أو المروية وحدها ، وأنه بقى جاهلا لطريقة استنتاج التاريخ من الآثار . قال الدكتور وافى : إن عدم توصل ابن خلدون إلى طريقة معرفة التاريخ من الآثار المادية لا تجرد عمله من صبغته العلمية بوجه من الوجوه . وأن الأمر الذى يترتب علينا فى هذا الصدد ليس أن نبحث فيما إذا كان ابن خلدون قد عرف طرائق البحث فى التاريخ أم لم يعرفها . بل هو أن نبحث فيما إذا كان قد سار على طريقة علمية فى الساحة التى لاحظها والوسائل التى اهتدى إليها .

وفى مواجهة قول طه حسين عن ابن خلدون (بوجود تناقض منطقى فى طريقته) ، يقول الدكتور وافى : لو صح وجود هذا التناقض ، لنفى عن عمل ابن خلدون كل صفة علمية بطبيعة الحال ، غير أن ما يزعم الدكتور فى هذا الصدد ، لا ينطبق على آراء ابن خلدون بوجه من الوجوه . كما أنه يخالف الحقائق التاريخية والاجتماعية أيضاً من كل الوجوه .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافى : يدعى الدكتور طه بأن ابن خلدون يرى أن الوسيلة لدرس المجتمع البشرى هى ملاحظة الوقائع التاريخية ، غير أن ابن خلدون لم يقل أبداً : إن وسيلة دراسة علم العمران المذكورة ، هى درس علم العمران ، مع ملاحظة الوقائع التاريخية ، بل أنه قال بصراحة تامة : إن الوسيلة المذكورة هى درس المجتمعات الحالية والوقائع المشهورة.

لهذا السبب نحن نرى أن طه حسين عندما ادعى بأن ابن خلدون يستند فى علم العمران إلى التاريخ قد عزا إليه رأياً لم يقل به أبداً ، وخطة لم يسلكها قطعاً ، كما أنه قد تباعد عن الحقيقة تباعداً كلياً عندما توصل من ذلك إلى القول : بأن ابن خلدون دخل فى مأزق فكرى ، ووقع فى شباك دور باطل غير منطقى . . ونحن نعتقد بأن رأى ابن خلدون فى هذه القصة ، يدل بعكس ذلك على عبقرية فذة ، لأن الرأى المذكور يرفعه إلى مصاف علماء التاريخ والاجتماع الحديثين مباشرة .

ذلك لأن علاقة التاريخ بعلم الاجتماع من المسائل التى اهتم بها العلماء والمفكرون اهتماماً شديداً منذ أوائل القرن الحاضر .

أليس من الغريب أن يعتبر الدكتور طه محاولة ابن خلدون للاستفادة من علم العمران بالتاريخ محاولة فاشلة تنطوى على الدور الباطل والضلال المبين .

ألا يحق لنا أن نقول : إن رأى ابن خلدون فى وجوب الاستفادة من علم العمران فى التاريخ كان من العبقرية ، بعكس ما ذهب إليه طه حسين تماماً ؟ إننا نعتقد أن ابن خلدون دل فى هذه القضية على بصيرة فائقة وعبقرية خارقة ، إذ ابتدع طريقة جديدة فى درس التاريخ وتفسيره ، طريقة لم يقدر أهميتها علماء الغرب ومفكروه إلا بعد مرور مدة تقرب من ستة قرون منذ ابتداع ابن خلدون لها .

أطروحة طه حسين :

ويتحدث الدكتور عبد الواحد وافى على أن أطروحة طه حسين عن فلسفة ابن خلدون تتميز بأمرين هما :

أولا : عدم التعمق فى درس المقدمة درساً حيادياً .

ثانياً : عدم ملاحظة تطورات علم الاجتماع ملاحظة شاملة وقال : (يظهر أن الدكتور طه كان يتمسك برأى واحد من الآراء المتضاربة التى قال بها علماء الاجتماع من غير أن يلاحظ أن ذلك الرأى قد يكون مخالفاً لآراء جماعات أخرى من علماء الاجتماع الحديثين ، ومن غير أن يلاحظ أن استحقاق ابن خلدون لقب (العالم الاجتماعى) لا يتبع موافقته أو عدم موافقته لمذهب واحد من مذاهب علم الاجتماع الحديث) . وما لم يقله الدكتور وافى هو أن هذا المذهب المخالف لعلماء الاجتماع هو مذهب دوركايم .

مراجع ابن خلدون :

ارتاب طه حسين فى رسالته فى أن يكون ابن خلدون قد درس فى صباه جميع الكتب التى ذكرها ، ويذهب إلى أنه ربما كان لا يعرف من بعض هذه الكتب إلا أسماءها وأنه ذكرها بقصد التمدح والتفاخر .

ويؤكد شكه هذا بما ذكره ابن خلدون عن كتابين منهما وهما مختصر

ابن الحاجب فى فقه الإمام مالك وكتاب الأغانى فيقول فى صدد الكتاب الأول : (يذكر ابن خلدون أن مختصر ابن الحاجب كان من بين الكتب التى درسها فى تونس ويعده ضمن كتب الفقه المالكى ، مع أن مختصر ابن الحاجب ليس كتاب فقه ، بل هو كتاب فى أصول الفقه وهو مؤلف جم الانتشار ولا يزال يدرس فى الأزهر حتى يومنا هذا .

وقال فى صدد كتاب (الأغانى) الشهير : فإنه فى ترجمته يزعم أنه استظهر جزءاً منه ومن ثم فإننا نعتقد أن ابن خلدون لم يعرف منه سوى الاسم .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافى : والحقيقة إن جميع الكتب التى ذكرها ابن خلدون قد أتيح له دراستها دراسة عميقة ، بدليل ما ذكره فى الباب السادس فى مقدمته ، عن مسائل كل كتاب منها ، ومناهجه وخلاصة آراء مؤلفه وتاريخ تأليفه ، ومدى انتشاره على أنها ليست من الكثرة بحيث لا يتسع لها وقت طالب تفرغ للدراسة تفرغاً كاملا زهاء خمسة عشر عاماً حتى لو كان طالباً عادياً ، بله طالباً عبقرياً من طراز ابن خلدون .

مختصر ابن الحاجب فى الفقه وليس فى الأصول :

وليس بصحيح ما ذكره طه حسين فى صدد مختصر ابن الحاجب ، فالحقيقة أن لابن الحاجب مختصراً مشهوراً فى فقه الإمام مالك يسمى المختصر الفقهى أو الفرعى ، وقد عنى بشرحه كثير من المغاربة ، وهذا الكتاب هو الذى عناه ابن خلدون وظن طه حسين عدم وجوده . أما ما يسمى بالمختصر من مؤلفات ابن الحاجب فى أصول الفقه ، وهو الذى تحدث عنه طه حسين فهو عبارة عن مختصرين اثنين لا مختصر واحد لكتاب الأحكام للآمدى ، ويسمى أوسعهما المختصر الكبير ، واشتهر أصغرهما باسم المختصر أو المختصر الصغير .

والعجيب أن يتهم مثل ابن خلدون وقد كان إماماً فى الفقه وقاضى قضاة المالكية فى أرقى بلد إسلامى فى هذا العهد ، وهو مصر . وقد تولى تدريس الفقه المالكى فى المغرب وفى مصر وفى الأزهر نفسه ، والعجيب أن يتهم رجل هذا شأنه بأنه يجهل ما ألف فى هذا الذهب ، وبأنه يتباهى بأنه درس

فى هذا المذهب مختصراً لا وجود له . والحقيقة أن ابن خلدون قد قرأ كتاب (الأغانى) وحفظ كثيراً من أشعاره بدليل ما نقل من نصوص هذا الكتاب فى مقدمته وفى كتاب العبر . وقد كان الكتاب فى مكتبة الناصر الأموى بالأندلس . هذا إلى أن ابن خلدون قد نقل من كتاب (الأغانى) فى تاريخه العبر عدة نصوص ، ولم يرد فى كلام ابن خلدون ما نسبه إليه طه حسين من استحالة الحصول على نسخة من كتاب (الأغانى) فى عصره .

ولعل الدكتور طه قد اعتمد فى ذلك على ترجمة فرنسية غير صحيحة للمستشرق روسلان لعبارة وردت فى مقدمة ابن خلدون عن كتاب(الأغانى) وهى قوله: (ولا يعدل بكتاب الأغانى فى ذلك « فى فنون شعر العرب وتاريخهم وأيامهم » كتاب فيما نعلمه وهو « أى كتاب الأغانى » الغاية التى يسمو إليها الأديب ويقف عندها وأنى له بها) .

فلم يفهم روسلان المترجم الفرنسى معنى عبارة (فأنى له بها) فترجمها إلى (كيف يمكن الحصول على هذا الكتاب) .

ويقول الدكتور عبد الواحد وافى : إن طه حسين فى مستهل حياته العلمية لم يكن علم الاجتماع من فروع تخصصه ، فخفيت عليه عظمة ابن خلدون وأصالة بحوثه ، ولم يوفق فى دراسة معظم النواحى التى عرض لها فى الرسالة . وقد تصدى للرد على طه حسين بشىء من التفصيل ، ساطع الحصرى بمقالات جمعها فى كتابه (دراسات عن مقدمة ابن خلدون) .

يقول ساطع الحصرى : مما يؤسف له كل الأسف أن الدكتور طه حسين كان قد كتب هذه الأطروحة المذكورة ، عندما كان حديث عهد بدراسة علم الاجتماع ، فلم يكن قد أحاط علماً بنظريات علم الاجتماع وتاريخه الإحاطة الكاملة ويظهر أنه كان مدفوعاً فى الوقت نفسه ، بروح انتقاد عنيفة حملته على نقد العلماء الغربيين الذين قد بهرتهم (طرافة ابن خلدون) حسب تعبيره وجعلتهم يرون فيه فيلسوفاً حديثاً .

وقد اعتقد جماعة منهم أن ابن خلدون كان أول من أراد أن يجعل من التاريخ علماً ، غير أن الدكتور اندفع فى الاعتراض عليهم صائحاً :

ابن خلدون لم يفكر فى ذلك مطلقاً ، وقال عن تلقيبه بالعالم الاجتماعى : إن ذلك يكون مبالغة كبيرة .

وقد اعترض طه حسين على جماعة العلماء الذين قالوا : إن ابن خلدون سبق المذاهب الحديثة التى ترمى إلى جعل التاريخ علماً لا فناً أدبياً ، وزعم أن طريقة ابن خلدون فى التاريخ خاطئة من أساسها .

إن العلماء الذين قالوا : إن ابن خلدون أراد أن يجعل من التاريخ علماً ، بنوا قولهم هذا على ما شاهدوه فى المقدمة من الملاحظات والمحاولات التى استهدفت اكتشاف تلك القوانين . وبيان تلك العلل والأسباب ، لا على معنى واحد من معانى كلمة واحدة ، فما لا مجال للشك فيه أن (المقدمة) كانت محاولة صريحة لبحث الوقائع التاريخية بحثاً علمياً ، مهما كان حظ المحاولة من النجاح والإصابة ، وهذا يبرر تماماً قول القائلين : بأن ابن خلدون كان أول من حاول جعل التاريخ علماً .

دور كايم صاحب النظرية الأصلى :

وقد أجمعت الأبحاث التى ردت على مفتريات طه حسين نحو ابن خلدون ، بأن عميد الأدب درس ابن خلدون فى ضوء نظرية دور كايم المادية التى كانت أساس منهج المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى ترى أن (اتحاد الجماعة مصدر لعلم الاجتماع ، لا الفرد) وتقول هذه النظرية بالجبر التاريخى .

والمعروف أن دور كايم كان أستاذ طه حسين فى السربون ، والمشرف على رسالته وأنه توفى قبل أن تناقش الرسالة وضاع على الدكتور طه ذلك الاتجاه التبعى المسف . الذى مضى إليه فى اعتناق آراء الكاتب اليهودى ، وأنكر — هو العربى المسلم — فضل رجل يفخر به كل عربى مسلم ، بل ولقد وجد من علماء الغرب غاية التقدير والإنصاف ، فأى سبة لطه حسين أكبر من أنه يلطخ وجه عظيم من عظماء أمتنا فى محفل غربى حاقد ، وينتقصه ثم يشاء الله أن لا يبلغ غايته فى نفاق الأستاذ المشرف اليهودى .

ولقد كان الحقد على ابن خلدون راجعاً إلى أن منهجه استمده من القرآن الكريم وليس من أى مصدر آخر .

ويقرر الدكتور محمد غلاب فى مقاله بمجلة النهضة الفكرية (٢٦ أكتوبر عام ١٩٣١) أن طه حسين تحامل على ابن خلدون ونفى عنه صفة الاجتماعى من أجل إرضاء أعضاء لجنة الامتحان . الذين كانوا يرون أن ابن خلدون لا يستحق لقب اجتماعى ، فاندفع وراءهم إتقاء شرهم أو قسوتهم . وقد أشار الباحثون إلى أنه نقل آراء دور كايم عن ابن خلدون واعتبرها أساساً للبحث ودور كايم مؤرخ يهودى من أتباع النظرية الماركسية ورأيه فى ابن خلدون مشوب بالتعصب .

وقد اعترف الباحثون الغربيون المنصفون بسبق (ابن خلدون) للفلاسفة الغربيين فى وضع أسس الاجتماع والاقتصاد السياسى ، أمثال : آدم سميث وأوغست كونت ، وبينهما أربعة قرون كاملة .

وقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس استمده من القرآن الكريم . وقرر أن الظواهر العمرانية فى تزاحمها وتواليها تحكمها قوانين . وكانت وسيلته فى الدراسة الاستقراء والقياس . . ومن هذه المقدمة بدأت بذور الفكر الاقتصادى مما عده الباحثون من بعد نقطة بدء للمدرسة العلمية فى الاقتصاد . وقد أكد المنصفون من الباحثين أن آراءه لم تكن مجرد جمع لمعارف منوعة ولكنها جاءت كعمل منظم ومرتب ينطبق عليه لفظ العلم فى معناه الدقيق ، وقال شميدت فى كتابه :

Ibn Kaldour. Historian Sociogisl and Philosopher .

إنه مما يطلق عليه لفظ Wissenscheft وليس مجرد لفظ Wissen وأن البحوث الحديثة وإن كانت تستند إلى وسائل بحث أنجع إلا أنها فى شكلها وموضوعها مماثلة لبحوثه .

وقال استفانو كولوزيو الإيطالى : إن هذا المؤرخ العربى العظيم اكتشف مبادئ العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسى قبل كونسيدران ، وماركس ، وباكونين بعدة قرون ، وإن ما يعزوه من شأن كبير إلى دور العمل والأجرة والملكية يجعله إماماً لاقتصاديى هذا العصر .

فلسفة التاريخ :

ويقول أرنولد توينبي الفيلسوف والمؤرخ البريطانى : إن ابن خلدون فى المقدمة التى كتبها لتاريخه العام قد أدرك وأنشأ (فلسفة التاريخ) وهى بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أى عقل بشرى فى أى زمان ومكان .

ويقول سارتون فى كتابه (مدخل العلم) : إنه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل فى تفكيره إلى اصطناع ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخى .

وفى القاهرة حيث عاش ابن خلدون ودفن عقد أضخم مؤتمر لابن خلدون عام ١٩٦٢ جمعت أبحاثه فى مجلد ضخم بلغ ٨٠٠ صفحة يمكن أن يقدم — لطه حسين وأساتذة التغريب .

إنه من دواعى الأسف أن يعرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون أنفسهم ولكن الذى يؤسف له حقاً أن يقوم بعض الشرقيين يحطون من قدر ابن خلدون بعد أن جهد الغربيون كل جهد فى نشر فضائله وإظهارها .

ويشير الدكتور غلاب إلى ملاحظة أخرى : هو أن الدكتور طه فى رسالته عن ابن خلدون يرمى عرب إفريقيا الشمالية بالهمجية والتوحش ، ويستدل على هذه الدعوة بأن الفرنسيين عانوا مشقة شديدة فى سبيل إخضاعهم ويزعم أن ابن خلدون حظى فى إسناده هذا العصيان من جانب عرب المغرب إلى العزة والإباء ، ويقول : بل إن الفرنسيين قد عانوا ولا يزالون يعانون مشقات فادحة فى مراكش فى سبيل بسط حضارتهم .

ويعلق السيد محب الدين الخطيب على أخطاء طه حسين فى مصادر ابن خلدون فيقول : إن طه حسين لم يسمع باسم كتاب مختصر ابن الحاجب ومن ثم يجب أن يكون ابن خلدون كاذباً . إنه لو كان صادقاً لعرف ما عرفه طه حسين من أن مختصر ابن الحاجب فى الأصول لا فى الفروع . أرأيت كيف اكتشف طه حسين أن ابن خلدون جاهل كاذب .

ولكن طه حسين كان سيئ الحظ فى هذا أيضاً كدأبه فى كل ضربات معوله ، التى ينحى بها على جدار الإسلام وسور الحضارة العربية التى

لا تموت . وكأنى أسمع صغار التلاميذ من أتباع مالك بن أنس سواء كانوا فى جامع الزيتونة أو فى الجامع الأزهر ، ينادون طه حسين فيقولون له : على رسلك يا أستاذ ، فإن لابن الحاجب مختصرين ، وقد سمعت بأحدهما ، وغاب الآخر فى جملة ما غاب عنك وهو كثير . لقد بلغ مختصر ابن الحاجب الفرعى من الشهرة المكان الذى لايجهل حتى من صغار التلاميذ، ولو كان هذا الدكتور الجرئ متمرناً على طرق التحقيق ومستأنساً بأساليب البحث المأمونة العواقب ، لتأنى كثيراً قبل أن يهجم تلك الهجمة الخائبة المخزية على طود عظيم فى الإسلام كابن خلدون ، ولدفعته السليقة العلمية إلى مراجعة (كشف الظنون) على الأقل وهو من الكتب التى يجب أن تكون دائماً تحت اليد ، ليرى ما جاء فى مختصر ابن الحاجب لأن الهجوم بلا سلاح على مثل هذا البطل الكبير ليس من الحيطة فى شىء .

ويقول الدكتور شحاتة سعفان : إن عدم اعتراف طه حسين بابن خلدون فى مقدمته مؤسساً لعلم الاجتماع مبالغة جسيمة . وإن كان هذا رأى طه حسين فى ابن خلدون ، فإن كثيراً من علماء الاجتماع فى مصر ودارسيه لا يؤيدونه بل يعتقدون أن ابن خلدون كان أول عالم من علماء الاجتماع .

وقال جورج سارطون : إننى أسمى العصر الذى سبق العصور الحديثة العالم كله : عصر ابن خلدون .

* * *

الفصل السادس

الدراســـات الصهيونيـــة

هناك عوامل متعددة تكشف عن صلة الدكتور طه بالفكر الصهيونى منذ خطواته الأولى فى مجال الدراسة الجامعية فى فرنسا تتمثل فى اتصاله بجماعة المستشرقين اليهود المسيطرين على جامعة السربون وفى مقدمتهم المستشرق اليهودى دور كايم وتبنى آراءه فى العلوم الاجتماعية وفى ابن خلدون وفى بشرية الأديان السماوية المنزلة ، كما ظهر ذلك فى أكثر من موضع فى كتاباته ودور كايم كان رأس مدرسة العلوم الاجتماعية التى تستمد مصادرها الأساسية من النظرية الماركسية والتفسير المادى للتاريخ . ومن هنا فإن وجهة طه حسين يمكن أن تكون ذات شقين : شق صهيونى ، وشق ماركسى ولقد خطفت أبصار الناس فى التعرف على طه حسين فى مطالع شهرته إنكاره (وجود إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وإنكار ذهابهما إلى مكة وبناء البيت الحرام) فى عبارته الجريئة التى تقول : إنه مهما ذكر ذلك القرآن وذكرته التوراة فهو لا يعترف به .

لم يكن واضحاً فى تلك اللحظات أن هذه (القنبلة) كانت لخدمة الصهيونية وإنما هى مقولتهم التى اعتمدوا عليها فى إعلان الحركة الصهيونية وخداع العالم ولكن اعتماد طه حسين على نظرية دور كايم اليهودى فى علم الاجتماع ونظرية مرجليوث اليهودى فى الشعر الجاهلى أعطت علامات مميزة ما لبثت أن أتضحت باستقدام طه حسين اليهودى (إسرائيل ولفنسون) من فرنسا حيث أعده لتقديم أطروحته المشهورة عن (اليهود فى جزيرة العرب) ثم جاء بعد ذلك اليهودى الآخر : بول كراوس .

فى هذه الفترة تمت عمليات أخرى جريئة فى هذا الاتجاه : أبرزها زيارة طه حسين للجامعة العبرية فى القدس ، وزيارة إسرائيل . (وقد أشار إسحاق

نوفون رئيس إسرائيل إلى هذا الحدث فى كلمته التى ألقاها فى مصر ونشرتها الصحف فى ١٧/ ١٠/ ١٩٨٠ م عندما صحب طه حسين فى زيارته لبعض القرى التعاونية الإسرائيلية ، وقد تبين أن هذه هى الزيارة الثانية . أما الأولى فقد أعلن عنها الدكتور حسين فوزى (مجلة أكتوبر – ٢٨ أكتوبر عام ١٩٧٩ م) عندما قال : إنه زار إسرائيل عام ١٩٤٤ مع طه حسين الذى كان مديراً لجامعة القاهرة بالنيابة وطلب محمود فوزى قنصل مصر فى القدس إلى طه حسين ألا يخبر أحداً من العرب أنه اتصل بأحد من اليهود ، وقد زار مع حسين فوزى كلية العلوم بالذات للاستدلال على مصادر الكتب الحديثة فى أمريكا وآخر مبتكرات العلم) .

أما الأمر الثانى : فهو تلك الزيارات المتصلة للمدارس الإسرائيلية فى مصر ، والمحاضرات التى يريد طه حسين أن يقول فيها : إنه كان لليهود حضارة تأثرت بها الجزيرة العربية فى فجر الإسلام .

أما الأمر الجليل الخطر فهو توليه دار الكاتب المصرى اليهودية عام ١٩٤٥ وإصدار مجلة الكاتب المصرى الشهرية وعدد من المؤلفات المترجمة ذات الغرض الواضح ، فإذا أضفنا إلى هذا محاولة طه حسين فى تبرئه عبد الله بن سبأ اليهودى من تهمته الصريحة الواضحة فى إثارة الفتنة بين المسلمين مما أدى إلى مقتل الخليفة عثمان عرفنا إلى أى مدى ذهب طه حسين فى وجهته نحو خدمة الفكر الصهيونى الحديث .

(٢)

أطروحة إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام

يقول طه حسين فى تقديم هذه الرسالة : الموضوع فى نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جداً فى التاريخ الأدبى والسياسى والدينى للأمة العربية ، فليس من شك أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيراً قوياً فى الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز وليس من شك فى أن الخصومة

كانت عنيفة أشد العنف بين الإسلام ويهودية هؤلاء اليهود ، وفى أنها قد استحالت من المحاجة والمجادلة إلى حرب بالسيف انتهت بإجلاء اليهود عن البلاد العربية ، ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود فى بلاد العرب قبل الإسلام معروفاً على وجهه وإنما هى طائفة من الأخبار والأحاديث يرويها القصاص .

فإذا كان عالمنا الشاب (يقصد إسرائيل ولفنسون) قد وفق إلى الخير فى هذا الكتاب الذى قدمه إلى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه الذى أقدمه أنا إلى القراء سعيداً مغتبطاً فتوفيقه مضاعف ، ذلك لأنه وفق إلى تحقيق أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، وفق إلى أن يبسط تاريخ اليهود فى البلاد العربية قبل الإسلام وإبان ظهوره بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً فى كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة إليه فأظفرها بهذه الحاجة ... إلخ .

وقد كان هذا التصريح من طه حسين مرتبطاً بآرائه التى أذاعها فى الجامعة المصرية (ونشرت فى صحيفة الجامعة المصرية سنة ١٩٣٥) تحدث فيها عن اليهود وما حاول أن يجعل لهم من أثر ، لا فى الحياة العربية فقط بل فى الحياة الأدبية أيضاً .

وقد كانت محاضراته أولا فى مدارس الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية فى ديسمبر عام ١٩٤٣ عن اليهود والأدب العربى .

قالت مجلة الشمس اليهودية الصادرة باللغة العربية :

حفلت دار المدارس الإسرائيلية بالإسكندرية بعدد زاخر من أفاضل أهل الإسكندرية لحضور المحاضرة القيمة التى ألقاها عميد الأدب العربى دكتور طه حسين مساء الخميس ٢٣ ديسمبر وحضرها سيادة الحاخام أبراتو ، والحاخام فنثورا وقد قوطعت فى كثير من مواضعها بعاصفة من التصفيق وأعلنت المدارس الإسرائيلية عن جائزة خصصت باسم الدكتور طه حسين تعطى سنوياً للفائز الأول . والفائزة الأولى فى اللغة العربية .

وقد حرص طه حسين فى محاضراته على إثبات أشياء معينة :

– أن الشعر اليهودى امتاز بالحث على الفضائل وإنكار الذات .

– امتاز اليهود بين إخوانهم العرب بالوفاء وطلب المثل العليا (شعر السموءل بن عادياء وربيعة بن الأشرف) .

- أخذ العرب عنهم فلسفتهم فى أن الحياة وسيلة لا غاية واختلفوا عنهم فى أن تكون الحياة للفرد وأنانيته ومتعه ومجونه كما يلاحظ فى شعر طرفة ابن العبد .
- كان اليهود الدماغ المدبر للمالية والاقتصاد فى عصر الامبراطورية العربية ، وكانت منهم طائفة كبيرة من العلماء فى الإسكندرية عند دخول عمرو بن العاص .
- كانوا عنصراً أساسياً فى غزو بلاد الأندلس ومساعدة طارق بن زياد ضد القوط .
- من نوابغ اليهود فى الاقتصاد وإدارة أعمال الخزينة يعقوب بن كلس الذى وفد على مصر أيام كافور الأخشيدى وظل يتقلد فى مناصب الدولة حتى أصبح وزيراً فرئيساً للوزراء ونظم المالية المصرية .
- كانت جهود اليهود هائلة جبارة أيام الدولة الأموية فى أسبانيا وكان اليهود هم الذين نقلوا ثقافة العرب وتراث العرب إلى أوربا .

وبالرغم من أن هذه النصوص محرفة وفيها مغالطات كبيرة فإنها كانت فى هذه الفترة تمهد لقبول الكيان الصهيونى فى البلاد العربية ، يظهر ذلك من تعليق مجلة الشمس (٧ يناير عام ١٩٤٤) حيث يقول :

كانت محاضرة الدكتور طه حسين عن اليهود والأدب العربى آية على يقظة الشرق وعنايته بتراثه ومظهر عملياً من تعاطف وتساند بين أبناء العروبة وقد جاءت فى الوقت المناسب تذكر بما كان لليهود فى العصور الخوالى من أياد بيضاء وفضل عظيم فى نشر النور والعرفان وكانوا الواسطة إلى نقل ثقافة اليونان إلى الشرق كما نقلوا ثقافة العرب إلى أوربا ، ولكن العنصر السامى الكريم الذى علم الإنسانية الإيمان والمثل العليا جوزى من الغرب جزاء سنمار وما وقع لليهود فى أوربا فى العصور القديمة والحديثة يدل على أن المثل العليا التى بشر بها الشرق لم تأت بالغرض المستور منها ، ولا تزال الجماعات اليهودية لا تجد الراحة فى الغرب ، واليهود عنصر كريم من الجنس السامى الذى يعرف اليوم بالعربى وصلات اليهود بسكان جزيرة العرب تعود إلى عصور قديمة جداً ، وكان لهم شأن كبير . وقد تركوا فيها تراثاً . . .

وقصارى القول أن اليهود ليسوا غرباء على العروبة أو الأدب العربى وهم يعتزون ويفتخرون بانتسابهم إلى الدول العربية ويعملون على تجديد ذلك الماضى المجيد .

وهذا هو الهدف ، وهذه هى رسالة الدكتور طه حسين فى هذه الفترة .

وقد عمد الدكتور طه حسين إلى تقرير ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود :

أولا : أن اليهود أثروا فى الأدب العربى أثراً كبيراً جنى على ظهوره ما كان بين العرب واليهود .

ثانياً : أن اليهود قالوا كثيراً من الشعر فى الدين وهجاء العرب وقد أضاعه مؤلفو العرب .

ثالثاً : أن اليهود انتحلوا شعراً لإثبات سابقتهم فى الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب .

وقد حاول ولفنسون بتأييد من طه حسين أن يثبت أن بنى إسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثاً فى الأدب والفن .

وقد مكن الدكتور طه حسين للصهيونى إسرائيل ولفنسون تقديم أطروحة فى الجامعة المصرية عن اليهود فى بلاد العرب .

يقول الدكتور فؤاد حسنين : أن معظم ما أورده إسرائيل ولفنسون وأعانه عليه الدكتور طه حسين المشرف إنما هو كل ما أرادت الصهيونية إذاعته من آراء فى هذا البحث كان حلقة من حلقات الدعاية الصهيونية وما نقله ولفنسون فى رسالته من آراء كان القصد منها اطلاع اليهود الشرقيين وقراء العربية على ما جاء فى المصادر الأجنبية التى يجهلها القارئ اليوم فى الشرق ، وهذه الرسالة مشحونة بالأخطاء التى لا تصدر من طالب مبتدئ فى البحث وهى صدى للآراء التى كثيراً ما رددها الدكتور طه حسين فى الجامعة ، فضلا عن أن المراجع العبرية لا تمت إلى البحث بصلة ، والدكتور طه حسين المشرف على الرسالة لا يعرف العبرية ، وقد أخذ بالنتائج التى قدمها الباحث دون التحقق منها ودون الاستنارة ببعض الذين يجيدون هذا النوع من الدراسات والأمانة العلمية تقتضى غير ذلك .

وليس صحيحاً أن لليهود فضل عن العرب بل الفضل الحقيقى للعرب على

اليونان واليهود ، ولم تكن لغة اليهود حين نزلوا الجزيرة العربية إلا لغة ركيكة هى خليط من العبرانية والكلدانية واليونانية واليهود هم الذين أخذوا من العرب فن الكلام والنطق الصحيح وفصاحة التعبير وقد أحسن الإسلام معاملة اليهود .

هذه هى الحقيقة العلمية التى نسوقها إلى الدكتور طه حسين وتلميذه الدكتور إسرائيل ولفنسون :

وهذا يكشف هوى الدكتور طه حسين وزيغه فيما حاول هو وتلميذه اليهودى يضيفا إلى اليهود ما ليس لهم وما لم يكن منهم ، بل هو فضل خلعوه على اليهود فما كان لليهود على العرب أو غيرهم على مر التاريخ البشرى أى فضل .

لقد حاول ولفنسون أن يروج لمجموعة من الأكاذيب والمفتريات .

١ ــ حاول أن يدعى أن بنى إسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثاً من الأدب والفن .

٢ ــ حاول أن يدعى أن اللغة العبرية من أمهات اللغات السامية وقد كان لها نفوذ وسلطان .

٣ ــ حاول أن يدعى أن (إيله) مدينة العقبة كانت مستعمرة يهودية منذ قديم وأن اليهود أدخلوا بلاد العرب طرقاً للحراثة والزراعة .

(٣)

جاء يهودى آخر إلى كلية الآداب هو بول كراوس .

احتضنه الدكتور وبشر به قبل قدومه من باريس ، وأشار إلى سعة علمه بالتراث العربى الإسلامى (وكان الدكتور طه حسين إذا أحب أسرف فى حبه)

وقد ظل كراوس فى حماية الدكتور طه فى ظل نفوذه عميداً للكلية كان أو مجرد أستاذ بها .

يقول الدكتور نصار عبد الله :

« وكان كراوس حاقداً على الإسلام فى وقت كان الحقد على الإسلام يتضمن الحقد على العروبة وأن من بين بحوثه العلمية يبدو منها حرصه الشديد

على إحياء رسائل كتبها أئمة الملحدين فى عصر الإلحاد والزندقة فى الإسلام ، وإن كنت أنبه مقدماً إلى أن من يتهم بدراسة الإلحاد ويؤرخ له لا يتحتم أن يكون ملحداً ، ولكن الدافع عند هذا المستشرق اليهودى قد يبدو على غير هذا الوجه ، فقد عنى أشد العناية بأئمة الملحدين الذين اعتصموا بالعقل واعتزوا بمنطقه ، واستهانوا بالإيمان الدينى واستخفوا به . فمن أشهر الرسائل التى جد فى البحث عنها ونشرها بعد دراستها رسائل (ابن الراوندى) وكانت طعناً سافراً فى الإسلام وهدماً صريحاً للنبوة ، وإبطالا للرسالات وسخرية بالمعجزات ، واستخفافاً بإعجاز القرآن حتى جعل فصاحة (أكثم بن صيفى) تفوق فصاحة القرآن ، وهكذا كان ابن الراوندى يبطن الزندقة ويقصد إلى زعزعة الإسلام فى نفوس أهله . وكان من أحب المفكرين الإسلاميين إلى قلب ذلك المستشرق اليهودى محمد بن زكريا الرازى . حقيقة أنه كان من أعظم أطباء عصره ، ولكن كراوس اهتم به ملحداً شغل نفسه بهدم النبوة استناداً إلى قيمة العقل ومنطقه ، وتصدى لهدم الأديان كلها . ربما لأن ذلك خطوة إلى زعزعة العقيدة الإسلامية فى نفوس أهلها ، ونقد الرازى الكتب المقدسة وأبان عن فسادها وهاجم اعجاز القرآن نظماً وتأليفاً ومعنى ،وهكذا سار سيرة سلفه الملحد (ابن الراوندى) .

وقد ترجم له عبد الرحمن بدوى إلى العربية كتابه (شخصيات قلقة) وترجم له كثيراً من بحوثه ، وكان أخلص أصدقاء كراوس ، وقد نشر كراوس رسائل جابر بن حيان الذى يعده البعض معجزة العرب فى العلم الطبيعى فاعتبره كراوس شخصية خرافية وليست شخصية واقعية وهو ما ذهب إليه بعض المستشرقين ، واهتم كراوس أن يثبت الصلة بين كتبه المنحولة وآراء غلاة الشيعة الإسرائيلية ، وأشار الدكتور نصار عبد الله إلى أن حب المستشرق كراوس للعروبة ودفاعه عنها كان موضع شك كبير وتجمع الروايات على أنه كان حاقداً على الإسلام فى وقت كان فيه الحقد على الإسلام يعنى الحقد على العروبة ، وقد أثيرت منذ فترة ضجة فى مجلة الدوحة لإبراز كراوس ولكن الحقائق الدافعة كشفت عن أن سبب انتحاره فضيحة مالية شهدتها كلية الآداب ، وكان كراوس هو البطل الوحيد فى هذه

الفضيحة ومؤداها أن الدكتور طه حسين عميد الكلية قد أوفده إلى فلسطين لشراء بعض الكتب والمخطوطات ولما عاد كراوس بالكتب لوحظ أنه لم يقدم وثائق تثبت ما دفعه وأبدت الجهات المسئولة قدراً من الشك فى صحة الأثمان المزعومة ، وتبين أن كراوس اختلس معظم المبلغ لنفسه .

وقد أشار الدكتور طه الحاجرى إلى أن الدكتور طه حسين بعد عودته من إحدى رحلاته إلى أوربا جلس إلى تلاميذه وحدثهم عن ذلك الشاب الذى عرف عنه : أنه شاب تشيكى (ولم يقل يهودى) اتخذ الاستشراق منهجاً له ولم يكد يتحدث إليه حتى أعجب بسعة ثقافته ومرونة تفكيره ، وما يملك من أدوات علمية لابد منها لمن اتخذ هذا المنهج ، يتمثل إلى جانب ما يعرفه من اللغة العربية فيما يحيط به إحاطة جيدة من اللغات الأدبية القديمة وأخصها اللغة اليونانية واللغات السامية القديمة كالعبرية والسريانية والآرامية ، وقد أعانه على أن يمضى فى الموضوع الذى استهواه وشغل به فكره وهو التاريخ للفكر العلمى عند العرب (الدوحة — ديسمبر عام ١٩٨٢) .

وقطعاً كان هدفه هو تدمير دور العرب فى الفكر العلمى على النحو الذى تقدم فى موقفه من ابن الراوندى وجابر بن حيان .

(٤)

وفى دراسات قدمتها الباحثة سهام نصار فى أطروحة ماجستير عن الصحافة اليهودية كشفت الباحثة عن الدور الخطير الذى لعبه طه حسين فى هذا المجال . كذلك فقد نشرت الدكتورة عواطف عبد الجليل بعد ذلك كتاباً تحت عنوان (الصحافة الصهيونية فى مصر عام ١٨٩٧ — ١٩٥٤ م) وفى كلا البحثين المتتابعين تتكشف حقائق هامة : أخطرها إنشاء اليهود لصحيفة الكاتب المصرى (أكتوبر عام ١٩٤٥) .

تقول الباحثة : وعندما أقبلت الأربعينات وأصبح تحقيق الوطن القومى اليهودى قاب قوسين أو أدنى وانكشف تماماً الخطر الصهيونى أمام الرأى العام العربى والمصرى ، واصلت الحركة الصهيونية نشاطها الدعائى من خلال الصحف التى كانت قد صدرت فى الثلاثينات ولم تصدر صحف جديدة ،

ولكن عرضاً عن ذلك فوجئ الرأى العام المصرى بأسلوب دعائى جديد يتلخص فى إصدار صحيفة مصرية ذات طابع ثقافى ضمت نخبة من كبار المثقفين المصريين بتمويل يهودى صهيونى وبواجهة حضارية لا تحتمل إثارة الشكوك حول إنشائها تلك هى صحيفة الكاتب المصرى التى صدرت فى أكتوبر عام ١٩٤٥ ، وكانت تتولى تحويلها أسرة هرارى : إحدى العائلات اليهودية الثرية يرأس تحريرها عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين .

ومنذ البداية ثارت الشكوك حول المجلة التى حملت اسم الكاتب المصرى والتى تخصصت فى نشر الدراسات الأدبية والنقدية وضمت طائفة من الكتاب الأوربيين والأمريكيين إلى جانب الكتاب المصريين أمثال : توفيق الحكيم ، ولويس عوض ، وسهير القلماوى ، وحسين فوزى ، ونجيب الهلالى .

وقد تعرض الكاتب المصرى لحملة عنيفة من جانب بعض الصحف الوطنية مثل صحيفة (مصر الفتاة) متهمة إياها بالخضوع لسيطرة الصهيونية وأن الهدف من إصدارها هو العمل على استقطاب المثقفين المصريين لصالح الحركة الصهيونية وشراء صمتهم إزاء الصراع العربى الصهيونى فى فلسطين .

إن متابعة إعداد المجلة تثبت بالفعل نوعاً من التجاهل للقضية الفلسطينية أو معالجتها كحادث هامشى لا يحتل أكثر من عمود أو اثنين من أعمدة المجلة ، بينما كانت الصحف المصرية كلها مشغولة بمتابعة القضية إن ذلك . لا يمكن إرجاعه إلى الجهل بالمشكلة الفلسطينية لأنها كانت آنذاك فى ذروة تصاعدها .

إن معظم من شاركوا فى هذه المجلة كانوا من التيار المؤمن بالقومية المصرية ، وأن هذا التيار كان يضم المجموعات الفكرية التى تبنت النظرة المتوسطية التى ذهبت إلى أن مصر تمثل جزءاً من حضارة البحر المتوسط ، وقد كان لهذا التيار موقف متحفظ من التيار العربى فى مصر منذ البداية.

ولم يكن الكاتب المصرى هو المحاولة الوحيدة للالتفاف حول المثقفين المصريين ، ولم يكن أيضاً المحاولة الوحيدة لاكتساب تعاطف طه حسين ، فقد تتلمذ على يديه كثير من الطلبة اليهود أمثال : إسرائيل ولفنسون الذى

أعد رسالة دكتوراه عن (تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية والإسلام) أشرف عليها طه حسين، وقد أحاطت الصحافة اليهودية طه حسين باهتمامها الواضح وخاصة عندما أعيد إلى الجامعة بعد إقصائه منها لفترة طويلة عام ١٩٣٤ وقد قام أحد المثقفين اليهود بترجمة كتاب طه حسين (الأيام) إلى العبرية، كما قام طه حسين بزيارة مدارس الطائفة الإسرائيلية بالإسكندرية عام ١٩٤٤، وكان فى استقباله كبار الشخصيات اليهودية وعلى رأسهم الحاخام الأكبر فنتورا وأعدوا نشيداً خاصاً للترحيب به، وألقى طه حسين محاضرة عن علاقة اليهود بالأدب العربى استثمرتها الصحف اليهودية فى الدعاية، بينما تعرض طه حسين للهجوم بسبب هذه المحاضرة فى الصحف العربية ... إلخ.

* * *

ولقد كانت أمانة الدكتور طه للفكر الماركسى تابعة لولائه للفكر الصهيونى باعتبار المصدر الجامع بينهما، وقد كشفت المقالات التى كتبها الماركسيون من أمثال عبد العظيم أنيس وكامل زهرى وغيرهم من ولاء خفى للدكتور طه حسين وإعجاب بالرجل الذى اقتحم لهم العقبات وفتح لهم الطريق إلى نقد الفكر الإسلامى ومحاكمته لمذاهب التفسير المادى للتاريخ ومذهب المدرسة الاجتماعية الفرنسية، فقد اعتبر أن كتاباته على هامش السيرة والفتنة الكبرى هى التى فتحت الطريق أمام عبد الرحمن الشرقاوى وغيره ممن أوغلوا فى تدمير مقومات التاريخ الإسلامى.

إن هذه المقالات التى كتبها عبدالعظيم أنيس (العربى — مارس عام ١٩٨١) وكامل زهيرى فى (العدد الخاص من الهلال) تكشف عن حقيقة ظلت خافية وقتاً طويلا وهى أن طه حسين كان يكن عاطفة خفية للماركسية والفكر الشيوعى ظل يسترها وقتاً طويلا تحت ستار من التظاهر بالديمقراطية وحب الغرب وهى محبة الشيوعيين ومساعدتهم ومتابعة كتاباتهم وتمنيه أن تمتد دعوتهم وأن ينتشر فكرهم، فهو يتابعهم ويقرأ ما يكتبونه ويعلق عنه إذا قابلهم ويقضى لهم مصالحهم وهم يوسطونه من مركز النفوذ والقوة — فى أمورهم.

وكثير منهم يرونه رائداً للفكر الماركسي بكتابه (المعذبون فى الأرض) وقد كان اتصاله بالوفد وعمله به مدخلا لنمو الجناح الماركسي المعروف الذى كان يقوده الدكتور محمد مندور وهم حين يتحدثون عنه وعن حبه لمصر وولائه لها — إنما يعجبون بإقليميته الواضحة العميقة ذات الطابع الفرعونى الكاره للعروبة والإسلام معاً .

وقد دافع طه حسين عن الماركسيين الذين اعتقلوا وسجنوا عام ١٩٥٠ ومنهم عبد العظيم أنيس وعمل على إعادتهم إلى أعمالهم بعد خروجهم من المعتقلات .

وقد أشار عبد العظيم أنيس إلى أن طه حسين قال له :

إنكم تتياسرون وتظنون أنى على يمينكم ، هل كتب أحدهم شيئاً (كالمعذبون فى الأرض) . . وفى فترة من الفترات هاجم (فتحى غانم) كتاب (المعذبون فى الأرض) من وجهة نظر ماركسية ، وقال : إنه لغو ولكن هذا لا يمنع بأن يوضع طه حسين فى صف اليسار .

وهكذا جمع طه حسين بين الولاء للغرب وللصهيونية وللماركسية فى آن واحد وهو ولاء قد لا يكون مفهوماً ولكن من يعرف أقل شىء عن الماسونية لا يراه غريباً .

ولا ريب أن اتجاه طه حسين إلى كسب ود المثقفين المصريين ، وتبرئة اليهود من مسألة عبد الله بن سبأ فى كتابه (الفتنة الكبرى) ، والقول بالعلاقة الوثيقة بين أبناء العم (ويقصد اليهود) فى مجال الحضارة والتاريخ الطويل ، إنما كانت محاولات واضحة مرسومة بدقة لتخفيف حدة الخصومة التى كانت تثيرها الدوائر الإسلامية إزاء اليهود وعداوتهم التى أشار إليها القرآن الكريم وإلى خطر سيطرتهم على فلسطين وضرورة مقاومتهم بإعلان الجهاد المقدس .

وقد وضح هذا الاتجاه تماماً فى هذه الفترة إلى الدرجة التى دفعت مجلة الاثنين التى كانت تصدر عن دار الهلال أن توجه للدكتور طه حسين سؤالا صريحاً فى (٨ أكتوبر عام ١٩٤٥) :

س — يقولون عنك : إنك تعمل على مساعدة الصهيونية فماذا تقول ؟

ج : إن مجلات دار الهلال آخر من يخول لها إلقاء هذا السؤال ، فهى تعرف حق المعرفة ، وقد كتبت فيها منذ نشأتى إلى الآن ، وليت الذين

يذيعون هذا الكلام يستطيعون أن يبلوا فى خدمة العروبة كما أبليت ، وليس أدل على أنى أساعد الصهيونية من أنى أحيى الأدب العربى القديم ، فأنشر ديوان أبى تمام ، وأنشر روائع الأدب العربى للجاحظ ، وأبى هلال العسكرى وأنشر أشياء خطيرة تتصل بعلوم القرآن ، فأى مساعدة للصهيونية أقوى من هذه المساعدة .

أما مجلة الكاتب المصرى التى أسست فيما يقال لمساعدة الصهيونية فستكون فى أيدى الناس حين يظهر هذا العدد من مجلة الاثنين وسيقرءون ما فيها وسيستوثقون أنها مجلة أقل ما توصف أنها لسان صدق للأدب العربى الرفيع .

* * *

وواضح أن إجابات الدكتور طه حسين ليست مقنعة تماماً ، وليست فيها تلك البراعة التى عرفت عن الدكتور ويكفى أن توجه إليه هذه الأسئلة وتسجل فى مجلة سيارة ، فهى إنما تعنى ذلك الشعور الواضح الذى كان يملأ جو الصحافة والثقافة فى مصر فى هذه الفترة .

ولا شك أنها كانت خطوة واسعة لم يكن يصلح لاقتحامها غير الدكتور طه حسين ، فهو الذى اقتحم الجامعة الأمريكية بعد حوادث التبشير ، وانصراف الناس عنها وعن محاضراتها فإذا به يستفتح موسمها ويقول : إن كل شىء فى مصر ينسى بعد حين .

والحقيقة أنه لا شىء ينسى أبداً مهما بدا أنه دخل فى دائرة النسيان والصهيونية التى كانت تخطط فى هذه المرحلة لامتصاص نقمة المثقفين ، من ناحية ومن ناحية أخرى كانت تعمل لتقليص الإسلام : دين العزة والجهاد من كل مفاهيمه الحقيقية بتمسيحه وتحطيم أجنحته والقضاء على عمده الحقيقية ، من خلال هذه الكتابات الإسلامية التى تصدى لها الدكتور طه حسين من بشرية القرآن إلى إضافة الأساطير إلى السيرة النبوية إلى السخرية بأبى بكر وعمر وخالد وإلى وصف الصحابة بأنهم جماعة من محترفى السياسة ، وخاتمه ذلك كله إعطاء اليهود دوراً فى الأدب االعربى على النحو الذى يجعلهم أهلا لقبولهم فى فلسطين . كل هذا يصور أبعاد الدور الخطير الذى قام به طه حسين .

الباب الثالث

الفكر الإسلامي

• • •



الفصل الأول

التربيـــة والتعليـــم والثقافـــة

(من دنلوب إلى طه حسين)

لا ريب أن هذا المجال هو أكبر مجالات التغريب الذى عمل فيها طه حسين خلال خمسين عاماً دون توقف ، ليس من خلال كتاباته وحدها ، بل من خلال المؤسسات سواء كان فى وزارة المعارف (مراقباً للثقافة ومستشاراً ووزيراً) أو (كلية الآداب (أو كان مديراً لجامعة الإسكندرية أو مشرفاً عاماً للثقافة فى الجامعة العربية أو رئيساً لمجمع اللغة العربية ، فكلها نوافذ لمبنى واحد استطاع طه حسين أن يذهب فيه إلى آخر المدى لفرض مناهج الغرب ومؤلفاته ومترجماته على تلاميذنا المسلمين فى المدارس الثانوية والجامعية وفى مجال التأليف والثقافة والصحافة . ولقد كان أعرف الناس به فى هذا المجال المستشرق هاملتون جب الذى أشار بعبارة واضحة إلى قدرة طه حسين على (التغيير) وليس فقط الوقوف عند حد التوجيه والكتابة حين قال :

ذلك أن طه حسين كان قد أعد إعداداً خاصاً ليكون قادراً على تغيير الأعراف الإسلامية السائدة وبث أعراف غربية بدلا منها عن طريق مجموعة من الأساتذة المبثوثين فى المعارف والجامعات وقدرة فائقة على تغيير المناهج على نحو عرف به خاصة فى مجال اللغة العربية والأدب العربى والتاريخ ، وكلها ترمى إلى غاية واحدة : هى سيادة الفكر الغربى وسيطرته واستيلاء مفاهيم المستشرقين وسمومهم على جميع فروع الفكر الإسلامى .

ومنذ وطأت قدم طه حسين الجامعة بدأ ذلك المخطط الذى رسخه فى كلية الآداب ثم اتسع نطاقه فى التعليم العام كله ، وكان من ثمرته وعصارة تجاربه خطة التغريب التى رسمها كتاب (هو مستقبل الثقافة) ، فكانت بمثابة الخطة التى رسمها النفوذ الأجنبى متابعة لمخطط كرومر ودنلوب كمرحلة

جديدة لها بعد الاستقلال والتى جاء وقتها بعد توقيع معاهدة سنة ١٩٣٦ وإلغاء الامتيازات التى كانت تحرس معاهد الإرساليات الأجنبية ، ولم يلبث طه حسين بعد ذلك أن ولى أمر تنفيذ هذا البرنامج فى وزارة المعارف وفى الجامعة معاً وأتيحت له الفرصة الواسعة وأعطى الإمكانيات المتعددة وكانت قاعدته واضحة :

(لا ينبغى أن نفهم أن الكلمة التى قالها إسماعيل وجعل مصر بها جزءاً من أوربا قد كانت فناً من فنون التمدح أو لوناً من ألوان المعاصرة وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا فى كل ما يتصل بالحياة الثقافية والعقلية على اختلاف فروعها وألوانها) .

كما أوضح هدفه فى قوله :

(أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع مخادع) .

وقد كانت خطته فى مجال التربية والتعليم والثقافة واضحة محددة لبناء أجيال جديدة مغربة أولياء للغرب وللثقافة وهذه الخطة هى :

أولا : الدعوة إلى فصل الأدب عن دائرة الفكر الإسلامى .

ثانياً : الدعوة إلى فصل اللغة عن دائرة الفكر الإسلامى .

ثالثاً : الدعوة إلى تطبيق النظام الغربى السياسى (الليبرالى) الديمقراطى بما يستر أهداف الصهيونية والماسونية والشيوعية .

رابعاً : الدعوة إلى وحدة البحر الأبيض المتوسط .

خامساً : الدعوة إلى فتح أبواب مصر والبلاد الإسلامية أمام الثقافات الغربية وفرض المناهج الوافدة .

سادساً : الدعوة إلى توحيد التعليم تحت لواء العلمانية وإلغاء الأزهر .

سابعاً : الدعوة إلى تقبل الحضارة الغربية (خيرها وشرها . . . إلخ) .

ولكننا قبل أن نعرض لهذه الخطوة الواسعة فى تغيير نظام التربية والتعليم والثقافة وهى الخطوة التى بدأت عام ١٩٣٨ تقريباً ، فإن علينا أن نتعرف

على الآثار التى أحدثها فى التعليم الجامعى منذ تولاه عام ١٩١٩ فى الجامعة المصرية القديمة ومنذ أنشئت الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ .

(٢)

تغريب الجامعة

بدأت الخطة بدعوة المستشرقين إلى تدريس مادة فقه اللغة العربية فى الجامعة (١٤ أغسطس عام ١٩٢٣) حيث كتب الشيخ محمود أبو العيون فى جريدة الأهرام : سمعنا أن الجامعة فى حاجة إلى أستاذ لتدريس فقه اللغة فبحث مجلس إدارتها عن ذلك الأستاذ الكفء القدير ، فلم يجده بين علماء المعاهد الدينية ولا بين علماء القضاء الشرعى ودار العلوم ولا بين النابهين ممن أتموا دراسة اللغة العربية فى الجامعة وأصبحوا أساتذة فيها ، لم يجد هذا الأستاذ فى مصر مهد اللغة العربية وكعبة قصادها ، بل وجده فى معاهد العجم والرطانة فى معاهد فرنسا وجد المسيو كازنوفامدرس العلوم الشرقية بباريس وجده أكفأ من الدكتور طه حسين والدكتور أحمد ضيف والأستاذ عبد الوهاب النجار وأكفأ من كل علماء مصر ، فعز على مجلس إدارة الجامعة ألا تنتفع بعلمه فى معاهد الشرق ، فاستدعته هذا العام لتدريس لغة أهلها لأهلها ، فهل سمع الناس بمثل ذلك الحادث الكبار ،وهل حدث مثل هذافى تاريخ مصر؟أما والله إن صح الخبر لتكونن سبة لمصر والشرق وعاراًله وعمى .

ورد (توفيق) سكرتير الدكتور طه حسين عميد كلية الآداب ، يقول : إن للمستشرقين من أهل أوربا فضلا كبيراً على اللغة العربية والآداب العربية وعلوم الحضارة الإسلامية ، والذى يلفت النظر إنما هو طريقة أبحاثهم وأساليب تنقيباتهم ، وهى طرق وأحاديث لم تكن معهودة لنا ولا لأسلافنا من أهل العلم ، وفيها لا نجد الجرس الحار الذى نسمعه من أبناء اللغة العربية خصوصاً من أهل بلادنا مصر وفيه أحياناً شىء من الرطانة .

وأشار توفيق إلى أن جلالة الملك فؤاد وقد سعى سعيه حتى أتى بأساتذة من المستشرقين من فرنسا وألمانيا وإيطاليا منهم : (سانتلانا) العلوم والفلسفة ، (نالينو) الآداب العربية وتاريخها ، (مليورنى) التاريخ الشرقى ، (ماسنيون) لتدريس الفلسفة وتاريخها ، (فنيت) لتدريس الأدب واللغة العربية ، (ليتمان) لتدريس مقارنات اللغات السامية وغيرها .

وقال : (ولا يضر مصر الآن أن تنتفع بالمستشرقين من أهل أوربا لما هم عليه من علم وفنون وليس فى جلب المستشرقين بالجامعة أى عيب لمصر والشرق ولا أى عار لا يمحى ، ولنذكر ما كرره رئيسنا فى الوطن سعد باشا فى خطبه ورسائله من أن مصر ترحب بالعلماء والأخصائيين من أهل أوربا لينتفع بهم) .

وكتب الشيخ محمود أبو العيون يناقض هذه المغالطات فى ١٦/ ٩/ ١٩٢٣ فقال : الذى نخالف فيه ونستبشع صنيعه ونعتبره ماساً بكرامتنا هو أن نستعين بغربى فى تدريس فقه اللغة العربية وهى مادة اتسعت فيها المصنفات عندنا ومعاجم اللغة والقواميس المختلفة ، وإن كان ينقصها الترتيب والإحكام ولكنها على كل حال أصول وافية ومادة واسعة لا يمكن أن يكون للمستشرقين مهما استشرقوا معاجم اللغة العربية مبسوطة جامعة كالتى عندنا ، ماذا أبقيت لعلمائنا وأدبائنا إذا كانوا أعجز من استظهار ما بين أيديهم من أصول لغة يلهجون بها منذ كانوا أطفالا ، ثم هم يتدارسونها فى كتاب الله تعالى ومن كلام العرب بأعجب ، أليس واحد من هؤلاء يستطيع أن يعلم أبناء الجامعة المصرية فقه اللغة العربية ، وأليس سبأ لمصر وعاراً لا يمحى أن تعرف بين الأمم بالفهم وأن يعجز علماؤها عن تفهم أصول لغتها لأبنائها ، هاتوا من شئتم من المستشرقين ليعلم التاريخ والفلك والفلسفة واللغات وشيدوا بذكرهم ما استطعتم ولكن نناشدكم الله ، ألا تسجلوا علينا العار والفضيحة باستدعاء مستشرقين لتعليم فقه اللغة العربية .

ثم كتب مرة أخرى فى ٢٠/ ٩/ ١٩٢٣ : لم يكذبوا الخبر بعد ذيوعه ، إن مجلس إدارة الجامعة يتحدى الأمة فى كرامتها وينزلها من علم مجدها بإسناد تدريس فقه اللغة العربية إلى أستاذ أعجمى النشأة غريب اللهجة وإيثاره على كل لغوى فى مصر وكل عالم وأديب فى الشرق ، نعم تزدان الجامعة باسم المسيو كازنوفا كأستاذ فيها ولكن على شريطة أن لا يدرس لغة نحن أحق بها وأهلها . هل الإنجليز أو الفرنسيين يفخرن بعالم مستغرب أن يدرس لغتهن فى جامعتهن) ا . هـ .

وبعد فإن كازنوفا هذا هو أستاذ طه حسين الذى علمه تفسير القرآن

على النحو الذى اتخذه فى كتاب (الشعر الجاهلى) وتدريس كتاب اللغة بوصفه كتاباً بشرياً من الأدب ، يقال فيه ما يقال عن كتب الأدب ويجرئ الطلاب على نقده وكان طه حسين قد كتب فى السياسة (١/ ٩/ ١٩٢٢) يشيد بذكر أستاذه الذى استدعاه بأنه ليس رجلا عادياً وإنما هو أستاذ فى اللغة العربية : فقهها وآدابها .

وإن هذا الرجل يخدم مصر فى تاريخها وآدابها خدمة لو قام بجزء منها نفر منا لكان أول من يكبرهم ودليله أن كازنوفا يضع كتاباً عن تخطيط مدينة الفسطاط .

قال الشيخ محمود أبو العيون : هذا الدفاع لفت نظرى إلى أن الدكتور يريد تقرير مبدأ غريب ، مبدأ لا يقره منصف ، يريد بل يكاد يصرح بأننا لا نستطيع أن نستقل فى كل تعاليمنا ولابد لنا من الأساتذة الأوربيين .

نفهم أننا نفتح معاهدنا ونقرر أن العلم رحمة بين أهله ، ولكننا لا نفهم ولا نستطيع أن نفهم أن ليست لنا شخصية علمية بإزاء الأساتذة الغربيين فيقرر أننا محتاجون إليهم فى كل ما نتعلم حتى فى تفسير كتاب الله ، كما يقرر الأستاذ ، هذا لعمرى غلو كبير وظلم وجهل بحياة الأمة . إن رأياً مثل هذا قد تمكن من نفس صاحبه بحسن كتمانه ، فإن ظهوره على هذا النحو معرة له وجهالة ، إذ كيف يصح الحكم على أمة عربية مثل مصر بأنها مجردة من كل كفاءة ومقدرة على تعليم أبنائها لغتها وعلومها الخاصة بها .

إن هناك فى البلد علماء أكفاء وأقدر على تدريس فقه اللغة من المسيو كازنوفا هناك سيد على المرصفى ، حسين والى ، أحمد باشا تيمور ، المهدى زنلو ، أحمد السكندرى ، مصطفى العنانى ، علام سلامة ، محمد عبد المطلب ، محمد شريف ، محمد الغمراوى ، العوامرى ، جاويش ، عبد العزيز البشرى ، أحمد إبراهيم ، أحمد نجاتى ، أفليس عجيباً أن يكون فينا مثل أولئك الأمجاد ثم نؤثر عليهم مستشرق يدرس اللغة العربية فى جامعة عربية لغير ضرورة ؟

ما أعجب ما أسمع من كلام طه حسين :

(ولقد أريد أن يعلم الناس أنى سمعت هذا الأستاذ (كازنوفا) يفسر

القرآن الكريم تفسيراً لغوياً خالصاً فتمنيت لو أتيح لمناهجه أن تتجاوز باب الرواق العباسي ولو خلسة ليستطيع علماء الأزهر الشريف أن يدرسوا على طريقة جديدة نصوص القرآن الكريم من الوجهة اللغوية الخالصة على نحو مفيد حقاً) .

شد ما أحسنت إلينا أيها الأستاذ بهذا الاستكشاف الحديث حقاً ؛ إننا فى حاجة إلى مثل هذا العالم اللغوى (الأعجمى) الجليل ليدرس لنا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفى حاجة ماسة إليه لتدريس الشريعة الغراء وأصولها المستنبطة من الكتاب والسنة وفى حاجة أمس إلى مثله يعلمنا البلاغة العربية لأنه يعرف لغة القرآن وأسرار النزول .

أين نحن يا ترى وفى أى عالم نعيش ؟ لا شك أننا فى عالم وهم وخيال وأننا سلبنا العقول وحجبنا عن الإدراك وعمينا عن الحقائق وأصبح الأعجمى بدوياً قحاً يعلم كتاب الله كما أنزل ، وأصبح العربى أعجمياً لا يعرف من لغة العرب شيئاً والأمر يومئذ لله .

لقد كنا فى ريب مما يذيع الناس حول الجامعة بإزاء الحادث الجديد ، وكنا لا نكاد نصدق أن مثل الدكتور طه حسين فى علمه وأدبه هو الذى يغرى الجامعة إلى عمل لا يتفق مع شرف الأمة وكرامتها ، وكنا نتحدث أنه صح الخبر فهو مبالغ فيه ، حتى أعلمنا الدكتور الخبر اللعين أن الحادث صحيح لا مبالغة فيه ، وهو الذى اقترح استدعاء المسيو كازنوفا ، وأنه ليس رجلا عادياً ، بل هو فوق مرتبة اللغويين منا وأعلى منزلة من رجال الدين عندنا نحن بلينا بالتقليد الضار حتى أضيعت شخصيتنا ، وانتقلت بوجداننا ، ومشاعرنا وعواطفنا إلى ما نسميه مدنية غربية .

(٣)

ويتحدث الأستاذ محمود محمد شاكر عن تجربة الجامعة فيقول : أنا لا أنفى عن نفسى أنى اتهمت الدكتور طه حسين ، بتهمة أشنع وأبشع وأكبر ظاهرة تعرضت لذكرها هى قصة السطو على أفكار الناس وأقوالهم وقلت : إنها سنة سنها الأساتذة الكبار وأن هذا السطو أتى على أيديهم على صورتين :

الأولى : سنة (تلخيص أفكار عالم آخر) ويقضى الأستاذ عمره كله فى هذا التلخيص دون أن يشعر أنه محفوف بالأفكار ودون أن تستنكف أن ينسبه إلى نفسه نسبة تجعله عن الناس كاتباً ومؤلفاً وصاحب فكر وهذا ضرب من التدليس كريه .

الثانية : سنة (السطو) المجرد من يعمد الساطى إلى ما سطا عليه ، فيأخذه ويمزقه ، ثم يفرقه فى ثرثرة طاغية لتخفى معالم ما سطا عليه وليصبح عند الناس صاحب فكر ومذهب يعرف به وينسب إليه كل فضله .

لقد أبلغت اليوم إلى ما أشفقت منه قديماً من فعل الأساتذة الكبار ، لقد ذهبوا بعد أن تركوا من حيث أرادوا أو لم يريدوا حياة أدبية ثقافية قد فسدت فساداً وبيلا ، على مدى نصف قرن ، وتجددت الأساليب وتنوعت وصار (السطو) على أعمال الناس أمراً مألوفاً غير مستنكر ، يمشى فى الناس طليقاً عليه طليسان ، البحث العلمى وعالمية الثقافة ، والثقافة الإنسانية وإن لم يكن محصوله إلا ترديداً لقضايا غربية صاغها غرباء صياغة مطابقة لمناهجهم ومنابتهم ونظراتهم إلى كل قضية ، واختلط الحابل بالنابل ، كل ذلك فى الأدب والفلسفة والتاريخ والفن ، أو ما شئت فإنه صادق صدقاً لا يتخلف ، فالأديب عندنا مصور بغير قلمه ، والفيلسوف عندنا مفكر بعقل سواه ، والمؤرخ عندنا ناقل للأحداث بنظر غريب عن تاريخه ، والفنان عندنا نابض قلبه بنبض أجنبى عن تراث فنه .

ثم اتهامى للدكتور طه بالسطو على عمل من الأعمال (ما كتبه المستشرق مرجليوث عن قصة الشعر الجاهلى) واستنكرت أن يكون ذلك فى جامعة وأن الجامعة إذا قبلت هذا السطو وسكتت عنه فإنها تفقد هيبتها .

ليس شك الدكتور طه أزهرياً ولا ديكارتياً ولا أسطورياً ، بل الذى فى كتاب (الشعر الجاهلى) إنما هو (سطو) لا غير ومن ذلك أن الدكتور طه لم يؤلف بعد ذلك كتاباً واحداً يحمل ذرة من هذا الشك الذى زعم أنه منهج ، وهذه غريبة من الغرائب ، وعندما أصدر طه حسين كتابه (مع المتنبى) لم أصبر عليه صبرى عليه فى قصة سطوه على (مرجليوث) ، بل نشرت مقالات فى جريدة البلاغ (٣ فبراير عام ١٩٣٧ ــ مايو ١٩٣٧)

واتهمته بالدليل والبرهان على أن عادته فى السطو لم تزل قائمة فى نفسه لا يستطيع أن يفارقها وزدت الأمر وضوحاً فى مقدمة كتابى عام ١٩٧٧ قلت ذلك فى حياته ، كما ترى مع وجود تهمة السطو بلفظها وبلا كناية ، وسكت الدكتور طه حسين لأنه لم يستطع أن ينفى عن نفسه التهمة ولا استطاع ذلك يومئذ تلاميذه المنتشرون على طول الساحة العربية إزاء هذا الهجوم الذى يكال لأستاذهم العميد وقلت فى جميع ذلك : إن الدكتور طه وسائر الأساتذة الكبار الذين تعودوا السطو هم الذين نشروا هذه السنة فصارت سنة سيئة متبعة إلى يومنا هذا بلا حياء فى جميع حياتنا الثقافية) .

ومما يضاف إلى هذا أن الدكتور محمد نجيب البهبيتى : أكبر تلاميذ الدكتور طه حسين التصاقاً به فى هذه الفترة فى كتابه الضخم (مدخل إلى الأدب والتاريخ العربى) يشير فى وضوح إلى ظاهرة السطو وإلى تلاميذ طه حسين الذين مكنهم من السطو على كتابات غيرهم . إذن فهى قضية ضخمة جديرة بأن تبحث فى إطار التحديات التى تواجه التعليم الجامعى .

(٤)

وقد كشف السيد رشيد رضا (المنار م ٣٢ / ص ٢٩٩) عن مخططات النفوذ الأجنبى من (دنلوب إلى طه حسين) فقال :

كان هم الاحتلال من السيطرة على المدارس تخريج نشء جديد لا هم لهم من الحياة إلا التمتع باللذات الجسدية والزينة فى اللباس والأثاث والرياش والتنافس فى خدمة الحكومة والتوسل إلى ذلك بالشهادات المدرسية والتملق للرؤساء المسيطرين من الإنجليز . وأهم ما عنى به المسيطر على وزارة المعارف ألا وهو القسيس مستر دانلوب أن يطمس كل أثر للدين الإسلامى فى المدارس الأميرية وألا يدع للتربية الإسلامية ولا التعليم الدينى منفذاً يشرف منه على القلوب بنشر الإلحاد والإباحة أن تنفثا سمومهما فى إفساد الأخلاق وعبادة الشهوات وعدم الخضوع لأى سيطرة أجنبية أن تتمكن من الأذهان وتتغلغل فى أعماق الوجدان وإلهاء للمعلمين والمتعلمين عن ذلك بمظاهر التربية الوطنية الإقليمية التى تفصل بين مسلمى مصر ومسلمى سائر الأقطار ، ولا سيما العربية . وقد نجح دانلوب فى سياسته أتم النجاح وشغل المدارس

بالألعاب الرياضية الجسدية عن ترويض الأرواح ، وكان أن طبع وزارة المعارف بطابع سياسته ووجهها شطر مقصده ، حتى جاء الاستقلال المقيد ، وصار أمر التعليم فى أيدى الوطنيين . كان بعض وزراء المعارف من بعده شراً على التربية والتعليم مما كان فى عهده، بل نهضة وزير منهم لإصلاح التربية الدينية ومقاومة نزعات التفرنج وصد تيار الإباحة والإلحاد الذى يقذف بالأمة فى فوضى الأخلاق والفساد وأعجب من هذا أننا لم نر من حزب من أحزاب البلاد السياسية ومن تقاليد الحكومة طريقة متبعة فى اختيار وزير المعارف من رجال الإصلاح المالى والأدبى الذين يهمهم حفظ دين الأمة والدولة ووقايتها من الفساد والفوضى ، وكان مثار العجب أن جعل الأستاذ أحمد لطفى السيد المحامى وزيراً للمعارف حتى إذا ما تبوأ هذا المنصب مراد سيد أحمد القاضى الأهلى زال العجب ، واعتقد كل غيور على الدين أن الحكومة المصرية متعمدة القضاء على هداية الدين فى الأمة بتربية بنيها ، وبناتها على الإلحادو الإباحية المطلقة .

لئن كان الدكتور طه من سيئات الأول بتغذية مبادئ الإلحاد فى نفسه وتجرئته على بثها معالجة أولا وفى دروسه فى الجامعة أخيراً ، فإن الثانى قد ابتدع فى وزارة المعارف من فنون التربية على الإباحة وإلغاء جلابيب الحياء والصيانة من رفض التهتك والخلاعة وتصوير الشبان والشواب مجردين ومجردات من الثياب ما يتضاءل أمام ذلك الإفساد القولى .

ليس بكثير على مثل مراد سيد أحمد أن يعترض ارتقاءه إلى منصة وزارة المعارف مبتدعاً منها تعليم الناشئة المصرية من البنين والبنات التمثيل الإباحى والرقص التوقيعى وتربيتهم على التجرد من الثياب بحجة الترقى فى صناعة التصوير ، وهو هو الذى كان قاضياً فرفعت إليه قصة رجل يطلب فيها عقاب أستاذ فى المدارس على التصدى لمغازلة امرأته وإفسادها عليه بمخاطبته إياها فى الطريق بعبارات التصبى والاستمالة فحكم القاضى الذى ارتقى من كرسى القضاء إلى كرسى حب الجمال وهو فضيلة من الفضائل ، وأن القانون هو مظهر من مظاهر حب الجمال وهو فضيلة من الفضائل وأن القانون يعاقب

على الرذائل فحكم ببراءة الفاسق المتصدى لإفساد نظام الزوجية وكفى به إفساداً للأمة . الغريب المريب أن يجعل مثل هذا القاضى المجدد الإباحى وزيراً للمعارف . ولقد ظننت أن الحكومة المصرية قد أجمعت أمرها على إلقاء هذا الشعب المتدين فى فوضى الإباحة المطلقة وقذفه فى تيهور الإلحاد والزندقة . وقد أبطل حلمى عيسى البدعتين الإباحيتين فعلمنا أن ابتداعهما كان بسوء رأى الوزير ثم إن هذا الرجل جعل طه حسين عميد كلية الآداب فى الجامعة مفتشاً للغة العربية فى الوزارة فأخرج من الجامعة التى كان يبث فيها إلحاده فكان لإخراجه ضجة شديدة .

(ولقد تبين من مذكرات الدكتور الزيات (ما بعد الأيام) أنه كانت هناك علاقة وثيقة بين الدكتور طه حسين ومراد سيد أحمد فى خططهما : هذا فى وزارة المعارف وهذا فى الجامعة) .

قدم الدكتور عبد الحميد سعيد استجواباً فى مسألة طه حسين استنكاراً لبقائه فى وزارة المعارف واستقال أستاذه ومربيه أحمد لطفى السيد . إن طه حسين خدم دعاة النصرانية بالصد عن الإسلام وبعثه عوجاً وقلد فلاسفة الإفرنج فى الشك والتشكيك وهو ضرب من السفسطة قديم . ولعل سبب تأييد بعض الملاحدة له أنهم رأوه متوغلا مستهتراً لا يبالى فى سبيل الشهرة بالإلحاد والإباحة ذماً ولا عاراً وهم حريصون على نشر هذه الدعوة فى الجامعة المصرية ليهدموا بمعاول المتخرجين منها كل ما بقى للإسلام فى مصر من هداية دينية وحسية عربية فهم أرادوا جعل الجامعة حرباً على الأزهر والمعاهد الدينية وعلى دار العلوم ، وصرحوا بأن ثقافة الجامعة المصرية ستحل محل ثقافة الأزهر الدينية فى مصر ، وكان أظهر الأسباب لعناية أولئك الملاحدة ببث دعايتهم فى الجامعة هو اعتقادهم أن الشعب ما زال يغلب عليه الدين » .

(٥)

هذه صورة وتلك صورة أخرى مكملة : هى صورة الأسلوب المتبع فى داخل كلية الآداب فيحدث عنه واحد من أوائل طلبة كلية الآداب (محمود محمد شاكر) . يتحدث عن خطورة العمل الذى قام به الدكتور طه حسين فى الجامعة وهو :

(٦)

تفريغ العقل العربى من الثقافة الإسلامية

يقول : من بين الاتهامات المبالغ فيها والمسئول عنها طه حسين : التهمة الثقيلة التالية : « إذا كان هناك تخريب فى الثقافة المصرية فإن المسئول عن هذا التخريب هو الدكتور طه حسين ، لأن تشككه فى الثقافة العربية (الإسلامية المصدر) قد أحدث نوعاً من التفريغ فى العقل العربى » .

الذى أطلق هذه التهمة هو الأستاذ شاكر وهى تهمة تعطى لطه حسين من التأثير السلبى والخطورة السلبية أكثر مما تعطيه للاستعمار والصهيونية وقوى التخريب المختلفة .

يقول الأستاذ شاكر : أما التهمة التى ذكرها ووضعها بين الأقواس فهى إشارة إلى ما كتبته فى مقدمة كتابى (المتنبى) وتعرضت لما سميته (التفريغ) وهو اللفظ الموجود فى التهمة التى بين الأقواس .

إن قضية الشعر الجاهلى قد دخلت بى دروباً وعرة شائكة وكلما أوغلت انكشفت عنى غشاوة من العمى ، وأحسست وأنا والجيل الذى أنا منه وهو جيل المدارس المصرية ، قد تم تفريغنا تفريغاً يكاد يكون كاملا من ماضينا كله . من علومه وآدابه وفنونه ، وتم أيضاً هتك العلائق بيننا وبينه ، وصار ما كان فى الماضى متكاملا متماسكاً فرقاً متفرقة ، متبعثرة تكاد تكون خالية عندنا من المعنى والدلالة ، ولأنه غير ممكن أن يظل الفارغ فارغاً أبداً فقد تم ملء الفراغ بجديد من العلوم والآداب والفنون ، لا تمت إلى الماضى بصلة .

القصة : منذ عهد محمد على وحفيده إسماعيل حتى جاء الاحتلال الإنجليزى فى سنة ١٨٨٢ وبمجيئه سيطر الإنجليز سيطرة مباشرة على كل شىء ، وعلى التعليم خاصة إلى أن جاء دنلوب (فى ١٧ مارس عام ١٨٩٧) ليضع للأمة نظام التعليم المدمر الذى لا نزال نسير عليه مع الأسف إلى يومنا هذا ، ثم نبتت وسائل التدمير التى ارتكبها الاستعمار فى حياتنا ، وما أدى إليه من التدهور السريع المتتابع حتى قلت : « وكذلك كان مقدراً لجيلنا نحن جيل المدارس المفرغ أن يتلقى صدمة التدهور الأولى لأنه نشأ فى دوامة دائرة من التحول الاجتماعى والثقافى والسياسى . وفى ظل هذا كله انتعشت الحياة الأدبية

انتعاشاً غير واضح المعالم ، وأقول غير واضح المعالم ، لأن الأساتذة الكبار الذى انتعشت على أيديهم هذه الحركة (ومنهم بالطبع طه حسين وغيره) كانت علائقهم بثقافة أمتهم غير ممزقة كل التمزق ، أما نحن – جيل المدارس المفرغ – فقد تمزقت علائقنا بها كل التمزيق ، فصار ما يكتبه الأساتذة فيما له علاقة بهذه الثقافة باطلا أو كالباطل ، فهو لا يقع منا من أنفسنا بالموقع الذى ينبغى له من الفهم ومن الإثارة ، أما ما أخذه جيلنا عنهم ، فهو الاتجاه الغامض إلى المعنى المبهم الذى تضمنته كلمة (التجديد) وإلى هذا الرفض الخفى ، للثقافة التى كان ينبغى أن ننتمى إليها وإلى الانحياز الكامل إلى قضايا الفكر والفلسفة والأدب والتاريخ ، التى أولع الأساتذة بتلخيصها لنا ، لكى نلحق بثقافة العصر الذى نعيش فيه ، وبمناهجه فى التفكير كما صوروا لنا ذلك من خلال ما يكتبونه وغاب عن الأساتذة الكبار أن الزمن الدوار هو الذى سيتولى الفصل بينهم وبين أبنائهم الصغار الذين كانوا يتعلمون اليوم على أيديهم .

لقد أردت أن أقيد ما كان مما شهدته بين أعوام (١٩٢٨ – ١٩٣٦) بل إلى ما بعد ذلك إلى يومنا هذا ، وهذه شهادتى أنا على جيلى الذى أنا منه ، وهو جيل المدارس الذى فرغ من ثقافة أمته ، وتقطعت علائقه بينه وبين حضارتها على وجه بشع لا تزال آثاره هى الغالبة إلى يومنا هذا .

أما كتاب (الشعر الجاهلى) وأثره فى جيلنا نحن ، جيل المفرغين وما ألقاه علينا وقاله الدكتور طه وزعم أنه « منهج الشك » فقال فيما قال عن هذا المذهب بلفظه من كتاب الشعر الجاهلى :

« إن هذا المذهب سوف يقلب العلم القديم رأساً على عقب وأخشى – إن لم يمسح أكثره – أن يمحو منه شيئاً كثيراً أو يثبت ما قاله بعد ذلك ، مما يدل على الاستخفاف بكل شىء ، وقيدته بنصه فى كتاب (الشعر الجاهلى) ، والاستخفاف الذى بنى عليه الدكتور طه حسين كتابه معروف ، أما الذى كان يقوله فى أحاديثه بين طلبته فكان استخفافه عندئذ يتجاوز حدة حتى يبلغ بنا إلى الاستهزاء المحض بأقوال السلف ، وأما الذى كان يدور بين طلبته المفرغين من ثقافتهم ، فكان شيئاً لا يكاد يوصف لأنه كان استخفاف جاهل واستهزاء خاو ، وكانت العاقبة وخيمة جداً . حين كبر هؤلاء الصغار

وحاولوا أن يزاحموا الأساتذة الكبار فى موقع الأستاذية ولكنهم لم يسيروا سير الأساتذة فى معالجة القديم بل كان الغالب على أكثرهم هو رفض القديم والإعراض عنه والانتقاض له والاستخفاف به .

وهناك أحس الدكتور طه حسين بهذا الخطر الذى تولى كبر أحداثه ، ففى يناير سنة ١٩٣٥ بعد تسع سنوات من صدور كتابه فى الشعر الجاهلى ، بدأ ينشر فى الجهاد مقالات كان محصلها رجوعاً صريحاً من ادعائه الأول فى سنة ١٩٢٦ الذى أعلنه فى كتابه ، وهو قوله « إن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ، ليست من الجاهلية فى شىء ، وإنما هى منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأصداءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين وأكاد لا أشك فى أن ما بقى من الشعر الجاهلى الصحيح قليل جداً . لا يمثل شيئاً ولا يدل على شىء » .

وقد ثبت أن الدكتور طه حسين قد رجع عن أقواله التى قالها فى الشعر الجاهلى ولكنه لم يكتب شيئاً صريحاً يتبرأ به مما قال أو كتب ، وكانت هذه عادة الأساتذة الكبار يخطئون فى العلن ويتبرءون من خطئهم فى السر . .

هذا الجيل المفرغ هو الجيل الذى تلقاه الدكتور طه حسين فى الجامعة منذ سنة ١٩٢٥ وأنا واحد منه ، إن الدكتور طه حسين تلقى هذا الجيل المفرغ والأجيال التى تلته من المفرغين أخطأ خطأ شنيعاً حين قال له ما قال فى قصة الشعر الجاهلى وبالصورة التى قالها مثبتة فى كتابه (الشعر الجاهلى) وفى كتابه المعدل (الأدب الجاهلى) ثم تهوره حين طالبهم باتباع ما زعمه مذهباً ، وأنه هو الذى سوف يقلب العلم القديم رأساً على عقب ، وأخشى إن لم يمح أكثره أن يمحو منه شيئاً كثيراً .

إن الدكتور طه حسين قد تبين هذا الخطر الذى تولى كبره بعد تسع سنوات لأكثر فكتب أو أملى شهادة على هذا الجيل المفرغ بعد أن فارق الجامعة وبدأ يسامى الأساتذة الكبار ويجابه برفض كل شىء ، فكانت شهادة من أستاذ كبير شهدها من موقع الأستاذية وكانت فحواها مطابقة لشهادة واحد من هذه الأجيال التى تلقت التفريغ فى نظام دنلوب ومدارسه شهدها من موقعه فى هذا الجيل المفرغ » .

وقد أشار الدكتور على سامى النشار عن خطة الدكتور طه حسين فى التعليم الجامعى فقال : « التجديد » فى جعل مناهج الدراسة فى الجامعة هى المناهج الأوربية ؛ التجديد هو دعوة إلى مسايرة الأوربيين فى تفكيرهم وفى نظرتهم إلى الحياة ؛ وفى فصل الدين عن السياسة ، وفى إبعاد الدين واللغة عن مجال الترابط وذلك فى قوله « إن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول » والجامعة عند الدكتور طه حسين إنما تمثل العقل العلمى ومناهج البحث الحديثة ويتصل اتصالا ممتداً بالحياة العلمية والأدبية وتسعى إلى إقرار مناهج التفكير الحديث شيئاً فشيئاً فى هذا البلد على حد تعبير الدكتور محمد البهى . وعمله الخطير فى إقرار تعليم اللغتين اللاتينية واليونانية ، وعمله الخطير الآخر هو تغريب مناهج الثانوى » ليعد الشباب قبل دخول الجامعة . وذلك قوله :

« إن التعليم العالى الصحيح لا يستقيم فى بلد من البلاد الراقية إلا إذا اعتمد على اللاتينية واليونانية على أنهما من الوسائل التى لا يمكن إهمالها أو الاستغناء عنها » .

وهو القائل بأن العقلية المصرية أوربية أو قريبة قرباً شديداً من الأوربيين ولها اتصال وثيق بالعقلية اليونانية وبعيدة كل البعد عن العقلية الشرقية : وقوله إن العرب والإسلام طارئ كالفرس والرومان ، وقوله : إن التعامل مع الغرب هو أن نسير سيرتهم ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء فى الحضارة : خيرها وشرها ، وحلوها ومرها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ، وقوله : (مصر الحديثة تقوم على مصر الخالدة الفرعونية) ، وقوله : (والعقل المصرى اتصل بالعقل اليونانى منذ عصوره الأولى اتصال تعاون وتواثق وتبادل يستمد معظم المنافع فى الفن والسياسة والاقتصاد . العقل المصرى منذ عصوره الأولى ، عقل إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على اختلافها قائم يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط) ، وقوله : (إنه أصل من أصول الحياة الحديثة . إن السياسة شىء والدين شىء آخر) ، وقوله :

(إنه ليس بيننا وبين الأوربيين فرق فى الجوهر ولا فى الطبع ولا فى المزاج فأنا لا أخاف على آخرين أن يفنوا فى الأوربيين) ، وقوله : (والتجديد هو مسايرة للغربيين فى كل شيء ، وهو أخذ كل ما عند الغربيين من فكر ومنهج للبحث وحضارة وعادات وتقليد فى فصل الدين عن السياسة) .

هذا هو المنهج الذى فرض على الجامعة أن تعتنقه .

وقد كانت اليقظة الإسلامية هى مصدر المقاومة الحقيقى لهذه الفلسفة العلمانية الخطيرة ، فقد كشفت عن زيف دعوى الفصل بين الدين والسياسة ، وزيف الاقتباس الخطير على النحو الذى دعا إليه طه حسين ، وزيف ربط العقل المصرى بالبحر المتوسط والغرب مع أنه مرتبط منذ أربعة عشر قرناً بالإسلام ومصادره وقرآنه ولغته العربية وأمته الإسلامية التى نشأت حول البيت الحرام ، وخالفه مصطفى عبد الرازق فى قضية الفلسفة فكشف عن زيف القول : بأن الفلسفة العربية فلسفة يونانية،وأعلن أن الإمام الشافعى هو المعلم الأول للمسلمين وليس أرسطو ، وكيف أن منطق أرسطو مخالف لمنهج الإسلام ولا يصلح له ، وأن للقرآن منهج خاص كشف عنه الإمام ابن تيمية ، ولم يكن منهج طه حسين مرتبطاً بطريق جمال الدين ، ومحمد عبده فقد كشف عن نشوذه عن هذا الطريق إلى طريق التغريب الخالص .

ولقد كتب بعض الباحثين كيف حول طه حسين الجامعة من عمل إسلامى أصيل إلى مباءة للإلحاد والإباحة فقال : إن مصطفى كامل والرعيل الأول من الوطنيين الذين دعوا وتبرعوا لإنشاء الجامعة ما كانوا يظنون أن مشروعهم لا يلبث أن يتحول إلى عمل تغريبى خطير وأن يعود طه حسين من وراء البحار لينشر فى أنحاء المعهد بآراءه المصادمة لنصوص القرآن والإسلام والدين فى كتبه الأدب الجاهلى وحديث الأربعاء الذى يصور المجون والفجور فى طائفة من الشعراء ومستقبل الثقافة، ولم تكن هذه الآراء التى نشرها طه حسين إلا آراء بعض المبشرين الداعين إلى هدم مقومات هذه الأمة وفكرها .

وكشف الدكتور زكى مبارك خطة طه حسين فى تغريب التعليم العام والتعليم الجامعى : (الرسالة فى ٢٥/١٢/١٩٣٩) وذلك عندما عين

طه حسين مراقباً للثقافة . قال : أتكون جئت وفى يمينك كتابك (مستقبل الثقافة فى مصر) إذا كان ذلك فاعلم أن هذا الكتاب لا يصلح أساساً لعملك الجديد فقد ناقشه الناقدون من كل جانب ولم يتركوا فيه أديماً صحيحاً .

وكتب عنه عبد السلام الكردانى ، ساطع الحصرى ، وقال زكى مبارك : أنت صرحت مراراً كثيرة بأن العقلية المصرية عقلية يونانية ، وأن تلك العقلية يجب مراعاتها فى التعليم والتثقيف ، أفتظن أن هذا الأساس لا يزال صالحاً لأن تقيم عليه عملك الجديد ، وأنت دعوت إلى تعليم اليونانية واللاتينية بحجة أنهما أصل للحضارة الأوربية ، فهل تظن أن هذه الدعوة لا تزال لها فى مصر والشرق مكان ؟

لقد سعيت للسيطرة على السنة التوجيهية . أردت أن تفرض على الطلبة دراسة نقد النثر لقدامه ، فهل تظن أن نصوص هذا الكتاب مما تسيغه عقول الطلبة فى السنة الخامسة الثانوية . كان يجب أن تشتغل بالتدريس فى القسم الثانوى سنة أو سنتين قبل أن ترسخ نفسك لوضع منهج الأدب بالمدارس الثانوية .

لقد سعيت سعيك أن يكون منهج الأدب فى السنة الخامسة خلاصة لتاريخ الآداب اليونانية واللاتينية ، وأتعبت نفسك فى تأليف مذكرات يستعين بها المدرسون على فهم ذلك المنهج الظريف ، فهل تستطيع أن تدلنى على أمة واحدة كان فيها منهج الأدب القومى خلاصة لآداب أمة أجنبية . هل تذكر خرافة (تيسير النحو) التى شغلت بها وزارة المعارف ؟ وهل تذكر أين صارت تلك الخرافة من غيابات التاريخ ؟ وهل تذكر ما قوبلت به من السخرية فى الشام والعراق ؟

كيف جاز عندك أن ندرس الخطب القديمة فى وطن ديموسين قبل أن ندرس الخطب الحديثة فى مصر ؟ وكيف صح فى ذهنك أن ندرس مجادلات الأحزاب فى أثينا قبل أن تدرس مصاولات الأحزاب فى القاهرة وبغداد ؟

(٧)

روايتان فى كلية الآداب تطعنان فى الرسول صلى الله عليه وسلم

كتب الأستاذ محمد الهيهاوى (١٦ مارس عام ١٩٣٩) جريدة المنبر :

قررت كلية الآداب بين كتب الدراسة روايتين إنجليزيتين فى موضوعهما طعن على الإسلام وعلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وتقرير كتب الدراسة لا يكون إلا عن إحاطة بموضوعاتها ومعرفة لما فيهما ، فمن هو أو من هم فى كلية الآداب ؟ هؤلاء الذين وضعوا بالتعمد والقصد بين يدى أبناء المسلمين فى هذه الكلية قذف الإسلام والطعن على رسوله الصادق الأمين ليكونا موضوع دراسة وتثقيف . فى هذا يقول عميد الكلية (الدكتور طه حسين) :

(نحن نعلم آداب اللغة الإنجليزية ، فهل من أجل عبارات الطعن فى الإسلام تمنع تدريس هذه الرواية ، وليس الدين الإسلامى من الضعف إلى حد عدم احتماله مثل هذه العبارات ؟) .

فهذا العميد إذن هو صاحب التعمد والقصد ، وقد يكون فى تعمده وقصده ، تابعاً لمدرس أجنبى يعرف هاتين الروايتين بالذات ويعرف ما فيهما على وجه التخصيص من مواطن الضعف فى الإسلام ورسوله ، فهو فى اختياره لهما سيء النية مثلما أنه متعمد سوء نيته . هذا الاستفهام الإنكارى الذى يوجهه الدكتور طه بقوله : فهل من أجل عبارات طعن فى الإسلام يمنع تدريس الرواية ؟ هذا الاستفهام ما معناه ؟ معناه : أنه يرى أن تدريس هذه الرواية أعز وأكرم من الإسلام ورسوله ، فلا يصح أن يمنعوا تدريسها ليصونوا عرض كليتهم من أن يتناوله الطعن فى شىء ، ويرون أن تدريس الرواية أعز منه وأكرم ، ولكن المسألة أعمق غوراً من هذا الاستخفاف الحقير وذلك أن لها جوانب نعرض منها ما يأتى :

أولا : إن أساتذة اللغة الإنجليزية أجانب مسيحيون ، فمن الذل والهوان للدولة الإسلامية ولأبنائها جميعاً أن يقوموا من الطلبة المسلمين مقام الأساتذة يشرحون لهم مرامى الطعن ، ويمتحنوهم فيه ويجزوهم على حذقه وحسن فهمه بالفوز والنجاح .

ثانياً : إن الطعن فى الإسلام ورسوله جريمة كبرى عند المسلمين كافة ، فكيف يصح أن تتكرر صورها فى الدراسة فى بلد دينه الإسلام ؟

ثالثاً : إن هذا الطعن نفسه معدود فى القوانين المصرية جريمة لها عقوبتها ، فكيف تصبح هذه الجريمة أدباً يتلقاه أبناء المسلمين فى كلية الآداب باعتبار أن هذه الجريمة دراسة جامعة عالية ، صحيح أن الإسلام ليس من الضعف بحيث تؤثر فيه هذه العبارات ولكن من العزة بحيث لا يحتمل الطعن فيه وفى رسوله صلى الله عليه وسلم .

فهذا التخريج الذى أراد الدكتور طه أن يفر به من فظاعة الجرم يوقعه فى المسئولية أكثر مما يعينه على الفرار ، على أن شدة الخطر ليست فى الطعن ذاته . فهذه الرواية ليست أول كتاب بسط فيه السفهاء ألسنتهم بالطعن فى الإسلام ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولكن الخطر الشديد فيما دلت عليه الحوادث من الكيد للإسلام والتبييت له بقصد وسوء نية ، فمنذ تذرع الدكتور طه بحرية الفكر لتكذيب القرآن فى كتابه (الشعر الجاهلى) لم تفتر نفسه عن التذرع بهذه الحرية نفسها إلى غاية يشهد الإلحاح فى طلبها إنها مقصودة بالذات ، غير أن حرية الفكر أجل وأصون من أن تصبح جريمة أو تعين على جريمة ، فإذا هى انتهت إلى ذلك انسلخت عن نفسها ، فلم تعد هى الحرية العزيزة على النفوس ولم يبق لها من عدل الجزاء غير العناء ، ولا يتورع عميد كلية الآداب عن أن يدلس حين لا يعرف كيف يستر التدليس فهو يزعم فيما وردت عنه الصحف أن أحد المدرسين اختار من نفسه هذه الرواية ، فلولا أن الطلبة غضبوا لدينهم لبقيت الغاية فى طريقها الأخرى : طريق الطعن فى الإسلام واستدراج أبنائه باسم الثقافة وحرية الفكر إلى سوء الظن به والاطمئنان إلى قبول الطعن فيه وهذه نفسها هى طريق المبشرين ، وما دام الدكتور طه لا يريد أن يريح نفسه من عناء الأمل الذى ملأ جوانب كثيرة من صدره فستبقى حوادث النيل من الإسلام تابعة له أينما كان ، وسيبقى أن تعرف الأمة هل تحرص الحكومة على طه حسين لأنه أغير عليها من دين الله فى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولا ريب أن هذا القول يكذب ما ذهب إليه الدكتور محمد حسن الزيات فى مذكراته حين قال : أراد أن يبرر وجود الكتاب فى أيدى الطلاب كذلك فإن الزيات أنكر واقعة اعتداء الطلاب على العميد ومحاصرتهم له فى غرفته وهى واقعة ثابتة فى محاضر البوليس (م ١٢) الفتح حيث أشارت

إلى أنه قد غرم ثلاثة هم عبد العزيز الشوربجى ، وعبد الوهاب حسنى ، وحمزة البسيونى كل منهم خمسين قرشاً لاعتدائهم على طه حسين مع وقف التنفيذ . أما الدكتور الزيات فيصف الحادث على أنه تجمهر خفيف وذلك حتى يحفظوا شرف الدكتور العميد الذى اعتدى عليه فعلا واستقال .

(٨)

داعية إلحاد وشيوعية :

ونشر الأستاذ محمد الهيهاوى فى جريدة المنبر فى (٢٧/ ٤/ ١٩٣٩) تحت هذا العنوان فصلا مطولا جاء فيه : أمامى الآن مراجع تلقى على الدكتور طه تهمة الإلحاد وتهمة بثه والدعوة إليه ، ولست أريد أن أظلم الرجل من غير حجة ولا دليل ، ولا تستقيم الحجة فيما أرى قبل أن تسبقها مقدماتها من الوقائع المروية على سبيل التسلسل الزمنى وسأحاول أن أصل مع القارئ إلى الغاية التى يؤدى إليها البحث النزيه ، أريد أن أرى مع القارئ ما هى حرية الفكر وإلى أين ينتهى مداها ، وما هى الحدود أو القيود التى يجب أن نقف عندها ونحمل عليها ؟

اتخذت شرائع الاجتماع والقانون فيما انتهى إليه التفكير الحديث للجماعة البشرية فى حدودها الخاصة اسم (الهيئة الاجتماعية) وجعلت لها على الفرد حق الخضوع والطاعة والتوقير ، وفرضت للاعتداء عليها عقوبة لا تزال السلطة القضائية تمضيها فى جناة هذا الاعتداء .

والفكر عارض فى الإنسان لا ينتهى إلى حد معين من الخير والشر ، فالذى يسرق مالا أو يحرق زرعاً أو يقتل إنساناً مظلوماً لابد له قبل الإقدام على الجريمة أن يفكر فيها ويفكر فى الوسيلة التى يتم بها ويفكر فى سبيل الفرار وطريق النجاة .

الدكتور طه وأمثاله يعترضوا طريق الناس فى كلية الآداب وفى أندية البحث والنظر أو فى الصحف والمجلات أو فى الكتب الموضوعة والرسائل المؤلفة ليقولوا : إن حديث الكعبة فى القرآن حديث خرافة ، وإن الدين لم ينزل من السماء ولم يهبط به وحى الله على رسله وأنبيائه ، وإن العلم لا يتفق مع الدين إلا أن ينزل الناس على دعوى أن هناك إلهاً معبوداً هو الذى شرع

الدين لعباده ، وأن لله أنبياء ورسلا هم الذين جاءوا بتبليغ هذا الدين ، فحرية الفكر حين ترمى القلوب والعقول بجريمة هذا الاعتداء ، فإنما يفعل ما تفعله حين ترمى حياة الناس المادية ومنافع دنياهم بجريمة الاعتداء نحو السرقة والقتل ، فهى تعتدى على الهيئة الاجتماعية اعتداء يأبى العقل والعدل إلا أن يضرباها به الضربة التى تلزم حدودها .

ما شأن الدكتور طه حسين فيما نسب إليه اليوم ، وما شأنه فيما صدر عنه : أن حديث بناء الكعبة فى القرآن خرافة لأن قصة وجود نبى الله إبراهيم موضوعة وهى قصة موضوعة لأن صحاح التاريخ لم يثبتها .

القرآن فى نفسه كتاب كأى كتاب آخر مؤلفه أى إنسان فهو قابل للنقد والتجريح فانظروا فيه أيها التلاميذ .

لم يكن هذا كل ما يثبت فى شأن الدكتور طه أمس ، ولكن بعض ما ثبت فى شأنه . أما اليوم فالجديد أدهى وأمر .

فنى كتاب أو تقرير وضعه دعاة الشيوعية والإلحاد أن الدكتور طه ألحق نفسه بجماعة قوية غرضها بث الإلحاد فى نفوس الشباب وتحطيم الإيمان فى قلوب الناس ، وقيل : إن هذه الجماعة تمهد بهذا الغرض إلى الشيوعية ، وقيل : إنها تطلق بالمال ألسنة الدعاة وأقلامهم ، وقيل : إن الدكتور طه كان أحد اثنين أطلقا لسانيهما وراء هذا الغرض وأجريا قلمهما فى سبيله .

يقول الدكتور طه فى كتاب أرسله إلى الأستاذ هيكل باشا قبل أن يلى الوزارة : الدين حين يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لا يعترف بهما العلم ، وإن العالم ينظر إلى الدين كما ينظر إلى اللغة وإلى الفقه وإلى اللباس من حيث إن هذه الأشياء كلها ظواهر اجتماعية يحدثها وجود الجماعة وتتبع الجماعة فى تطورها وتتأثر كالجماعة بمختلف المؤثرات كالبيئة والإقليم والوضع الجغرافى ، وأن النتيجة إذن أن الدين فى نظر العلم الحديث ظاهرة اجتماعية فهو لم ينزل من السماء ولم يهبط به الوحى ، وهذا كتاب جديد وضعه بالإنجليزية (روم لاندو) وأثبت فيه حديثاً جرى له مع الدكتور طه وفيه يعود الدكتور ليؤكد أن الإسلام لا يتفق مع العلم ، وأن شيوخ الأزهر يكذبون إذا ما قالوا غير ذلك ، وأن المسلمين فى مصر بين مراء فى عقيدة

الإسلام وآخر يتخذ العقيدة مجرد تقليد ، وإن الإسلام قد يمكن أن يكون في المستقبل ديناً روحياً بشرط أن تتناوله يد التجديد . ومما يقوله في هذا الحديث : إن الدين عند الأزهريين لا يزيد على أنه حرفة يحترفونها لاقتناص المال . وكتاب هذا الانجليزى يلتقى فى الغاية مع كتاب (مستقبل الثقافة) فى سوء الظن بالثقافة الإسلامية فى أسسها ونوعيتها .

فهذا الداعية : (طه حسين) لا يريد أن يكف ولا ينقطع ولكنه يجبن وينتقض ويتلوى ويفقد جرأته الخابطة ويكمن كمون الدودة فى الشرنقة ، كما أفزعته صيحة الحق ، وهو بعد هذه النهاية التى صار إليها من الإمهال والمطاولة لا يسأل عن ذنوبه قبل أن يسأل عنها الرجال المسئولون فى مختلف العهود .

ولقد كان الأستاذ محمد الهيهاوى من الأقلام المسلمة الجريئة التى لم تترك لطه حسين فرصة دون أن تنازله وتكشف زيفه .

ولعل خير ما نقدمه فى ختام هذا الفصل سؤال وجه إلى طه حسين وأجاب عليه مرتين .

قال السائل كيف تربى أولادك ؟

فى الأولى قال : أتركهم لأنفسهم مستقلين بشئونهم ولا أعتبر نفسى آمراً أو ناهياً لهم ، بل أتيح لهم أن يقولوا لى (لا) ، كما أتيح لنفسى أن أقول لغيرى : (لا) ، (وهذا مفهوم فرويد والماسونية) .

فى الثانية قال : ما أعمله وما أنصح به لغيرى مع الأسف أننى أرسل أولادى إلى الليسيه فرنسيه وأعلمهم العربية فى البيت وهذا لأن الليسيه هو فيما أعلم أحسن معهد للتعليم الابتدائى والثانوى فى مصر (وهذا مفهوم التبشير) .

وقد أشار زكى مبارك إلى بعض أساليب طه حسين الماكرة فى إدخال المفاهيم المنحرفة إلى شباب الجامعة فقال : إنه كانت تعد أسئلة فى كلية الآداب وتعد الإجابة عليها وتلقى بين المحاضرات على أنها أسئلة من بعض الطلبة منها قول أحدهم : لو أراد الله أن ينزل قرآناً فى زمننا هذا ، فبأى لغة يمكن

نزوله ؟ ويرد أحدهم : أنه كان ينزل بالفرنسية لأنها هى اللغة العامة لحسن لفظها وقرب مأخذه ودقة تركيبه .

ويقول آخر : إنه كان ينزل بلغة أحسن من التى نزل بها وهى العربية التى تستعمل الآن فى الكتابة .

ويقول ثالث : إن القرآن نزل فى بيئة جاهلية فنزل بلفظه هذا الذى يروى عليه اليوم ولو أنه نزل فى أيامنا فلا شك فى نزوله بصورة مغايرة للتى نزل بها ومعنى هذا أن القرآن لا يوافق كل العصور ، بل يوافق العصر الذى نزل فيه .

ويقول زكى مبارك : سمعت من بعض الطلبة أن هذه الأسئلة توضع قبل الدخول إلى الدرس ، ويلقيها تابع من أتباعهم أثناء الدرس حتى تزيغ العقائد ، فالطلبة ليسوا من التمكن فى الدين بحيث يدفعون مثل هذه الشبهات لأول نظرة .

(٩)

المدارس الأجنبية

عقد الأستاذ محمد صبرى عابدين فصلا فى مجلة الأزهر (نوفمبر عام ١٩٥٣) عن المدارس الأجنبية رد فيها على مقال مجلة روز اليوسف فى (٢٦/ ١٠/ ١٩٥٣) بعنوان الدفاع عن الكنيسة القبطية قالت المجلة — فيه ما نصه :

(أثار الدكتور طه حسين عند مناقشة نظم التعليم فى لجنة الحريات والحقوق العامة بلجنة الدستور : مسألة المدارس الأجنبية ونظمها وذكر أن هدفها الأول هو التبشير الدينى حتى خلفت من الأقباط المصريين ثلاث طوائف هى : الكاثوليكية ، والبروتستينية ، والأرثوزكسية ، وقال : إنه فى الوقت الذى يتجه فى التربية القومية إلى محو كل ما يتصل بالتعصب الدينى يرى أن هذه المدارس الأجنبية تثير التفرقة بين أبناء الدين الواحد ، وقال الدكتور طه فى كلامه : (إن الهدف المقصود من التبشير الأمريكى والإنجليزى

والفرنسي هو هدم الكنيسة القبطية مع أن هذه الكنيسة جزء هام من تراث الدولة يجب المحافظة عليه . وإنا لنشكر للدكتور طه دفاعه عن مواطنينا الأقباط ومطالبته بحمايتهم وحماية كنيستهم من خطر التفرقة التى تثيرها المدارس الأجنبية ، حرصاً على الوحدة القومية بين المصريين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم . وكم يسرنا لو أن الدكتور طه حسين وهو وزير سابق للمعارف المصرية عرف حقيقة مقاصد المدارس الأجنبية وأغراضها التبشيرية ، والاستعمارية الخطيرة . وقد عنى إلى جانب دفاعه عن الكنيسة القبطية بالدفاع عن قومه المسلمين الذين هم أكثرية شعب مصر ، وليت الدكتور طه ذكر لنا كم طائفة المدارس الأجنبية بين مسلمى مصر وغيرها من بلاد الشرق ، وكم خلقت فيهم من ملحدين وإنجليز وفرنسيين وأمريكيين وصهيونيين ، طبعهم المعلمون الأجانب بالطابع الغربى وأبعدوهم عن كل ما هو شرقى ، وجردوهم من أخلاقهم وفضائلهم وتقاليدهم الإسلامية ، العربية الحميدة وأوجدوا بينهم فريقاً عاقاً مذبذباً كان ما زال حربا على أمته ووطنه ، عوناً للعدو المحتل ، منفذاً لسياسته وخططه وفات الدكتور طه أن يذكر للجنة الدستور أن الهدف الأول للمدارس الأجنبية فى مصر العمل على هدم الإسلام وتقويض دعائمه وجعل أوطانه وأقطاره فريسة للاستعمار الأجنبى وما ذكره من خطر المدارس الأجنبية على نصارى مصر وتفرقهم قد سبق أن شعر بمثله نفر من أحرار نصارى لبنان وأدبائهم .

وجدير بالذكر هنا أن المبشرين لم يخفوا مقاصدهم وأغراضهم فهم يعلنون على رءوس الأشهاد أنهم إنما يريدون فى مدارسهم وكلياتهم وجامعاتهم فى بلاد المسلمين محاربة الإسلام والسعى لإخراج المسلمين من دينهم ، فهذا المستر بروز الرئيس الحالى للجامعة الأمريكية فى بيروت يقول فى كلمة له ما نصه : (إن المبشرين يمكن أن يكونوا قد خابوا فى هدفهم المباشر وهو تنصير المسلمين جماعات إلا أنهم قد أحدثوا بينهم آثار نهضة) ؛ ولقد برهن التعليم على أنه أثمن الوسائل التى استطاع المبشرون أن يلجئوا إليها إلى سعيهم لتنصير سوريا ولبنان . ولم يكتفوا ببيروت بل أرادوا أن تكون ثمة كلية فى القاهرة نفسها إلى جانب الجامع الأزهر ، فأصبح للمبشرين الكلية الأمريكية فى القاهرة بعد كلية روبرت فى استانبول .

وإنا لنرجو أن نفسر أبحاث لجنة الحريات والحقوق العامة بلجنة الدستور على إعداد قانون بتوحيد نظم التعليم المصرى فى جميع البلاد المصرية ينص على منع فتح مدارس أجنبية جديدة ووجوب تعلم الدين فى جميع مراحل التعليم وإلزام المدارس الأجنبية بذلك وبإنشاء مساجد فى كل المدارس المصرية والأجنبية ليؤدى فيها الطلبة والطالبات من المسلمين صلواتهم ، وشعائرهم الدينية وأوقاتها .

وإنى على ثقة بأن المسئولين يعلمون الكثير عن ضرر المدارس الأجنبية وخطرها وما تقوم به من التبشير والتضليل وخدمة المطامع الاستعمارية تحت ستار الدين .

(١٠)

الجامعة تقف أمام مؤامرة طه حسين

ولكن عمل طه حسين فى الجامعة لم يمر دون موقف حاسم من الشباب وقد بدا هذا الموقف بعد أن انكشف ذلك القبح الموجه للإسلام فى رواية (سان جوان) التى تدرس لطلبة كلية الآداب وهى محاورة بين شخصين تعرض فيها للنبى صلى الله عليه وسلم بعبارات غير لائقة . وقد طير الجامعيون برقيات إلى الصحف يشكون فيها من وضع هذا الكتاب بين أيديهم ، وقال طه حسين فى الرد على ذلك : نحن نعلم آداب اللغة الإنجليزية فهل من أجل عبارات طعن فى الإسلام تمنع تدريس هذه الرواية ، وليس الإسلام من الضعف إلى حد عدم احتماله مثل هذه العبارات ، وقد طالب طلبة كلية الآذاب عدم الخلط بين (حرية الفكر) و (حرية الفحش) والإجرام فى حق أقدس شخصية فى العالم ، وقالوا : لسنا نريد أن يحيا العلم الزائف على حساب الكرامة ولكنا نريد أن تحيا الكرامة فى ظلال العلم ،(راجع القضية فى كتابنا تاريخ الصحافة الإسلامية : مجلة الفتح) .

وقد اتجه الشباب المسلم فى الجامعة حيث رفع طلبة (كليتى الحقوق والآداب) مذكرة إلى مدير الجامعة يطلبون فيها عدة طلبات أهمها :

أولا : إدخال الدراسة الدينية فى جميع الكليات .

ثانياً : توحيد زى الطلبة فى الجامعة مع تمييز طلبة كل كلية عن الأخرى بإشارة خاصة .

ثالثاً : توحيد زى الطالبات .

رابعاً : تحديد دراسة خاصة للطالبات فى كلية الآداب .

وقد أفاضت مذكرة الطلبة فى هذا المعنى فقالت :

طالما تاقت نفوس النشء إلى التعليم الذى حرم منه فى مراحل التعليم الابتدائى والثانوى فقد نص الدستور فى المادة ١٤٩ على أن الإسلام هو الدين الرسمى للدولة والمشرع أبعد أن يحشوا الدستور بمواد لا يريد معناها ونتائجها . ومن المسلم به أن مصر للشرق كله نبراس يضىء بعلمها ودينها والجامعة المصرية تنتهى بها مراحل التعليم فى بلادنا ويتخرج منها أكبر عدد ، وكان من الواجب أن يلم فى هذا الميدان الآخر بشىء من دينه القويم ، حتى لا يقضى حياته جاهلا بأصوله مخالفاً لقواعده وقوانينه ، بعد أن استوعب فلسفة أرسطو وأحاط بنظريات ديكارت ولا تأتى معرفة الدين وأصوله إلا عن طريق إدخال الدراسة الدينية فى منهاج الدراسة فى جميع الكليات ، ففى الدين نجد الوازع الأكبر للشباب فى مرحلته الأخيرة التى تتصادف وساعات الطيش وتتقابل وفترات النزق والرعونة ، ويرجع طبعاً كل ذلك إلى عامل السن فى هذه المرحلة ، ومن شديد الأسف أن تنتهى مراحل العلم فى بلد إسلامى اشتهر بين بلاد العالم بالدين وما يعلم الطالب فيها من أمر دينه شيئاً ، وإننا لا نجد عوضاً لنا عن هذا الإهمال بين جدران منازلنا ، إذ أن من مر الحقائق أن سواد الشعب أعرض عن الدين وانغمس فيما نهى الله .

٢ – تحديد دراسة خاصة للبنات فى كلية الآداب :

وقد يمكنكم أن تجدوا للفتاة فى كلية الآداب دراسة خاصة بها لأنه مهما يكن من الأمر فليس كل المواد التى تدرس فى كلية الآداب تتفق وكونهن أمهات المستقبل . إن الاختلاط بصورته الحالية فى جميع الكليات يتنافى مع الشرع الإسلامى . إن فى الدراسة الخاصة بالفتاة لخير تحديد لمصيرها وخير معين على حياتها المستقبلة التى خلقت من أجلها ، وما كاد

الدكتور طه حسين يعرف بشأن هذه المذكرة حتى كبر عليه أن يجرؤ أولئك على تقديمها إلى مدير الجامعة ، ثم هاله تأييد رجال الأزهر وعلى رأسهم الأستاذ الأكبر لإخوانهم الجامعيين . قال الدكتور طه :

(أنا لا أعلم فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم نصاً يحرم اجتماع الفتيان والفتيات حول أستاذ يعلمهم العلم والأدب والفن) .
وقد ووجه طه حسين بعشرات من الرسائل التى تدحض مفهومه الخاطىء وكتب كثيرون يدحضون مناورة الدكتور طه حسين . قال محرر الفتح : إذا كان الدكتور لا يعرف هذا النص فهل معناه أنه غير موجود ، وهل يلزم من عدم معرفة الدليل على شىء عدم وجوده :

وإذا لم تر الهلال فسلم ... لأناس رأوه بالأبصار

ومن قال : إن الدكتور طه عالم من علماء الدين أو فقيه من فقهاء المسلمين حتى يقام لرأيه وزن فى الشئون الدينية ، وبعد فنحن نتولى تعريف الدكتور ما جهله حتى يعلم أنه تطفل وتدخل فيما لا يحسن الكلام فيه .

إن الأدلة الشرعية ليست محصورة فى الكتاب والسنة ولا مقصورة عليها فحسب، بل الأدلة الشرعية المتفق عليها هى الكتاب والسنة الصحيحة والإجماع والقياس الصحيح ، ومن لا يعرف ذلك فهو داخل تحت قول الله تعالى : « **ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير . ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق** » . (سورة الحج الآية ٩) ، وأنه مما امتاز به الإسلام فى قواعده العامة إن جعل درء المفاسد أساساً للأمور الأدبية والشرعية، فاختلاط الجنسين وهو ينبوع المفاسد ومصدر الشرور محرم بهذه القاعدة الشرعية ، وإن القرآن أورد آيات كثيرة حول هذا المعنى واضحة المعنى دالة على تحريم الاختلاط : اختلاط الرجال بالنساء الأجنبيات مطلقاً إذ الأمر بالشىء نهى عن ضده ، ولا ننسى أن العبرة بعموم اللفظ ، أما حكمة التشريع فى تحريم الاختلاط فهى الشريعة الإسلامية تريد للمرأة المسلمة أن تحيا حياة الطهر والعفاف والصيانة والفضيلة والدكتور طه بهذا يصادم شعور المسلمين وحرية آرائهم .

وإن كل خطاب موجه إلى زوجات النبى صلى الله عليه وسلم هو موجه لنساء المؤمنين ما لم يقم دليل خاص على التخصيص ، استمع لما جاء فى القرآن الكريم متعلقاً بموضوع الاختلاط المحرم :

« وقرن فى بيوتكن . . . » . (الأحزاب — ٣٣)

« . . . وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب . . . » .
(الأحزاب — ٥٣)

« يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين . . . » . (الأحزاب — ٥٩)

هذه الآيات واضحة المعنى دالة على تحريم الاختلاط : اختلاط الرجال بالنساء والأجنبيات مطلقاً .

كما أمر الله الرجال بغض أبصارهم عن النساء الأجنبيات وعما لا يحل النظر إليه ، كما أمر النساء بغض أبصارهم عن الرجال الأجانب مع بيان الحكمة فى ذلك :

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ماظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولايبدين زينتهن إلا لبعولتهن . . . » . (النور ٢٩ — ٣١)

أما حكمة التشريع فى تحريم الاختلاط فهى أن الشريعة الإسلامية تريد للمرأة المسلمة أن تحيا حياة الطهر والعفاف والصيانة والفضيلة ، والدكتور طه بهذا يصادم شعور المسلمين وحرية آرائهم .

(محمد إسماعيل عبد النبى)

(١١)

مع روم لاندو والشباب

وعندما اشتدت حركة اليقظة الإسلامية فى الجامعة وكشفت عن وجودها بموقف الشباب المسلم من الاختلاط ومطالبته بمنهج إسلامى فى التعليم ، قدم إلى مصر الكاتب روم لاندو ببحث هذا الأمر وقد طاف بعدد من

القادة ليسأل عن مستقبل الإسلام بين الشباب ، ولقد سأل الشيخ المراغى شيخ الأزهر ، كما سأل لطفى السيد مدير الجامعة ، ولعلك تدهش أن تسمع إجابة لطفى السيد : وهو كلام رجل ماكر خبيث لا يريد أن يكشف وجهته وإنما يجارى الموقف : قانوننا الدينى لا يتناول العقيدة بالبحث المحض ، بل هو يخرج عن هذه الدائرة الضيقة فيتناول كل تفصيلات الحياة فيضع أنظمة لشئون العمل والزواج والميراث ومئات المسائل الأخرى .

— ألا زالت الديانة فعالة .

— إنها أقوى مفعولية وتأثيراً فى الحياة المصرية منها فى الحياة المسيحية لأن جميع قوانيننا أساسها القرآن ، وفى الأقطار الإسلامية من الصعب أن نفصل الديانة عن الحياة الاجتماعية .

— ومع ذلك يقال لى : إن شباب مصر يهجرون ديانة آبائهم تحت تأثير غزوة التجديد الغربى .

— ربما لا يتجهون إلى المساجد ويؤدون الصلاة يوم الجمعة ولكنهم مع هذا لا يمنع أنهم متمسكون بالدين فى مجموعه . . . إلخ .

ولكن الدكتور طه حسين يذهب بعيداً فى مجافاة حقائق اليقظة الإسلامية التى أحاطته فى كرسيه بكلية الآداب وفرضت عليه أن يترك الجامعة ، فيقول للكاتب الفرنسى :

فهو يرى أن الدين كقوة روحية لا أثر له فى نفوس أولئك الذين تلقوا علومهم فى مدارس دنيوية وهم كثرة المتعلمين ، فهم كافرون بالدين والتقاليد ، يؤمنون بالمادة ، ذلك بأنهم بعد أن خضعوا قروناً لسيطرة الدين اهتدوا فى الثلاثين سنة الأخيرة إلى ما وصلت إليه أوربا منذ قرون .

س — هل تعنى أن الدين لم يعد يداخل حياة الشباب ؟

ج — شبابنا متناقضون فى موقفهم من الدين ، فهم يتخذون عقائد آبائهم التقليدية أساساً لمعتقداتهم فى مقاومة المؤثرات الخارجية وفى اتجاههم الوطنى ، لماذا ؟ لأن القرآن فى الشرق الأدنى هو الأساس الوحيد لكل محاولة يراد بها تكوين أمة ، وطلابنا فى حياتهم الخاصة أصبحوا قسماً متميزاً من مجموع السكان ولكن لا يلبثون أن يجمعهم القرآن بكل فلاح وكل

بدوى . إنهم يقبلون القرآن ليهيئوا من العامة كتلا تناصرهم فى كفاحهم السياسى ، فهم يجعلون من القرآن أداة سياسية لا أداة روحية ، وهم من الناحية الروحية متبحرون فى القضاء وتفكيرهم الجديد غير قابل للهضم ، والدين بالنسبة لطلبة الأزهر لا يعدو أن يكون حرفة يحترفونها وتدر عليهم رزقاً . ولا شيء أكثر من ذلك .

— إذن تريد أن نقول : إن الأزهر صار مجرداً من الروح .

— بل اذهب فى اعتقادى إلى أبعد من هذا الحد فأقول : إن الأزهر يدين بالمادة جهراً ، فالشيخ المراغى مع احترامى لشخصه رجل داهية ، تراءى له أن يدور مع الزمن حيث يدور ليستبقى نفوذه فى جامعيه ، وهو يحاول أن يثبت أن لا تناقض قط بين القرآن والفكر ، ولا بين القرآن والقوى المادية التى تتزايد فى مصر ، ولعلك سمعت بقراره الأخير الذى قبل رسالة موضوعها (عدم فناء المادة) ولو أنك عرفت الإسلام معرفة صحيحة لحكمت بأن عمل المراغى وشيوخه هو افتراق عن سائر النظريات الروحية الموجودة فى تعاليم محمد وطبيعى أن الشيوخ المتعلمين لن يجدوا مشقة فى أفهامك إلا تعارض بين علمهم الحديث والتعاليم المحمدية .

— وماذا ترجو لمستقبل الإسلام فى مصر ؟

— إننا نشهد أول تغيرات ثورية فى الحياة المصرية ، فمن ناحية نحن نعبد المادة وندين للفكر ، ومن ناحية أخرى ليست لنا طباع وتقاليد الغرب الاجتماعية ، وإلى أن يستعيد الإسلام قوته مرة أخرى وعندئذ سيكون الإسلام روحياً تناولته يد التجديد وإن الديانات المبنية على المنطق فقط لا تعد ديانات ، بل يجب ألا يخلو الدين من عنصر روحى وقوة خفية ومن معجزات .

إن هذا الحديث يعطى فكرة حقيقية إن الدكتور طه يتحدث كشيء أكبر من عميد كلية الآداب وأنه مسئول عن عمل أكبر ، وهكذا يلقى طه حسين أمام هذا الأجنبى آماله كزعيم للدعوة الهدامة للإسلام على النحو الذى يتطلع إليه بعمله المتصل منذ عام ١٩٢٦ . وقد جاء هذا الحديث عام ١٩٣٧ ليوحى بأن روم لاندو يسأل طه حسين بوصفه قائد عمادة التغريب فى مصر ، وطه حسين يرد بوصفه المدافع عن فكرته المادية وكيف أنه يطمع فى أن يهدم الإسلام بعد سنوات ليصبح ديناً روحياً لا صلة له بمنهج

حياة المجتمع ولا نظامه السياسي والاقتصادي وهو الهدف الكبير الذي كان يسعى إليه .

ولما تعالت الصيحات تنوش طه حسين من كل جانب على هذه الآراء المسمومة تراجع الكاتب الجرئ وقال : إن ما نقله المؤلف لم يكن دقيقاً ، وإن الحديث محرف . وأنه حين تحدث إليه لم يصارحه بأنه يزمع أعداد هذا الحديث للنشر على العالم فى كتاب وقد كتبت مجلة الصباح (٥ مايو عام ١٩٣٩) تحت عنوان : (اتهام جديد للدكتور طه حسين) .

وعلقت على قوله هذا بما يأتى :

ومعنى هذا أن الدكتور يجد كلاماً يقال ، وكلاماً آخر يكتب ، وإن هذا غير ذاك وبينهما جسر من المسئولية الأدبية والخلقية والجنائية والوظيفية ، لا يجد الأستاذ العميد فى نفسه الشجاعة الكافية لعبوره .

وقد صادرت الحكومة كتاب (روم لاندو) لهذا السبب وقال طه حسين : (من المحقق أنى أستطيع التعبير عن آرائى فى كل ما يتصل بالأشخاص والمطالعة العلمية دون أن يكون فى تعبيرى ما يؤذى أحداً) .

وقالت الصباح : أرأيت كيف يلعب العميد باللفظ ، فلا ينكر التهمة ويخاف أن يثبتها . إن حرية الفكر تتطلب إليه أن يقول ما يريد بيننا لا بين الأجانب فى الأراضى البعيدة ، وإذا كان الأستاذ العميد يخشى الجوع إذا ما تنحى عن وظيفته ، فالجوع وسيلة لأن تقول عبر الأجيال فى كتاب خلوده : إن رجلا فى القرن العشرين مات جوعاً فى سبيل حرية الفكر .

(١٢)

يقول العلامة محمد فريد وجدى (مجلة الأزهر م ٨) : (استأنس المستر روم فى حكمه بما أفضى به إليه الدكتور طه حسين من أنه لم يعد للإسلام نفوذ إنشائى فى شباب اليوم وكان من آثار ذلك أنهم عجزوا عن تكوين معتقدات روحية لأنفسهم . يروى المستر روم لاندو عن الدكتور طه : أنه يرتاب أشد الارتياب فى تأثير الإسلام فى نفوس الشباب تأثيراً علمياً ولسنا نرى محلا لهذا الارتياب بعد ما تبين للخاص والعام أن الإسلام مجموعة أصول ومبادئ خالدة هى المثل العليا للاتصال بين الجنسين مادة ومعنى ، لا أنه

فلسفة معينة أو مذهب مقرر ، يفرض على الناس فرضاً ، ولا يجوز لأحد أن يتخطاه إلى غيره ، فإذا كانت هذه الشبيبة لا تستطيع تكوين عقائد لها فى رعاية المثل العليا وتحت ظلال هذه الحرية ، ففى رعاية أية فلسفة قابلة للتحجر تستطيع ذلك . وإذا كانت تعجز عن تكوين معتقدات لها تحت ضوء المثل العليا فتحت أى ضوء ينتظر أن لا تعجز إذن ؟) .

وكتب الأستاذ محمد إسماعيل عبد النبى فى الفتح يقول :

إن الدين الإسلامى هو دين العلم والفلسفة الحقة التى تعتمد المشاهدة والتجارب والمنطق السليم . إن ديناً يفرض النظر فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ، كما يفرض النظر فى ذات الإنسان والحيوان والنبات والجماد وما يحيط بالإنسان ويقع تحت حواسه ليستخرج منه العبر والعظات . إن ديناً هذا شأنه هو دين الفلسفة الحقة والعلم الصحيح : هو دين الإسلام .

ويقول روم لاندو : ولقد أعرب لى الدكتور طه (وهو على الأرجح يعرف روح مصر الحديثة أكثر من أى رجل آخر) عن ارتيابه الشديد فى هل للإسلام نفوذ إنشائى ما فى شباب اليوم مما يدل على أنهم يجدون أنفسهم فى الهواء تماماً حتى إنه يمكن القول : بأن عجزهم عن تكوين معتقداتهم الروحية أو مطامعهم كانت نتيجة مباشرة لذلك .

أما إن الدكتور طه حسين يعرف أكثر من عزة روح مصر الحديثة على الأرجح فهو فى نظرنا أمر مرجوح ، فإن الدكتور له هوى خاص فى هذه الأمور وقد عرفه المسلمون فى جميع أنحاء الأرض بأنه فى جميع الحقائق الإسلامية لا يصدر عن حكمة واتزان وإنما يفاخر بالتعصب لرأيه ويعاند الناس جميعاً ويعتقد أن تلك الخطة هى طريق شهرته وسبيل ظهوره ولا يبالى ما يكون بعد ذلك، فها هو يقرر للمستر لاندو أنه شديد الارتياب فى أن للإسلام نفوذاً إنسانياً ما فى نفوس شباب اليوم هو ثم يعلن فى الوقت نفسه على صفحات الصحف وفى جريدة المصرى بدون تحفظ ولا حيطة ، أنه حسن الظن بأخلاق الشبان المسلمين والرجل العاقل المنصف يعلم أن الدين والخوف من الله هو أساس الأخلاق الفاضلة والدين الإسلامى دين الخلق فكيف يكون للشباب خلق كريم وهو لا يعلم لتعاليم دينه وزناً وليس للإسلام

فى نفسه نفوذ ثم يكون مع ذلك رشيداً ، فانظر عقيدة الدكتور فى شباب اليوم : يشك ويرتاب فى مسلكهم وفى نفوذ الإسلام الإنشائى فيهم . ويحسن الظن جداً بأخلاقهم ولا يشك فيها وفى رشدهم ، فإذا قام الشباب يطلب بالتعليم الدينى حتى يكون للإسلام نفوذ إنشائى فى نفسه غضب عليهم الدكتور ورماهم بالسخف .

إننا حين نرد على الدكتور لا نطمع فى إقناعه أو نغير من طبعه ، فهو ما لا يخطر لنا على بال لأن الرجل ولوع بالعناد، يراه طريقاً لشهرته وإنما رددنا عليه من الناحية الدينية التى اعتدى عليها مخافة أن يضلل الشباب ويفتنه فى أمر دينه . وقد أتيح الرد عليه من ناحية حماية النجباء من طلبة الجامعة ، إما أن نسكت عليه من الناحية الدينية يتحدى ويضلل بحجة أن الرد عليه يكلفه صعباً كما يقول البعض فهو ما لا نوافق عليه) .

* * *

وحديث طه حسين مع روم لاندو يكشف عن أهداف خفية للنفوذ الأجنبى فى مصر قد فضحها اندفاع طه حسين الذى كشف عن موقف أحدث زوبعة شديدة حتى قالت الجهات المسئولة : إذا كان طه حسين يرى هذا الرأى فى الأزهر والإسلام . فإن الجهات العليا لا ترى فى الأزهر والإسلام رأيه ، ولذا كان بقاء طه حسين فى عمادة كلية الآداب غير ممكن (الصباح ١٩ مايو عام ١٩٣٩) ، وقالت المكسوف اللبنانية : إنه حمل على ترك منصبه ويقال : إنه قرر السفر إلى فرنسا للاعتكاف سنة كاملة . وقد نشر الحديث بكامله ترجمه مصطفى الحفناوى فى مجلة منبر الشرق المصرية (١٨ إبريل عام ١٩٣٩) .

(١٣)

الدعوة إلى الفرعونية

حدد طه حسين ألوان الغذاء الروحى والعقلى للشباب (فى محاضرة ألقاها عام ١٩٤٠) بعناصر ثلاث :

١ — العنصر المنحدر من تاريخ مصر القديمة الفرعونى وهو الفن .

٢ — العنصر المتغلغل فى مصر الإسلامية وهو الدين والأدب والفن العربى الإسلامى .

٣ — العنصر المتلبس بحياتنا الحضارية منذ اتصلنا بغيرنا وهو العنصر الأوربى .

وأولى الدكتور طه ضرورة الاهتمام بأمرين : بالفن الفرعونى ، وبالعنصر الأوربى فى سبيل تغليبهما على العنصر الإسلامى واحتوائه ، هذا ما يفهم من نصوص محاضرته التى علق عليها الأستاذ محمود شاكر حين قال (م ١٤ مجلة الفتح) :

ليس فى القراء من يجهل أن أول ما يتكلم به الدكتور إن هو يجعل مرد كل شيء إلى يونان ومدن يونان ، فلا شك إذن أن أول نظام عرف للغذاء العقلى والروحى للشباب إنما كان فى المدينة اليونانية وهذا شيء مفروغ منه ، فقد جعله الدكتور طه مذهباً لا يحيد عنه وأسلوباً لا يسلك غيره ونحن إذا أردنا أن نجعل النظام الاجتماعى فى العمل والتشريع والسياسة هو النظام ، فمن الخطأ الذاهب فى الفساد أن نخضعه لتطور مدنية أخرى قد بنى اجتماعها على المسيحية فى التشريع والسياسة والأخلاق ، فمصر والشرق الإسلامى إذا أراد أن ينهض فلابد له أن يستمد نهضته من أصول الاجتماع الذى يربطه به التاريخ والدم والوطن واللسان والوراثة ، وإذاساير فإنما يساير فى فكرة مطلقة هى النهضة والحضارة والمدنية الإسلامية ، على الطريق الذى يوافق طبيعة هذا الاجتماع ، أما المدنية الحديثة فقد بنيت على غير ذلك ، وقد تطورت على أصوله . ولقد قال جورج الخامس ملك بريطانيا فى (ديسمبر عام ١٩٣٩) : إنى أؤمن من أعماق قلبى بأن القضية التى تربط شعوبى معاً وتربطنا بحلفائنا المخلصين الأمجاد فهى قضية المدنية المسيحية وليس ثمة قاعدة أخرى يمكن أن تبنى عليها مدنية صحيحة وكلام الملك جورج هو أدق التصوير لحقيقة الحضارة الأوربية فى نظر كل باحث نصرانى أو يهودى أو مسلم ، فإذا أردنا أن نتابع تطور هذا الغرب من المدنية بتبديل اجتماعنا — الذى دعا إليه الدكتور طه فى حديثه ليطابقه ، فكأنما يدعو إلى تنصير الإسلام ، والعجب أن يذكر الدكتور الحضارة الأوربية الحديثة فلا يدعو إلى الأخذ بشيء مما فيها دعوة صريحة إلا فيما يتصل بالخلق ، إلا أن أخلاق

المدنية الأوربية قد استعلنت جميعها فى هذا البغى المتفجر فى الحرب ، وإذا أردنا أن نأخذ – أى أن نقلد – فلنأخذه من تاريخنا ، من ديننا ، من أخلاق رجالنا .

وقد جعل الدكتور طه الفن الفرعونى أحد العناصر فى الغذاء الروحى والعقلى للشباب فى عصرنا هذا ، وذلك قوله : من حق مصر أن تعنى بالفن الفرعونى كالتصوير والتماثيل وغيرها فتحييه وتنشره وتلقنه لأبنائها وشبابها يريد الدكتور طه أن تأخذ مصر من حضارة الفراعنة شيئاً وأن تدع أشياء وأن تأخذ من حضارة العرب والإسلام شيئاً وأن تدع أشياء ، أما حضارة أوربا فهى عنده كل لا يتجزأ ويجب أن تبدأ منها بالخلق ، والغذاء الروحى فنربى ناشئتنا عليه وإذا ذكره أهل الذكر بأن فيما ورثته مصر من تراث الإسلام ما يكفيها من ناحية الخلق وغذاء الروح وأنها إنما تحتاج من أوربا إلى العلوم التى تتقدم بها الصناعات وتضطلع بأسباب القوة . قال لهم : إنكم منافقون ، الخلاف القديم بين الدكتور طه وبين جميع الذين عارضوه منذ بضعة عشر عاماً إلى الآن يدور حول هذه النقطة هو يريد أن يكون النشء الإسلامى كالنشء الأوربى فى كل شىء ، ثم يتحلى بمظاهر من حضارة الفراعنة وحضارة الإسلام والذين عارضوه يريدون أن يكون نشئونا نشئاً إسلامياً وأن يتحلى بعلوم أوربا التى يتوقف عليها أسباب القوة والتقدم العلمى والاقتصادى والعمرانى .

وهو يرى أن الحضارة الأوربية كل لا يجوز أن يتجزأ ويجب أن تبدأ منه بالغذاء الروحى ومعارضوه يرون أن المعارف تراث إنسانى ليس خاصاً بالغرب دون الشرق ، ولا بأوربا دون آسيا وإفريقيا ، وكما أخذت الحضارة الإسلامية من معارف اليونان وغيرها من الأمم القديمة وبقيت إسلامية ، وكما أخذت أوربا من معارف المسلمين وبقيت غربية مسيحية ، كذلك نحن فى هذا العصر ، يجب أن نأخذ هذا العلم العالمى المشاع الذى هو تراث الإنسانية فنستفيد منه ونقوى ونبقى مع ذلك عرباً شرقيين مسلمين . والغذاء الروحى فى الإسلام أبقى وأمتع من الغذاء الروحى فى الغرب . إن فى غذاء أوربا الروحى ما يتمنى الأستاذ هكسلى أن يكتسحه مذنب عظيم يريح الإنسانية من شروره .

أما بالنسبة للفن الفرعونى الذى يدعو طه حسين إلى إحيائه فيقول الأستاذ شاكر : نحن لا نشك أن أعظم الفنون والآثار عامة كانت نتيجة لازمة للعقيدة الدينية (وثنية كانت أو إلهية) وللطبيعة الجغرافية التى تمد عليها من ظلالها . إن الدين والعقيدة هى عماد الاجتماع وأصله وأعظم مؤثر فى توجيه أغراضه وحياطتها وتدبيرها وتوليدها فهى إذن أصل قائم فى الحضارة التى تدين بهما مهما تطورت بعد ذلك وخرجت عليهما أو أهملتهما .

وإن أعظم الآثار الفتنة التى يعتبرها الجيل الأوربى مثلا فى طليعة العبقرية الفتنة هى تلك الآثار العظيمة الخالدة التى نشأت وربت وترعرعت وامتدت تحت ظلال الكنيسة والعقائد المسيحية التى عاش فى مدنيتها الفنانون الذين أبدعوها هذه الآثار تختلف باختلاف الطبيعة الجغرافية .

كذلك الفنون الصينية والهندية تتميز بالاجتماع الوثنى الذى يعيش عليه الفنان الصينى والهندى وبطبيعة البلاد الهندية والصينية ، فالفن الفرعونى بغير شك ليس إلا نتاجاً مركباً من الوثنية المصرية والطبيعة المصرية الرائعة القوية ، وأثرها بين فى هذه الأبنية الضخمة بتماثيلها المختلفة الدلالات على المعانى الدينية المصرية القديمة ، وعلى الأصول الاجتماعية للوثنية الفرعونية التى كان يعيش عليها الشعب المصرى القديم ، فهذه الديانة القديمة الجاهلية التى عبدت أوثانها وتقدست بعقائدها الباطلة وخضعت لأساطيرها الرهيبة المحنقة ، واستمدت تأويلها من الإيمان بجدية هذه الأوثان والقوى الطبيعية المختلفة كالشمس والنيل والتمساح وكذا وكذا من الأوهام الغالبة هى التى أنتجت هذا الفن المصرى القديم بمعابده وتماثيله وكتابته الهيروغليفية المعبرة أصدق تعبير عن حقيقة المدد الفنى للآثار المصرية والفرعونية . والفنان الفرعونى لم يستطع أن ينسى هذه الآثار الهائلة التى بقيت القرون يتحدى الزمن المتطاول لم يمنحها هذا الجبروت الهائل والاستبداد الطاغى إلا بالقوة التى نشأتها ودبرتها عقائده الوثنية الرهيبة ، وعلى ذلك فيجب أن نقرر أن الفن المصرى الفرعونى إن هو إلا فن وثنى جاهلى ، قائم على التهاويل والأساطير والخرافات التى تمحق العقل الإنسانى ، فهو إذن لا يمكن أن يكون مرة أخرى فى أرض تدين بدين غير الوثنية الفرعونية الطاغية سواء أكان هذا الدين يهودياً أم نصرانياً أم إسلامياً ، وتمثال نهضة مصر لا أرى

فيه إلا تقليداً فاسداً لآثار حضارة قد دثرت ولا يمكن أن تعود فى أرض مصر مرة أخرى بوثنها وأباطيلها وأساطيرها وخرافاتها ، نعم ، هل يستطيع الفنان الذى نحته وأقامه أن يعيد فى مصر تاريخ الوثنية الجاهلية واجتماع الحضارة الفرعونية وما يحيط بذلك من الأبنية الضخمة التى كانت وحياً للفنان الفرعونى ، الذى عبد الشمس وخضع لفرعون وأقر له بكل معانى الربوبية وآمن بالأباطيل والأساطير والتهاويل الدينية الوثنية الضخمة الهائلة الممتعة التى قذفها فى قلبه أبالسة عصره من الجبارين والطغاة ، لقد ذهب كل هذا لقد اندثر ، لقد باد .

إن روح الفن هى دين المجتمع وعقائده وطبيعة أرضه وسائر أسباب حضارته وهى التى تمنح الفنان القوة والقدرة على الإبداع ، إذن فدعوة الدكتور طه إلى الاستمداد من الفن الفرعونى كما استمد مختار ، ثم دعوته إلى جعل اجتماعنا اجتماعاً إسلامياً ، ثم استمدادنا أيضاً من الفن الإسلامى تناقض عجيب فى أصل الرأى لا يمكن أن يكون ولا أن يعمل به ، إلا إذا شئنا أن توجه لمصر حضارة مقلدة ضعيفة ملفقة من أشياء ليست بنتيجة ولا شبه نتيجة للاجتماع المصرى الإسلامى الحديث .

(١٤)

الدفاع عن الإرساليات التبشيرية

فى أكثر من نص واضح يكشف الدكتور طه مهمته الأساسية فى مصر وهى الدفاع عن التبشير ، وقد كان أخطر موقف له هو الدفاع عن المدارس التبشيرية بعد توقيعه معاهدة عام ١٩٣٦ وإعداد العدة لاتفاقية مونترو التى تلغى الامتيازات الأجنبية ، فهو الحريص على أن يعلن فى كل مناسبة تعهد الحكومة المصرية بأن التشريع المصرى لن يكون مخالفاً للمبادئ العامة فى التشريع الحديث وأن الاتفاقية أعطت مهلة اثنى عشر عاماً لهذا التطبيق من عام (١٩٣٧ – ١٩٤٩) – أى أنه كان يعلن أن مصر مرغمة على أن تحكم بالقانون الوضعى خلال هذه الفترة وأنها لا تستطيع أن تعود إلى الشريعة الإسلامية . وقد تعالت الصيحات للعودة عليها منذ عام ١٩٣٣ على يد دعاة حركة اليقظة الإسلامية :

فهو يقول فى بعض كتاباته : إنه يدعو المصريين أن يختصروا الطريق

إلى (الرقى) بأن يأخذوا النظام الغربى ويخوفهم من أنهم لو لم يفعلوا ذلك فلن تطمئن إنجلترا إلى طلب الاستقلال فترفض الخروج من مصر ، وكذلك أصحاب الامتيازات فإن علينا أن نطمئنهم بأننا نعيش فى بلادنا كما يعيشون فى بلادهم (نحن مضطرون) إلى أن نعيش ولن نستطيع أن نعيش إلا إذا اتخذنا أسباب الحياة الحديثة) وهو يخيرنا بين اختيار الحياة الحديثة أو الجمود الذى معناه الموت . (نحن متصلون رضينا أو كرهنا بالأمم الغربية ، ونحن حريصون على أن نظفر باحترامها بأن نساير هذه الأمم ونعيش كما نعيش ، ونحن لا نستطيع أن نعيش فى القرن العشرين كما كانت الأمم تعيش فى العصور الوسطى . . . إلخ) .

إن طه حسين يدعونا أن نساير الأمم التى تنهب ثروات بلادنا وأن نخالف الله تبارك وتعالى الذى يدعونا إلى منهجه الحق !

(١٥)

أما دعوته إلى حماية الإرساليات التبشيرية فى مصر فقد رد عليه السيد محب الدين الخطيب (الفتح) فقال : فى الواقع إن معاهد الهيئات الأجنبية فى مصر كاثوليكية وبروستانية لم تكن فى يوم ما فى حاجة إلى أن من يحميها من مصر حكومة وشعباً ولكن مصر هى التى كانت ولا تزال محتاجة إلى الحماية من هذه المعاهد ، فالمسيحى واليهودى فى المدارس المصرية — حكومية وأهلية — لا يتعرض له أحد بما يخالف دينه ولا يجبره على آداء عبادة أو القيام بطقوس ليست من دينه ولا يجبر على دراسة كتب شريعة أخرى غير شريعته ، وعلى العكس من ذلك مدارس هذه الهيئات الأجنبية التى تتسابق الدول فى مونترو إلى طلب حمايتها فإنها هى التى تدرس كتباً فيها وقاحة وقلة أدب ومخالفة للحق ، والواقع فيما يتعلق بالإسلام ورسوله الأعظم صلى الله عليه وسلم كما رأينا فى كتاب التاريخ المقدس الذى يدرس فى مدارس الفرير والجزويت ، فضلا أن هذه المعاهد تجبر من هو على غير دينها من تلاميذها على آداء صلاة وتلاوة أدعيته لا يعتقد بصحبتها وعلى درس كتب دينية تفسد عليه دينه وتجعله فى نظر نفسه وذويه وبنى وطنه كافراً فضلا عن أن هذه الهيئات التبشيرية صدرت عنها أساليب كثيرة لإجبار المسلمين على التنصر ، منها التنويم المغناطيسى والإغراء والخطب والتهريب إلى خارج أرض الوطن .

(١٦)

بل إن طه حسين يذهب إلى أبعد من ذلك ، إلى الدفاع عن المبشرين والملاحدة فى نشر آرائهم ، فهو يسخر من نص الدستور بأن الإسلام دين الدولة . لأنه يحد حريتهم ، فهو يخشى أن يكون هذا النص سيمسهم بالطرد والعقوبة لأنه يعتبر نفسه واحداً منهم وهو يهاجم هذا النص لأنه يعلم أن الملحد فى بلاد الإسلام حر إلا إذا نشر إلحاده وأغرى الآخرين بالخروج عن الإسلام فإنه عندئذ يعاقب ، وهو يعلم أنه يفعل ذلك ، ويحاول أن يتخفى وراء الكلمات والأساليب ووراء التبعية لحزب كبير كالوفد له نفوذ يحميه .

وتقول سوزان فى كتابها (معك) : إن أسوأ ما واجه طه حسين هو الخوف من هذا النص حين نشر كتابه (الشعر الجاهلى) ولقد كانت كل كتاباته عن (حرية الفكر) ترمى إلى مقاومة هذا النص الذى كان يمكن أن يطبق عليه فى أى لحظة ، لولا تلك الحماية الخارجية والداخلية له . إن حرية الفكر عنده تعنى حرية نشر الكلمة الملحدة دون رقيب أو مقاومة ولا تعنى غير هذا مهما حورها وأخفاها .

(١٧)

بل لقد كان طه حسين أكثر إلحاحاً على نشر مناهج الإرساليات والتبشير فى مصر من المبشرين أنفسهم .

يقول محمد زكى عبد القادر (نحو النور) فى ٥/ ٨/ ١٩٧٤ ما يلى :

(فى سنة ١٩٥٠ كان الدكتور جون بادو رئيساً للجامعة الأمريكية فى القاهرة وكان طه حسين وزيراً للمعارف . ويروى الدكتور بادو أنه زار الوزير للتباحث معه فى دور برنامج الجامعة الأمريكية فى القاهرة .

وكانت مفاجأة لى أن أجد أن انفعال الوزير الرئيسى كان نقداً رفيقاً لهذا المعهد لأنه على حد قوله ليس (أجنبياً) بدرجة كافية ، فقد قال يومذاك : على الرغم من أن هذه الجامعة مؤسسة أمريكية فإنكم لا تدرسون فيها منهجاً واحداً عن الأدب الأمريكى أو التاريخ الأمريكى أو الأنظمة الأمريكية ، وعندما أوضحت له أنا لسنا فى مصر لنشر قيم الثقافة الأمريكية ، بل للعمل على

تطوير الثقافة المصرية ، كان رده : ولكنكم تستطيعون أن تحققوا هذا الغرض على نحو أفضل إذ يسرتم لنا معرفة قيمكم ، فنحن نستطيع تدريس ثقافتنا ، أما الشيء الذى نريده منكم فهو أن نتفهم ثقافتكم فهما أفضل) .

وهكذا طه حسين يريد أن ينتقل من الولاء الفرنسى إلى الولاء الأمريكى بعد أن انتهت فرنسا وبزغ نجم أمريكا فى الشرق وهو ما قام به فعلا فى ذلك الوقت حيث أخذ يقدم كتباً أمريكية ويدعو للثقافة الأمريكية بالرواج والازدهار .

وهذا ما فعله عندما عين وزيراً للمعارف وهو يعلم التبعية لبريطانيا وهو من أتباع الثقافة الفرنسية فإنه ذهب إليهم فى بريطانيا وأقنعهم بأنه خادم للثقافة السكسونية وكان عمله فى وزارة المعارف محققاً لهذا الغرض .

إنه من دعاة فتح جميع الأبواب والنوافذ لكل الثقافات ، يهودية أو شيوعية أو غربية ، لأنه يعرف الهدف وهو تدمير الثقافة الإسلامية العربية . وهذا الهدف هو أحد الأهداف التغريبية الكبرى التى تريد أن تدمر ذاتيتنا وقيمنا الأساسية وشخصيتنا الحقيقية بصهرها فى بوتقة الثقافات الغربية .

* * *

الفصل الثانى

الخطوة الثانية : القضاء على الأزهر

كانت حملة الدكتور طه حسين على الأزهر من الخطوط العامة الأولى التى ظل يراوحها ويغاديها عمره كله . لم يتركها إلا ليعود عليها ، والمعروف أن الحملة على الإسلام عند طه حسين تأخذ قناعين : القناع الأول هو الأزهر والقناع الثانى : هو كلمه القديم .

والحقيقة أنه كانت هناك موضوعات رئيسية ظلت أساساً لعمله كله طول حياته هى :

- الدعوة إلى بشرية القرآن .
- الدعوة إلى الإغريقية .
- ضرب اللغة العربية .
- السخرية بالتاريخ الإسلامى وصحابة الرسول والقرن الثانى الهجرى .
- تحسين الفرعونية .
- الأقلية المصرية وارتباطها بأوربا .
- الأزهر والحملة على الإسلام من خلاله .

وفى عشرات من الموضوعات فى مقالاته وكتبه نجد هذه الحملة على الإسلام من خلال الأزهر واضحة ، ونجد السخرية برجال الأزهر ظاهرة .

ولقد شاء الدكتور طه حسين يوماً أن يسخر من نفسه فقال هذه العبارة :

« كنت طالباً للقشور عند الأزهريين ، وأنا متعلق من الثقافات الأجنبية بقشورها عند المتأصلين فى هذه البطاقات ، فأنا صاحب القشور شاباً وصاحب القشور شيخاً ، قد كتب على ألا أعرف من كل شىء إلا قشوره . أنا إذن أزهرى عند بعض الناس وغير أزهرى عن الأزهريين أنفسهم فأنا ساقط بين كرسيين ، كما يقول الفرنسيون يرفضنى الأزهريون لأنهم لم يمنحونى

إجازتهم ويرفضنى المثقفون ثقافة أجنبية لأنى أزهرى لا أعرف من ثقافتهم الأجنبية إلا هذه القشور » .

ولقد ظل الدكتور طه حسين يحمل على الأزهر ، وزاد حنقه عندما أنشئت كليات الطب والهندسة والمعاملات فيما بعد فيه فأخذ يهاجمه بقسوة ويهاجم كلية البنات الإسلامية .

ولقد كانت معركته الحقيقة عندما ألغى المختصون المحاكم الشرعية ودمجوها فى المحاكم الأهلية ، هنالك أحس طه حسين أن أهدافه تتحقق فطالب فى إصرار وفى مقالات متعددة متوالية فى جريدة الجمهورية بما أسماه الخطوة الثانية بدأها فى ٢١/ ١٠/ ١٩٥٥ واستمرت وقتاً طويلا واشتبك معه علماء الأزهر على نحو شديد حتى أن مجلة الأزهر أصدرت فى شهر نوفمبر عدداً خاصاً عن الدكتور طه حسين هاجمه أكثر من ثلاثين عالماً من علمائه وواصلوا الحملة فى العدد التالى من المجلة وكان ذلك باشراف السيد محب الدين الخطيب .

قال الدكتور طه حسين : كانت خطوة رائعة تلك التى خطتها الحكومة حين قررت توحيد القضاء ، وما دام توحيد القضاء قد أصبح حقاً واقعاً فلندع الحكومة إلى أن تخطو خطوة ثانية ليست أقل منها خطراً أو عسى أن تكون أبعد منها أثراً وهو توحيد الأمة وتقريب ما بين أبنائها من الآماد ، لا أقول فى حياتهم الاجتماعية والسياسية وحدها بل فى حياتهم العقلية ، لأن هذه الحياة هى أساس التفكير وقوام العمل ، وأنا أعلم أن هذه الدعوة ستثير سخط فريق من المحافظين ، لقد آن لمصر من جهة أن تلائم بين حياتها الجديدة المتطورة وبين تنشئة هذه الأجيال التى تفرغ لدراسة الدين من أبنائها بحيث لا تقتطع هؤلاء الأبناء من الحياة العامة ومن الظروف التى تحيط بهم ويكونون فريقاً لا هو بالقديم ولا هو بالجديد ، وإنما هو شىء مختلط . لست أدرى ما الذى يمنع شبابنا الأزهريين من أن يسلكوا سبيل غيرهم من أترابهم فيتخرجوا من المدارس الابتدائية أولا ثم يتخصصوا فى علوم الدين .

وسبيل ذلك واحدة لا ثانية لها ، وهو أن يوحد التعليم العام، بحيث لا يكون هناك فرق بين من يريد أن يفرغ للدين وبين من يريد أن يفرغ للدنيا ، وأن يكون التخصص بعد انقضاء الطور الأول من أطوار الشباب .

لقد خطت الحكومة خطتها الأولى فوحدت القضاء ولعلها أن تخطو خطوتها الثانية فتوحد التعليم » .

هذا الذى دعا إليه الدكتور طه حسين بهذا الأسلوب اليسير خطير وخبيث ويرمى إلى غايات بعيدة مكنونة فى ضمائر رجال التغريب والتبشير والاستشراق والغزو الثقافى منذ أجيال بعيدة ، فهم يعلمون قدرة رجال الأزهر على مواجهة شبهاتهم ، ويعلمون ما قام به الأزهر فى مواجهة الغزو الاستعمارى والتغريبى معاً وكيف وقف من طه حسين وعلى عبد الرازق وغيرهم ، فهذا أمل كبير فى نفوس دعاة التعريب أن ينتهى هذا الخطر بتوحيد التعليم العام كله فيدخل الأزهر فى نطاق التعليم العلمانى وتنتهى مهمته مع أن الأمل الحقيقى للمسلمين أن يعود الأزهر وهو منبع التعليم الأول إلى مهمته فيكون التعليم الذى قام عليه الأزهر هو التعليم العام ومنه يتفرع التعليم المدنى بعد ذلك ، لقد كان هذا الفصل بين الأزهر وبين التعليم العام الذى أنشأته وزارة المعارف فى عهد محمد على هو أحطر الخطوات التى اتخذت لتجميد الأزهر وعزله عن مهمته الحقيقية ، وكان من أثر ذلك أن أنشأ التغربيون الجامعة الأمريكية ثم الجامعة المصرية التى قادها الدكتور طه حسين إلى ما رأينا فى هذا الفصل من خطط تدميرية ، ولكن أمل التغريب لم ينقطع فهو يتطلع إلى هذه الخطوة ويتصدر الدكتور طه حسين لها بهذه القوة فيكتب مرتين أو ثلاثاً ولايبالى مواجهة الأزهريين والأمة كلها ، وإن كان الأمل لم يتحقق تماماً كما أراد الدكتور طه حسين ، فإن ما حققه قانون تطوير الأزهر كان خطوة واسعة لهذا الهدف فقد فرغ الأزهر من رسالته عن طريق ملخصات الكتب وعن طريق دخول الشباب دون شرط حفظ القرآن كله وعن طريق تحول كلية الشريعة إلى كلية تدرس القانون الوضعى بأكثر مما تدرس الشريعة وتخرج منها أزهريون يحكمون بالقانون الوضعى إلى غير ذلك من محاذير كان الدكتور طه حسين موقداً نارها ومثيراً فتنتها .

(٢)

واجه الأزهريون مقالة الدكتور طه حسين بالرد الكاشف لأهداف طه حسين ومؤامرته .

١ – كتب الشيخ محمد عرفه تحت عنوان (لا كانت الخطوة الثانية) قال : أبغض الكلام ما يلقى على عواهنه لا يمحصه صاحبه ولا يلقى له بالا ومن هذا ما نشره الدكتور طه حسين فى جريدة الجمهورية تحت عنوان (الخطوة الثانية) التى طالب فيها بتوحيد التعليم بعد توحيد القضاء ، ففى مصر فى المراحل الابتدائية والثانوية تعليم دينى وتعليم مدنى ، وهو يريد توحيد التعليم ، بإلغاء التعليم الدينى وجعله كله مدنياً . إن الدكتور طه حسين يصور الأزهرى بصورة من لا يشارك فى شىء من العلوم التى يشارك فيها الناس فلا يعرف الفلسفة القديمة ولا علوم الاجتماع ولا التربية ولعله إذا رجع بذاكرته رأى أن من رجال الأزهر من نازله فى مسائل الفلسفة فهداه فيها إلى الحق والصواب . ولكنه يمثل هذا القول الذى تنقضه نصاعة الحق وجلال الحجة يريد أن يقضى فى أخطر أمر وهو إلغاء التعليم الدينى وإلغاء تلك الجامعة الإسلامية التى يعتز بها المسلمون فى أقطار الأرض جميعاً .

إن الأزهر ليس من الهوان بحيث يقضى فيه برأى فطير وبجرة قلم كما يظن الدكتور . إن الأزهر يحميه تاريخ طويل فى حذق الإسلام والمسلمين وفى حفظ اللغة والدين وفى جهاد الكافرين والمضللين وفى حماية العقيدة من زيغ الزائغين ويحميه ثلاثمائة مليون مسلم يجلونه ويحترمونه ويرونه ثانية الكعبتين وثالث المسجدين فتلك كعبة الحجاج ، هذا كعبة الهداية والنور والإرشاد . إن الأزهر له فى نفوس المسلمين مكانة يعرفها من نزح إلى أقطار الإسلام كالهند والصين وغيرهما ، إن الأزهر شرف لمصر لا يدانيه شرف به صارت مصر للأمة الإسلامية إماماً يحبها ويجلها وتأخذ لقولها فضعوا هذا الشرف كيف شئتم وأحلوه حيث أردتم ولكن لاتكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً .

٢ – وكتب الشيخ عبد المنعم النمر تحت عنوان « ماذا تريد وإلى أين يا دكتور » ، قال لعل أغرب ، أعجب ما جاء فى مقال الدكتور طه حسين أنه وهو يصور الأزهريين بالنقص فى معلوماتهم الاجتماعية يظهر وهو أديب كبير ووزير سابق للمعارف بعدما تنقل فى مناصب الجامعة وكراسيها بأنه يجهل تماماً كيف يسير الأزهر الحديث برامجه مواد دراسته ومعلوماته

الاجتماعية . إنها أوزار قديمة عاشرها الدكتور وعب منها وهو طالب ، يمد بوزه فى الشوال ليأكل من فتات العيش المستغرفة من قديم . ذاك زمان انقضى بأساليب حياته وأساليب دراسته وجاء وقت آخر بأساليب أخرى ومناهج جديدة . كم كنا نحب للدكتور العلامة أن يعرفها حتى لا يظهر بأنه تنقصه هذه المعلومات . لقد درسنا يا دكتور من المواد فى الأزهر : الهندسة والجبر والحساب والكيمياء والطبيعة ، كما كانت تدرسها المدارس الثانوية تماماً وكنا أكثر تفوقاً من طلاب هذه المدارس ، حتى لا تجد أزهرياً يقول لك كما قال أحد متخرجى الجامعة فى امتحان المذيعين . إن يافا عاصمة لبنان .

درسنا علما الحيوان والنبات وقمنا بعمليات التشريح والمعامل ، ودرسنا فى الكليات علم النفس بفروعه المتعددة : التربوى والجمالى والجنائى والفلسفة القديمة والحديثة ولغة من اللغات الحية . هذا فوق التوسع فى دراسة العلوم العربية والشرعية . فتعال معى يا دكتور أنت ومن يظن ظنك وقل لى: ما الذى تعرفه من مناهج المدارس الابتدائية والثانوية أحسن مما فى الأزهر ، وما الذى يجعل الطالب فى المدارس متفوقاً فى نظرك عن الطالب فى الأزهر . فما الذى يدعو الدكتور طه وأمثاله أن يحملوا على هذا النوع من التعليم ويطالبوا بإلغائه وإدماجه فى وزارة المعارف ؟

من المعلوم للدكتور طه وغيره أن دراسة العلوم العربية والشرعية كلها إنما قامت حول القرآن الكريم وفى خدمته فلكى نفهم أسرار القرآن ونحتفظ علماً بما فيه وبما فى الحديث من فقه وأخلاق لابد لنا من دراسة واسعة فى اللغة العربية بكل فروعها ،لابد لنا بعد ذلك من دراسات المذاهب الفقهية وكيفية استنباطها ودراسة مذاهب المتكلمين ووجهات نظرهم ، ولابد من الإحاطة بدرجات الحديث من القوة والضعف ، هذه العلوم تحتاج كل منها إلى دراسة عميقة وتخصص واسع حتى يمكن الإحاطة بها وليس فى الدين المسيحى مثل ذلك .

فأنتم عندما تتحدثوا عن رجل الدين تتحدثون عن رجل الدين المسيحى وقد غاب عنكم الفرق الشاسع بين طبيعة الدين المسيحى وطبيعة الدين الإسلامى ، هل هذه هى الناحية شغلتك عن مصالح الأمة ومصالح أبنائها ؟ ولماذا لم يشغلك ما يشغل الصحف والناس من هذا التيار الوجودى الإلحادى المستهتر

فى الجامعة ؟ ولماذا لم تشفق على جامعاتك وشبابنا من هذا الانحلال الذى ينذر بالخطر فى بناء هذه الأمة ؟ كان يجب أن تبادر إلى إنكار هذا التحلل لا سيما وقد طالبك الكتاب بذلك .

٣ - **عبد المنعم النمر** : لقد أحس الجميع وأنت تدعو الحكومة إلى اتخاذ الخطوة الثانية أنك تدعو إلى القضاء على الأزهر وعلى أمجاد مصر والعالم الإسلامى وإذا أراد واحد أن يعرف ذلك عن يقين فليبحث عن مصادر العلم فى العالم الإسلامى قبل أن تنشأ فى دور العلم الحديثة ، لقد كان كل خيط فى أى رقعة فى العالم الإسلامى يمتد حتى يتصل بمصر وبالأزهر الخالد حتى كسبت به مصر الزعامة الإسلامية من قديم ، فهى إذن أمجاد ألف سنة قضاها الأزهر فى المحافظة على الإسلام ولغة القرآن وتعليمها للناس شرقاً وغرباً تمتد الآن محاولة عابثة للقضاء عليها إذا كنا نريد القضاء على التعليم الابتدائى والثانوى فى الأزهر وجعل التعليم كله فى الدولة على نسق التعليم فى وزارة التربية ، فهل نجد حينئذ من يحفظ القرآن ويقبل على دراسة تشريعه الخالد ، وإذا كان العلماء قد أنفقوا حياتهم فى تعليم اللغة وفهم أسرار القرآن ولم يصلوا بعد إلى بغيتهم فى خدمة القرآن وشريعته الخالدة، فهل يمكن أن أربع سنوات يقضيها الإنســان فى الكلية كافية لأن يصل إلى ذلك ؟ إنها إذن الحملة المدبرة تحت اسم توحيد التعليم للقضاء على الدراسات الإسلامية الأصيلة التى امتاز بها الأزهر وأمدت بها مصر العالم الإسلامى ، ومن عجب أن الدكتور طه أقام الدنيا وأقعدها حين علم بأن هناك فى وزارة التربية والتعليم نية لإلغاء قسم اللغة العربية فى كلية الآداب وهو قسم حديث لم يصل عمره إلى ربع قرن ودافع عنه دفاع المستميت وأخذ يتلمس الأعذار لعدم إنتاجه فكيف يستساغ منه إذن أن يحمل هو نفسه معول الهدم لأقدم جامعة علمية فى العالم، وأكثر من ذلك فإن الآلاف من الأزهريين يقومون بالتعليم الآن فى وزارة التربية والتعليم بجدارة لايقلون فى ذلك عن غيرهم إن لم يكونوا متفوقين لمصلحة من إذن يحمل الدكتور طه هذا المعول الهدام ؟

٤ - **عبد المنعم النمر** : على أى أساس تريد توحيد التعليم ؟

توحيد التعليم على الأساس الجارى يترتب عليه إضعاف التعليم الدينى العام ، القضاء على حفظ القرآن الذى تمتاز به مصر . هل تحدث الدكتور

عن توحيد التعليم بالمعنى الحقيقى فى مصر ؟ هلا تحدث عن القضاء على المدارس الأجنبية التبشيرية المعسكرة فى مصر لهدم قوميتنا وديننا وتخرج لنا شباباً غرباء عن أوطانهم .

لعل ولاء الدكتور للغرب هو الذى حمله على هذا فهو حين يتحدث عن غزو الحضارة الغربية للأزهر كان موالياً ومغتبطاً بها وهو حين يخطو خطوة أخرى مطالباً بإلغاء الثقافة الإسلامية والعربية فى الأزهر مستنداً إلى المغالطات موال للحضارة الغربية تمام الموالاة ، يريد أن يفسح لها الطريق إلى مصر والشرق نأخذ منا (حلوها ومرها ، وخيرها وشرها ، وما يحمد منها وما يعاب ، وما يحب منها وما يكره) ومتابعة الولاء للغرب لا لمصر ولا للعروبة ولا للإسلام ، ذلك هو ولاء الدكتور .

إن بقاء هذه الثقافة العربية الإسلامية قد يحول بين الدكتور وبين ما يريده من الإسراع إلى الفناء فى أوربا ومحاكاتها فى كل شىء ، وقول الدكتور : إنه لا يدعو إلى إغلاق المدارس والمعاهد الأجنبية فهو نافر من ذلك كل النفور ، يدعونا إلى الاحتفاظ بها وكلنا يعلم مقدار خطرها على الدين والقومية ، أما معاهد الأزهر الإسلامية العربية صاحبة الثقافة الأصيلة فى الدين فيجب أن تلغى لأن الحاجة الوطنية عند الدكتور تدعو إلى إلغائها .

٥ – **عبد الرحيم فوده** : إن دول الغرب الاستعمارية وحدها هى التى تريد أن يزول الأزهر فإنها تعرف جيداً أنه هو الذى حمل لواء التحرير والحرية فى أقدم عهودها ، هل ينكر الدكتور أن عروبة مصر وإسلامها مدينان ببقائهما وارتقائهما للأزهر ؟ وهل يمكن أن تقوم لمصر قومية متميزة الملامح والأوضاع إلا إذا هى استمسكت بعروبتها وإسلامها ؟ القرآن كتاب كل مسلم وقاموس كل عربى ؟ فهل يستريح غير المسلم لإلغائه وإلغاء هذه العلوم معه تحت ستار توحيد التعليم ؟ هل يذكر الدكتور أنه صارح تلاميذه وزملاءه أيام كان عميداً بكلية الآداب بأن قسم اللغة العربية فى هذه الكلية لن ينهض إلا على عقول أزهرية ؟ هل ينكر أن أعلام نهضتنا الفكرية إنما قام إنتاجهم الفكرى على أساس ما ورثوه من ثقافة أزهرية : (أحمد أمين ، الزيات ، مصطفى عبد الرازق ، عبد الوهاب عزام ، البشرى ، الرافعى ، عبد الوهاب خلاف ، أحمد إبراهيم . . . إلخ (، وهل من الخير أن نعدل

عن هذا الاتجاه الذى أثمر هذه الثمرات الفكرية الضخمة إلى اتجاه آخر لا تؤمن مغبته ولا تحمد عقباه ؟ هذا عمل خطير للعصف بتراث الإسلام وعلوم القرآن ومؤثرات ضخمة اعتبرت فى أعماق التاريخ تراثاً إنسانياً .
إن توحيد التعليم لا يكون إلا بجعل التعليم كلة أزهرياً وليذكر الدكتور طه :

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . . . » .

٦ — **كامل محمد حسين** : مطالبتك بإلغاء التعليم الدينى الطريق الذى يقف عقبة فى سبيل حفظ القرآن يحقق رغبة طالما تطلع إليها المستعمرون .

أرادوا القضاء على الأزهر وعلى العقيدة الدينية وعلى كل ما يتصل بالتعليم الدينى فلم يلجأو إلى ذلك عن طريق المبشرين لئلا يقهروا سريعاً بالحجة ولكنهم سلكوا سبيل الخديعة مرة بحمل بعض المسؤولين إلى وضع التشريعات التى تقضى على التعاليم الدينية فى مدارس الوزارة ، ومرة بكسب أصحاب الأقلام القوية لتقوم بالدعاية إلى ما يحقق أهدافهم ومن ذلك موضوع توحيد التعليم توسلا منهم إلى إخضاع التعليم فى الأزهر إلى تشريعات وزارة لا يعنيها حفظ القرآن أو دراسة ما يتعلق بعلوم القرآن وبذلك يقضى عليه ويضعف العقيدة الدينية فى نفس المسلمين .

٧ — **عبد الفتاح الهوارى** : يريد طه حسين القضاء على القومية الشرقية ، وليس هناك طريق إلى ذلك أقرب من توحيد الثقافة وإزالة النفوذ الدينى من طريق التقدم ، توحيد التعليم إنما يريد أن يقلل من نفوذ الدين فى البيئات الشرقية والمصرية بوجه أخص ، ويعرف الدكتور أن الأزهر يمتاز بصبغة إسلامية فى خارج البلاد المصرية وفى نفوس الأبرياء .

إنما يريد الدكتور أن يكشف مدى ما عليه النفوذ الدينى المتمثل فى الأزهر من الهيمنة على نفوس الناس ، ثم يضرب ضربته الإيجابية فى اقتلاع الدين من النفوس المصرية ليعود بهم إلى الحياة المصرية القديمة . الأزهر فكرة إسلامية لا يمكن الحياة بدونها ، معقل القومية الشريفة .

٨ — وكتب **السيد محب الدين الخطيب** رئيس تحرير مجلة الأزهر فى مقدمة العدد الخاص (ديسمبر عام ١٩٥٥) هذه الكلمة :

(إن الضجة التى أثارها مؤلف مستقبل الثقافة فى مصر لم يثرها ليقضى

فى مناهج الأزهر من ناحية العلوم ، بل هو يريد من مصر ومن الأزهر ومن كل من ينتسب إلى العلم من الناطقين بالضاد أن يؤمنوا بثقافة الغرب كما آمن هو بها . إن السبيل إلى ذلك واحدة فذة ليس لها تعدد،وهى (أن نسير سيرة الأوربيين . ونسلك طريقهم لنكون لكم أنداداً أو لنكون لهم شركاء فى الحضارة : خيرها وشرها ، حلوها ومرها . ما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع) . وأنا أنادى بملء فمى معترفاً بأنى أزعم لأمتى غير ذلك وأنصح لها بأن تأخذ العلم كله لأنه تراث إنسانى شاركت فى تقدمه وتنميته أكثر أمم الأرض فى العصور القديمة ومنها مصر القديمة ، وإن كره ذلك المتعصبون الذين يريد مؤلف مستقبل الثقافة أن نضحى بكياننا المعنوى لنذوب فى كيانهم .

ولولا أن الإسلام استعجم بغلبة غير العرب لبقى زمام الحضارة الإنسانية فى أيدينا .

وبعد : فإن مصر لو فقدت عقلها وسارت وراء مؤلف مستقبل الثقافة فى مصر لخسرت جميع أبنائها المثقفين كما خسرت ويا للأسف المسيو كاود طه حسين ناظم ديوان أجراس الكنائس (Ele nalin clair) .

الذى يتغنى فيه لابنته بموسيقى الكنائس وأظن أن مؤلف كتاب مستقبل الثقافة يتمنى لجميع أبناء مصر أن يكون كل واحد منهم (كاود طه حسين) أما القائمون بالولاية على مصر فإن أبناء مصر أكرم عليهم من ذلك وأعز وهم يعلمون أن حياة مصر بالإسلام وقوتها بالتعاون مع العرب . إن هذه البذور التى زرعت فى تربتنا الجامعية منذ نحو ثلاثين سنة بمشهد من صاحب الخطوة الثانية كما يشهد له بذلك كتابه (فى الشعر الجاهلى) وأعمدة الصحف ومحاضر مجلس النواب وبعض قرارات النيابة إلى أن أنبتت تلك البذور رجالا صار منهم الآن مدرسون وأساتذة كالذى (كان يمزح مع طلابه على حساب إيمانهم فيقول لهم : إنه (سيعطى) درجات إضافية فى الامتحان للذين يفطرون فى رمضان) ، وكالذى يعتبر الآن حجة الفلسفة الوجودية فى مصر ، ويقول فى رسالة له صدرت فى القاهرة عام ١٩٥٣ : (إما أن تقول : بالأخلاق فتفقد ذاتك . وإما أن يقول : باللاأخلاق فتخاطر بوجودك . إننا معاشر الوجوديين لانريد أن ننساق وراء أحلام البراءة والبكارة والطهارة)

هذا هو خطر الوجودية الذى وصفته جريدة الجمهورية بأنه أصبح حرفة لبعض أساتذة الجامعات ، وقد خرج هؤلاء الأساتذة على معانى الأستاذية الجامعية إلى أفعال الدعاة والمبشرين ، فكل شاب تغويه هذه الفئة من الأساتذة وتغرر به وتدفعه فى طريق الانحلال هو خسارة محققة لمصر .

إن صاحب الخطوة الثانية يعمى عن رؤية هذا الخطر على مصر لأن هواه يصرفه عن اعتبار أن الخطوة الثانية يجب أن تتجه نحو تطهير الجامعة من هذا التيار العدوانى للقانون والأخلاق والواجب والطهارة والبراءة وحماية الجامعيين من هذا الوباء الجارف الذى يدعو إلى الإثم ويهدد مستقبل مصر وكيانها ، فرأيناه يسكت عن ذلك ، لأنه كان من شهود زرعه وغرسه ويرفع عقيدته منادياً بالقضاء على ما يختلف به فى مفاهيم تعليمه عن مناهج من يسميهم الناس فى مدارسهم. وليس بين مناهج الأزهر والمناهج الأخرى فرق إلا بتعليم القرآن وتفسيره والحديث ومصطلحه والسيرة النبوية والفقه الإسلامى ، فالقرآن وهذه العلوم المفسرة له والمستظلة بهدايته هى الخطر كل الخطر على مصر ويجب أن تكون الخطوة الثانية متجهة نحو تحطيمها وإبادتها بتوحيد التعليم فى طور الصبا والشباب .

وكتب الأستاذ محمد محمد أبو شهبة فى مجلة الأزهر يقول :

(أيريد أن نتخلى عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الموحى إليه بهما من ربهما ونشتغل بفلسفة اليونان وسقطاتهم وثقافة الفرنسيين الذين يحبهم ويحبونه حتى تنفى عن أنفسنا أننا محافظون ، أم تريد أن تقطع صلتنا بالسلف الصالح من هذه الأمة الإسلامية وما خلفوا لنا من كنوز وذخائر وتصل حبالنا بأبناء السين والتايمز حتى يرضى عنا ويضعنا فى قائمة المجددين ، ألا فليعلم الدكتور ومن على شاكلته أنه لن يكون شىء من ذلك ، ودون ما يريد خرط القتاد وصعود السماء : « . . **فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ** » .

(٣)

وعندما صدر قانون تطوير الأزهر قال طه حسين : إن إنشاء كليات الطب والهندسة والمعاملات هو اتجاه سليم أدى إلى تطور التعليم الأزهرى إلى أسوأ وليس إلى أحسن . وقال فى الرد عليه أحد الباحثين : إن الدكتور

طه يعلم قطعاً أن بعثات التبشير قد نجحت فى أنحاء كثيرة فى آسيا وإفريقيا بسبب ثقافة المبشرين ، فالمبشر لم يعد لاهوتياً فقط بمعنى أنه لم يعد رجلا متفرغاً لشئون الدين وحدها وإنما إلى جانب درايته الدينية ، فهو متخصص فى الطب أو الهندسة أو الزراعة .

ويسخر طه حسين من إنشاء كلية البنات الإسلامية ويتصور أن هذا عمل رجعى حيث تقام أسوار شاهقة إلى السماء تحمى الطالبات أو أن هؤلاء الفتيات اللاتى تختلفن إلى الجامعة الجديدة ، يتحجبن ومعنى هذا فى نظره أننا قد تقدمنا إلى الوراء واتبعنا تطوراً خطيراً خضعت له مصر أكثر من نصف قرن ويقول ساخراً : (إنها تريد أن تحمى الفتيات من هذا الوباء الجديد الذى ابتدعته الحضارة الحديثة الذى هو لقاء الفتيات للرجال شباباً وكهولا وشيباً) . نعم إنه الوباء وقد جرت الريح تغير ما تشتهى سفن التغريبيين التى ساقها طه حسين .

* * *

الفصل الثالث

الفرعونية وحضارة البحر المتوسط

دعا الدكتور طه حسين إلى الإقليمية المصرية مع إعلائها الدعوة إلى الفرعونية وإنكار رابطتها العربية والإسلامية ، والادعاء بأن لها رابطة بالغرب ودول البحر المتوسط وأن العقل العربى هو عقل يونانى استمد ثقافته من الفلسفة اليونانية فى القديم وهو عقل غربى فى الحديث استمد ثقافته من أوربا .

وقد كان هدف طه حسين من هذه الدعوى عزل مصر عن العرب والعالم الإسلامى وإدخالها فى الحلف اللاتينى الذى أنشأته إيطاليا وفرنسا وأسبانيا بوصفها دول البحر الأبيض المتوسط وكانت فرنسا هى التى تقود هذه الدعوة — والنظرية تقوم على أساس أن مصر قطعة من أوربا ، كما أعلن ذلك الخديو إسماعيل وأنها جزء من حوض البحر المتوسط .

يقول طه حسين فى كتاب مستقبل الثقافة : (إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشيء فإنما يتأثر بالبحر الأبيض المتوسط ، وإن تبادل المنافع على أخلاقها فإنما بتبادلها مع شعوب البحر المتوسط ، فإذا لم يكن بد من أن نلتمس أسرة للعقل المصرى نقره فيها فهى أسرة الشعوب التى عاشت حول بحر الروم . وإن كلمة إسماعيل لم تكن فناً من فنون التمدح أو لوناً من ألوان المفاخرة وإنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا فى كل ما يتصل بالحياة الثقافية العقلية) .

وهذه دعوى عريضة باطلة ، وقد ووجه طه حسين بعشرات الردود التى تكسف شمسه وتزيف رأيه ولكنه كان يمضى فى هذا الطريق على نحو من الصلف والكبرياء الكاذب الذى لا يبلغه .

ولقد أخطأ خطأ بالغاً حين كتب فى جريدة كوكب الشرق عام ١٩٣٣ هذه العبارة : وإن المصريين قد خضعوا لضروب من البغى وألوان من

العدوان جاءتهم من الفرس واليونان وجاءهم من العرب والترك والفرنسيين وجاءتهم الآن من الإنجليز ، وهم قد صبروا لهذا كله وانتصروا على هذا كله فردوا من ردوا من المعتدين وأفنوا فى أنفسهم من أفنوا من هؤلاء المعتدين .

يقول الأستاذ أكرم زعيتر : إن ورود كلمة العرب فى عداد الذين بغوا على المصريين أثارت نقمة البلاد العربية ولا سيما بلاد الشام من الدكتور طه ومع أن كباراً من كتاب مصر بادروا إلى الرد عليه ، فإن فقد كان لها تأثيرها فى دمشق وقد لمست هذا بنفسى حيث كنت أزورها لمهمة فقد عقد شباب متحمسون لعروبتهم اجتماعات وأصدروا بيانات ساخطة على الدكتور طه ثم أقبل بعضهم فى موكب على ساحة الشهداء يحملون بعض كتب طه حسين حيث أحرقوها ودعوا إلى مقاطعة مؤلفاته .

وانهالت الردود على طه حسين أهمها ما كتبه أعلام خمسة :

عبد الرحمن عزام ، محمد على علوية ، أحمد حسن الزيات ، عبد القادر حمزة ، على الجندى (العربى — إبريل عام ١٩٨٠) .

كان هدف طه حسين ودعاة التغريب صهر مصر فى بوتقة الحضارة الغربية تحت أسماء كثيرة ومحاولات ماكرة فى مقدمتها تلك الدعوى العريضة بأن مصر غربية العقل والثقافة ولم يترك الدكتور طه فرصة تمر دون أن يدعو إلى مصر الفرعونية وإلى كراهية مصر للعرب والعروبة ، بل لقد أعلنت مجلة المكشوف المارونية عن كتاب لم يصدر للدكتور طه حسين هو :

(مستقبل حضارة حوض البحر المتوسط فى الشرق والغرب) .

وهو كتاب لم يصدر حتى الآن ، فقد كان طه حسين من دعاة هذا الحلف اللاتيني الذى عقدته دول الغرب بعد الحرب الكبرى الأولى لاحتواء الإسلام ومحاصرته وإشاعة التبشير الغربى والتغريب والشعوبية فى مؤامرة ضخمة ، والعمل عن طريق الغزو الثقافى على تغريب المسلمين فى أقطار مصر والمغرب والشام فى وقت كانت فرنسا لا تزال تدعى فى تبجح شديد بأن الجزائر هى فرنسا الجنوبية .

وكعادة طه حسين فى اندفاعه وحمقه فقد أعلن تصريحات خطيرة تحدى

بها مشاعر العرب والمسلمين عن ما أسماه الفرعونية المصرية وعن ما أسماه الاستعمار العربى وهو يصل فى الغلو إلى حد أن يقول : إن الفرعونية متأصلة فى نفوس المصريين وستبقى كذلك ، بل يجب أن تبقى وتقوى والمصرى فرعونى قبل أن يكون عربياً ولا يطلب من مصر أن تتخلى عن فرعونيتها وإلا كان معنى ذلك : اهدمى يا مصر أبا الهول والأهرام وانسى نفسك واتبعينا ، ولا تطلبوا من مصر أكثر مما تستطيع أن تعطى ، مصر لن تدخل فى وحدة عربية سواء كانت العاصمة القاهرة أم دمشق أم بغداد وأؤكد قول أحد الطلبة القائل : (**لو وقف الدين الإسلامى حاجزاً بيننا وبين فرعونيتنا لنبذناه**) . . إن المصرى مصرى قبل كل شيء فهو لم يتنازل عن مصريته مهما تقلبت الظروف) .

(مجلة المكشوف البيروتية عام ١٩٣٨)

وفى تصريح آخر عام ١٩٣٩ قال : (مصر لن تدخل فى وحدة عربية ولا اتحاد عربى سواء أكانت مساوية فيه للأمم الأخرى أم مسيطرة عليها) .

أما بالنسبة لتصفية العرب فى صفوف المستعمرين فقد كانت تلك مبالغة شديدة الخطأ فليس ارتباط مصر بالإسلام والعرب كان احتلالا شبيهاً باحتلال الروم والفرس والإنجليز ، أما الشك فى عروبة مصر والقول : بأن الإسلام دخيل طارئ عليها فذلك قول يبلغ مبلغ الحقد والإعنات وقد رد عليه كثيرون نختار منهم هذين النموذجين :

قال الأستاذ لطفى جمعة : ليس للدكتور طه مكانة ممتازة فى السياسة العالمية العربية أو الشرقية اللهم إلا فيما يتعلق بتمجيد فرنسا وتعظيمها والتمكين لها ولثقافتها فى بلاد الشرق مراعاة لجميلها معه وهو يذكر الآثار المصرية والأمجاد الفرعونية ويريد أن ينتزع منها مثلا أعلى ، ولكننا لم نر العراقيين يذكرون آثار بابل وآشور ولا السوريين يذكرون آثار كنعان وبعلبك ، ولا اليمانيين يتحدثون عن قصر غمدان وأعمال سيف بن ذى يزن لاعتبارهم أن الحضارة العربية (الإسلامية) قد جبت هذه الأشياء وتركتها أثراً بعد عين فكيف يترنم الدكتور بمثل أعلى من الحجارة .

ويقول الدكتور محمد غلاب : (عندما رأى الدكتور طه أن فكرة القومية العربية تزدهر كتب مقالا فى جريدة كوكب الشرق طعن فيه على

العرب ورماهم بالظلم والاستبداد فى حكمهم وأدرجهم فى سلك واحد مع الرومان الذين دمروا البلاد من أقصاها إلى أقصاها وهووا بالحياة العلمية والأدبية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية إلى أعمق دركات الحضيض . فخالف الدكتور بذلك المقال حكم التاريخ وعدا على الحقائق الواقعة وأنكر جميل العرب الذين أغاثوا أرض الكنانة من ذئاب الرومان الذين يتلاشى الدكتور طه تحت أقدامهم ، كما يتلاشى تحت أقدام اليونان إلى حد أن زعم أن فى عروقه دماً يونانياً . والدكتور طه لا يسترشد فى كتابته إلا بمصلحته الخاصة بين الكاتب النزيه الذى لا يستضىء إلا بالحق بون بعيد ، والذى حدا بالدكتور طه إلى هذا العدوان على التاريخ أمران :

الأول : هو جد للرومان الذين هم ورثة مجد اليونان .

الثانى : هو حقده على دين العرب وهو الإسلام وقد جازى بعض الشعوب العربية هذا الدكتور المبارق على مقاله مجازاة عادلة فى رأيهم بمقاطعة كتبه وإحراقها .

إننا نأخذ على المسلمين أنهم لم يسلكوا هذه الخطة بإزاء كتب الدكتور طه التى حوت من الإلحاد واللاتينية والشك والمروق والإباحية الشىء الكثير فأين كانوا يوم قامت قيامة الشعر الجاهلى .

ومع ذلك فإن الدكتور طه حسين رأى محمود عزمى من بعد يروج لهذه الدعوة سخر منه وقال له : ما هذه الثقافة البيضاء المتوسطة ؟ وقال ولكن عزمى يشذ عن المألوف دون أن يشذ عن هذا الشذوذ فهو يفكر بالفرنسية فإذا كتب فى العربية فهو إنما يترجم إليها ، وقال : إنه فقد طبيعته القديمة فى التفكير والتغيير واستبدل بها هذه الطبيعة الفرنسية الجديدة) .
(حديث الأربعاء ج ٣)

ويكاد هذا القول ينطبق على طه حسين نفسه وقد صدق من قال : (إن كل الذين يتحدثون عن رابطة البحر الأبيض وثقافة البحر الأبيض وحضارة البحر الأبيض من طه حسين فنازلا كانوا يروجون لمشاريع فرنسا التى تعتبر شمال إفريقيا جزءاً لا يتجزأ من سلطانها) .

ولكن طه حسين عندما رأى تيار الوحدة العربية يزداد وتحتضنه القوى

الرسمية سرعان ما غير رأيه فهو يقول : بأن القومية العربية تكونت بظهور الإسلام ، فالمكون الحقيقي للوحدة العربية تجميع أنواعها وفروعها اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ولغوياً هو الرسول عليه الصلاة والسلام وهذه القومية تكونت فى الجزيرة العربية ثم تجاوزتها إلى الأقطار العربية .

ولكن رجال القومية لم يثقوا فيما يقول طه حسين ولم يصدقوه فهم يعرفون أنه لا يقول شيئاً ثابتاً وإنه إنما قال ذلك عندما أحس بأن الحكومات قد أخذت بهذا الأمر ووجد فيه منفذاً لدعوة تغريبية أخرى يستطيع أن ينفذ إليها من خلاله .

ولعله يستطيع أن ينفذ منها إلى القول : بأن مصر هى رأس العرب وفخرهم وبذلك يفسد الدعوة مرة أخرى بهذا الاستعلاء العنصرى الإقليمى ، وآية ذلك أنه حين أعلنت مصر موقفها من العروبة كتب فى ٢ ديسمبر عام ١٩٦١ مغيراً رأيه محاولا الاعتذار عن ماضيه ، فكتب (بين العروبة والفرعونية) من منطلق إفراد مصر بدور خاص والمغالاة فى التعصب لها وترديد المصرية كدور قامت به فى زعامة العرب ، فنعرة المصرية ما زالت عنده فى عصر العروبة كما هى قبلا ، يقول :

مصر لا تستطيع أن تترك علماء الغرب يستكشفون ما كان فى أرضها من الآثار ويستخرجون من هذه الآثار تاريخ الوطن المصرى فى عصوره المختلفة قبل الإسلام دون أن تشارك فى البحث عن هذه الآثار وفى استخراج التاريخ منها ، فهل كان الذين يتهمون المصريين بهذه التهمة السخيفة (تهمة الفرعونية) والإغراق منها والإعراض عن العروبة لا لشىء إلا لأن مصر تجد فى حماية ما يستكشف فى أرضها من الآثار وفى استخراج ما تدل عليه هذه الآثار من فنون المعرفة كأنهم يريدون أن تتعمد مصر الجهل بما فى أرضها من الكنوز وتخفى من علماء الأمم المختلفة بين هذه الكنوز يستكشفونها وينقلونها إلى بلادهم ويستنبطون منها العلم ويدرسونه فى جامعاتهم ومعاهدهم ويملأون بها متاحفهم وتظل هى غافلة لا تسمع ولا ترى جاهلية الناس من حولها ويملأون صدورهم بالعلم وينشرونه من حولهم فى بلادهم وغير بلادهم ، أم هل كانوا يريدون أن تمنع مصر من البحث عن هذه الآثار وتحظر استنباط العلم منها وتفرض على الإنسانية وعلى نفسها الجهل بتاريخ أرضها وبالحضارات

التى قامت منها . ولعل هؤلاء السفهاء كانوا يريدون من مصر أن تدمر كل ما يستكشف فى أرضها من الآثار الفرعونية واليونانية والرومانية لتثبت عروبتها وتثبت حرصها على هذه العروبة ومشاركتها فى إحياء التراث العربى » .
أرأيت الدكتور طه حسين وكيف يذهب إلى التمويه البالغ والمكر الشديد فى هذه الدعوى العريضة الكاذبة الضالة التى حاول أن يبرر بها انتقاله إلى العروبة مرغماً وقد ظل حياته من بعد ينكرها ويجفوها .

ثم ما هى هذه الثقافة والعلوم والكنوز التى أفاد منها العالم من هذه الأصنام التى خرجت من الأرض أو أخرجها هؤلاء التغربيون ليخدعوا هذه الأمة عن الانقطاع الحضارى بين عصر الوثنية وعصر الإسلام .

إن طه حسين يكشف بذلك انغماسه حتى الأذنين فى وثنية عميقة يتنقل بها من اليونان إلى الرومان إلى الفراعنة ، وفى نفس ذلك الحقد المتقد على الإسلام فضلا عن أن هناك فارقاً واسعاً وعميقاً بين دراسة الآثار وبين الدعوة إلى الفرعونية .

وما استطاعت كتابات طه حسين هذه أن تزيح سمومه الفرعونية التى بثها على طول حياته ، تلك التى شكلت مدرسة الأقليمية المصرية البغيضة . وقوامها حسين مؤنس ، وتوفيق الحكيم ، وحسين فوزى ، ولويس عوض ؛ وهم الخلفاء الطبيعيون للثقافة الوثنية التى أنشأها طه حسين وهيكل ، ومحمود عزمى ، وسلامة موسى ، هؤلاء جميعاً كانوا يعتقدون كما يقول الأستاذ عبد الحميد الكاتب بأن انتماء مصر يجب أن يكون انتماء غربياً أوربياً فى التعليم والثقافة فى الحكم والسياسة وفى الاقتصاد وفى الاجتماع وفى التشريع .

قال : كان الدكتور طه حسين يعتقد أن مصر تنتمى تاريخياً وواقعياً إلى الغرب الثقافى ، وكان يدعو إلى تنمية هذا الانتماء وتعميقه إذا ما أردنا تقدماً وصلاحاً ، وفى كتاب حسين مؤنس : مصر ورسالتها : أن تاريخ مصر هو تاريخ البحر المتوسط على وجه التقريب وأن تاريخ مصر متأثر بالبحر الأبيض بصورة دائمة .

وكذلك كان موقف الدكتور طه حسين من الحضارة : فهو يذهب مذهب المغالطة والحقد .

يقول : إن الحضارة الإسلامية لم تبعد الذهنية المصرية عن الذهنية الأوربية من حيث إن العقل الإسلامى كالعقل الأوربى يرد إلى عناصر ثلاثة : حضارة اليونان ، حضارة الرومان ، الدين .

ولولا أن يكون الأمر هكذا لما سلخنا من الأوربيين فى هذا الزمان. ألوان حياتهم المعنوية وما تأثرنا بنظمهم السياسية وما أخذنا بطرائقهم العلمية »

ونحن نقول للدكتور طه حسين : متى تأثرنا وأخذنا من التعليم أو النظم السياسية ، وقد فرض ذلك علينا فرضاً وأزيحت نظمنا ومناهجنا بعنف ، وقد كانت قائمة قبل الاستعمار على أحسن صورة ، إن الدكتور طه حسين يخدعنا خداعاً شديداً حين يصور لنا هذا الاحتواء التغريبى على أنه كان عن رضا منا أو قبول واقتناع نحن وآبائنا وليس أدل على ذلك من أنه فرض على شبابنا فى تعلم اللاتينية واليونانية فرضاً وما كان لهم إلى ذلك حاجة .

إن صلتنا بالعرب ، بالشرق ، بالجزيرة ، بالكعبة لم تكن صلة عارضة ولم تكن صلة مفروضة ولكنها كانت صلة البقاء العطرة بالدعوة الصحيحة إلى الله وقبولها فلم يكن جانبنا دين العرب والإسلام مصالح ولا مسائل مفروضة ولا تعارف عارض ولكنه كان أمراً طبيعياً أصيلا عميقاً لا يمكن أن يوصف بأنه استعمار أو نفوذ أو غير ذلك من الأسماء الباطلة التى يجيد الدكتور طه حسين وتلامذته طرحها وخداع بعض الناس بها ، ومن ذلك الذى يصدق أن الذهنية المصرية بعد الإسلام هى التى كانت من قبل ، أين دعوة التوحيد وعطاء القرآن والسنة والتحول عن الوثنية وعن التعدد . لقد كانت الحضارة الإسلامية ممثلة فى القرآن والسنة دعوة جديدة لها طابعها الخاص وذاتيتها المفردة التى جبّت ما كان قبلها وأوجدت انقطاعاً حضارياً بينها وبين الفاشية من وثنية اليونان والرومان ، ولقد حاول دعاة الفرعونية حين دعوا إليها أن يوجدوا خيطاً واحداً من ثقافة أو عادات أو تراث مكتوب يتعللون بهم فى إذاعة دعوتهم الوثنية الباطلة فما وجدوا .

أما موقف الدكتور طه حسين من الحضارة الغربية ودعوته المسلمين إلى أخذ ما يحمد منها وما يعاب وما يحب وما يكره فتلك دعوة باطلة مضللة

كشفت عن حقده وحمقه وما صدق أحد زعمه ، حين كان يقول :

« إن هذه البلدان القائمة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط والممتدة من العراق إلى سوريا ولبنان إلى فلسطين ومصر ، هذه البلدان لا يختلف فى حضارتها عن حضارة أوربا لأن الحضارتين هما خلاصة أو نتيجة للحضارات القديمة التى انتقلت بطريق اليونان إلى أوربا . فمستقبل الحضارة فى الشرق والغرب ومستقبلها فى أوربا واحد ولا يمكن إلا أن يكون واحداً ، وبعد كيف نستطيع فى الشرق القريب أن تؤلف شعوباً مستقلة ودولا ذات سيادة وتجارى أوربا فى مدنيتها إن لم تأخذ بمبادئ حضارتها المادية » .

وهو فى هذا يغالط فى حقيقتين :

أولا : إنه لا يوجد شيء اسمه الحضارة العالمية ، فحضارة الغرب هى حضارة مستقلة عن الحضارة الإسلامية لاختلاف العقيدة والمنهج .

ثانياً : إنه لا يمكن لأمة ما ولم يحدث فى التاريخ مطلقاً أن أخذت مناهج حضارة أخرى كاملة ، وإنما هو الاقتباس للأصول العامة الصالحة واستبقاء الأصول الأساسية الذاتية لكل أمة وكل حضارة ، ومن هنا فقد كانت دعوة الدكتور طه حسين باطلة وساقطة ، لأنه كان يتحرك ضد مجرى التاريخ وتياره الذى يكشف عن فساد حضارة الغرب وعن فساد تلك الدعوة المتوسطة التى سرعان ما تلاشت وكشفت زيف دعاتها . .

ومن العجب أن الدكتور طه حسين يدافع عن الحضارة الغربية بما لم يدافع به أصحاب الحضارة نفسه عنها ، فهم حين يقولون أنها أصيبت بالتمزق والانحطاط يقول لنا الدكتور طه حسين : من دعا « لا تصدقوا الأوربيين إذا أظهروا الضيق بمادياتهم وثقافاتهم فهم فى ذلك بين ساخط لا يرضى بما وصلت إليه أوربا طامع إلى المثل الأعلى مستزيد من الرقى ورجل قد أخذه السأم فهو لا يرضى عن شيء . ويقول : الخير أيضاً ألا تطمئن إلى ما تقوله بعض الشرقيين ويذكره من أن الثقافة الأوربية والحضارة الأوربية والحياة الأوربية قد فسدت فساداً لا صلاح بعده فهذا كلام مصدره الضعف والعجز . وما زالت فى أوربا قوة خصبة غزيرة تؤهلها للبقاء والبقاء الطويل وتؤهلها للسلطان وللسلطان الواسع » .

هذا كلام له خبئ معناه بث اليأس فى قلوب الوطنيين من المطالبة بحرياتهم فهو يقول لهم إن الأوربيين سيبقون طويلا فى بلاد المسلمين .

وهكذا نجد الدكتور طه حسين رجل يكذب على قومه ويضللهم ويهديهم

إلى طريق مظلم ملىء بالأشواك والرزايا وهو لا يستطيع مهما غير من أسلوبه ومن طرائقه أن يكسب الثقة به أبداً .

والدكتور طه حسين فى جملة ما يقول على اختلاف وتناقض كبير يرى أن هناك عناصر ثلاث يتكون منها الروح المصرى وهى الفرعونية والإسلام والغرب ، وهو من حيث لا يكشف هدفه يدعو إلى التوسع فى الفرعونية والعنصر الغربى . ويود لو أن العنصر الإسلامى تضاءل إلى أقصى حد هو يريد أن يتصل الفن بالفرعونية فنجد منها الوثنية . ويريد أن يتصل الخلق بالحضارة الغربية ، فنجد منها مذهب المنفعة . ويبقى العنصر الإسلامى أشبه بشىء تقليدى فى الدين واللغة ، أما الدين فهو مفهوم لاهوتى وعلاقة بين المرء وربه (وهو بذلك يتنكر تماماً لمفهوم الإسلام الصحيح منهج حياة ونظام مجتمع) واللغة يرى هو أنها ملك للناس يتصرفون فيها كما يشاءون ، فهو يدعوهم إلى تطويرها حتى تنفصل عن لغة القرآن وعن بيانه .

وهذه هى المؤامرة فى صورة مختصرة . إنه يطمع فى أن ننضوى تحت لواء الحضارة الغربية وأن ننصهر فيها لنكون أنداداً للأوربيين ، وأن نفقد كل ما يربطنا بالعرب أو الإسلام لأنه من عناصر الضعف والتخلف .

ولكن دعوة الدكتور طه حسين جاءت فى الوقت الذى علا فيه صوت الدعوة الإسلامية واستحصدت فيه مفاهيم اليقظة الإسلامية الحقيقية فانهزم فى كل معاركه . الإقليمية ، الفرعونية ، العامية ، التوسطية ، بشرية القرآن ، سيطرة الفلسفة المادية تحت اسم العلم ، الخ إلخ .

ولقدظل الدكتورطه حسين يتلقى الضربات عاماً بعدعام ومامن دعوة دعاإليها إلا كشفت الأبحاث الرصينة عن فسادها ومامن معركة دخلها إلا هزم فيها :

(٣)

ولكن أخطر ما دعا إليه الدكتور طه حسين هو إنكار فضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الحديثة . وإذا كان الدكتور طه حسين بعد أن عاد من أوربا هاجم :

١ ــ أساتذته فى الأدب ورماهم بالجهل أمثال المهدى والخضرى .

٢ ــ هاجم الشيخ محمد عبده وقال أنه ليس على طريقته .

٣ ــ هاجم أحمد زكى باشا شيخ العروبة فى دفاعه عن دور الإسلام فى بناء الحضارة المعاصرة .

(٤)

إنكار فضل الإسلام على الحضارة

خطاب من أحمد زكى إلى طه حسين

دهشت حينما رأيتك تقول عنى :

« أحمد زكى هو الذى أذاع فى الناس منذ سنين فكرة أن العرب سبقوا إلى كل شيء ولا يكاد يوجد بين الشعوب شعب تبعهم الناس » .

هذا كلامك ومعاذ الله يا ولدى ، أن يكون صدر منى هذا القول ، بل هى حماقة بعض كتاب الجرائد الهزليين ، وهى تهدف بما لا نعرف وتختلق القول اختلاقاً لذلك قاتلهم بصمت الاحتقار .

إنك حضرت أكثر دروسى فى الحضارة الإسلامية بالجامعة المصرية ، فهل سمعت منى هذا القول أو ما يدانيه ؛ وها هم تلاميذى الكثيرون الذين كانوا معك بهذا المعهد ، وها هم تلاميذى بالمدرسة الخديوية ، والذين استمعوا إلى محاضراتى الكثيرة فى نادى المدارس العليا بالقاهرة ، فهل سمع أحد منى مثل هذا القول الهراء أو ما يدانيه .

أنا أعلم أنك تعلم أن العلم أمانة وعهدى بك أنك حريص عليها ، فهل من الأمانة أن تنسب لأستاذك مثل هذا القول الهراء وهو حى يرزق .

إن الذى قلته أنا وكررته وأيدته بالوقائع النيابة ودعمته بالنصوص الصحيحة وبالأسانيد التاريخية المعهدة هو :

١ — إن العرب سبقوا الإفرنج إلى اختراع كتابه العميان .

٢ — إن العرب سبقوا الإفرنج إلى التفكير فى حل مسألة الطيران وإلى محاولة ذلك بالفعل وإلى نقله من حيز العلم إلى حيز العمل .

٣ — إن العرب سبقوا الإفرنج إلى التفكير فى كشف أمريكا وأنهم حاولوا الوصول إليها مرتين بالفعل : أولاهما : من لشبونة عاصمة البرتغال ، وثانيهما : من مدينة غانة بالسودان الغربى على ساحل المحيط الأطلنطى .

٤ — إن العرب سبقوا الإفرنج إلى معرفة مرض النوم وأنهم سموه (النوام) وشرحوا أغراضه قبل أن تستفيق أوربا من نومها .

٥ — إن العرب سبقوا الإفرنج إلى اكتشاف منابع النيل ووصفوها لنا وصف شاهد العيان .

٦ – إن العرب سبقوا الإفرنج (فى القاهرة التى نعيش نحن فيها) إلى تخيل أمريكا وافتراض وجودها .

وكان ذلك بطريقة منطقية عقلية ، هى أفضل من التى اتبعها — كريستوف كولمبى (فإنه لم يكتشفها إلا بطريق الصدفة والاتفاق إذ أن نظريته التى شرحها للملكة إيزابلا الكاثوليكية بعد طرد العرب من غرناطة إنما كانت الإمعان فى السير غرباً حتى يصل إلى بلاد الهند فلما وصل إلى أمريكا أسماها بلاد الهند الغربية وكان معه رجل من المسلمين الأندلسيين هو الرياشى وقد وصفها لنا وسماها أيضاً (الهند الغربية) .

هذا هو الذى قلته وقد ارتضاه جهابذة الفرنج وأهل الحصافة من العرب فهل يقدر أحد على إنكاره ؟ أم أن يستنتج منه أنى زرعت فى الناس الفكرة التى تريد أنت أيضاً أن تنسبها لى بغير الحق ، بل مجاراة لأطفال الكتاب الذين لا يؤبه بهم وهم لا يسألون عما يقولون .

كل أمة فى الوجود لها فضل فى الحضارة والعمران فهل يراد بنا أن نسكت عن مفاخر أجدادنا ، ونترك الميدان لغيرنا ، مثل العلامة سيديو الفرنسى الذى أثبت اكتشاف أبو الوفا البوزجانى فيما يتعلق باختلاف القمر ، وأثبت أن العلامة تيخو براهى الدنمراكى إنما نقل أرقامه وحساباته بالنص والحرف ، واعترف علماء الإفرنج لذلك الفلكى الإسلامى بالسبق إلى هذا الاكتشاف البديع ، فضلاعن اكتشافاته الأخرى التى بينهاالعلامةدلامير الفلكى الفرنسى وقل مثله عن جابر بن حيان وعن ابن الهيثم وغيرهم من علماء العرب.

أم تريدون أن نترك لغيرنا إظهار مفاخر أجدادنا .

ثم ماذا أعمل بما أرشدنى إليه بحثى حديثاً وهو أن الكندى الإسلامى قد اكتشف ورصد نجماً من ذوات الأذناب ، هل نترك تحقيق هذه المسألة للإفرنج ونبقى عالة عليهم فى بيان مفاخرنا ؟

أفئذا فتشنا عن آثار أجدادنا واهتدينا إلى الأقل القليل منها أفيكون جزاؤنا مثل تلك التهمة الشنعاء ومن رجل مثلك ؟

الحق أبلج والعلم أمانة وأنت خير من يتولاها وينزل على حكمها .

والدك أحمد زكى

الفصل الرابع

مستقبل الثقافة في مصر

أثار كتاب مستقبل الثقافة فى مصر الذى أصدره الدكتور طه حسين عام ١٩٣٨ ضجة كبرى ومعارك متعددة فقد كان بمثابة المنافستو الاستعمارى الذى يجب أن يطبق على مصر بعد أن انتهت الامتيازات .

فالدكتور طه ينذر فيه المصريين بأنهم التزموا أمام أوربا أن يذهبوا مذهبها فى الحكم وأن يسيروا سيرتها فى الإدارة وأن يسلكوا طريقها فى التشريع ويهددهم بأنهم لا يستطيعون التراجع عن ذلك بعد أن وقعوا معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات ومنها مواد صريحة قاطعة تعرض على المصريين هذه التبعية التى يسميها (السير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع) ، ويقول :

فلو هممنا الآن أن نعود ادراجنا وأن نحيى النظم العتيقة (ويقصد بالنظم العتيقة الشريعة الإسلامية) لما وجدنا إلى ذلك سبيلا ، ولوجدنا أمامنا عقبات لا تجتاز ولا تذلل .

معالم الطريق :

وإذا سألنا عن الطريق الذى يرسمه لنا مستقبل الثقافة لوجدناه واضحاً فى عبارته التى تقول :

(إن سبيل النهضة واضحة بينة مستقيمة ليس فيها عوج ولا التواء وهى أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره ، وما يحمد منها وما يعاب ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع أو مخدوع) .

هذا هو الأسلوب الذى يريد فرضه النفوذ الاستعمارى عن طريق (مانفيستو طه حسين) الذى قدمه أول الأمر إلى كبار المسئولين بعد توقيع المعاهدة بعد عودته من رحلة الصيف إلى فرنسا فى ذلك العام ، والمعروف أنه كان لفرنسا عدد كبير من مدارس الإرساليات فى مصر ، وأنها كانت حريصة على أن تستمر عملية التبشير التى تتم عن طريقها فى حماية النفوذ الإنجليزى الذى وافق على ذلك بعد إلغاء الامتيازات) .

وترجع خطورة الكتاب إلى أن صاحبه كتبه بناء على خطة واضحة فى الغرب وأنه ما لبث أن مكن من المنصب ، فولى منصب المستشار الفنى لوزارة المعارف على أثر ذلك مباشرة ، ثم منصب مدير الثقافة بها ، ثم عميداً لكلية الآداب من قبل ومن بعد ، ثم مديراً لجامعة الإسكندرية ، ثم وزيراً للمعارف على التوالى .

وقد مكنته هذه المناصب من عام ١٩٣٨ إلى ١٩٥٢ من تنفيذ برامجه وإرساء أسس هذه الخطة التى وضعها فى كتابه خلال أربعة عشر عاماً ، وبذلك تركز منهج التغريب فى جميع برامج التعليم فى الثانوى والجامعة على أساس الغزو الثقافى الذى أراد النفوذ الأجنبى به تعويض ما فقده من الأرض بإلغاء الامتيازات الأجنبية وسيطرتها على الإرساليات التعليمية ، فقد انقلبت هذه المناهج من المدارس الأجنبية إلى المدارس المصرية بهدف القضاء على معالم الشخصية الإسلامية فى :

١ ــ أنظمة التعليم فى الأزهر .

٢ ــ اعتبارات مصر الإسلامية .

٣ ــ مقومات الكيان الإسلامى .

٤ ــ أثر الإسلام فى ثقافة مصر وتفكيرها ، فقد وقفت فرنسا ضد توقيع اتفاق مونترو عام ١٩٣٧ لإلغاء الامتيازات ما لم تتأكد من أن خطتها فى التغريب فى مصر ستظل محررة .

وفى هذه اللحظات الحاسمة أهدى طه حسين وشاحاً كبيراً من جامعة ليون التى تعلم فيها وعاد وهو يحمل معه أصول هذا الكتاب ، وبعد أن كانت المعركة تدار عن طريق آراء المستشرقين أمثال : جب وماسينيون والمبشرين وغيرهم أمثال : ولكوكس وزويمر أصبح هناك من الكتاب العرب من يحمل لواء هذه الأفكار ويدعو إليها كمحاولة لتثبيت دعائم التجزئة وخلق ملامح مصطنعة لما يسمى بالفكر المصرى المعاصر المنعزل عن الفكر الإسلامى .

الخطوط الأساسية للكتاب :

أولا : الدعوة إلى حمل مصر على الحضارة الغربية وطبعها بها ، وقطع كل ما يربطها بقديمها وإسلامها .

ثانياً : الدعوة إلى إقامة الوطنية وشئون الحكم على أساس مدنى لا دخل فيه للدين أو بعبارة أصرح : دفع مصر إلى طريق ينتهىْ بها إلى أن تصبح حكومتها لا دينية .

ثالثاً : الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور ودفعها إلى طريق ينتهى باللغة الفصحى التى نزل بها القرآن إلى أن تصبح لغة دينية فحسب كالسريانية والقبطية واللاتينية واليونانية .

القصة الأولى : العقل المصرى عقل غربى :

وتلك أكبر مغالطاته الفاضحة ، حين يريد أن يصور أن العقل المصرى نشأ فى أحضان الشعوب التى عاشت حول بحر الروم ، وأن علاقات مصر بالغرب أوثق من صلاتها بالشرق ، وتصويره للعرب بأنهم غزاة دخلاء لا يطمئن إليهم المصريون فى الوقت الذى يصورهم فيه مطمئنين إلى الفتح اليونانى لا ينكرونه ولا يتمردون عليه ويحاول أن يقول : بأن الإسلام لم يخرج بالمصرى عن مصريته ، وأن مصر كانت دائماً جزءاً من أوربا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف ألوانها وفروعها ، ويحاول القول : بأنه ليس بين المصريين والأوربيين فرق فى الجوهر ولا فى الطبع ولا فى المزاج وأنه لا يخاف على المصريين أن يفنوا فى الأوربيين .

دعوى غريبة :

ويدعو الدكتور طه أن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول ، ويدعو إلى أن تكون الحكومة لا دينية وأن يقام التعليم على أساس مدنى خالص وأن يترك تعليم الدين للأسر ، ويتحدث عن الأزهر فيصوره أثراً من مخلفات العهود المتأخرة المنحطة وجل ما يضايقه فى الأزهر هو فهمه الإسلامى للوطنية . ويريد الدكتور أن يدخل فى أدمغة أبنائه فهم الوطنية فهماً إقليمياً بمعناه الغربى الحديث ، وأن هذه الصورة العلمانية الغربية يجب أن تدخل الأزهر .

وقد ناقش هذه الأفكار كثيرون فى مقدمتهم ساطع الحصرى ، وزكى مبارك ، والشيخ حسن البنا ، ومحمد محمد حسين وكشفوا عن الأخطاء الآتية :

أولا : الفروق فى الطبع والمزاج من الأمور المشاهدة بين جميع الأمم ، حتى بين الأمم الأوربية نفسها ، التى تبدو للعيان وكأنها واحدة بين

الإنجليزى والفرنسى والألمانى والإيطالى ، فهل يعقل مع هذا ألا يختلف طبع المصريين ومزاجهم عن طبع الأوربيين ومزاجهم بوجه من الوجوه ؟ ومن هنا فإن هناك فارقاً واسعاً وعميقاً بين العقلية المصرية والعقلية الأوربية على أساس اختلاف الدين والعقيدة واللغة والأخلاق والعادات والتقاليد .

ثانياً : إنه لا علاقة مطلقاً بين مصر وبين الثقافات والحضارات التى نشأت حول بحر الروم ، فمصر منذ وقت بعيد مرتبطة بالإسلام والعرب وكل قضاياها عربية إسلامية .

ثالثاً : إن تأثير وحدة الدين ووحدة اللغة فى تكوين الدول قائم ، وقد تحققت فى الماضى وفى العصر الحديث قيام الدول على أساس وحدة اللغة ووحدة الدين وليس معنى هذا أنها من خصائص القرون الوسطى ، بل أن وحدة اللغة هى من القوى الفعالة فى تكوين الدول وتوجيه السياسات وكذلك وحدة الدين .

رابعاً : إن الكاتب لم يتلفت إلى أهم الفروق الموجودة بين الشرق والغرب وهى التى نشاهدها من وجهة نظم الأسرة وأوضاع المرأة والأوصاف النفسية — الخلقية والعقلية — التى تتبع تلك النظم والأوضاع .

وقال الدكتور زكى مبارك : قلت : يا دكتور إن عقلية مصر عقلية يونانية وفرحت بأن الإسلام لم يغير تلك العقلية فى حين أن مصر ظلت ثلاثة عشر قرناً وهى مؤمنة بالعقيدة الإسلامية ، والأمة التى تقضى ثلاثة عشر قرناً فى ظل دين واحد لا تستطيع أن تفر من سيطرة ذلك الدين . إن الإسلام رج الشرق رجة أقوى وأعنف من الرجة التى أثارتها الفلسفة اليونانية .

فى الحق أن المصريين فى حياتهم الإسلامية شغلوا أنفسهم بعلوم اليونان ولكنك وقد جلست فى صحن الأزهر كما جلست أنا ، تعرف أن المصريين لم يتذوقوا تلك العلوم والأزهر لا يزال باقياً .

أنت تعرف فيما تعرف أن قضايا الفقه الإسلامى نفسه كان يتغير بالانتقال من أرض إلى أرض . فكان للشافعى مذهب فى مصر ومذهب فى العراق ، ويعنى ذلك أن العقليات تتغير من وقت إلى وقت باختلاف ظروف الزمان وظروف المكان . والموجة الإسلامية التى طغت على مصر فنقلتها من لغة إلى لغة ومن دين إلى دين ، والتى قضت أن تنفرد مصر بحراسة العروبة والإسلام

بعد سقوط بغداد . هذه الموجة الصائبة لا يمكن أن يقال : إنها لم تنقل مصر من العقلية اليونانية إلى العقلية الإسلامية ولكن ما هى تلك العقلية الإسلامية ؟ هى لون آخر غير العقلية اليونانية بلا جدال .

وقال الأستاذ حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين : إن الثقافة الواجبة الرعاية فى كل بلد متحضر هى الثقافة الشعبية العامة والثقافة المدرسية ذات السياسة المحددة والغرض الواضح ، ولذلك يجب إعطاء الثقافة المصرية طابعها الإسلامى المميز لها .

وإن مصر منذ دخولها الإسلام طائعة مختارة ، فقد كسبت مزاجاً خاصاً لا فكاك لها منه ، وقد ظلت مصر مدة أربعة عشر قرناً إسلامية التاريخ والمجتمع والثقافة ، إلى أن جاءت نظم التربية الحديثة فأرادت أن تنزع عنها هذا اللون المميز لتميل بمزاجها إلى الشيوع فى جميع الثقافات الأخرى ، ولما كانت التربية الإسلامية على ضوء المنطق وضوء العلم الحديث تشتمل فى جميع أحكامها ومنابعها الثقافية والاجتماعية على جميع عناصر التربية الكاملة أصبح لزاماً أن تتخذ سياسة جديدة أساسها هذا المزاج الإسلامى ودعامتها هذه الروح الإسلامية .

والمزاج الإسلامى الفريد قابل لكل تطور ، يحتفل بالعلم ويقدسه ، فالصلاة الإسلامية فريضة واجبة وركن من أركان العبادات ، وهى لم تخرج عن النسق الكامل الذى جاء به الإسلام جملة وتفصيلا فى تربية الجسد وتربية العقل وتربية الروح وهذه العناصر الثلاثة فى التربية — هى نفسها — ما يصفه العلماء بأنه التربية الكاملة .

والعقلية الإسلامية ذات طابع إسلامى من حيث المزاج والتصور لا فرق فى ذلك بين المتدينين من المصريين وغير المتدينين منهم . إن مصر بتاريخها الإسلامى الباهر تدحض كل زعم بتأثرها بغير هذه العقلية ولعل تاريخها الحديث ونهضتها الحاضرة بين الأمم التى قامت على دعامة من فكرها الإسلامى وثقافتها الإسلامية خير دليل لمن يريدون الميل بها عن الذى استمدت منه مئات السنين مادة قوتها وتماسكها وإشراقها الخاص بين دول الشرق والغرب .

دعوة تعلم اللغات الأجنبية والآداب الأجنبية :

ويدعو طه حسين إلى أن لا تقتصر الدراسات الأدبية فى مدارسنا على

الأدب العربى . بل يجب أن تدرس الآداب الأجنبية وأنها يجب أن تقدم فى لغتهم الوطنية .

ويقول الدكتور محمد محمد حسين : إن كلام المؤلف يلبس ثوب الوطنية والتعصب للغة القومية ولكن مقصده الحقيقى الذى يتفق مع مذهبه وهو نشر آداب الغرب وثقافته على أوسع نطاق فإن الدول الاستعمارية فى سبيل نشر ثقافتها تترجم وتؤلف باللغة العربية) .

وفى جملة الرد على شبهات مستقبل الثقافة نقول :

أما الدعوة إلى إخضاع اللغة العربية لسنة التطور فإنه يهدف إلى إيجاد مسافات واسعة بين بيان القرآن الكريم وبيان اللغة العربية مما يؤدى بعد أجيال إلى أن ينفصل القرآن عن الثقافة العامة ، ويقرأ بواسطة قاموس وتلك هى المؤامرة الخادعة التى يحتضنها دعاة الأسلوب العصرى فى الكتابة وفى مقدمتهم طه حسين .

كذلك فإن الدكتور طه كان يدعو فى هذا الوقت الباكر إلى العلمانية وإلى القضاء على الشريعة الإسلامية بالقانون الوضعى وإلى القضاء على الوحدة الإسلامية بالدعوة إلى الإقليمية والقومية الغربية .

أما تقبل الحضارة الغربية خيرها وشرها ، وحلوها ومرها فإن ذلك يعنى أن ينصهر المسلمون فى الحضارة المعاصرة وبذلك يفقدون الذاتية الخاصة بهم ويصبحون شيئاً لا طابع له ، وبذلك يفقدون رسالتهم ومسئولياتهم وأمانتهم فى حمل رسالة الإسلام وإقامة المجتمع الإسلامى وتبليغ الإسلام للعالمين .

أما دعواه بأن العقل المصرى هو عقل يونانى فإنها من مكر المستشرقين الذين يريدون أن يقولوا : بأن المسلمين أخذوا منطق أرسطو فى النهضة الأولى ، ومن هنا فلا مانع أن يأخذ المسلمون المعاصرون منطق الغرب الحديث ، علمانيته وإباحيته وماديته .

والحقيقة أن المسلمين لم يقبلوا الفلسفة اليونانية عندما ترجمت ، ورفضوها تماماً وزيفوها ووقفوا لها بالمرصاد جيلا بعد جيل ، حتى جاء الإمام الغزالى فكشف زيفها ثم كانت طعنة ابن تيمية لها فى كتابه عن الرد على منطق أرسطو ، وكانت مواقف الشافعى وابن حنبل كلها مواقف معروفة تؤكد رفض المسلمين للفلسفة اليونانية وكشف زيفها .

وتلك أكذوبة كبيرة من الاستشراق فى دعواه العريضة ، بأن المسلمين قبلوا منطق أرسطو ، أو أن المعتزلة كانوا تلاميذ اليونان ، أو ما كان من زيف الفكر الباطنى ، الذى قدمه دعاة الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، أمثال الحلاج فإن ذلك فكر مرفوض حاول طه حسين وأستاذه ماسنيون دعوة إحيائه بإعادة طبع رسائل إخوان الصفا أو إحياء كتبهم .

ونحن الآن نقف على نفس الثغرة التى وقف عليها هؤلاء الأبرار ، وقد أعلنت حركة اليقظة الإسلامية رفضها للتبعية للفكر الغربى بشقيه وزيفت مناهجه وكشفت عن سمومه وأخطائه وعن تفرد المنهج الإسلامى بالتوحيد الخالص .

وقد كشفت الأبحاث زيف دعاوى طه حسين ، الذى كان عميلا للتبشير ومدافعاً عن تبعية مصر للغرب ، فى التشريع والحكم ، بالإشارة إلى بند من معاهدة مونترو .

ولقد تحطم هذا الاتجاه كله وطه حسين حى وعاد طه حسين من جديد فى سنواته الأخيرة يحاول أن يتلاءم مع حركة اليقظة ولكن هيهات :

١ ــ الامتيازات معاملة خاصة كان الأجانب (الأوربيون) ومن فى حكمهم يلقونها من الحكومة أثناء الاحتلال . فلما أمضيت المعاهدة التى تنص على الاستقلال ألغيت الامتيازات ظاهر الأمر ولكن بقيت بصورة أو أخرى فى ظل حكومات العهد الملكى خاصة وأن المعاهدة نظمت قواعد وجود جند الاحتلال فى مناطق معينة من أرض مصر يومئذ .

٢ ــ لم يمض طويل زمن على هذه الدعوة الإقليمية حتى قام الاتحاد الأوربى ــ رغم اختلاف الأرومات واللغات ــ وقطع أشواطاً طويلة وأدرك الدكتور قبل وفاته بعض ذلك .

* * *

الفصل الخامس

التـــراث ورسائل إخـــوان الصفـــا

كان أكبر أهداف طه حسين تزييف التراث وكان موقفه من التراث الإسلامى واضحاً :

أولا : موقف الاستهانة والامتهان له بإطلاق اسم القديم عليه والدعوة إلى فصله عن الفكر الإسلامى حتى يمكن ضربه على أنه أدب .

ثانياً : محاولة إعادة كتابته بمفهوم التفسير المادى للتاريخ ومنهج الجبرية التاريخية وإزالة طابع الإيمان والبطولة والتضحية الواضح فى تضاعيفه وتحليله تحليلا مادياً بحيث يجعل اندفاعه الإسلام إلى التوسع والفتح إنما كانت فى سبيل المطامع المادية وهو نفس مفهوم المستشرقين .

ثالثاً : عدم التفرقة بين الوحى المنزل (القرآن) والحديث النبوى (السنة) ومختلف أنواع التراث الأخرى من منطلق فهمه المادى الاستشراقى ببشرية القرآن وأنه من كلام محمد صلى الله عليه وسلم .

رابعاً : تركيزه على القول : بأنه لم يجد فى الأدب العربى القديم ما يستحق أن يبعث ويبشر إلا أخبار المجونيين الذين ابتلى بهم الأدب العربى ويعنى بهم أبانواس ووالبة والخليع ومن إليهم . وقد عرض تلك الأخبار الآجنة والأشعار الماجنة فى ثوب البحث العلمى باسم التجديد ، كأنما التجديد فى الأدب شعار تحارب الفضيلة من ورائه ووسيلة للدخول إلى النفوس بما لم يكن لولا تلك الوسيلة تداخل عليها .

ولقد أخطأ طه حسين خطأ بيناً فى وصف التراث الإسلامى بكلمة (القديم) تحقيراً له وامتهاناً ودعوة إلى نبذه ، ثم أخطأ مرة أخرى فى إعادة كتابة بعض صفحات من التاريخ الإسلامى بمفهوم مضلل .

خامساً : إحياء التراث الزائف الذى صنعته الشعوبية والباطنية ، فقد حرص على إعادة إحياء بعض الكتب القديمة واعتبرها مراجع لدراسة المجتمع الإسلامى ، وقد ركز على كتاب (الأغانى) تركيزاً شديداً مع أن هذا

الكتاب بإجماع المؤرخين لايصلح للغرض الذى قصد إليه لأنه إنما ألف للتسلية واللهو . ولكتابة فصول عن أهل الأغانى وهم شطيرة قليلة من المجتمع لا تمثله ولا تؤثر فيه تأثيراً صحيحاً ، وإنما كانت القوة الحقيقية المؤثرة فى المجتمع الإسلامى فى هذه الفترة هى طائفة العلماء والفقهاء بينما كانت طائفة الشعراء الماجنين وأهل الأغانى منبوذة ولا يعتد بها .

سادساً : قصد إلى إحياء بعض الكتب القديمة ذات الأثر الخطير فى طرح مفاهيم الباطنية والمجوسية وغيرهم من الفرق الضالة وذلك باهتمامه بكتاب (رسائل إخوان الصفا) .

(٢)

إن مراجعة الأعمال التى تصدى طه حسين لإحيائها من التراث تكشف هويته وغايته ، فهو يطمع فى إحياء كتب المعتزلة والفلاسفة والباطنية والتصوف الفلسفى ، وهو تيار بدأه المستشرقون وسار فيه أستاذه ماسنيون الذى أحيا الفكر الباطنى للحلاج ، وهو يتحدث عن التقصير فى إحياء التراث ليمهد لما سماه الكشف الخطير على طريقته فى المبالغة ، حيث يقول : (إنه استكشف كتاباً عظيم الخطر فى تاريخ الفلسفة الإسلامية هو كتاب (المغنى) للقاضى عبد الجبار وهو كتاب يصور مذاهب المعتزلة فى علم الكلام ، تعرض فيه هذه المذاهب عرضاً مفصلا وتناقش مناقشة مفصلة أيضاً) . إذن فهذا هو المهم ، المهم نشر كتاب فى فكر المعتزلة يضلل الناس عن مفهومهم فى التوحيد الخالص ويردهم مرة أخرى إلى الشبهات التى أثيرت منذ عشرة قرون ثم قضى عليها الغيورون من رجال التوحيد شأنه فى هذا شأن دعوته إلى طبع رسائل إخوان الصفا وشعر أبى نواس .

وهكذا تجده فى المجمع اللغوى ولجنة الثقافة بالجامعة العربية يهدف إلى نشر مثل هذه الكتب ويسميها (الخطيرة القيمة) وهو فى لجنة الثقافة يهتم بكتاب (أنساب الأشراف) للبلاذرى وهو كتاب مضطرب طبعه اليهود فى إسرائيل لأنه يبرئ عبد الله بن سبأ ، ولكن الدكتور طه لا يكشف وجهته فيجعله بين مجموعة الكتب الأخرى .

وكذلك كان عمله فى طبع كتاب (البرهان) فى وجه البيان لأبى الحسن إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، فقد طبع جزءاً منه قدر ثلثه

باسم (نقد النثر) حرره وأخرجه مع عبد الحميد العبادى منسوباً إلى أبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى المتوفى عام ٣٣٧ هـ . وقد تبين أنه ليس كتاب قدامة وليس نقد النثر ولكنه كتاب البرهان فى وجوه البيان وعند المقابلة بينه وبين كتاب (نقد النثر) وجدا متفقان فى القدر المطبوع وتزيد المخطوطة مقدار ثلث الكتاب . كشف ذلك أحد الباحثين فى مجلة الرسالة عام ١٩٤٨ ص ١٢٥٧ .

وإذا أردنا أن نعرف لماذا أولى الدكتور طه اهتمامه لهذا الكتاب لوجدنا أن قدامة هو تلميذ اليونان ونشر كتابه من شأنه أن يقدم للقراء صورة ما يريد طه حسين أن يبلغه من كذب وبهتان من أن اليونان كان لهم أثرهم فى البيان العربى .

(٣)

كتاب رسائل إخوان الصفا

وقد كشف كثير من الباحثين أخطاء طه حسين فى رسائل إخوان الصفا . فقد ألف الأستاذ محمود الملاح رسالة خاصة تحت عنوان (حقيقة إخوان الصفا) ولخص أخطاء طه حسين منها الأستاذ عبد الآمر غلوش فى عدة قضايا على النحو التالى :

١ – القضية الأولى :

قال طه حسين عن إخوان الصفا : إنهم مفكرون مستقلون يحاولون أن يصبغوا ما انتهى إليه المسلمون من آثار الأمم بصبغة إسلامية وكان من زعمائهم جماعة كالفارابى وابن سينا .

وقد أجاب الأستاذ الملاح عن ذلك الافتراء بقوله : إن هذه النحلة الهدامة تحاول صبغ الملة الإسلامية صبغة الأساليب الوثنية المتضمنة للشرك والعبودية والرجوع بالمسلمين إلى الوراء بعد أن ذاقوا نعمة التوحيد الحر الخالص .

٢ – القضية الثانية :

قال طه حسين : إن رسائل إخوان الصفا أشبه شىء بدائرة معارف فلسفية جمعت كل ما لم يكن بد من تحصيله للرجل المثقف فى هذا العصر ، هذه الرسائل ليست إلا مدخلا إلى رسالة جامعة هى خلاصة العلم وغاية

الغايات ، هل يبعد أن يكون رجل كالغزالى قد تأثر إلى حد قريب أو بعيد بفلسفة هذه الجماعة ولا سيما حينما نلاحظ أنه نشأ فيلسوفاً وانتهى صوفياً ؟

ويقول الأستاذ الملاح : إن هذا الوصف صحيح لو خلا الموصوف مما أفسده الواصف باتخاذه وسيلة رخيصة إلى خدمة جهة مادية مزيفة فيكون ضررها أكثر من نفعها . كما وأن الدكتور لم يقرأ الكتاب (الرسالة الجامعة) بالشروط التى ذكرها (وهى العناية والتحقيق والتمحيص) ، بل قرأها قراءة عابرة وترك الجذوع والجذور وترك القارئ واقفاً على أصابع قدميه حائراً .

أما الإمام أبو حامد الغزالى فقد كان معروفاً بمحاربة الباطنية فيبعد أن يتأثر بفلسفة الجماعة المذكورة ، نعم يجوز أن يكون تأثر بفلسفتهم الظاهرية العامة التى كانت مشاعاً بين الفلاسفة أو كانت نقطة التقاء مشتركة وهناك فرق بين الفلسفة الظاهرية العامة وبين الفلسفة الباطنية الخاصة المستترة بالفلسفة الظاهرية العامة .

ويلاحظ أن الدكتور طه حسين قد اغتر بالآفاق ولم يتوغل إلى الانفاق : تلك الانفاق الحلزونية وعدم توغله فيها سبب له صدور حكمه على الرسائل : حكماً سطحياً ، وسرعان ما استأنف الدكتور البصير هذا الحكم بنفسه عن نفسه فنقضه بسهولة حيث قال : (إن هذه الرسائل لم يقصد بها الفلسفة من حيث هى ولا العلم من حيث هو وإنما أريد بها تكوين ثقافة معينة لنحو من السياسة معين ففيها من التأويل والدوران وفيها من الحيل والخيال ما يحسن الالتفات إليه والاحتياط منه .

إن الحكم الأخير الذى أصدره الدكتور لا يحتاج إلى تمييز ، ولكن هل كان حكماً مقترناً بالجزم أم كان على سبيل الاحتياط والتحفظ ؟ لنقف قليلا عند أقوال الدكتور طه وإطنابه وتهربه حيث يرى أن هذه الرسائل كنز لم يقدر ثمنها إلا بعد معرفتها .

ولم يعلم صاحب المعانى البصير أنه كنز مملوء بالأفاعى والعقارب ، وإن قيمة الرسائل ، بخسة ، وهى بخسة الغاية والهدف ، ولذلك تبين أن الدكتور طه كان متموجاً فى مقدمته وبحثه ، ومع تطاول الأعناق المخدوعة إلى أحكامه الحاسمة فى ميادين النثر والنظم وهو ممن يحسن ضبط (الفذالك) وصقلها فهو صيقل لا فيصل .

ويتصل بهذا موقف طه حسين من إحياء كتب الأدب العربى وتنقيتها من العبارات الجارحة والعبارات المكشوفة وذلك حتى لا تجرح حياء الشباب والفتيات ، ولكن طه حسين يعارض هذه الوجهة معارضة شديدة ، فكيف يمكن تنقية هذه الكتب وهو يقصد قصداً إلى تقديم شعر الإباحة والغلمة واستخراجه من بطون الكتب وترجمة القصص الداعر الفرنسى . إن هذا العمل يتعارض مع هدفه وغايته ومدرسته الإباحية وبذلك كان موقفه خطيراً من الشيخ محمد الخضرى حين نقح كتاب (الأغانى) .

يقول الأستاذ الخضرى : أما ما نقصته منه فلم يعد إحدى اثنتين :

إما فحش صد عن الأغانى وجوه كثير من أهل الأدب فكانوا يشكون ذلك منه من أكثر كتب الأدب العربى وإنى معهم فى ذلك وكثيراً ما رأيت ابن هشام راوى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ابن إسحاق إذا روى شعراً يقول :

تركنا هنا بيتاً أو بيتين أو أكثر أقذع فيها

فليس الامتعاض فى الفحش والإقذاع مقصوراً على أهل جيلنا ، بل كان لنا فيه سلف صالح نريد أن نستن بسنتهم .

وإما اشعار قلت فيها : لا تفيد أدباً ولا ترقى فكراً .

أنا رجل خبرت الناس وعرفت ما يفيد وما لا يفيد فاستضأت بهذه الخبرة فى حذف ما حذفت .

ولكن الدكتور طه الذى هو حارس لكل الإباحيات التى فى الكتب القديمة والكاشف عنها والمجدد لها والمجرى لها على ألسنة تلاميذه فى كلية الآداب وقراءه فى السياسة يغضب لذلك أشد الغضب . إن من الطغيان على أبى الفرج أن يحذف فى كتابه شيئاً وضعه هو فى كتابه . وإن من الطغيان على قراء الأغانى أن تحرمهم شيئاً من الأغانى كان من حقهم أن يقرءوه .

نعم إن طه حسين اعتمد كتاب (الأغانى) مرجعاً لطلبته لاستخراج صورة رديئة منه يدعون أنها صورة المجتمع الإسلامى ،فكيف يفسد عليه الشيخ الخضرى هذه الغاية وهى إحدى الغايات الأساسية فى خطة التغريب الموكل بها ؟

* * *

الفصل السادس

الطعــن فى الحكومــة الإسلاميــة

إن كل المقدمات تؤكد مفهوم طه حسين للدين بأنه [ظاهرة اجتماعية] وأنه خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها ، وأن الدين لا يستطيع أن يتقدم بالأدلة القاطعة على وجود الإله وهو أساس التدين . ولا ريب أن هذه النفس التى حاولت أن تصور القرآن بأنه كتاب بشرى وتسخر من الرسول صلى الله عليه وسلم بترديد القول : بأنه لابد أن يكون صفوة قريش

وما إلى ذلك من إشارات على مدى طويل فى كتاباته ، وكان أشد من ذلك خطراً قوله : بأن الإسلام لم يغير حياة العرب وأنه بقى على هامش حياة المسلمين ، وأنه لم يستطع أن يفرض حياة المسلمين بين أصحاب الحضارات المختلفة ، ومن ذلك قوله أن الإسلام أراد أن يطمس كل ما تقدم وأن يمحو كل أثر للأديان السابقة وقوله أن عقلية مصر عقلية يونانية وأن الإسلام لم يعد تلك العقلية ، وقوله إن وحدة الدين ووحدة اللغة لا يصلحان أساساً للوحدة السياسية

وأنه ظل طوال حياته يذم القديم بسخرية ويشكك فيه ، وما القديم فى نظره إلا الدين ، وقد أقام مفاهيم على التهكم والاستهزاء لكل جاد ، والشك والظن لكل صحيح ، أما قوله وقت الشدة أنه يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله فإن مفهومها يظل ناقصاً ، ولا يكفى لإثبات رجوعه عما قاله وتعليمه منافياً للإسلام ، فإن أهل الكتاب يؤمنون بالله وملائكته ورسله إجمالا وهو لم يأخذ طعنه فى القرآن إلا منهم وإنما كان يجب أن يقر بأنه يؤمن بأن القرآن كلام الله تعالى المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين وأن كل منه حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وإن كل ما قاله منافياً أو معارضاً لذلك فهو خطأ وينزع عنه .

فإذا مضينا نستعرض رأى الدكتور طه حسين فى الشريعة الإسلامية وجدناه هو رأى متعصبى المستشرقين أمثال جولد زيهر ، وشاخت وغيرهم فهو يقول : ولكنا لا نشك فى أن الفقه الإسلامى قد تأثر بالفقه الرومانى قليلا أو كثيراً سواء علم بذلك الفقهاء أم لم يعلموا ، ذلك لأن البلاد الإسلامية قد خضعت لحكم الرومان وقوانينهم دهراً . ولأن هذه القوانين قد درست درساً

مزدهراً فى الشام والجزيرة ومصر ، فيجب أن يترك حكم الرومان وقوانينهم ودرس هذه القوانين آثاراً قوية فى حياة الشعوب التى خضعت لها وأن يتكون من هذه الآثار والحياة الاجتماعية لهذه الشعوب ، والعرب لم يهدموا كل شيء وإنما صبغوا أكثر الأشياء التى وجدوها بالصبغة الإسلامية فليس غريباً بل ليس من شك فى أن كثيراً من أحكام الفقه الرومانى ، وقد اصطبغت بالصبغة الإسلامية دون أن يشعر بذلك الفقهاء » .

وهذا الكلام فيه مغالطة واضحة ، وفيه رغبة فى تنقيص عظمة الفقه الإسلامى والنكير عليه وهو من تعتميات الدكتور طه حسين التى يسوقها بغير دليل ، وهى من النظريات الاستشراقية المطروحة والتى ثبت فسادها ودحضها كثير من أعلام الإسلام ، فإذا ذهبت نحو رأيه فى أن الإسلام دين الدولة وأن الإسلام هو منهج حياة ونظام مجتمع وجدنا جنوحاً واعراضاً . فطه حسين إذا كان مسلماً فهو مسلم بمفهوم اللاهوتيين الذين يرون الدين علاقة بين الله والإنسان ، على نحو مفهوم المسيحية ، وإذا كان مؤمناً فهو مؤمن بمفهوم التراتيل وموسيقى الكنائس ، وهو يرى أن نص الدستور المصرى على أن الإسلام دين الدولة هو مصدر فرقة بين المسلمين ، ولا يرى فى الإسلام إلا إقامة الصلوات وصيام رمضان وأداء الحج ، فسواء فى ذلك أنص الدستور أم لم ينص على أن الإسلام دين الدولة (على حد تعبيره فى مجلة الحديث الحلبية) شباط سنة ١٩٢٧) . وهو يرى (أن هذا النص لا يزيد عن تقرير الواقع من أن ملك مصر يجب أن يكون مسلماً وأن شعائر الإسلام يجب أن تقام فلا تغلق المساجد ولا يعطل الحج ولا ينقطع إطلاق المدافع فى رمضان ولا يلغى الحفل بالمحمل ، ولا بالمولد النبوى) أرأيت إلى هذه السخرية البالغة التى تحاول أن يقصر بها الإسلام على هذه المظاهر .

وهو يرى أن فى الدين من التسامح ما اضطرت معه حكومة مصر التى تتعامل مع المصارف وتنظم الربا وتبيح ألواناً من المعصية ، ويود طه حسين أن يجعل من النص فى الدستور بكفالة حرية الرأى أن يتيح للناس أن يلحدوا « وهو يركز كثيراً على هذه النقطة لأنه يريد أن يحمى دعوته إلى الإلحاد

والإباحة من أن يناله الاتهام ويسخر من أن الإسلام يعنى أن يكون دين الدولة وأن تكون الدولة « إسلامية بالمعنى القديم حقاً » .

ويحاول أن ينفى أن هذا النص يكلف الدولة بأن تضرب على أيدى الملحدين لأنها إن فعلت ذلك فإنها تمحو حرية الرأى محواً .

ثم يذهب إلى القول بأن رجال الدين فى مصر كرجال الدين فى أوربا وأن من الضرورى اتخاذ أسلوب الغرب الذى اتخذه مع المسلمين ومع الإسلام» أى أن يكون العلماء أشبه بالقساوسة لا دخل لهم فى الحياة المدنية ، وأن لا يكون للإسلام رأى فى التشريع أو الاقتصاد أو الاجتماع أو السياسة ، وعلى هذه المعانى المتراكمة يكون موقف الدكتور طه حسين من الحكومة الإسلامية حين أراد هدمها بكتابه (الفتنة الكبرى) فهو يحاول أن يقرر فى هذا الكتاب فساد الخطة الداعية إلى الحكم بكتاب الله التى كانت قد نمت واستحصدت فى هذه الفترة من الحياة الاجتماعية المصرية .

يحاول أن يقرر فى كتاب (الفتنة الكبرى) :

أولا : أن الخلافة الإسلامية كما فهمها أبو بكر وعمر إنما كانت تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ، ولكنها لم تنته إلى غايتها ولم يكن من الممكن أن تنتهى إلى غايتها لأنها أجريت فى غير العصر الذى كان يمكن أن تجرى فيه ، سبق بها هذا العصر سبقاً عظيما » ا . هـ .

إذن فالخلافة الإسلامية (**تجربة توشك أن تكون مغامرة**) والصحابة مغامرون أمثال هتلر وموسلينى ، فأبو بكر وعمر من جملة هؤلاء المغامرين .

أما أن وحى السماء قد رسم الطريق لأبى بكر وعمر فنفى عن حكمهما صفة التجربة وأن الرسول قد رباهما وأعدهما فى مدرسته فأبعد عنهما سمة المغامرة ، فذلك ما لم يفقهه الدكتور طه حسين .

ثانياً : يناقش الدكتور طه حسين طبيعة الحكومة الإسلامية على ضوء التقسيمات الحديثة فينفى عنها صفة الديمقراطية ، ويبقى عنها صفة النظام الفردى العادل ويقارن بينها وبين حكومة قناصل الرومان . .

ويشكك فى قدرة هذا النظام على البقاء ويتساءل هل تتغير إذا تعثرت الظروف التى أحاطت بنشأته ثم بتطوره .

ثالثاً : يدعى أن المجتمع الإسلامى كان ينقصه النظام المكتوب الذى يبين الحدود والحقوق والواجبات ، ويرمى من هذا إلى القول بأن القرآن ناقص فهو لم يعرض لسياسة الحكم وكذلك السنة ويحاول أن يتهم الإمام على بأنه حين قال عند مبايعته بالخلافة (اجتهد فى رأى ما استطعت) أن ذلك مصدره نقص فى القرآن وغياب عن السنة وحاشا لله أن يذهب على إلى ما ذهب إليه الدكتور طه حسين فى تفسيره ، فالقرآن عنده حقيقة كاملة لم يغادر صغيرة ولا كبيرة فى شئون الحياة .

ورأيه فيما أسماه افتقاد النظام المكتوب أو الدستور فى الحكومة الإسلامية قريب مما قاله على عبد الرازق فى كتاب (الإسلام وأصول الحكم) .

رابعاً : يوهن من عزائم المسلمين الساعية إلى إعادة الخلافة وينبههم إلى أن المسلمين الأوائل تنكبوا عن طريقها منذ أمد بعيد واتبعوا طريق الملك الذى يحل مشكلات الدنيا بالدنيا ، فالخلافة تحتاج إلى أولى عزم من الناس وأين أولو العزم الآن وكأن لسان حاله يخاطب مسلمى عصره ويقول لهم : عليكم أيها المسلمون أن تدعوا التفكير فى الخلافة وأن تطلبوا السعى إليها وأن ترضوا بحكم الديمقراطية ، هذه هى النتيجة التى يصل إليها فى ختام الجزء الأول من (الفتنة الكبرى) .

هذه النصوص الثلاثة (عن غازى التوبة : الفكر الإسلامى المعاصر)

ويظهر عداء الدكتور طه حسين واضحاً للحكومة الإسلامية ولتشريع الإسلام فى قوله :

« لقد اعتزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها فى الحكم ونسير سيرتها فى الإدارة ونسلك طريقها فى التشريع ، التزمنا هذا كله أمام أوربا ، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين فى الحكم والإدارة والتشريع فلو هممنا الآن أن نعود أدراجنا وأن نحى النظم العتيقة لما وجدنا إلى ذلك سبيلا » .

هذا الكلام معناه العداء والتهديد الخطير الذى يريد أن يلزمنا به الدكتور

طه حسين أن نظل فى هذه التبعية العمياء لمنهج أعلن أصحابه فساده وعفى عليه الزمن .

(٢)

ويلخص (الأستاذ محمد النايف) موقف الدكتور طه حسين من الحكومة الإسلامية فيما يلى :

أولا : تشبيه نظام الحكم الإسلامى بالنصرانية التى تعرف الحكم كدين فيزعم أن هناك شبهاً بين نظام الحكم الإسلامى بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ونظام الحكم الرومانى أيام الجمهورية .

الهدف أن يقول إن النظام الإسلامى لم يكن نظاماً سماوياً وإنما كان نظاماً إنسانياً تأثر بالدين ، ومن ذلك قوله :

إن الخلافة الراشدة كانت تجربة بشرية وليست تطبيقاً للإسلام وأن السبئية (حزب عبد الله بن سبأ) كانت أسطورة .

وإن أصحاب رسول الله اقتتلوا على الدنيا فنافسوها وتقاتلوا عليها ، ويعتقد الدكتور طه حسين أن نظام الخلافة قد أخفق وتجربة الحكم الإسلامى انتهت بالفشل .

يقول : (الفتنة الكبرى ١٥٥/ ٢) .

ليس من شك أن علياً قد أخفق فى بسط خلافته على أقطار الأرض الإسلامية ثم هو لم يخفق وحده وإنما أخفق مع نظام الخلافة كله وظهر أن الدولة الجديدة التى كان يرجى أن تكون نموذجاً للون جديد من ألوان الحكم والسياسة والنظام لم تستطع آخر الأمر إلا أن تسلك طريق الدول من قبلها ، فيقوم الحكم فيها على مثل ما كان يقوم عليه من قبل من الأثرة والاستعلاء ونظام الطبقات الذى تستذل فيه الكثرة الضخمة ، لا من شعب واحد بل من شعوب كثيرة ، لقلة قليلة من الناس) أى ظلم أن يقول الدكتور طه حسين إن نظام الخلافة كله أخفق ، فما أخفقت الخلافة ، وما كان لها أن تخفق ، وقد استمرت طيلة عهد بنى أمية (حماة الإسلام وقادة الفتح) وعهد بنى العباس ولم يزعزعها غزو التتار ، ولا كيد الباطنية والحروب الصليبية ، وبقيت مصدر عزة للمسلمين وقوتهم ، أكثر من ثلاثة عشر قرناً

حتى الحرب العالمية الأولى حين تآمر عليها يهود الدونمة والغرب ونصارى العرب والملاحدة من أبناء المسلمين ، وفى غيبة الخلافة عاد الصليبيون إلى ديارنا فاتحين ومستعمرين واغتصب اليهود فلسطين ، والخلافة اليوم مطلب إسلامى ينشده المسلمون فى مختلف بقاع الأرض وهى آتية إن شاء الله ويومئذ يفرح المؤمنون .

ثانياً : يرى طه حسين أن نجاح الحكم الإسلامى فى عهد أبى بكر وعمر تجربة جريئة يوشك أن تكون مغامرة ، ولو حكم عمر مكان عثمان لتعرض لمثل ما تعرض له عثمان .

يقول فى كتاب (الفتنة الكبرى) :

(لقد كانت الخلافة الإسلامية تجربة جريئة توشك أن تكون مغامرة ولكنها لم تنته إلى غايتها ولم يكن من الممكن أن تنتهى إلى غايتها لأنها أجريت فى غير العصر الذى كان يمكن أن تجرى فيه سبق بها هذا العصر) .

وهو يرد العدل والحرية والمساواة فى عهدى أبى بكر وعمر إليهما ، ولم يكن فى نظره آتياً من الإسلام نفسه بل من مواهب وشخصية الرجلين ، ويرى أن جهود الشيخين فى تحقيق العدل كانت محدودة .

(راجع دراسات محمد النايف عن السيرة — مجلة المجتمع)

* * *

خاتمة البحث
قضيتان باطلتان : الأثر اليونانى والجبرية الإجتماعية

أغرم الدكتور طه حسين بقضيتين كبيرتين باطلتين :

القضية الأولى :

القضية الأولى : أن العقل العربى القديم تكون بأثر الفلسفات اليونانية ، ومن أجل ذلك فإن العقل العربى الحديث يجب أن يتكون بأثر الفلسفات الغربية وقد ادعى فى هذا الأمر دعاوى كثيرة باطلة :

الأول : أن العقل العربى الإسلامى إنما أثمر وأنتج حين اتصل بالعقل اليونانى بل امتزج به .

الثانى : أن المسلمين كونوا عقلهم من عنصرين أحدهما التراث القديم والآخر ما أخذوه عن غيرهم من الأمم .

الثالث : دعواه بأن العقل الإنسانى عقل واحد وأن العقل العربى جزء منه .

لم يكن طه حسين مبالغاً فى دعوى من دعاواه ، كمبالغته فى دعوى الأثر المترتب على اتصال الفكر الإسلامى بالفكر اليونانى بعد عصر الترجمة ذلك أن الفكر الإسلامى كان قد تكون واكتمل ونضج فى جميع مناحيه من لغة وفقه وعقيدة وأخلاق بنتيجة ذلك الفيض القوى الذى ألقاه إليه القرآن الكريم والسنة النبوية والتى لم تظفر أمة من الأمم بمثلها فى القديم والحديث ولم تكن أى أمة فى هذا العصر من يونان أو هنود أو فرس تملك مثقال ذرة منه ، هذا العطاء الربانى الكبير الذى جاء به القرآن والسنة ، والذى صنع الفكر الإسلامى الذى كان قد اكتمل قبل أن يختار النبى صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى ، نجد هذا الجزء على الحق يدعى دعواه تلك العريضة الباطلة حين يقول : إن الفكر الإسلامى ما نما ولم يصبح قادراً على العطاء إلا بعد اتصاله بالفكر الوافد ، ذلك أن هناك حقيقتين لا لبس فيهما :

الأولى : أن الفكر الإسلامى والعقل الإسلامى قد تشكل قبل عصر الترجمة

أما الحقيقة الأخرى : فإن الفكر الإسلامى لم يستقبل هذا الفكر الوثنى المترجم إلا بحذر شديد ولم يأخذ منه إلا فى مجال العلوم السائدة حين راجعها

وصحح منها الكثير ونقل البشرية نقلتها الكبرى حين أنشأ الإسلام المنهج التجريبي ، ولم تكن تعرفه اليونان من قبل .

أما بالنسبة للفلسفات فقد وقف منها موقفاً حذراً وردها جميعاً وكشف عن اختلاف منهج اليونان عن منهج الإسلام فى مفهوم المجتمع والدولة والحرية والتعامل بين الناس ، فقد كان هناك خلاف عميق بين مذهب العبودية اليونانى الرومانى وبين مذهب المساواة الذى قدمه الإسلام ، إذن فأين هذا العطاء وأين هذا التعليل الذى يدعيه الدكتور طه حسين حين يصر فى افتراء وكذب وضلال على أن العقل الإسلامى لم يشكل إلا بعد اتصاله بالعقل اليونانى بل إن هناك من الآثار المكتوبة فعلا ما يثبت رفض المسلمين لمنهج اليونان الفلسفى والكشف عن تعارضه مع منهج الإسلام وخاصة وهناك ذلك الفارق العميق ، فارق المادية والإباحية والوثنية الواضح فى كتابات أرسطو وأفلاطون وغيرهم وهو ما يرفضه الإسلام ويعارضه .

ولكن الدكتور طه حسين يدعو هذه الدعوة بمكر شديد ليحاول القول : بضرورة متابعة المسلمين فى العصر الحديث للفكر الغربى الذى هو وليد فكر اليونان الذى تابعوه فى الماضى .

والقضية على هذا النحو منقوضة تماماً ، وهو بناء باطل على باطل فما كان المسلمون قد قبلوا الفكر اليونانى حين ترجم إليهم ولكنهم رفضوه وما قبلوه من معطيات العلوم فقد أصلحوه وكشفوا أخطاءه قبل أن يقبلوه .

أما الفلسفات وهى عند اليونان علم الأصنام فقد رفضوها كلية ووقف الأئمة : ابن حنبل والشافعى وابن تيمية والغزالى فى مواجهتها فى كتابات صريحة واضحة ، بل إن الإمام ابن تيمية كتب كتابه منطق القرآن فى الرد على منطق أرسطو .

كذلك فقد رفض علماء المسلمين مفاهيم أرسطو وأفلاطون فى العبودية وإقرارها على الطبقات العاملة وإقرار الرق واعتباره حجر الزاوية فى بناء الحضارة اليونانية ثم الرومانية بعد .

ولذلك فإن دعوى طه حسين بأن ما أخذه المسلمون من غيرهم من الأمم هو أحد عنصرين من عناصر عقلهم الذى كونوه حتى القرن الرابع من الهجرة زيف ودجل .

أما إشارته إلى القرآن والسنة بأنهما التراث القديم فهو تعبير مضلل فإن

البشرية ما كانت تملك قبل الإسلام هذا التراث الكريم ، أما إذا كان يريد أن يصوره على أنه تراث اليهودية والمسيحية والوثنية على حد تعبيره فى مواضع أخرى فهو ادعاء باطل .

كذلك فهو ليس محقاً فى الدعوى بأن العقل العربى فى تعبيره أو أن الفكر الإسلامى فى تعبيرنا هو جزء من الفكر الإنسانى بمعنى أنه مختلط به ، فنحن نعرف أنه قبل نزول الإسلام كان الفكر الإنسانى قد أصبح فكراً بشرياً بمعنى الكلمة ، وأن معطيات الأديان السماوية قد حرفت واضطربت ودخلتها شكوك وإضافات كثيرة حرفتها عن أصلها الربانى ، ومن هنا فإن القرآن حين نزل والسنة حين جاءت والفكر الإسلامى حين تكون ، فقد كان ذلك فكراً متميزاً قائماً على التوحيد الخالص وأنه ظل منذ ذلك الوقت إلى اليوم له ذاتيته الخاصة التى تفصله عن الفكر البشرى وأنه على هذا النحو قد أعطى البشرية مفاهيم جديدة فى الحرية والعدل والرحمة والإخاء الإنسانى لم تكن تعرفها حضارات اليونان والرومان والفرس والفراعنة من قبل وإنه كسر قيد الوثنية وعبادة الأصنام وكسر قيد العبودية البشرية .

ولذلك فإن طه حسين يخطىء كل الخطأ حين يتصور أن العقل العربى هو جزء من الفكر البشرى القائم على أساس الوثنية والمادية والإباحية مما عرفه اليونان والرومان والفرس والفراعنة .

لقد نشأ الفكر الإسلامى نشأة مستقلة منفصلة قائمة على القرآن الكريم نفسه وأنه لم يتصل بالفكر البشرى أو بالأديان السابقة إلا بعد أن أتم الله تبارك وتعالى له النعمة : «**اليوم أكملت لكم دينكم**» وهو بعد ذلك لم يزد شيئاً مما عرف من الثقافات أو الفلسفات ، بل لقد كان المسلمون غاية فى اليقظة والحرص على تحريره من التبعية وعلى كشف فساد الفكر البشرى السابق للإسلام ، والحيطة والتحرر من احتوائهم لمفهومهم الناصع الأصيل .

القضية الثانية : وهى نظرية أن الأدب والآراء على اختلافها ظواهر اجتماعية أكثر منها ظواهر فردية ، أى أنها أثر من آثار الجماعة والبيئة وأكبر من أن تكون أثراً من آثار الفرد التى أنشأها ، فالجماعة هى المؤثر الأول فى ظهور الآداب والآراء مختلفة ، ومن هنا فإنه يرى أن الفرد ظاهرة اجتماعية ، هذا هو المنهج الاجتماعى الغربى الذى دعا إليه اليهودى دوركايم والذى عرفت به المدرسة الاجتماعية الفرنسية والذى تتلمذ منه على ماركس ، والذى حاول

طه حسين أن يطبقه ليس فى مجال الأدب فحسب ، بل فى مجال التاريخ والاجتماع ، وأخذ به فى كتاب الفتنة الكبرى .

لقد جاءت هذه النظرية الاجتماعية فى الغرب مواجهة للنظرية الفردية واستمدت مفهومهما من الداروينية والمفاهيم التى تصور الإنسان بأنه حيوان خاضع لشهوتى الطعام والجنس على النحو الذى قالت به الماركسية فى الأول والفردية فى الأخير .

ولقد كان ذلك ترديداً للصراع الذى دار فى الغرب عن هل الإنسان أثر من آثار البيئة (أى إخضاع الفرد لآثار بيئته) أم إن الإنسان هو المؤثر فى المجتمع (أى الاعتداد بالفرد المتفوق الممتاز) ؟

ولقد كان موقف الإسلام واضحاً من كلا النظريتين ، فالإسلام لا يقر خضوع الفرد للبيئة ولا خضوع البيئة للفرد ، وإنما يرى أن بينهما تكاملا وأن ذاتية الإنسان لا يمكن أن تمتهن ، كما أن الإنسان قادر على الخروج من الذاتية الأنانية إلى الغيرية الجماعية ، فالإسلام لا يقر الجبرية ولكنه يرى أن الإنسان يمتلك إرادة حرة هى موضع المسئولية وهو يوجهه فيها إلى العمل الصالح ويقرر الالتزام الأخلاقى لهذه الإرادة الحرة .

إن هدف طه حسين هو إلغاء المسئولية الفردية وإثارة مشاعر الناس للاندفاع وراء الشهوات والموبقات بأن هذه مسئولية المجتمع وأن الفرد خاضع ذليل وتابع لا رأى له ، وهى وجهة الصهيونية العالمية التى أذاعها فرويد وسارتر من أجل تدمير الأجيال وهدم معنويات الأمم . أما نحن فى الإسلام فلا نقر هذه الوجهة أبداً ونرى المسئولية هى مسئولية الفرد على عمله ، وأنه قادر أن يغير إلى الأحسن ، وقادر على أن يتحامى فى أخطاء المجتمع وفساده ، وأنه مسئول عن عمله مسئولية كلية : « **وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً** » .

ماذا تعطى هذه الدراسة ؟

إنها يمكن أن تعطى مجموعة من الحقائق الهامة :

أولا : إن طه حسين لم يتوقف يوماً واحداً عن هدفه وغايته منذ أن عاد من أوربا عام ١٩١٩ إلى أن توفى عام ١٩٧٢ وكانت القوى التى صنعته توالى دفعه إلى شتى الميادين . وقد أشارت السيدة سوزان إلى ذلك حين قالت : إن (ماسينون) كبير المستشرقين الفرنسيين كان لا يمر بالقاهرة مشرقاً أو مغرباً إلا وينزل لديهم ليتابع العمل الموكول إلى هذا الرجل ، سواء أكان فى الجامعة ، أم فى الوزارة ، أم فى اللجنة الثقافية بالجامعة العربية ، أم فى المجمع اللغوى ، وأن المستشرق جب كان يقول أن طه حسين يعرف كيف ينفذ ما يرمى إليه .

وإن طه حسين كان خلال ذلك لا يكف عن الدعوة إلى أشياء متعددة : هدم الأزهر ، الترجمة لكل سموم الغرب ، الفكر اليونانى ، إحياء التراث الباطنى والشعوبى العربى ، الغمر للإسلام كنظام حكم ، السخرية بالصحابة واتهامهم بأنهم مجموعة من السياسيين المحترفين ، وأنه كان أشبه بالفأر الخبيث الخائف ، يبرز رأسه فإذا وجد الجو خالياً اندفع ، وإذا وجد الرقابة قائمة عاد فاختفى حتى تهدأ الأمور فيعاود نفث سمومه .

وعندما رأى أنه لا يخطو بالقوة اللازمة انضم إلى حزب الأغلبية ليكون أكثر قدرة على العمل ، ولما وصل إلى الوزارة حقق جميع أهدافه ، ولما جاءت حركة الجيش اتصل بها ونافقها ، وقال لهم عن الانقلاب : إنه ثورة حتى يفسحون له فى الحديث عما يطمع وقد بلغ فى ذلك الغاية فيما يطمع ، وقد بلغ إلى تلك الغاية إذ جعلوه رئيساً لتحرير الجمهورية ، فضرب ضربته الكبرى التى أسماها الخطوة الثانية وهى العبارة الظاهرة لكلمة إلغاء الأزهر وحقق لسادته وأوليائه فى هذه المرحلة الكثير .

وقد ظلت تلك الإيماءات بين طه حسين وتلاميذه وقتاً طويلا فالعلم بمعنى الفلسفة المادية عهد بينهم ، والقرآن أدب ينقد وهو عمل بشرى ، الدين لا يستطيع أن يثبت وجود الله .

ثانياً : إن طه حسين وجد صلابة وقوة وثباتاً فى مواجهة سمومه وشبهاته ليس من مؤسسة الأزهر وحدها ، بل ومن حركة اليقظة الإسلامية أيضاً

التى كانت قد نمت وازدهرت ، ولقد انتاشته أقلام المؤمنين بالإسلام ، والغيورين على دعوة الله من كل مكان بقوة ، فكشفت زيفه وما خزى عندما كشفت له الحقائق التى ربما كان يعرفها أو غافلا عنها ولكنه كان يسعده أن يجلد على هذا النحو الذى رآه القارئ فى هذه المحاكمات ، وكان يستحب تلك الصرخات العالية توجه نحوه فلقد كان يستفيد من ذلك عند أصحابه الذين كلفوه ، ولعله كان يحصل من ذلك على أجر ، ولعله كان يكشف لهم مدى قدرة الجبهة الإسلامية على مواجهة سمومه ، ولكنه كان يخرج من المعركة مجلوداً وقد تركت السياط فى حسمه قروحاً داميه ، ولكنه كان يصمت إزاء ذلك صمتاً طويلا .

ولم يغفل عنه المثقفون المسلمون يوماً وما كانت الجماهير تثق بشىء مما يقول ، بل كان مرفوضاً كرفض سلامة موسى وعلى عبد الرازق ، وتوفيق الحكيم ، وساطع الحصرى ، وحسين فوزى ، ولويس عوض وهو شيخهم جميعاً . ولقد كانت هزيمة طه حسين والكشف عن سمومه هى أخطر طعنة وجهت لهذا التيار .

ثالثاً : إن تاريخ مصر الفكرى والسياسى وتاريخ الدعوة الإسلامية فى هذه الفترة منذ سقوط الخلافة حتى سقوط القدس بكل تياراتها وآثارها وأخطارها لا يمكن فهمها إلا بدراسة طه حسين ، فهو عمود التغريب الأساسى فى مصر والبلاد العربية وهو المحرك الحقيقى لكل التيارات الشعوبية والماركسية فى هذه الفترة .

رابعاً : قام مذهب طه حسين على عدة عوامل أساسية :

١ ــ المذهب مستعار . ٢ ــ التناقض مستمر . ٣ ــ الهوى أساس البحث .
٤ ــ الشك والتشكيك فى كل شىء . ٥ ــ المبالغة . ٦ ــ التمويه .

ومع العجب أن رجع كل كتاب التغريب عن آرائهم ما عدا طه حسين الذى ظل مندفعاً ، فقد فتح الطريق أمام التفسير المادى للتاريخ الاقليمية ، الفرعونية ، وأمام الشيوعية ؛ ومع الأسف أن كل النظريات التى حمل لواءها سقطت قبل مماته .

هذا وبالله التوفيق .

غرة محرم سنة ١٤٠٤ هـ .

أنور الجندى

فهرس الكتاب

الموضـــوع | الصفحة

البـاب الأول

البـاب الثانى

الموضـــوع | الصفحة

الباب الثالث

* * *